

روائع الأدب العربي

الكلمة في بورنوا

تأليف: ماشادو د'أسييس



ترجمة: د. سائمي الذمروبي
مراجعة: د. جميل صليبا

2-1

۱۰۹۲۰۰۰



کتابخانه بزرگ

حقوق الطبع محفوظة
لدار دمشق
م ٢٠٠٣

الناشر: دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - شارع بور سعيد - هاتف: ٢٢١١٠٤٨ - ٢٢٤٨٥٩٩

فاكس: ٢٢١١٠٢٢ - ٥٣٧٢

E-mail: dardimashq@mail.sy

روائع لهُدُوبِ العَرَبِي

لَوْ كُنَّا كَمَا كُنَّا بُورِيَا

تأليف

مَا شَادُودُ أُوسَيْسَ

ترجمة: د. سَامِي الدَّرَوِي

مراجعة: د. جَمِيل صَلِيحِيَا



مقدمة

بقلم

روجيه باسفيد

ليس في الأدب البرازيلي ، بين الانجاء الباروكي في القرن السابع عشر والانجاء الحديث في القرن العشرين ، فترة كلاسيكية كما في معظم الآداب الأوربية . غير أن هناك كاتباً كلاسيكياً شاءت المعجزة أن يكون واحداً لا ثاني له . لاشك في ان هذا الكاتب امتلاً بمنظر مدينة (ريو دو جانيرو) التي لم يخرج منها يوماً ، وهو منظر منسوج كله من ضروب الاحتكاك وأنواع العنف ، يصارع فيه البحر الجبل ، وتحتاج فيه الغابة المنازل ، كما ذاق جميع السموم ، الرومانسية ، وعرف شهوانية الليالي الاستوائية ، وشهد انحلال الأسرة الأبوية التقليدية ، التي أصبحت عاجزة عن الصمود لآثار تحول البلاد الى مدن ، شهد قرد الطفل أو المرأة على السلطة المطلقة التي يمارسها رب الأسرة ، وارتقاء حامل البكالوبيا والحلاسي في مسرح الحياة ، وقيام طبقة بورجوازية . تلك مشاهد متناقضة في مجتمع غير متجانس ، تضاف الى مشاهد متناقضة في طبيعة مؤثرة ولكنه أخرج من هذه المتناقضات انجماً . فإذا صدق ماذهب اليه (آندره جيد) من أن الكلاسيكية إنما تعرف بتغليب القاعدة ، والاقتصاد في الوسائل ، والحشمة ، فما من كاتب يمكن أن يعد كلاسيكياً أكثر من (ماشادو - دو أسيس) . ان فنه كله رفاقة ونعومة ، وإن أسلوبه كله ألوان هادئة لطيفة . لقد فطر السموم التي كانت تأكل أحشائه ونفسه ، فأخرج منها أكاسير ، غير أن تقاء الأكاسير أو صفاءها الرائع لا ينهي احتراق الجوف .

ولد ماشادو دو أسيس في اليوم الواحد والعشرين من شهر حزيران عام ١٨٣٩ في بيت من بيوت العمال بمدينة ريو دو جانيرو (مورد دو ليفراماتو) ، لأسرة فقيرة ملونة . كان أبوه دهاناً ، وكانت أمه خادماً . وقد ماتت أمه وهو جده صغيراً ، وماتت أخته الوحيدة . فتزوج أبوه زوجاً آخر من امرأة خلاسية ، هي (هي ماريا إنيس) ، فكانت للصبى أمماً ثانية ، رغم أنه هجرها بعد ذلك فيما يبدو . واضطر الصبي النحيل العليل الذي كان يحس اذ ذاك بلا ريب بأول أعراض الصرع الى أن يعمل أجيراً في مطبعة ليساعد أسرته . ولكنه كان قد أوتي مع ذلك ظمناً شديداً الى المعرفة ، وإرادة قوية ، فكان يعمل آتاء الليل ، فيقرأ روايات مستعارة ، ويتعلم الفرنسية من غسال صحنون ولد بفرنسا ، ويتبهاً بذلك لحبانه الأدبية المقبلة . لقد كان الأدب ، دوماً ، سبيل الخلاسي الى الصعود في البرازيل ، لكن بعضهم لم يروا فيه إلا وسيلة لدخول الصالونات أو لدخول حلقات (البوهيمية) الفنية على الأقل . أما (ماشادو دو أسيس) فقد اتحد بالأدب اتحاداً كاملاً ، فكان يعمل في الأدب عمل صانع يتعلم مهنة ، يدرس كبار الكتاب ويقرأ آثارهم والقلم في يده ، ويتقصى أسرار «البيان الجميل» ، حتى لقد ظل حياته كلها يصقل ملكته ويجوّد فنه ، فكانت آثاره مثلاً للصبر الطويل والارتقاء الدائم .

وحين عرض أشعاره الاولى وجد حماة وأصدقاء : (كباولا بريتو) الذي كانت مكتبته ملتقى كتاب العصر ؛ والكتاب الروائي (مانويل أنطونيو دي ألميدا) ، مدير المطبعة الوطنية التي كان (ماشادو) يعمل فيها أجيراً ؛ مترنماً على فن الطباعة ؛ و (كونتينو بوكابوفا) الذي ألحقه صحفياً بجريدة «ديارو دو ريو دي جانيرو» التي نشر فيها مقالات جميلة عذبة . وكانت الرومانسية هي المدرسة الأدبية الراجحة في ذلك الوقت ، فكان (ماشادو دو أسيس) رومانسياً أول الأمر ، فنظم في الغزل ، وكان غزله خيالياً بعض الشيء ، وكتب عدداً من الآثار على الطريقة الراجحة التي كانت تتحدث عن المنود ، فنشر «كروزيداس» عام ١٨٦٤ ، و«بياليناس» عام ١٨٧٠ ، و«أمريكاس» عام ١٨٧٥ . غير أنه وهو ابن تلك البلاد التي تكلف الافاضة في الكلام ، ووليد ذلك العصر الذي كثيراً

ما اختلطت فيه الغنائية بالفصاحة ، ظلّ محافظاً في قصائده على اعتدال اللمحة ،
فما هو بشاعر الصيحات الملتهبة ولا الصور العاصفة ! ثم أنه ألف في الوقت
نفسه مسرحيات ، كتب بعضها بالفرنسية ، وهي مسرحيات يحتل فيها تحليل
العواطف مكاناً أرحب من المكان الذي تحتله الأحداث ، لا بل هي مسرحيات
تكشف عن ميل (ماشادو) الشاب الى الحوار . وإذا كان كثير من كتاب
الرواية في إيماننا هذه يكشفون ، متأخرين ، أن لهم رسالة مسرحية فلا شك
أن المسرح هو الذي كشف لماشادو عن ميله الروائي .

وعين في عام ١٨٦٧ مساعد تحرير بجريدة « دياريو أوفيسيال » ، فأصبح
موظفاً ، وظل كذلك الى آخر حياته . ففي سنة ١٧٧٣ ألتحق بإدارة الزراعة
والتجارة العامة ، فتقلب في جميع المناصب الادارية ، حتى ارتقى الى أرفع
المراكز . ولم يشأ يوماً أن يمتزل الوظيفة ، لا عن بخل ، بل لأنه لو فعل
ذلك لشعر من جرائه بنقصان قيمته ، ولكف الناس عن الاعتراف له بأنه
يقدم خدمة « مفيدة » . وكان مثال الموظف الجاد المجتهد المواظب الدقيق في
عمله ، المهذب في معاملة مرؤسيه ورؤسائه على حد سواء .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ تزوج من البرتغالية
متنقة أكبر منه سنّاً بقليل ، هي (كارولينا أوجوستا كسافيه دي نوفائس)
أخت شاعر هجاء معروف ، وذلك بعد أن قاوم إرادة أهلها مصطدماً بالتفرقة
بين الملونين والبيض . وكان من خير الأزواج كما كانت من خير الموظفين .
ورغم أنه أصبح يكسب مالاً كثيراً ، فقد ظل طوال حياته يعيش عيشته
البسيطة المتقشفة ، موزعاً نشاطه بين عمله في الوظيفة وعمله في التأليف الروائي ،
مستظلاً بظل زوجته المعبودة . كان لا يخرج من بيته إلا قليلاً ، فيودع
مدخراته في صندوق التوفير ، ويرعى أزهار حديقته ، ولا يستقبل في بيته
إلا قلة من أصدقاء مصطفين ، فكانت حياته متحدة بعمله الأدبي .

وكان الوقت مع ذلك مضطرباً أشد الاضطراب . كان هنالك اضطراب
أدبي . مثاله إن (سلفيو روميرو) كان ينتقد الاتجاه الرومانسي والاتجاه الهندي ،

ويطالب بأدب « خلامي » أو « هجين » يتفق ووجه البلاد ، ضد أدب Luse محض ، أو هندي محض ، أو أفريقي محض . ودخلت المدرسة الطبيعية أعني مدرسة إميل زولا وإيسا دي كيروز إلى البرازيل . واحتدمت المعركة بين « المدارس » . فظل (ماشادو دو أسيس) بعيداً عن المعركة . لم يهجر الرومانسية ، ليجاري تطور الأفكار ، بل لان مزاجه كان يوجب ذلك ، فظل غير آخذ بالمدرسة الطبيعية أخذاً كاملاً . وفي السياسة لم يشترك في ضروب الصراع التي قامت بين الأحزاب . ورغم انه كان خلاصياً فإنه لم يسهم في الحملة التي قامت ضد نظام الرق ؛ ولئن احتفل بيوم الغاء العبودية ، فيمكننا أن نتساءل : أترأه اشترك فيه بدافع من نفسه ، أم أنه استسلم لعدوى عامة سرت اليه من الجمهور ؟ ولم يحفل كذلك بظهور الحزب الجمهوري ، ولا بنشوء العقائد السياسية الجديدة التي أدت إلى سقوط الامبراطورية سنة ١٨٨٩ . إنه يحيط نفسه بالظلال والاسرار . إن هذا الكاتب الذي جعل رواياته حواراً مستتراً بينه وبين القاريء ، كان محتجباً في حياة منطفئة هي حياة موظف ، أو في مكتبه قرب صفحة بيضاء ، أو في حديقته إلى جانب زوج يساقها حباً رقيقاً .

وقد أخذ عليه ذلك ، بعنف في كثير من الأحيان . فوصف بأنه أناني ، وقيل عنه إنه منفصل عن المجتمع البرازيلي . ومع ذلك لم يكن أحد أكثر وطنية منه . غير أنه كان يضع الوطنية في الفن . إن هذا الرجل الذي كان بغير إيمان ولا دين ، هذا الرجل الذي رفض معونة الكاهن لحظة وفاته ، قد جعل الأدب رهبانية حقيقية . كان يرى أن خير وسيلة لخدمة بلاده البرازيل هي أن يهب لها آثاراً أدبية جديرة بها . وإذا كان قد هجر الرومانسية ، فمرد ذلك إلى أنه رآها أدب مراقبين لا ثمرة حضارة ناشئة ؛ وإذا كان لم يصف المناظر ، ولم تشتمل آثاره على تصوير الطبيعة الاستوائية ، تصويراً بصرياً على الأقل (ان هذا التصوير موجود في آثاره ، إلا انه داخلي ، تلمسه في روح شخصياته ، وفي الألوان الجسدية لمواطنيها) فمرد ذلك الى انه كان يرى ان الطبيعة حادثة عن

اتفاق الاعراض الجيولوجية ، وانها « هبة من هبات الله » ، لا من خلق البشر .
ان البرازيل الحقيقية هي البرازيل التي تنشأ من الجهد البناء يبذله أبناؤها .
لذلك لم يكن ماشادو يؤمن إلا بالبشر . ومن الخطأ ان يقال انه لم يعمل في
السياسة ، لكن له سياسته « الخاصة » ، هي إنشاء « الأكاديمية البرازيلية للأدب » ،
لم يدفعه الى ذلك حب المجد ولا رغبة الخلامي في أن يساوي البيض أو يفوقهم ،
ولما كان يرى في صراع الأحزاب بذور تفكك قومي كما كان يرى في الأدب
المحلي ، الذي بدأ نتيجة للمدرسة الطبيعية ، خطراً على الوحدة الثقافية للبلاد .
لقد كان يقبل أن تتمتع الولايات المختلفة التي كان لكل منها اقتصاد مختلف ،
باستقلال سياسي واداري ، ولكنه كان يرى أن حركة الابتعاد عن المركز هذه
يجب أن يقابلها مزيد من الاستناد الى ما هو أساس الوحدة البرازيلية ، أعني اللغة ،
فالأكاديمية مؤسسة لها اذن هدف اجتماعي كبير ، فليس الغرض منها اقتسام أمجاد
أو الحصول على خلود باطل ، انما هدفها أخطر من ذلك كثيراً ، وهو أن تخلق
أمام المجالس النيابية ، التي ينقلب فيها التضامن القومي الى فئامات من العقائد المتفرقة
أو المصالح الاقتصادية المتعارضة ، كيئاناً صلباً يستمد فيه ذلك التضامن قوة من
حب اللغة ، رمز الحضارة .

ليس ماشادو دؤ أسيس ضد البرازيل ، بل هو أكثر كتاب البرازيل برازيلية .
فكما تغفو الليالي العطرة ، ليالي الربو ، في الشعر الأسود على رؤوس بطلاته ،
كذلك يعلو زبد أمواج البحر ويهبط في عيون نسائه . انك تجد في رواياته أصدق
تصوير للمجتمع الامبراطوري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مع الصراع
بين الحب والمال ، بين ارسقراطية الأرض والبرجوازية الناشئة ، بين الشارع
والمنزىل ؛ وهو يظهر تمسكه بوطنه في ابتعاده خاصة عن المدارس المستوردة من
أوروبا ، وفي وقف حياته كلها على خلق لغة برازيلية . ولكن التمسك بالوطن
لا يعني الانغلاق أو الانعزال . فهو إذ يكتب روايات نفسية يستطيع أن يكون
برازيلياً الى أبعد حد وأن يفتح للأدب البرازيلي في الوقت نفسه مجالاً عالمياً .
ان أدبه أدب برازيلي لأن أبطاله يعبرون عن جو البرازيل ، ولكنه في الوقت

نفسه أدب عالمي لأن التحليل الذي يتضمنه يقدم لمن ينتمون إلى حضارات أخرى أصالة طيبة المذاق تأتيهم من بلد آخر . إنه يضع أرضه وزمانه في آثاره ولكنه يخرج منها عطراً يصلح لأناس من أرض أخرى وأزمنة أخرى .
ونستطيع أن نميز في الآثار الروائية التي كتبها ماشادو دو أسيس ثلاث مراحل :

فأما المرحلة الأولى فيمكن أن نسميها مرحلة تصفية الرومانسية . وهي تمتد بين حوالي عام ١٨٧٠ وعام ١٨٨٠ ، وتضم مجموعتين من الحكايات هما Contos flumineveses ، و « Historias de Meia Noite » ، وأربع روايات هي : « البعث » ، « اليد والقفاز » ، « هيلينا » ، « يايا جارسيا » . لم يكن في وسع ماشادو دو أسيس أن يبدأ بداية أسوأ من هذه البداية ، فهو في هذه المرحلة يتأثر بأركتاف فوييه ، موضوعاته رومانسية ، كقصة تلك الفتاة التي تبناها رجل آخر غير أبيها الحقيقي ، وآثرت أن تموت على أن تعدّ مغامرة ، أو كذلك الحب المشقي الذي يعانيه بورجي وإستللا في رواية « يايا جارسيا » . إن الشخصيات التي صورها في هذه الكتب لم تكن غنية من الناحية النفسية ، فهي أقرب إلى أن تكون كتلة واحدة ، كما أن أسلوب ماشادو لم يصل بعد فيها إلى ما وصل إليه بعد ذلك من كمال . فعبارته قصيرة بل قصيرة النفس قليلاً ، ومع ذلك ففي أسلوبه شيء من الاسهاب والاطناب ، فألفاظه تتكرر كثيراً ، وموسيقاه مبتذلة . ونستطيع أن نقول إن القصص في هذه المرحلة الأولى يتفوق على الروائي تفوقاً كبيراً . كان ماشادو دو أسيس في هذه المرحلة لا ينطلق انطلاقاً سهلاً إلا في تلك القصص القصيرة ، سواء أكانت قصص سحر أم قصص حب .

ولئن كانت الموضوعات والشخصيات خيالية تنتمي إلى الرومانسية التي كانت ماتزال مسيطرة في البرازيل ، فإن هذه الرومانسية تنقسم مع ذلك من كتاب إلى آخر من خلال السخرية . لقد تأثر ماشادو دو أسيس تأثراً كبيراً بالصحافة . وفي ذلك العصر الذي كانت فيه كتابة أخبار الشارع وألحجة رواج « الأزياء » ، تعود أن يتحاور مع القاريء ، لذلك نراه في رواياته لا يستطيع أن يتمتع عن أن

يفغز قراءه غمزة صغيرة بعينه ، كأنه « يتهزأ » مجرى القصة ، وكأنه يعمد إلى نقد رومانسيته بنفسه . وكثيراً ما أرجعت سخرية هذا الكاتب إلى مركب النقص الذي يشعر به الخلاسي ، وإلى كون الملون يعيش في أطراف الحياة منقسماً على نفسه . ولسنا ننكر تأثير هذا العامل . وتحدث بعضهم كذلك عن تقليده للكاتب الإيرلندي ستون أو الكاتب الفرنسي كسافيه دو ميتر . ولكن المرء لا يقرأ إلا ما يناسب شعوره الخاص . وعندني أنه ليس في آثار ماشادو دو أسيس سخرية بل سخریات ، أو قل إن سخريته قد اتخذت في آثاره المتعاقبة صوراً مختلفة . فهي في هذه الروايات أو الأقاصيص الأولى سلسلة من أخبار الشارع قبل كل شيء ، هي ادخال أساليب صحفية في سياق العقدة نفسها ، أو وضع آلة جهنمية في داخل الرومانسية الرائجة من أجل نفسها .

ومن خلال هذه السخرية تحررت شخصية ماشادو دو أسيس من تأثيرات البيئة الأدبية شيئاً فشيئاً . ونحن نرى في الواقع أن شخصياته تظل دائماً مترددة ، متحيرة ، منطوية على نفسها ، لم تبلغ بعد درجة كبيرة من التعقد . لقد كتب يقول فيما بعد : « إن الفسيفساء ذات اللون الواحد هي في الحياة النفسية أمر نادر جداً » ، واثن لم يصل أبطاله بعد إلى تلك الفسيفساء من العواطف الكثيرة المتداخلة ، لقد كان في بعضها شيء من الانتباه العاطفي . وكان لا بد مع ذلك من أن يطالع المرض على ماشادو مثلما طلع على بروس ، بتهديده الأسود حتى يبلغ كاتبنا ذروته .

إن منظر ريو منظر مقطّع : جبال ناتئة من الأوقيانوس وتمزقات وحشية . غير أن هناك منظرأ آخر يقابل هذا المنظر الخارجي ، هو منظر داخلي لكنه وحشي أيضاً . ولقد سبق أن عبر ماشادو الشاعر عن ذلك ، فقال :

« ومع ذلك ، إذا أغمضت عيني ، وهبطت

« إلى داخل نفسي ، رأيت ، في ضوء شمس

« أخرى ، هوة أخرى . . .

« سرأ يجذب ويتحدى وينام . . . »

إن هذا السر هو نذو الصرع . وكان المرض ما ينفك يتقدم . لقد كتب ماشادو في الطبعة الأولى من كتابه « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ان فرجينيا أصيبت بنوبة صرع ، ثم حذف هذه الكلمة في الطبعة الثانية . ولكن المرء لا يستطيع أن يحذف المرض بسهولة كما يحذف الكلمة . إن ماشادو يحس بالجنون يقترب منه خفية . إن رؤى قائمة تحاصره . وإن نوعاً من الهلع « الكوفي » ، على حد تعبير جراسا آرانبا ، أصبح مقبياً في نفسه منذ ذلك الحين لا يفارقها . وعندئذ تبدأ السلسلة الثانية من رواياته ، وهي تلك التي أسميت « روايات الغسق » . « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ، « كونكاس يوربا » (١٨٩٢) « دون كاز مورو » (١٩٠٠) ، « إيزارو ويعقوب » وكذلك سلاسل جديدة من الأقايص أشد مرارة من الأولى كثيراً .

وبتراءى للقاريء أن ماشادو دو أسيس يستمر .. ولكن وسائله قد تغيرت دلالتها الآن . إنه ما يزال يقطع القصة ليتحدث إلى القاريء ، ولكن ذلك أشبه بهرب المذعور . إنه ينشئ بقارنه كما ينشئ المرء باطار اجتماعي ، حتى لا يهوي في عزلة تعج بعجائب المخلوقات الخفية . إنه وقد اضطر أن يجتنب الاتصال بالناس حتى لا يروا مشهد نوباته وتفككه ، يستعيض عن ذلك الاتصال بهذا الحوار الخيالي . وهذا بعينه هو السبب في أنه لم يشأ أن يعتزل الوظيفة ! ذلك أنه كان يجد في قواعد العمل البورقراطي وفي النسبية الاجتماعية للنظام الإداري ، وفي تحديد ساعات المواظبة على المكتب ، حواجز تحول دون تربيته في هوة الجنون . وكذلك ما تزال السخرية غالبية في مؤلفاته . ولكن السخرية قد تغير اتجاهها . إنها الآن تأمل في الجنون . إن مجانين ماشادو يفكرون ، منهم مجانين منطقيون . ولماشادو دو أسيس فلسفة ، وهذه الفلسفة المركبة فيه كآلة ميكانيكية تخيفه : ألا يمكن أن تستحيل إلى ورم ، إلى طفيلي ، إلى دمل آكل ؟ لذلك نرى غاية السخرية هنا أن تحمي المرء من هذه الفلسفة ، وأن تمنعها من أن تدور في رأسه دوران الهذيان ، وأن تكافح

الوثوقية الفلسفية بأدوية التحكم رغم أنه لم يتحرر من نظرتة النشاؤمية الى العالم ،
نتيجة لمرضه .

ومن الناحية الفنية انتقل ماشادو دو أسيس من المدرسة الرومانسية الى المدرسة
الطبيعية . ولكنه كما قلنا ، لم يكن طبيعياً أكثر مما كان رومانسياً في حقيقة الأمر .
إن الواقعية ليست عنده حتى الآن إلا وسيلة لمكافحة اغراء الجنون الذي كان
يتفجر من أمهات نفسه ، بمعناً في وصف البيئة الاجتماعية ، وحياة الصالونات ،
واضطرابات الشارع ، ومتشبتاً بأذيال الحوار الذي يقوم بين أبطاله . لكنه لم
يظفر بتجنب نداء المرض هذا تجنباً كاملاً . فانه مايفك يرتد الى نفسه . وهؤلاء
أبطاله الذكور يعترفون بذلك . لقد وضع نفسه فيهم ، إنه وإياهم شيء واحد ،
على صورة كاريكاتورية . بل ان كتبه لتصبح معرض مجانين : براز كوباس ،
كونكاس بوربا ، روبيان ، سيون باكاماتي « الإخصائي في الأمراض العقلية » .
لكن هؤلاء المجانين أيضاً بعداً خاصاً . إن سيكولوجيتهم غنية « بتقلبات القلب » ،
وبتفتت الذات إحساساتٍ أو عواطفَ متناقضة . إن محبة قائمة تسكن فيه . ولئن
ظل الأسلوب صافياً موسيقياً كنبع عذب يفنّي ، فان هذا الصفاء لا ينفى تداخل
الانعكاسات على الماء المخادع ركوده وهي انعكاسات دمٍ حمراء ، لا بل انعكاسات
سوداء لأجنحة ملائكة الليل .

والمرأة في منجى من الجنون هي في منجى منه لأنها أميل من الرجل إلى
المجتمع ، ولأنها حريصة على الوصول الى غايتها بالصالونات والغنج والحب ، أو لأنها ،
وهذا أغلب ، أدنى من الرجل الى الفطرة ، وأقرب الى الحياة . لأنها ألصق بالبر
أو البحر ؛ لأنها اقرب إلى النبات أو الحيوان . فبهن تتكلم عبقرية النوع في جزائر
شعرهن الذي يشبه غابة استوائية ، في بياض نحوهن التي تظهر وتتحفى ، في
أذرعهن التي تذكر بالقمر ، في أعينهن المرتدة أمواجهن . ولكن لئن كن لا يعرفن
الموت التي يتردى فيها أبطال ماشادو دو أسيس ، ان فيهن هن أسراراً أيضاً . انهن
جميعاً مثل فلورا التي أحبت التوأمين ، بدرو وباولو ، في آن واحد ، فلم لم
تستطع أن تحل لغز قلبها ، آثرت أن تنحل في ليلة الصيف ، أن تنطفيء في الظل ،

في عطور الأزهار ، في تراب الحديقة . لمنن لا يعرفن أنفسهن ، يترددن بين الخطيئة والآداب الاجتماعية ، بين الابتسامة والمداعبة . لمنن في روايات ماشادو دو أسيس يتبخترن عبر الصفحات شهوانيات ، فيمنعن هذه الصفحات من الوقوع في جفاف كان على ماشادو أن يحمي نفسه منه .

وفي عام ١٩٠٤ فقد ماشادو زوجته ، فكانه هو الذي مات . كتب إلى (يواكيم نابوكو) يقول : « ذهب أحسن جزء من حياتي . أنا الآن وحيد في العالم . والعزلة لا تثقل عليّ . بل العكس هو الصحيح . لأن العزلة هي الوسيلة الوحيدة لكي أظل أعيش معها ، وأسمع صوتها .. سألحق بها . لمنن تنتظرني . » وظن أنه لن يكتب شيئاً بعد موت زوجته . إنه يزداد انحباساً في منزله الصامت ليغيش مع طيف ، ولا يخرج من البيت إلا إلى المقبرة . إنه يستسلم للموت الذي يتقدم الآن منه . ويرضى أن يجمع بعض الأقاصيص القديمة في مجلد نشر بعنوان « Reliquias da Cosa Velka » . لكنه يحسّ شيئاً فشيئاً بحاجة إلى أن يحدث الفقيده ويتحدث عنها . إن عليه قبل أن يغيب إلى الأبد ، مادام الآن نصف نفسه فحسب ، أن يستمر في التعبير عن حبه لتلك التي تركته . وإذا كان الحياء يمنعه من التحدث بصيغة المتكلم ، فقد عبر عن حبه في رواية ، فكان كتابه « Mémorial de Ayres » ، وهو يختلف اختلافاً كثيراً عن سائر المؤلفات التي سبقته . إنه وحده المرحلة الأخيرة من ذلك الشموخ الروائي . وإذا كانت روايات المرحلة الثانية يمكن أن تسمى « روايات الغسق » ، فإن هذا الكتاب الأخير يمكن أن يوصف بأنه كتاب الليل . إنه همس غزلي عذب كل العذوبة في الليل الذي يغشى . ولم يبق لماشادو بعد ذلك إلا أن يموت . ولكن الألم لن يتركه حتى النهاية . لقد كافح البؤس وأصوله الخلاسية قبل ذلك إلى آخر حدود الكفاح ، ثم كافح نوبات الصرع وتهديدات الجنون ، وها هو ذا يصاب الآن بسرطان في الفم . ثم يموت في اليوم التاسع والعشرين من أيلول عام ١٩٠٨ ؛ ليلحق بالحببية تحت أزهار المقبرة .

* * *

ينتمي كتاب « كونكاس بوربا » إذن إلى سلسلة روايات الغسق .

لقد أودع ماشادو دو أسيس هذا الكتاب كثيراً من نفسه ، حتى التفاصيل الصغيرة ، مثل حبه للأزهار . لقد كتب يقول في إحدى أقاصيصه : « في حديثي أزهار أوعاها في حب ، وهي تحبني وتحبني كل صباح بأزكى عطورها ، ولا تستحي أن تقول لي كلمات لطيفة عن متع الحياة . أعترف بأنني لا أقبل أن أقطفها ، وإنما أضعها تموت حيث ولدت . ، أو مثل حبه الكلاب . لقد كان كلفاً يكلمته أشد الكلف ، فلما اختفت مرة أعلن عن فقدتها في الصحف إلى أن عثر عليها ، حتى إذا ماتت حزن لموتها وعني بدفنها في ركن من فناء منزله . إن لهذه الأمور الصغيرة التي لا تبدو ذات بال ، دلالات هامة ، فهي تدعونا إلى البحث في الرواية عن جزء من اعترافات الفنان ، وإن هذا الجزء كبير .

ففي شخصية روبيان يصور الكاتب نفسه ، فيتأبس بإهاب مجنون . إن روبيان هذا يعبر عن الفلسفة النشاؤمية المستمدة من شوبنهاور ، وهي نشاؤمية أراد بعضهم أن يرى فيها ضرباً من الفلسفة الكلية . ليس روبيان سوى معلم مدرسة في مدينة صغيرة جيناس . ولكن حين ورت كونكاس بوربالم يرث بيوتاً ونقوداً وأموالاً فحسب ، بل ورت أيضاً جنونه وفلسفته لأن كلامه هذين الأمرين يتصل بالآخر اتصالاً عميقاً بل ورت هذه الطبيعة « الانسانية » . إن في العالم جوهرأ لا ينقسم ولا يتهدم ، « كالارادة » التي تحدث عنها شوبنهاور ، لاشيء ينال من هذا الجوهر ، وما الموت إذن إلا شرط الحياة ، التي تعود تولد في صورة أخرى . إن الطبيعة « الانسانية » تستخدم أرقام الحب لتبقى ، وتستخدم الحرب لتتبدل . فما هي أخلاقية ولا هي غير أخلاقية ، إنها هادئة لا تتأثر ولا تبالي بأحكامنا في تقدير قيم الأشياء : إن كل نهاية هي وعد ببداية .

والواقع أن هذه الفلسفة هي فلسفة ماشادو دو أسيس بعينها . وقد سبق أن عبر عنها في أشعاره التي نظمها وهو مراهق :

هذه القوة الخالقة مبثوثة في كل مكان .
تتلظى في الزهرة فتفسد ثمرتها

والثلج حين يدمها بضاعف قواها

تمحض الطاهر والنجس حباً واحداً

تبدأ وتعيد عملاً مستمراً

تخضع ، باسمه ، للقاعدة الإلهية :

« تقول هو الموت ، وأنا أقول هي الحياة . »

كما عبّر عنها في أشعاره إلى كورين ، وفي أسطورة سيبييل التي تلتهم الجثث لتحيلها أزهاراً أو حيوانات أو كائنات حية أخرى ، وفي حكاية آهاسفيروس وبروميثيوس : « للحياة مائة باب كمدينة طيبا القديمة . فما إن تغلق باباً حتى تنفتح أبواب » . والغابة الواسعة التي تحيط بمدينة ريو دو جانيرو ، ألا تظهرنا هي أيضاً على هذا الانبثاق الدائب الناشئ عن التعفن ، وعلى هذا الاستمرار في انحباس الحياة من سوق الأشجار المتفسخة ومن الجذوع التي حطمتها العاصفة ؟ إن ماشادو يعلم أن هذه الفلسفة البائسة تتناقض مع ما بقي من مثالية رومانسية في البيئة التي يعيش فيها ، لذلك أجرى هذه الفلسفة على أفواه المجانين بسخرية قاسية . ولكن هذا لا ينفي أنها تمثل الفكرة التي ظلت فكرته العميقة من أول حياته إلى آخرها .

وقد يلاحظ على الأقل أنه حين بدلها هذا التبديل باضفاء طابع من السحرية عليها ، قد ميّز بين وجوده السليم السوي وبين شخص كونكاس بوربا أو شخص روبيان المصابين بهذيان . لكن هذه الفترة هي الفترة التي كان فيها ماشادو يعيش في خوف من الجنون ، ويحس أن الجنون يحوم حول عقله كحيوان كاسر ، فوصف نفسه حتى في هذيان أبطاله .

وحين كان ماشادو صبيّاً صغيراً ، ألقى بياض بيضة في قذح من الماء ، كما يفعل جميع الناس ، في ليلة عيد القديس يوحنا ، ليقرأ مستقبله عليها ، فلما نظر إليها في الصباح رأى في السائل الذي يتنبأ بالمستقبل شكلاً غامضاً يصور باخرة . فكان يقول في بعض الأحيان : « لم أركب باخرة إلى الآن ، لكنني لن أفقد الأمل ، ما بقي على سطح البحر بواخر » . ولم يخيب القدر ظنه ،

لكن رحلات ماشادو دو أسيس كانت رحلات بالخيال . لقد كان هذا الرجل المتوحد رجلاً حالمًا ، ركب البحور الداخلية مطوفاً بين اللجج المزبدة ، وطحالب الاحلام التي تتشبث بجدران المركب وتدبّق قعره ، وسمع أغاني جنيات البحر التي تتحدث عن حلاوة الموت البطيء . وما جنون روبيان إلا هذه الأغنية المعبرة عن الحنين ، وهذا النداء الأصم الذي يصعد من وحدته ومن الحذر أو الفتور الذي يحمله اليه الفكر الحالم وتحمله اليه نوبات الصرع . . . وآية ذلك أن هذيانات الابطال الذي يصورهم ماشادو دو أسيس ملونة بأخيلته هو . إن مجانينه لا يشبهون مجانين (إدجار آلان بو) أو (مجانين دوستوفسكي) إنهم مجانين متفلسفون متمنطقون ، وهم كذلك أناس يريدون أن يهربوا من أنفسهم ، ويفلتوا من ذواتهم .

لقد كان ماشادو دو أسيس معجباً أشد الإعجاب بقيصر نابوليون و كرومول ، والرجال الاقوياء ، وبناة الامبراطوريات ؛ وهذا روبيان في رواية « كونسكاس بوربا » يتحد بنابوليون . صحيح أنه يتحد بنابوليون الثالث ، ولكن نابوليون الثالث هذا يقهر ملك بروسيا . إن هاهنا أكثر من هذيان بالأعجاب . إن روبيان إذ يقص لحينه ويجعل وجهه كوجه نابوليون الثالث ، يغير شخصيته ، ويشعر في رحلة خيالية كبيرة .

وقد قلنا إن روايات الغسق التي كتبها ماشادو دو أسيس ظهرت ابان تغلب المدرسة الرومانسية في الأوساط الأدبية في ذلك العصر . ويجب أن نذكر مع ذلك أن الرومانسية لم تمت تماماً في مؤلفاته بل ظلت تتفرق في باطنها ، ولكن في هذه الصورة الحفية ، صورة الانفجارات المفاجئة التي نرى فيها تدفق الأحلام والهذيان المنطقي والجنون . لقد لاحظ النقاد أن مؤلفات ماشادو دو أسيس لا تشمل إلا على قليل من حوادث الانتحار . وهذا صحيح . غير أن مرده إلى أن ماشادو دو أسيس كان يريد الاستمتاع بهذا القسم البطيء الذي يتم في باطن كيانه ، وكان يريد الاستمتاع بهذا الحراب التدريجي ، بهذا الانتحار الذي يذوقه العقل جرعات صغيرة ، وعلى ذلك فإن ظل ماشادو دو أسيس

ظلّ رومانسياً . ولكنه كان طبيعياً أيضاً من حيث عنايته بالوصف الدقيق . إنه يصف تطور الجنون لدى روبيان وصفاً لا يستطيعه إلا عالم من علماء الأمراض العقلية ، كتباور الهذيان ، وازدواج الشخصية ، والتجول الآلي ، والهلس ، ثم السقوط النهائي .

على أن النزعة الطبيعية في تصويره بطله قد عاقها الميل إلى الاعتراف . لذلك كانت عبقريته في الملاحظة تظهر في تصويره للشخصيات الثانوية خاصة . وليس معنى هذا أن ماشادو دو أسيس لم يودع هذه الشخصيات الثانوية شيئاً من نفسه أيضاً . إن صوفيا مثلاً كانت متقدمة في السن قليلاً حين عرفها روبيان ، وكلما ازدادت تقدماً في السن كانت تزداد جمالاً ، كذلك التماثيل اليونانية التي يصفها الزمن بالشمس والمطر متعاقبين . فكيف لا تذكرنا صوفيا بزوجة ماشادو دو أسيس التي كانت أكبر سناً من زوجها . إن كاتبنا في حاجة دائمة إلى شيء من حنان الأم في الحب ، وربما كان مردّه ذلك إلى أنه حرم هذا الحنان صبيّاً . غير أن هذه الأمور ليست إلا لمسات خفيفة . أما فيما عدا ذلك فقد كان ماشادو دو أسيس يخرج من ذاته ليحسن تصوير شخصياته ، فهو يلاحظ الناس الذين يحيطون به ملاحظة دقيقة آمنة ، ويصفهم وصفاً حياً أخاذاً . لا يظهر ذلك في تصوير شخصية بالبا ، هذا الملك (كاندول) ، الذي يعرض مفاتن امرأته ، على شرط أن يكون مالكة الوحيد ، ولا في تصوير شخصية صوفيا التي نشأت في بيئة وضعية ، عرفت أنها لا تستطيع أن ترقى فيها إلا بالمال وحفلات المجتمع ، وإجادة استعمال الغنج مع الشرف لإجادة نادرة ، وإنما يظهر أيضاً في تصوير الشخصيات الثانوية ، الثانوية جداً ، مثل فرتياس الطفيلي ، وتونيكالما العازبة الأبدية . ولا شك في أن الكتاب معرض أناس غلاظ أو مجرمين . لقد كان ماشادو دو أسيس أشبه بجراح يرتدي قميصاً أبيض وقفازين من المطاط ، يعمل مبضعه في نفوس أبطاله مظهرأ أثرتها وجبها وطمعها ، ملفعاً ذلك كله بموسيقى عباراته ، وبأسلوبه الشفاف الهاديء . وكما كانت نظرتة إلى العالم نظرة (سادية) ، فكذلك كان في روبيان شيء من السادية حين مضى يشهد تنفيذ الحكم بالاعدام في رجل زنجبي .

وقد يقال إن هذه السادية تشوه صورة الواقع وتفسد صحتها . حتى ذهب بعضهم إلى أن كتاب « كونكاس بوربا » لا يضم إلا كائناً واحداً محبباً إلى القلب ، هو ذلك الكلب المسكين المتعلق بمولاه أشد التعلق ، الذي أسند إليه المؤلف حياة نفسية شبيهة بحياة كلب أناتول فرانس في « الحديقة المزدوجة » ، والذي مات تحت سماء العاصفة في شارع صغير بأوس . وهذا غير صحيح تماماً لأن في الرواية شخصية تفيض شهامة وإخلاصاً وتفانياً هي دونا فرناندا . ويروي السيدس مايا أنه عبر في يوم من الأيام لماشادو دو أسيس عن عاطفته نحو تلك المرأة ، وأنه قال له : « ليست هذه المرأة خلقاً أدبياً بل هي شخصية حية » فما كان من ماشادو ، فبدأ يروي الراوي ، إلا أن نهض مضطرباً ومضى إلى النافذة ، وأجاب دون أن يلتفت : « نعم ، لقد عرفت هذه السيدة ، وهي من بلدك . » ولكن الشفقة هي التي يسيطر جوها على الرواية بوجه خاص ، كما يتفرق فيها حب كبير للبشر ، رغم ما نرى فيها من ضروب الحب والصغار والأناثة .

وإذا صحَّ أن الألم قد يشوه رؤية الواقع ، فإنه من الحق أيضاً أن المجتمع في ذلك العصر كانت له أصباغه القائمة . كان المجتمع الامبراطوري قد انحل انحلالاً كاملاً ، ففي السياسة كانت حركة العقائد السياسية عاجزة عن إخفاء حقيقتها عن الأنظار وهي أنها خصومات على مصالح شخصية ، ونزاعات قديمة بين الفئات ما تزال قائمة . وفي الأوساط الراقية كان السعي إلى الاجتاد ، وإلى المال خاصة ، يكيف النفوس ويشوه العواطف ، والصالونات التي يملؤها تلالؤ العقود في الاعناق ، وهفيف أبواب السهرة ، والتغزل بالكلام المهوس في ضوء القمر تحت ظلال الحدائق ، كل ذلك كان يؤلف عالم النساء العواقر المتفتحات كالازهار الزاهية في آنية جميلة تزهر ثم تموت ولا تؤتي ثمراً . إن ماشادو دو أسيس بصور ، من غير تشويه ، الآثار الأولى لنشوء المدينة والصناعة في مجتمع ريفي الأصل .

والكاتب يضع نفسه في أثره دائماً . هذا صحيح . ولكننا لا نستطيع أن نوحّد بينها . ذلك أن الرواية ثمرة لإرادة فنية تحاول أن تباع صورة من صور

الجمال . فاذا كان (ماشادو دو أسيس) يتيح لنا أن نلمح في بعض المواضع ذلك الخوف الرهيب الذي يستبد به إزاء تهديدات الجنون ، فإنه يظل حريصاً على العناية بحرفته ككاتب . لقد أراد بعضهم أن يفسر ميله الى التفاصيل الصغيرة بأنه كان حسير البصر . : « أحب نبش الامور الصغيرة الخفية . وحيث لا يدس أحد أنفه ، أدس أنا أنفي ، وفي نفسي من الفضول ما في نفس من يكشف أمراً مخبئاً . » ولكن لهذه الاشياء الصغيرة الدقيقة دلالة فنية : لأنها تريح القاريء من الخطوط الكبرى الفاجعية ، اللهم الا أن نقول انها تشير الى تقنت الزمن في غبار ذهبي من اللحظات . وقد أراد بعضهم أيضاً أن يعلل قصر جملة بتأثاته ، ولكن الجملة القصيرة كانت عنده سلاحاً ضد الرومانسية الخطابية ، ضد العبارة المتنفخة المتفخمة التي يستعملها الطلاب المتخرجون في القانون أو الشعر . لقد هجر أخيراً أوكتاف فوييه ، واهتدى الى اخوته في الفن من أمثال ميرييه وستاندال . والتكرار كثير في آثاره ، لكن هذا التكرار ليس ثمرة لمزاجه الصرعي ، ولا هو لدى هذا العامل المجتهد المخلص تهاون ورخاوة في الاسلوب . واذا كان وصفه لذلك الجزء الذي يمتد في مدينة ريو من ساحة فورموزا الى ساكو دي أفريس يتكرر في « كونكاس بوربا » و « رو كولي داس » ، و « أقاصيص بلا تاريخ » فمرد ذلك الى أنه حي طفولته ومرتع نزهاته الطويلة على شاطيء الماء . إنه أشبهه بعنقود من ذكريات حبيبة على باقة أزهار اصطناعية . وإذا كنا نرى حادثتين من حوادث اصطدام العربات في « كونكاس بوربا » ، وحوادث أخرى في أقاصيص أخرى ، فمرد ذلك الى ان « الحياة لا تتألف إلا من أربعة ظروف أو خمسة في أكثر تقدير ، ولأن نزوات الظروف هي التي تبدلها في نظرنا وتكثرها » . لقد تعلم (ماشادو دو أسيس) من فن المسرح الذي حفل به أول الامر في كثير من الحماسة ، كيف يرد الحياة الى عدد من مواقف بعينها ، واستفاد من ذلك ، حين اصبحت المدرسة الراجحة في اظهار فقر الانسان بل وفقر المصادفات ، على خلاف ما يتراءى لخيال الرومانسيين .

نعم لقد كان ماشادو دو أسيس مريضاً ، وكان خلاصياً ، وكان من أبناء

الشعب . ولكنه كان قبل كل شيء فنانياً ، واستطاع في الرواية التي ستقرأونها أن يصل الى امتلاك ناصية أسلوبه ، حتى أصبح علماً من أعلام القدرة الفنية على تصوير المناظر او البيوت او الشخصيات بضع لمسات خفيفة ، كالكلاسيكيين وعلى الاجزاء بأخطر الأشياء وأخفى خلجات النفس وهو يذكرها ذكر عابر ، ويخفيها في ركن من جملة ، مع إلحاحه على أمور تافهة والقائه القارىء في طرق جانبية بشيء من السخرية ؛ وعلى المزج بين الطبيعة والانسان ، بدلاً من أن يصف الطبيعة في ذاتها ، فهو يجعل « رقص الأمواج » امتداداً لرقص الصالونات ، حتى لكأن الرقصين كليهما حركة مضطربة خضراء واحدة ، وهو يكسي نساءه بضوء القمر وبالسما المرصعة بالنجوم ، ويشرحهن كل ما في النبات الاستوائي من شهوانية . وكما أصبح علماً من أعلام القدرة الفنية فكذلك أصبح علماً من الأعلام في التهكم والسخرية .

لقد كتب الباحثون كثيراً في السخرية الماشادية ، ومع ذلك ما يزال عليهم أن يكتبوا كل شيء عنها . لقد عرفوها تعريفات عامة ، وتحدثوا عن ستون وعن كسافييه دو ميترو ، واستشهدوا بالحق الذي يشعر به الخلاسي ، وذكروا الازياء الانجليزية التي كانت رائجة في البلاد . ولكننا مازلنا في حاجة الى تحليل في لسخرية ماشادو . إن في عنوان الكتاب وحده شيئاً من السخرية « كونكاس بوربا » . إن هذا الشخص لا يظهر إلا في الصفحات الأولى من الكتاب . وهو يلعب في قصة « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » دوراً أكبر . إن كونكاس بوربا هو هنا كلب . وقد سبق أن عمد ماشادو الى هذه الطريقة في إحدى حكاياته الأولى . فجعل عنوان الحكاية « الآنسة دولار » بحيث يتوهم القارىء أنه سيرى امرأة ، فاذا هي حيوان . على أن السخرية هنا ليست مجرد مزاح ، فان كونكاس بوربا حاضر بغيابه نفسه حتى من أول صفحة في الكتاب الى آخر صفحة . لقد ورثه رويبا ، وهو يقضه كدودة خفية . وإذا كان الغرض من السخرية هنا الاشارة الى المصير ، فانها تهدف في مواضع أخرى الى غير ذلك .

لأنها تظهر ، مثلاً ، بانقلابات مفاجئة في الرواية (رؤية روبان للعالم قبل الميراث وبعده) ذلك التقطع الزمني الذي كان يحاصر ماشادو دو أسيس ، هرب الزمان إلى غير رجعة وانقضاءه بغير عودة . ليست السخرية هنا ترفاً يضاف إلى الأثر إضافة ، ولا هي نوع من إظهار « الفكاهة » ، ولا هي مجرد تعبير عن مزاج . إن لها وظيفة فنية . لأنها لا تصفي الرواية من مرارة الدمعة ، ولكنها تحيل الدمعة في آخر العنقود المشدود قطرة مضيئة من الندى .

* * *

كان روبيان يمدق إلى الخليج الصغير . هي الساعة الثامنة من الصباح . لو رأيت على هذه الحال مطلاً من نافذة منزل كبير ببوتافوجو ، غارزاً إهاميه في حزام ثوبه ، لظننت أنه يعجب بالماء الهادي المتد امام بصره . لكنني أؤكد لك أنه كان يفكر في شيء آخر لاصلة له بهذا البتة . لقد كان يقارن بين الماضي والحاضر . ماذا كان منذ سنة ؟ معلماً . ماذا أصبح الآن ؟ تريباً من الأترياء . وألقى نظرة على نفسه ، على نعليه (وهما نعلان تونسيان أهداهما إليه صديقه الجديد كرسنيانوباليا) ، على البيت ، على الحديقة ، على الخليج ، على الروابي ، على السماء . انه يتأمل هذا كله ، من النعابين حتى السماء ، تأمل مالك .

قال بينه وبين نفسه : « ليس في وسع المرء أن يدرك طرق العناية الإلهية . لو أن أختي بيديمي تزوجت كونكاس بوربا ، لما كان لي الآن إلا بضعة آمال على الغامش . لكنها لم تتزوج ، ومات الاثنان كلاهما ، فاذا كل شيء يتوَل إلي ، إن ما كان يبدو مصيبة من المصائب ... » .

ما أحمق الهوة التي تفصل بين الفكر والقلب ! لقد حاول فكر المعلم السابق ، وقد آله هذا الحنظر أشد الإيلام ، أن ينتقل إلى موضوع آخر : هذا القارب يمر ، لكن قلبه ظل يخفق فرحاً . ما نقله والقارب وراكبه اللذين تشبثت بها نظراته ؟ كان القلب يردد : ما دام أجلها قد انتهى ، فمن الخير أنها لم تتزوج . كان يمكن أن تلد صبياً أو بنتاً ... - ما أجل هذا القارب ! - الحق أنه لم

يكن في الامكان ابداع مما كان ، ما أروع طواعيته للجدف ! - لاشك أنها
في السماء .

٣

وجاء خادم بالقهوة ، فتناول روبيان القمح ، وفيما هو يضع السكر ، نظر
خاسة الى الصينية المصنوعة من فضة منقوشة . كان قلبه يحب الذهب والفضة حباً
خاصاً . انه لا يحب البرونز ، لكن صديقه باليا قال له ان البرونز معدن ثمين
أيضاً : لذلك نرى في غرفة الاستقبال ذبذبات التماثيل الصغيرة الذين يتلان
مستوفيلس وفاوست . على أنه لو أوتي الاختيار ، لآثر الصينية ، هذه التحفة
الفضية ، الرائعة بأناقتها ورهافتها . وظل الخادم ينتظر رصيناً هادئاً . إن الخادم
اسباني . وروبيان لم يقبله من بين يدي كرسنيانو في غير مقاومة . ذكر لصديقه أنه
قد تعودت صحبة أهل ميناس ، وأنه لا يريد في بيته لغات اجنبية ، لكن صديقه
أصر على رأيه ، وأوضح أن من الضرورة بمكان أن يكون له خادم بيض . فأذعن
روبيان على مضض . وخادمه الطيب الذي كان يريد أن يكل إليه أمر الخدمة
في غرفة الطعام ، لكونه أثراً من آثار الولاية التي جاء منها . لم يستطع أن
يدعه حتى في المطبخ حيث كانت السبطرة لفرنسي اسمه جان ، واضطر أن يعهد
إليه بأعمال دون ذلك مقاماً .

— هل كونكاس بوربا مضطرب كثيراً ؟

كذلك سأل روبيان الخادم وهو يوشف ثمالة القهوة ، ويلقي على الصليبة
نظرة أخيرة .

فأجابته الاسباني بالاسبانية :

— أظن ذلك .

فقال روبيان :

— أنا ذاهب لأفكته .

ولم يذهب ، ولما لبث ينظر الى الأثاث فترة من الوقت . فلما وقع بصره على الصور الانجليزية الصغيرة المعلقة بالحائط فوق التمثالين البرونزيين ، أخذ يفكر في صوفيا الجميلة ؛ زوجة باليا . ثم تقدم بضع خطوات الى أمام ، وجلس على مقعد في وسط الصالون ، ينظر الى بعيد .

- هي التي شجعتني على شراء هاتين اللوحتين الصغيرتين يوم كنا نبحت نحن الثلاثة عن أشياء نشترها . ما كان أجملها ! ان كتفها اللذين رأيتها في حفلة الرقص التي أقامها الكولونيل هما ما أفضله فيها . ما أروعها كنفين ! لكأنهما من مرمر ... ما أنعمها ! ما أنصح بياضها ! والذراعان . آه .. يالها من ذراعين ! ما أحسن تكوينها !

وتنهذ روبيان ، ولف ساقاً بساق ، واخذ يعبث بمزام ثوبه . لم يكن يشعر بأنه سعيد كل السعادة . لكنه كان يشعر بأنه غير بعيد عن السعادة الكاملة . تذكر بعض الحركات ، بعض النظرات ، بعض الأوضاع . انها جميعاً لا يمكن ان يكون لها سبب غير الحب ، بل لا يمكن ان يكون مصدرها الا حب كبير . لم يكن روبيان طاعناً في السن : سيبلغ الاربعين قريباً ، بل ان من ينظر إليه لا يقدر له هذا العمر . وجعله هذا الحاضر يمر بيده على ذقنه . انه يحلق ذقنه في هذه الفترة من حياته كل يوم . وذلك امر جديد لا عهد له به من قبل (كان في الماضي يقتصد ، ولا يشعر بالحاجة الى حلق ذقنه) . تخيلوا ماذا كان : معلماً بسيطاً . انه يدع كشتين من الشعر في خديه (وقد ارخى لحيته كلها بعد ذلك) ، وهما تبلغان من النعومة درجة تجعل امرار اصابعه فيها يولد له لذة ، أي لذة ... ثم تذكر لقاءهما الاول في محطة فاسوراس ، حين دخلت صوفيا مع زوجها الى عربة القطار التي كان مستقراً فيها منذ سفره من ميناس . وهو انما كشف في تلك اللحظة عينها الشهوانيتين اللتين تذكران بدعوة النبي : « من كان منكم ظامئاً فليشرب » . صحيح انه لم يكن في الحالة النفسية التي تقتضيها دعوة كهذه الدعوة . فلقد جاء مثقل الرأس بالميراث والوصية وقائمة الأشياء . وتلك كلها امور ينبغي لنا الآن أن نشرحها حتى يستطيع القارئ أن يمكس بخيط القصة . فلندع روبيان

اذن في سالون بيته ببوقافوجو ، عابثاً بجزام ثوبه ، مفكراً في صوفيا الجميلة .
اتبعتي أيها القاريء ، حتى نلتقي بروبيان ساهراً على كونكاس بوربا قبل ذلك
بيضعة أشهر .

٤

إذا شرفتموني بقراءة كتابي « مذكرات براز كوباس منشورة بعد موته » ،
رأيتم كونكاس بوربا هذا يظهر في ذلك الكتاب متسولاً ورث ثروة طائلة على
حين فجأة ، وله من جهة أخرى مذهب فلسفي هو خالقه . ذلك هو الآن في مدينة
بارباسينا . إنه ماكاد يصل إلى هذه المدينة حتى وقع في غرام أرمل ظروفها
ومواردها متواضعة . وكانت هذه المرأة إلى ذلك شديدة التحفظ ، حتى لقد
بلغت من شدة التحفظ أن ماأعلنه لها عاشقها من حب لم يوقظ في نفسها أي
صدى . كان اسمها ماريا داببادادي . وقد بذل أخوها روبيان الذي سبق
الحديث عنه ، كل مايطيقه من جهد في سبيل تزويجها . لكن بيادادي لم تترشح
عن موقفها ، ثم ماتت بالتهاب الرئتين .

وقصة الغرام الصغيرة هذه هي التي ربطت بين الرجلين وشدت أحدهما إلى
الآخر . هل كان روبيان يعرف ان رأس صاحبنا كونكاس بوربا يضم تلك البذرة
من الجنون التي اعتقد احد الاطباء انه كشفها فيه ؟ لا شك في أن روبيان كان يجمل
ذلك : كل ما في الامر انه كان يعده شاذاً بعض الشذوذ . لكن هذا لاينفي ان
تلك البذرة من الجنون لم تبرح رأس كونكاس بوربا في يوم من الأيام ، لا قبل
ذلك المرض الذي أفناه شيئاً بعد شيء ، ولا بعده . ولقد كان هنالك لكونكاس
بوربا اقرباء ، لكنهم كانوا في عام ١٨٦٧ قد ماتوا جميعاً . وآخر من مات منهم
انما هو ذلك العم الذي ورث عنه كونكاس بوربا ثرواته . وظل روبيان الصديق
الوحيد للفيلسوف . لقد كان يدير مدرسة للصبيان ، فلم يلبث ان أغلقها من اجل
ان يفرغ للعناية بالمريض . كان قبل ان يصبح معلماً ، قد أقدم على عدة مشاريع ،
لكنه مني بالاحقاق فيها جميعاً .

ظل روبيان يزاول مهنة المرض هذه مدة خمسة أشهر ، أو ستة تقريباً . وكان صادق الاخلاص : صبوراً ، باشاً ، نشيطاً ، يطيع أوامر الطبيب ، ويجرع المريض أدويته في مواعيدها ، ويمضي ينزعه من دون أن ينسى شيئاً ، فلا هو يغفل عن خدمة البيت ، ولا هو يهمل قراءة الجرائد متى وصلت في صندوق ريو أو صندوق أوورپريتو .

وكان كونكاس يوربا يقول له متنهدا :

- أنت طيب ياروبيان .

فيجب : حقاً ما أعظم شجاعتك . إذا كنت أنا كذلك فما أنت بشريو ! وكان الرأي الذي يعلنه الطبيب هو أن كونكاس يوربا سيشفى شيئاً بعد شيء . لكن روبيان سأل الطبيب ذات يوم وهو يشيعه حتى الباب ، ماهي حالة صديقه حقاً . فعلم عندئذ أنه سيقتضي نجه لاجمالة ، غير أن من الواجب مع ذلك أن نستمر على بث الأمل والرجاء في نفسه ، إذ ليس من الحكمة في شيء أن نكشف له عن الحقيقة ، فنجعل الموت أشق على روحه وأقسى .

فأجابه روبيان بقوله :

- صدقتي إذا قلت لك أن الموت أمر سهل عنده . ألم تقرأ أبداً ذلك الكتاب الذي ألفه منذ عدة سنين ، وفيه يعالج موضوعاً من مواضيع الفلسفة ؟ ... لا أدري ماهو .

- لا لم أقرأ الكتاب ، لكن التفلسف شيء ، والموت حقاً شيء آخر .

٥

كان لروبيان منافس ينازعه قلب كونكاس يوربا : هو ذلك الكلب الجميل ، المتوسط القامة ، الأشهب اللون على بقع سود . كان كونكاس يوربا يصطحب الكلب حينما يذهب . وكانا ينامان معاً في غرفة واحدة . وكان الكلب هو الذي يوقظ صاحبه في الصباح : ينسلق السرير ، ويأخذ الاثنان يتبادلان التحيات . ومن غرائب كونكاس يوربا أنه أسمى الكلب باسمه هو ، وكان يعامل ذلك بعاملين ،

أولها ذو صلة بالعقيدة ، والثاني شخصي :

– ذلك أن « الطبيعة الانسانية » في عقيدتي هي مبدأ الحياة نفسه ، فهي ماثوثة في كل مكان ، قائمة أيضاً في الكلب ، فنستطيع إذن أن نسميه باسم انسان ، سواء أكان هذا الانسان مسيحياً ام كان مسلماً .

فقال له روبيان وقد تذكر اسم احد الخصوم السياسيين في المدينة :

– ولكن أليس من الأفضل والحالة هذه أن تطلق عليه اسم برناردو ؟
فأجابه كونكاس بوربا :

– هنا نصل الى العامل الشخصي ، اذا مت قبل كلبى العزيز ، وهذا ما أتوقعه ، بقيت بعد الموت في اسمه . هذا يضحكك ، أليس كذلك ؟
فأشار روبيان منكرأ .

– بل ينبغي لك أن تضحك يا عزيزي ، لأن الخلود نصيبى أو مهربي ، ما في ذلك من ريب ، لسوف أعيش الى الأبد بكتابي العظيم . والذي لا يعرفون القراءة ، سوف ينادون الكلب باسم كونكاس بوربا ، و . .
فلما سمع الكلب اسمه هرع الى السرير ، فنظر كونكاس بوربا منفعلأ .
– صديقي المسكين ، صديقي الطيب ، صديقي الوحيد .
– الوحيد ؟

– عفوك . انك لصديقي أيضاً . أنا أعرف أنك صديقي ، واني لأشكر لك ذلك أجزل الشكر . على المرء أن يغفر للمريض كل شيء . أياكون الهذيان قد بدأ منذ الآن ؟ ناولني المرآة .

أعطاه روبيان المرآة . فظل المريض يضع لحظات يتأمل وجهه الناحل ونظرته المحمومة التي تطل منذ الآن على عالم الموت ، على العالم الذي يسير المريض اليه بخطى بطيئة لكنها محققة ، ثم قال وهو يتبسم ابتسامة صفراء ساخرة :

– مظهرى ينبئ عما أحسه في داخلي . انني ماث يا عزيزي روبيان . . . ليس يجدي أن أحتج . . لاني ماث . . ولكن ما هو الموت حتى تجزع منه هذا الجزع كله ؟
– أعرف ، أعرف أن لك فلسفتك . . . ولكن فلنتكلم عن الغداء . ماذا

نحب أن تأكل اليوم ؟

فنهض كونكاس بوربا على السرير ودلتى ساقيه اللتين يدرك المرء نحوهما الشديد من خلال السروال .

فأسرع روبيان يسأله :

— ماذا هناك ؟ ماذا تريد ؟

فأجابه المريض مبتسماً :

— لا شيء ... فلسفتك ... انك تقول هذه الكلمة باحتقار شديد .. هيا

كرها .. أحب أن أسمعها مرة أخرى . فلسفتك .

— ما هذا بالاحتقار . وكيف يكون لي أن أحقر فلسفة ؟ كل ما أقوله هو

أنك تستطيع أن تستخف بالموت ، لأن لك حججاً ، لأن لك مبادئ .

ويبحث كونكاس بوربا عن نعليه بقدميه ، فجاءه روبيان بها ، فانتعلها وأخذ

يمشي ليبيع ساقيه . ودغدغ الكلب ، وأشعل سيجارة . فأراد روبيان أن يغطي

المريض جسمه ، فجاءه برداء وصدرة وثوب ومعطف ليختار منها ما يشاء . لكن

كونكاس بوربا دفعها عنه جميعاً بحركة من يده . لقد تبدل وجهه الآن بدلاً

كاملاً ، فكان عينيه الغائرتين تحللان ما يجري في دماغه . وبعد أن ظل فترة من

الوقت يتجول في الغرفة طويلاً وعرضاً ، وقف بضع لحظات امام روبيان .

٦

— من أجل أن تفهم معنى الموت والحياة حق الفهم ، يكفي أن أروي

لك كيف ماتت جدتي .

— كيف ماتت ؟

— أقعد .

أطاع روبيان الأمر ، وقد ظهر في وجهه أعظم ما يمكن من الاهتمام ، بينما

استمر كونكاس بوربا يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً .

- حدث ذلك في ريو دو جانيرو ، في يوم من أيام الاعياد ، أمام الكنيسة الامبراطورية ، التي كانت يومئذ الكنيسة الملكية . خرجت جدتي من الكنيسة ، واجتازت الفسحة التي أمام الباب ، لكي تمضي الى كرسي بحمله محالوت كان ينتظرها في ميدان « ياسو » . المكان يعج بالناس ، لأن الشعب يحلو له أن يري كبريات السيدات وهن يركبن عرباتهن . وفي اللحظة التي قطعت فيها جدتي الفسحة التي أمام باب الكنيسة لتتجه ، نحو كرسيها الذي كان بعيداً بعض البعد ، فزع على حين فجأة أحد بغلي عربية من العربات ، واهتاج احتياجاً شديداً ، فقلده البغل الآخر ، وفي غمرة الاضطراب والاصطغاب اللذين أعقب ذلك ، سقطت جدتي على الأرض ، فداسها البغلان والعربة ، فنقلت فوواً إلى صيدلية في شارع ديزيتا ، وهرع الى نجدتها صيدي ، ولكن كان الأوان قد فات ، فان جدتي التي شق رأسها وتحطمت ساقها وكتفها ، لم تكن إذ ذاك إلا جرحاً فاغراً ، فما انقضت دقائق الا ولفظت أنفاسها الأخيرة .

قال روبيان :

- يا لها من مصيبة !

- لا .

- كيف لا ؟

- أسمع التهمة . إليك كيف وقع الأمر : لقد كان صاحب العربية في الفسحة التي أمام الكنيسة ، وكان جائعاً ، بل جائعاً جداً ، لأن الوقت متأخر ، ولأنه أفطر في ساعة مبكرة ، ولم يأكل في افطاره إلا قليلاً . واستطاع من مكانه على الفسحة أن يوميء الى الحوذي أن يتقدم ، فضرب الحوذي البغلين ليضي الى سيده ، وبينما كانت العربية تسير التقت بحاجز فقلبت ، وكان هذا الحاجز هو جدتي . فالفعل الأول في هذه السلسلة كلها إنما كان فعل محافظة على البقاء . كانت الطبيعة « الطبيعة الانسيّة » جائعة . فلو كان هنالك في مكان جدتي فأرة أو كلب لما ماتت جدتي ، ولكن ذلك

ما كان ليبدل الواقعة في ذاتها ، وهي أن « الطبيعة الانسية » كانت في حاجة الى أن تأكل . ولو كان هنالك ، في مكان الفأرة أو الكلب ، شاعر من الشعراء ، مثل بايرون أو جونسالفس دياس ، لاختلفت الحالة بعض الاختلاف ، بما قد يكتب فيها من مقالات رنانة كثيرة ، لكن جوهر الأمر لا يتغير ، فالارض لم تتوقف حتى الآن عن الدوران لأن عدداً من قصائد الشعر لم تظهر بعد ولكن الطبيعة الانسية (وهذا فوق كل شيء) في حاجة الى أن تأكل .

كان روبيان يصغي محملاً ، صادق الرغبة في الفهم . لكنه لم يدرك كل الادراك تلك الضرورة القطعية التي يعزو إليها صاحبه موت جدته . إذ لاشك في أن صاحب العربة ما كان ليموت جوعاً لو وصل الى بيته متأخراً ، في حين أن السيدة المسكينة قد ماتت ، ماتت الى الابد . وحاول روبيان أن يبسط لصاحبه مايساوره من شكوك ، ثم سأله :

- وما هي هذه الطبيعة الانسية ؟

- « الطبيعة الانسية ، هي المبدأ . لكن لا ... لن أقول شيئاً ، فما أنت

بقادر على أن تفهم ياعزيزي روبيان . فلنتحدث عن شيء آخر .

- بل أتم كلامك .

ولم يكن كونكاس بوربا قد انقطع عن المسير أثناء ذلك ، فتوقف عندئذ

بضع لحظات وقال :

- هل تريد أن تكون تلميذي ؟

- من غير شك .

- حسن . ستنفذ اذن الى فلسفتي شيئاً فشيئاً . وسيكون اليوم الذي تمضمها

فيه كل المضم أجمل أيام حياتي ، إذ لاشيء ادعى الى نشوة السعادة من الحقيقة .

صدفتي إذا قلت لك أن « الطبيعة الانسية » غاية كل شيء . والذي اكتشفها ،

أعني أنا ، هو أعظم إنسان في العالم . هه . انظر كيف يحدق اليّ كونكاس بوربا .

إن « الطبيعة الانسية » هي التي تحدق ، لا هو .

- ولكن ماهي الطبيعة الأنسية ؟

– « الطبيعة الانسية » هي المبدأ . ان في كل شيء من الأشياء جوهرأ مختبئاً هو واحد فيها جميعاً ... جوهرأ وحيداً ، شاملاً ، ابدياً ، عاماً ، لا ينقسم ، ولا يزول ، أو أقل كما قال كامونس العظيم :

« حقيقة موجودة في كل شيء »

« قائمة فيما يُرى ولا يرى على السواء »

فهذا الجوهر أو هذه الحقيقة ، هذا المبدأ الذي لا يزول هو « الطبيعة الانسية » ، وقد اسميته بهذا لأنه يلخص الكون ، والكون هو الانسان . هل بدأت تفهم ؟
– قليلا . ولكن كيف يكون موت جدتك ؟ .

– الموت لا وجود له . فالتقاء قوتين منبسطتين بل نمو جسمين يمكن أن يؤدي الى زوال احدهما . أما الموت فلا وجود له في واقع الامر لا وجود الا للحياة ، لأن زوال شيء هو شرط بقاء الآخر ، والزوال لا يصيب اذن الجوهر العام المشترك . ومن ثم كانت الحرب تحافظ على الحياة وتحسن اليها . تصور حقلا من حقول البطاطا وقبيلتين جائعتين . ان محصول هذا الحقل يكاد لا يكفي الا لطعام احدى القبيلتين ، فاذا استأثرت احدى القبيلتين بالحقول كله اكتسبت من القوة ما يكفيها لاجتياز الجبل والوصول الى سفحه الآخر الذي تثبت فيها البطاطا غزيرة . اما اذا اقتسمت القبيلتان محصول الحقل بسلام ، لم يغدما المحصول تغذية كاملة ، فاذا هما تموتان جوعاً . فالسلام في هذه الحالة يعني الزوال ، والحرب تعني البقاء . ان احدى القبيلتين تفني الاخرى وتستولي على بقاياها . ومن ثم كانت نشوة النصر ، والاناشيد ، والتهنئات ، والجوائز القومية ، وساثر ما يعقب الاعمال الحربية . ولو لم تكن الحرب كذلك ، لما حدثت هذه المظاهر ، لسبب عملي وهو أن الانسان لا يتخذ ولا يجب الا ما هو يتمتع له أو مفيد ، ولسبب منطقي وهو انه ما من أحد يحتفل بشيء معناه عنده الدمار . فللمغلوب الكره أو الشفقة ، وللغالب البطاطا .

– ولكن مارأي من يزول ؟

– لا زوال . الظاهرة الفردية تغيب ، اما الجوهر فيبقى . ألم ترى ماء يغلي ؟

يجب أن تتذكر ان الفقاعات تظهر وتغيب بغير انقطاع ، لكن الماء نفسه يبقى . وما الافراد الالهة الفقاعات العارضة .

– نعم ، ولكن مارأي الفقاعة ؟

– لا رأي لفقاعة . هل هنالك شيء ادعى الى الحزن ، في ظاهر الامر ، من تلك الاوبئة الفظيعة التي تجتاح جزءاً من الكرة . ان ما نظنه شراً هو في واقع الامر خير ، لا لأنه يزيل الاجسام الضعيفة العاجزة عن المقاومة فحسب ، بل كذلك لأنه يتيح تحصيل معارف كثيرة ، ويتيح في آخر الامر كشف الدواء المنتقد . ان علم الصحة ثمرة قرون من القذارة . ونحن مدينون بعلم الصحة لملايين من الكائنات كانت تعيش في النتانة . ما من خسارة البتة . كل شيء ربح . اعود فأقول لك : ان الفقاعات تضرب ، لكن الماء يبقى . هل ترى هذا الكتاب ؟ انه دون كيشوت . هبني هسنت نسختي . انني بذلك لا ازيل الكتاب ، فالكتاب يبقى خالداً في النسخ الاخرى وفي الطبعات اللاحقة ، يبقى خالداً وعجيباً ، خلوداً رائعاً ، خلود هذا العالم ، المتصف بالالوهية (وبما فوق الالوهية) .

٧

وارهو كونكاس بوربا عياء ، فصت ، وقعد وهو يلهث . فهرع روبيان يحمل اليه ماء ، ورجاه أن يضطجع ليستريح . لكن المريض اجاب بعد بضعة لحظات بأنه في خير . كل ما هنالك انه قد فقد عادة القاء الخطب . تم اشار الى روبيان ان يتعد قليلاً بحيث يستطيع ان يراه من غير جهد ، وطقق بعد ذلك يصف العالم وعجائبه وصفاً بارعاً .

مزيج من آرائه الخاصة وآراء غيره ، تضاف اليه صور من كل نوع ، صور فيها من شعر الغناء مثل ما فيها من شعر الملاحم ، فما سمع روبيان الا أن تساءل كيف يستطيع انسان مشرف على الموت ان يتحدث مثل هذا الحديث في مثل هذه الموضوعات .
قال له :

- هيا استروح قليلا .
- ففكر كونكاس بوربا ، ثم أجاب :
- بل سأمضي اتزه .
- لا الآن ، فأنت متعب كثيراً .
- لكن تعبي قد زال .
- ونهض ، ووضع يديه على كتفي روبان ، في ابوة .
- أنت صديقي ، أليس كذلك ؟
- يا له من سؤال !
- بل قل انك صديقي .
- كهذا الحيوان بل اكثر .
- بذلك اجاب روبان وقد فاضت نفسه رقة وحناناً .
- فشد كونكاس بوربا على يديه ، وقال :
- حسن .

٨

افاق كونكاس بوربا من نومه في الغداة وقد عقد العزم على ان يسافر الى ريو دو جانيرو ... قال انه سوف يعود في آخر الشهر ... لأن له اعمالا يجب ان يقوم بها هناك ... وذهل روبان . والمرض ؟ والطبيب ؟ فاجابه المريض بأن الطبيب دجال ، اما المرض فان تغيير الهواء لن يفاقمه ، أليس المرض والصحة ، ثمرتي شجرة واحدة ؟ أليسا حالتين للطبيعة الانسية ؟

وختم المريض كلامه بقوله :

- سأسوي هنالك بعض الاعمال الشخصية ... ثم انني قد رسمت لسفري خطة تبلغ من الروعة درجة لا تستطيع ان تفهمها . اغفر لي صراحتي ، لكنني استطيع ان اكون معك انت صريحاً .

وظن روبان ان مشروع السفر هذا سينطوي مع الزمن كما انطوت قبله

مشاريع كثيرة ، لكنه اخطأ الظن . اضع الى ذلك ان صحة المريض كانت تبدو في تحسن حقاً ، فهو الآن لا يظل راقداً على فراشه ، بل يخرج ويكتب . وفي نهاية الاسبوع استدعى الكاتب بالعدل .

– الكاتب بالعدل ؟

– نعم . اريد أن أسجل وصيتي ، وفي وسعنا ان نذهب اليه معاً ..
وذهب الثلاثة ، لان الكلب لا يترك مولاه يخرج من دون ان يرافقه .
وسجل كونكاس بوربا الوصية وفقاً للاصول المتبعة ، وعاد الى البيت هاديء
البال مطمئن النفس . اما روبيان فكان يشعر بقلبه يخفق خفقانا قويا .
– لن ادعك تسافر الى العاصمة وحدك طبعاً .

– لانفع في ذلك . ثم ان كونكاس بوربا ان يصحبي ، ولا يمكن ان
اعهد به الى احد غيرك . سأترك البيت كما هو ، وفي غضون شهر اعود .
اني مسافر غداً ، ولا احب ان يعلم بسفري . اعتن به يا روبيان .
– اطمن .

– هل تحلف ؟

– بأقدس ما أملك . أتظنني طفلاً ؟

– اسقه لبنه في نظام ، وناوله وجبات طعامه في مواعيدها . واغسله كذلك .
وحين تمضي به الى النزهة ، حاذر أن يفلت منك ، بل الأفضل أن لا يخرج
البتة ... نعم ، الأفضل أن لا يخرج .
– اطمن .

كان كونكاس بوربا الآخر يبكي صاحبنا كونكاس بوربا . لم يشأ أن يراه
ساعة الرحيل . كان يبكي حقاً . لك أن تعد دموعه دموع جنون أو دموع
حب ... لقد كانت على كل حال تهطل فتروي أرضه المناسبة^(١) القديمة كقطرات
أخيرة من عرق روح غامضة تم أن تغيب الى الأبد .

(١) نسبة الى ولاية ميناس جيراس (المترجم) .

بعد بضع ساعات مرت بخاطر روبيان فكرة رهيبة . قد يُظن به انه دفع صاحبه الى هذه الرحلة دفعاً ، ليعجل موته وليعجل بذلك استنلاؤه على الارث ، ان كان في الوصية ارث . وأخذ ضميره يؤنبه في غير هواة . لماذا لم يحل بينه وبين السفر بكل ما أوتي من قوة ؟ وتراءت له جثة كونكاس بوربا صفراء رهيبة ، ترشقه بنظرات العداوة والانتقام . فقرر أن يرفض الارث إذا وافق الرجل منيته أثناء هذه الرحلة .

أما الكلب فكان يقضي وقته شاخراً عابياً محاولاً أن يهرب . أصبح لا يطيق ان ينام نوماً هادئاً ، فهو ينهض في الليل مرات كثيرة ، وأخذ يطوف أرجاء المنزل ، ثم يعود آخر الامر الى ركنه . وكان روبيان يناديه عند الصباح وهو في سريره ، فيهرع اليه الكلب فرحاً . كان الكلب يظن أن الذي ناداه هو صاحبه ، لكنه ما يلبث أن يدرك خطأه ، ومع ذلك كان يقبل ملاعبات روبيان ، ويرود عليها بمثلها ، كما لو كان روبيان يستطيع أن ينقلها الى صاحبه أو يستطيع ان يرجع صاحبه الى بيته . وأحب الكلب روبيان اذ كان عنده الصلة التي تربطه بحياته الماضية . لقد رفض في الأيام الأولى أن يأكل . ولاحتماله الجوع أكثر من الظمأ رضي ان يشرب الحليب الذي حاول روبيان ان يجرعه إياه ، فيظل اللبن غذاءه الوحيد مدة من الزمان . وكان يظل بعد ذلك ساعات برمتها صامتاً حزيناً مقعياً مثل كرة ، أو متمدداً واضعاً رأسه بين قائميه .

وحين جاء الطبيب صعق من تهور المريض ، وقال ان الواجب كان يقضي بمنعه من السفر ، فالمرت محقق لا محالة .

- محقق ؟

- عاجلاً أو آجلاً . هل اصطحب الكلب ؟

- لا ياسيدي . بقي الكلب معي ، وسألني صاحبي أن أعني بأمره ، انك

لا نستطيع أن تعلم كيف كان يبكي وهو يسألني ذلك ، يبكي ولا يفرغ من البكاء .

وأضاف روبيان يقول دفاعاً عن المريض :

- والحق ان هذا الكلب يستحق تقدير صاحبه ، لكأنه انسان لا كلب .
ونزع الطيب قبعته الكبيرة التي من قش ، فأصلح شريطها ، ثم ابتسم .
انسان ؟ كيف يمكن أن يشبّه بانسان ؟ فأصر روبيان على رأيه ثم بدأ يشرحه بقوله : لست أعني طبعاً أنه انسان كالأنامي ، غير أن له جوانب عاطفية ، بل وجوانب عقلية . اسمع مثلاً ..

همّ روبيان ان يحكي له أن ..

لكن الطيب قاطعه قائلاً :

- لا يا عزيزي ، ستحكي لي ذلك فيما بعد ، أما الآن فعلياً أن أعود مريضاً مصاباً بالتهاب في الجلد . اذا وصلت من صديقك رسائل ، ولم تكن رسائل خاصة ، فاني أود لو أراها ، هل توافق ؟

وختم كلامه وهو يخرج قائلاً :

- وتحياي وذكرياتي للكلب .

ان أناساً كثيرين أخذوا يهزأون بروبيان ، فهذه الوظيفة الغريبة التي يتولاها ، وهو أنه يحرس كلباً ، بدلاً من أن يحرسه الكلب ، وطفقوا يتنادرون عليه ، ويغمزونه بألقاب السخر . إلى أين وصل الاستاذ ؟ لقد صار حارس كلب . وكان روبيان يخشى رأي الناس وبدا ذلك له مضحكاً حقاً . فأخذ يهرب من نظرات الناس ، ويرمق الحيوان في اشمزاز ، ويضرع إلى جمع الأولياء ، حتى انتهى به الأمر إلى كره الحياة . ومقتها لولا أمله في ميراث مها يكن صغيراً ... إنه لمن المستحيل أن لا يترك له شيئاً يكون بمثابة ذكرى في أقل تقدير ...

١٠

بعد أسابيع ، وصلت إلى بارباسينا ، من ريودوجانيرو ، الرسالة التالية ،

مكتوبة بخط كونكاس بوربا :

« لاشك أن صحتي بدا لك غريباً . هناك أسباب شخصية منعتني من الكتابة إليك ، الخ . . سأعود في القريب ، لكنني أريد منذ الآن أن أفضي إليك بأمر سري ، سري جداً .

« من أنا ياروبيان ؟ أنا القديس أوغسطين . أعلم أنك ستبتسم ، لأنك جاهل ياروبيان . إن الصداقة الحميمة التي بيننا تسمح لي بأن أقول لك كلمة أشد فظاظة من هذه الكلمة ، لكنني أتساهل معك هذه المرة ، آخر مرة ، أيها الجاهل . . .

« اصغ إلي أذن أيها الجاهل . إنني القديس أوغسطين . اكتشفت ذلك أول أمس : اصغ واصمت . كل شيء في حياتنا متماثل ، أنا والقديس أوغسطين . كل منا قضى شطراً من حياته في المذبات والمهرطقة - ذلك إنني أضف بالمهرطقة كل ماعدا عقيدتي في الطبقة الانسية - وارتكبنا كلانا سرقات ، سرق هو في طفولته بضع تفاحات من قرطاجنة ، وسرقت أنا في ابان مراقبتي ساعة من صديقي براز كوباس . واه وامي كاتهما كانتا على جانب كبير من التقى والعفة . وكان يعتقد ، مثلي ، أن كل ما في الوجود خير ، وهذا ما يبرهن عليه في الفصل السادس عشر من الباب الرابع من « الاعترافات » ، مع فرق واحد وهو أنه كان يرى أن الشر انحراف في الارادة ، وضلال من ضلالات عصر متخلف ، واستسلام للخطأ ، لأن الشر لاوجود له أصلاً ، أما أنا فأرى أن الرأي الأول من هذه الأراء هو وحده صواب ، فكل شيء خير ، تلك هي الحقيقة .

« تلك هي الحقيقة أيها الجاهل . لا ترو لأحد ما افضيت به إليك من سر ، هذا اذا كنت لا تريد أن تفقد أذنك . اصمت ، واحتفظ بالأمر كله لنفسك ، واشكر العناية الإلهية أن لك صديقاً هو رجل عظيم مثلي ، وان كنت لا تفهم ذلك . سوف تفهمني آخر الامر . ومتى عدت إلى بارباسينا شرحت لك ، بعبارات بسيطة تناسب عقل حمار من الحمير ، ما معنى قولنا : رجل عظيم . وداعاً - بلغ عزيزي المسكين كونكاس بوربا مودتي . لا تنس أن تقدم إليه اللبن . . ولا

تنس غسله كما ألف . وداعاً . وداعاً . وسلمت للمخلص لك من قرارة قلبه .
« كونكاس بوربا »

كادت تسقط الرسالة من يدي روبيان . وقدّر بعد أن فكر بضع لحظات
انها قد تكون مزاحاً من صديقه ، فأعاد قراءتها . لكن القراءة الثانية لم ترد
على أن عززت شعوره الاول ، وهو ان صاحبه مجنون ، ما في ذلك ريب . مسكين
كونكاس بوربا . اذن لم تكن تصرفاته الشاذة وتقلبات مزاجه الكثيرة وحماساته
المباغثة التي لا داعي اليها ، وسورات حنانه المفرطة ، لم يكن ذلك كله إلا نذراً
بالهاوية التي سيتردى فيها عقله . لقد كان يموت اذن ميتين . ما كان أطيب قلبه
وأشد مرحة ! صحيح انه كان في بعض الاحيان وقحاً ، ألا يمكن ان يكون
مرد وقاحته الى مرضه ؟ وجفف روبيان عينيه اللتين اخضلتنا بالدموع من شدة
التأثر . ثم تذكر الارث الذي قد يتركه له صاحبه ، فما زاده ذلك إلا حزناً
على الصديق الغالي الذي سيفقده .

وأعاد قراءة الرسالة مرة اخرى في ببطء ، محلاً كل كلمة من كلماتها ، رجاء
أن يدرك المعنى كله ، فعسى أن ترجع في جملة الامر الى مزاح يزره الفيلسوف .
ان هذه الطريقة في شتمه على سبيل العبث ليست جديدة . لكن كل ما عدا ذلك
يعزز الشكوك الاولى وأسفاه . ووقف روبيان عند السطر الاخير وقد غزاه
اضطراب شديد . ألا يمكن أن يقال ان الوصية التي سجلها الرجل باطلة ، وان
المواريث التي عينها لا يؤخذ بها ، مادام الموصي على هذه الحال من الحبل العقلي؟
وانتاب روبيان دوار مفاجيء .

وبينا كانت الرسالة ما تزال مفضوذة بين يديه ، رأى الطبيب يدخل عليه
بغثة ويسأله عن اخبار المريض . لقد أنبأه موظف البريد بوصول رسالة .

— أهذه هي الرسالة ؟

— نعم ، ولكن ...

- لعلها تشتمل على أخبار خاصة لا يجوز الاطلاع عليها ؟
 - نعم ، تحمل إلي خبراً خاصاً ، خاصاً جداً ، يتعلق بامور شخصية . باذنك .
 قال روبيان ذلك ووضع الرسالة في جيبه . حتى اذا رأى الطبيب يذهب
 تنفس الصعداء . لقد أوشكت هذه الوثيقة الخطيرة التي قد تكشف عن حالة
 كونكاس بوربا العقلية أن يشيع أمرها . وبعد بضع لحظات ندم روبيان على
 ما فعل . لقد كان ينبغي له ان يطلع الطبيب على الرسالة ، وأخذ ضميره يؤنبه
 فرأى أن يبعث بالرسالة الى الطبيب ، فنادى عبداً ، لكنه ما لبث أن غير رأيه
 مرة اخرى لما وصل الخادم . قال لنفسه : ليس من الحكمة ولا من التبصر
 بالعواقب أن أفعل ذلك ، أن المريض سيعود قريباً - الأمر أمر أيام معدودة -
 وسيسأله عن الرسالة ، وسيتهمه بأنه لم يحفظ السر وبأنه خانه ... وسأوس عارضة
 لا تدوم طويلاً ...

قال للعبد :

- لا ، لا أريد شيئاً .

وعاد يفكر في الإرث مرة أخرى ، حسب مقداره . أيمن أن يقل عن
 عشرة قوننات؟ (١) مستحيل . سيشتري اذن قطعة من الارض ، وسيشتري بيتاً ،
 وسيزرع كيت أو كيت ، أو سيشرع في البحث عن الذهب . ولكن ماذا لو
 كان المبلغ اقل من ذلك ؟ خمسة قوننات مثلاً ... خمسة ؟ طبعاً لن يكون في
 هذه الحالة مبلغاً كبيراً ، ولكن يجب توقع ذلك . . . وهبه خمسة قوننات ...
 هل خمسة قوننات مبلغ قافه ؟ .. انها على كل حال خير من لا شيء ... خمسة
 قوننات ... المهم أن لا تلقى الوصية ... لا بأس بخمسة قوننات .

١١

في مطلع الأسبوع التالي قرأ روبيان - وكان يتلقى الجرائد من العاصمة بفضل

(١) القونت = ١٠ آلاف كروزيرو = مليون رايش (المترجم) .

اشتراكات كونكاس بوربا - قرأ في احداها هذا الخبر : « توفي امس السيد
يواكيم كونكاس بوربادوسانتوس ، بعد ان احتل آلامه بفلسفة تدعو إلى
الاعجاب . كان المرحوم على جانب كبير من العلم ، وقد حارب في غير هواة
ذلك التشاؤم اليأس الشاحب اللون الذي سيفقد إلينا ذات يوم لأنه مرض العصر .
كانت الكلمات الاخيرة التي نطق بها هي أن الألم ليس إلا وهماً وأن بانجلوس ليس
من الحماقة في الدرجة التي زعمها فولتير ... وكان حين نطق بهذا الكلام في أوج
الهديان . ولقد ترك ثروة طائلة . ووصيته في بارباسينا » .

١٢

قال روبيان متهدأ :

- لقد تخلص من العذاب .

ثم لم يلبث ان ادرك ، وهو ينعم النظر في النبأ ، انه يصور الرجل في
صورة من ينعم بالاحترام والتقدير بين الناس كافة ، بل انه ينسب إليه شرف
القيام بنضال فلسفي خطير . وما من اشارة إلى الجنون . بالعكس ، ان نهاية
المقالة يفهم منها انه لم يهد الا في الساعة الاخيرة ، وذلك بتأثير المرض . الحمد
لله . وأعاد روبيان قراءة الرسالة ، فبدأ له ان افتراض المزاج أرجح فأعترف بأن
كونكاس بوربا كان لا يخلو من روح الفكاهة . لاشك انه أراد ان يهزأ به .
لقد ذكر القديس أوغسطين وكان يمكن أن يذكر القديس أمبرواز أو القديس هيلير .
انه كتب إلى روبيان رسالة معهاة من اجل ان يحيره ، حتى اذا عاد أخذ يضحك
عليه للحيلة التي دبرها له . رحمة الله عليك أيها الصديق . لقد كان سليم العقل ،
كان سليم العقل لكنه مات . انه ارتاح من الألم الآن .

ولما رأى الكلب قال متهدأ :

- مسكين يا كونكاس بوربا لو علمت ان صاحبك قد مات ...

ثم قال مخاطب نفسه :

« الآن وقد نحررت من كل التزام ، سأعطي هذه الخادم آنجليكا الطيبة » .

١٣

ذاع النبا في المدينة في كلها ، وأرسل الحوري والصيدلي والطبيب يسألون عن صحة الخبر . وجاء موظف البريد الذي قرأ النبا في الصحف ، جاء بنفسه يحمل إلى روبيان رسالة وصلته بالصندوق . قال لنفسه : قد تكون الرسالة من المتوفي (رغم انه لم يتعرف خطه) .

وبينا كان روبيان يفض الرسالة ، ويركض يبصره إلى التوقيع فيقرأ :
براز كوباس . قال له موظف البريد :

— اذن أعمد صاحبنا سلاحه آخر الأمر ؟

وكانت الرسالة بطاقة بسيطة ، هذا نصها :

« لقد توفي صديقي المسكين كونكاس بوربا أمس في بيتي وكان قد وصل منذ مدة متسخاً مزق الثياب . هذه نتيجة من نتائج مرضه . وقبل أن يموت رجاني ان أكتب إليك لأبلغك نبأ وفاته ، ولأنقل إليك أيضاً جزيل شكره . أما ما عدا ذلك فسيتم وفقاً للاصول القانونية المتبعة » .

إن الشكر قد جعل وجه صاحبنا يمتقع . غير أن الاصول القانونية ردت إليه ألوانه . طوى روبيان الرسالة دون أن يقول شيئاً . وأخذ موظف البريد يتكلم منتقلاً من موضوع إلى موضوع ، ثم انصرف . عندئذ أمر روبيان أحد العبيد أن يمضي إلى السيدة آنجليكا ليعطيها الكاب ، وعلمته أن يقول لها إنه يهدي إليها هذا الكلب زيادة على ما عندها من كلاب مادامت تحب الحيوانات هذا الحب كله ، وأوصاها أن تعني به العناية التي ألفها ، وأضاف أن اسم الكلب هو اسم صاحبه المتوفي نفسه كونكاس بوربا .

كاد روبيان يسقط على قفاه حين فضت الوصية . هل حذرت السبب ، أيها القاريء ؟ لقد جعله المتوفي الوارث الشرعي الوحيد لثروته كلها . لم يكن حظ روبيان من الميراث خمسة قونتات ، ولا عشرة ولا عشرين ، بل كان الثروة كلها ، والمسال بكامله ، الاملاك جميعها بغير استثناء ، البيوت التي يملكها في العاصمة ، وبيتاً آخر في بارباسينا ، العبيد ، الفوائد ، أسهم « بنك البرازيل » ، وغيره من الشركات ، الجواهر ، النقود ، الكتب ، كل شيء آل الى روبيان ، لم يحول منه جزء وليس هناك موارث خاصة ، ولا هبات ، ولا اقتسام من أي نوع . ولم يفرض الموصي على وارثه إلا شرطاً واحداً ، هو أن يحتفظ إلى الابد بكله العزيز المسكين كونكاس بوربا الذي خلع عليه اسمه دليلاً على ما يحمله له من حب . انه يطلب من روبيان أن يعامل الكلب كما لو كان الكلب هو الموصي نفسه ، وأن لا يدخر جهداً في توفير الرخاء له وفي حمايته من الامراض ومن الهرب أو السرقة وفي الحيلولة بينه وبين كل شر يراه به ، وأن يعنى به عنايته بانسان لابلب . وألزم روبيان أيضاً بأن يدفن الكلب ، حين يوافيه أجله ، في أرض يحسن اختيارها لهذا الغرض ، وأن يجعل له قبراً مهيباً يغطيه بالازهار والنباتات العبقية ، وعليه كذلك أن يخرج عظام الكلب عندما يجين الوقت فيضعها في صندوق من ثمن الخشب ، ويضع الصندوق في أكرم مكان من بيته .

ذلك هو الشرط الذي اشتملت عليه الوصية . وقد رآه روبيان طبيعياً جداً وهو في غمرة اهتمامه بالارث كان لا يرجو الا نصيباً يسيراً ، فاذا بالوصية تضع بين يديه الميراث كله . انه لا يستطيع ان يصدق . ولولا ان الناس صافحوه مهئين مرات كثيرة ، في قوة تعدل قوة التهانى ، لما أيقن انه في ليس حلم . قال له الصيدلي الذي كان يقدم ادوية كونكاس بوربا :

- انتفع بحظك السعيد ايها السيد .

ان يكون وارثا فذلك وحده خير ... فكيف وهو الوارث الشرعي الوحيد ..
لكأن هذه الكلمة وحدها تضخم الميراث . لقد ورت كل شيء ، كل شيء على
الاطلاق ، لا تنقص منه ملعقة قهوة . ترى كم يبلغ الميراث كله ؟ كذلك
تساءل روبيان . البيوت ، الدخل السنوي ، الاسهم ، الملابس ، الاطباق ،
اللوحات التي كان كونكاس يربها بملكها في ريو ، لأنه صاحب ذوق ، ولأنه
كان رحمه الله ضليعاً في شئون الفن . والكتب ؟ لاشك انه يملك عدداً كبيراً
من الكتب ، لأنه كان يستشهد دائماً بكتب كثيرة . ولكن ماذا يبلغ هذا
الميراث كله ؟ مائة قونت ؟ ربما مائتين ؟ ليس ذلك بمستحيل ؟ وليس بمستغرب
ان يبلغ ثلاثمائة قونت . ثلاثمائة قونت ثلاثمائة . ودروبيان لو يرقص في الشارع .
لكنه هداً نفسه . وسواء أكان المبلغ مائتي قونت أم ثلاثمائة ، فهو على كل حال
حلم يهبط عليه من السماء ، حلم لن ينقضي .

وأخيراً انبثقت ذكرى الكلب من أعصار الافكار التي كانت تجتاز رأس
صاحبنا . لقد رأى روبيان ان الشرط الذي اشتملت عليه الوصية كان طبيعياً
جداً ، وان كان نافلاً ، مادام هو والكلب صديقين . أليس من الأمور البديهية
أن يقظنا بيتاً واحداً ابقاء على ذكرى صديقها المشترك الذي مات وحقق السعادة
لها كليهما ؟ لاشك ان الشرط الذي اشتملت عليه الوصية يضم أموراً غريبة ...
حكاية الصندوق واشياء أخرى غيرها بما لا يعرفه جيداً ... لكنه سينفذ كل
شيء ولو اطبقت السماء على رأسه ... واستدرك روبيان يقول . لا ... لا ...
بل سأنفذ كل شيء بمعونة الله . ألا ما اطيعه من كلب ! ألا ما أروعه من كلب !
لم ينس روبيان انه حاول غير مرة ان تكون له ثروة ، وان محاولاته باءت
كلها بالاخفاق في مهدها . كان يظن ان النحس يخالفه مع ان الواقع غير ذلك
إذن . صدق المثل القائل : كل شيء يمكن بمعونة الله . حتى هذا الثراء الذي
حصله لم يكن مستحيلاً .

قال بصوت عال :

— أي شيء مستحيل ؟ لا شيء بمستحيل ؟ الا انخداع الله ، ان ... الله لا يكذب وعده .

كان روبان يسير على غير هدى ، يصعد شارباً ويهبط آخر ، من دون ان يتجه الى بيته ، ومن دون ان يكون له هدف بعينه . وفجأة قامت في ذهنه مشكلة خطيرة . أقيم في ريودو جانيرو أم يمكث في بارباسينا ؟ انه يريد ان يبقى في بارباسينا ليلمع نجمه بعد ان كان كلباً ، وليضع القذى في عين الذين كانوا الى ذلك الحين لا يقدرونه ، وخاصة اولئك الذين سخروا من صداقته لكونكاس بوربا . لكنه لم يلبث ان انبعثت في خياله صورة ريودو جانيرو التي سبق أن عرفها بفاتها وتدفق الحياة فيها ومسارحها التي لا تعد ولا تحصى ، دع عنك نساءها الجميلات اللواتي « يلبس ازياء فرنسية » . واختار أخيراً ان يقيم بريودو جانيرو . ان في وسعه دائماً ان يزور مسقط رأسه متى أراد .

١٦

صاح وهو يدخل الى البيت :

— كونكاس بوربا . كونكاس بوربا . هيه . كونكاس بوربا .

لا اثر للكلب . وعندئذ تذكر انه اهداه الى السيدة آنجليكا . فهرع يذهب الى بيتها الذي يقع في مكان غير قريب . وفي أثناء الطريق لم تكف الهواجس السود ، والأفكار الغريبة عن مهاجمة رأسه .. ربما هرب الكلب .. ربما ذهب احد اعدائه الى منزل آنجليكا بعد أن علم بأمر الوصية ، فسرق الكلب ليخفيه أو ليقتله . ماذا يكون مصير الميراث في هذه الحالة ؟ . ومرت امام عينيه سحابة سوداء .. ثم اخذ يرى الامور رؤية أوضح .

قال لنفسه : « ليس لي بامور القانون علم ، ولكن يخيل الي مع ذلك انه لا شأن له بهذا كله . فالوصية تفترض ان الكلب على قيد الحياة وانه في البيت ،

فاذا كان قد هرب او مات ، فاننا لانستطيع ان نخلقه . ويتوتب على ذلك ان القصد الاول .. ولكن اعدائي يستطيعون مع ذلك أن يصطنعوا العلل . اذا رأوا أن الشرط الذي تشتمل عليه الوصية لم ينفذ .

وقطر جسم صاحبنا في تلك اللحظة عرقاً بارداً ومرت أمام عينه مرة اخرى سحابة مظلمة . واخذ قلبه يخفق خفقانا قوياً . بدأ الشرط الذي اشتملت عليه الوصية يبدو له شاذاً غريباً . اصبح لا يدري الى أي ولي من الأولياء يضرع .. ونذر قداساً ، نذر عدة قداديس ، نذر عشرة قداديس . ولكن ها هو ذا يوشك أن يضل . فأسرع في سيره . ها هو ذا يلح احداً . أليست هي السيدة آنجليكا نفسها ؟ نعم ، انها هي بعينها ، واقفة على باب بيتها تبسم .

— ما اغرب وجهك يا صديقي المسكين ! لو رأك احد وانت تهز ذراعك على هذه الصورة لحسبك مجنوناً .

١٧

سألها روبيان وهو يتظاهر بالهدوء ، لكن وجهه شاحب :

— ابن الكلب يا صديقي الطيبة ؟

فقلت له :

— ادخل واجلس ، أي كلب ؟

قال روبيان وقد ازداد وجهه شحوباً :

— أي كلب ؟ الكلب الذي ارسلته اليك . أنسيت انني ارسلت اليك كلباً

ليستويح هنا بضعة ايام ، ثم .. كلب له قية كبيرة .. انه ليس لي .. وقد

بعثت به اليك من اجل ان .. أنسيت ؟

قلت مجحبة بسرعة :

— آ.. لا تحدثني عن هذا الحيوان .

السيدة آنجليكا امرأة قصيرة ، لا تكف عن الارتعاش ، واوداجها تنتفخ من الانفعال . رجته مرة أخرى أن لا يسألها عن الكلب .

- ولكن ماذا صنع لك ياسيدة آنجليكا ؟

- ماذا صنع لي ؟ وماذا يستطيع ان يصنع لي هذا الحيوان المسكين ؟

انه لا يأكل شيئاً ولا يشرب شيئاً ، ويظل يبكي كطفل ، ولا يبني يبحث عن مخرج يفر منه .

فتنفس روبيان الصعداء . وظلت السيدة آنجليكا تصف شقاء الكلب ،

لكن روبيان اصبح لا يبغني اليها ، فهو يحترق شوقا الى رؤية الكلب .

- انه هناك في آخر الدار ، في الحظيرة الكبيرة ، تركته هنالك وحده

حتى لا تضايقه الكلاب الاخرى . ولكن هل جئت لأخذه ؟ ليس هذا ما قيل لي . لقد فهمت انه أصبح لي ، انه هدية منك .

- لسوف اعطيك ستة من الكلاب إذا استطعت . اما هذا فلا يمكنني ان

اهديه اليك . ما انا بصاحبه ، وانما عهد به الي . لا تخافي .. سوف اعطيك واحداً من صغاره . احسب ان الخادم نقل اليك رسالتي مشوهة .

وانجه روبيان الى الحظيرة بخطى كبيرة ، تتبعه آنجليكا التي كانت ترافقه

بدلاً من أن تقوده . هنالك كان الكلب متمدداً بعيداً عن طعامه لم يمسه .

وكانت هناك كلاب وطيور تتواكب من كل جهة عند مرورهما بها . وعلى مقربة

من الحظيرة كان ثمة قن الدجاج ، وإلى جانب القن بضعة خنازير . وبعد

الخنازير بقرة راقدة وسنى ، ودجاجتان تنقران بطنها بحثاً عن القردان .

قالت السيدة آنجليكا :

- انظر ما اجمل طاوسي !

لكن عيني روبيان لا تنظران الا الى كوناكس بوربا الذي كان يتشمم

الارض نافد الصبر ، فما ان ازاح عبر باب الحظيرة حتى وثب الكلب على

روبيان . الا انه لمشهد هذيان .. روبيان يداعب الكلب .. والكلب يرد على

مداعباته بعواء ونظ ، ويلعق يديه .
- يا لهي ... لشد ما يجبك !
- يجني فوق التصور يا عزيزتي الطيبة آنجليكا . الى اللقاء . أعدك بواحد
من صفاره .

١٨

حين عاد روبيان والكلب الى بيتها ، شعرا فجأة بحضور المتوفي . أحسا كلاهما
بأنها يسمعان صوته . وبينما كان الكلب يتشمم الاركان والزوايا جلس روبيان
على المقعد الذي جلس عليه يوم شرح له كونكاس بوربا موت جدته شرحاً علمياً ،
وراح يستعيد بذاكرته الحجج التي أدلى بها الفيلسوف ، لكنه لم يستطع ان
يتذكرها الا نتفاً متفرقة مضطربة . حاول لأول مرة ان يركز فكره في تلك
الحكاية الرمزية ، حكاية القبيلتين الجائعتين ، ففهم مغزاها . « للغالب البطاطا » .
انه يسمع الآن ، بوضوح ، ذلك الصوت الأخن ، صوت الراحل العزيز ، وهو
يعرض موقف القبيلتين ، والصراع الذي قام بينهما ، واسباب هذا الصراع ، وفناء
احدهما ، وانتصار الاخرى . ودمدم يقول بصوت خافت :
- للغالب البطاطا .

الامر بسيط غاية البساطة ، واضح غاية الوضوح . ورمق سرواله العتيق
الأغبر ، وردنجوته المرقع ، فقال في نفسه انه كان منذ قليل في عداد المغلوبين ،
في عداد الفقاعات ، لكن ذلك قد مضى وانقضى ، وهو الآن من الغالبين .
لا شك ولا ريب . لقد خلقت البطاطا للقبيلة التي تفني الاخرى ، حتى تستطيع
أن تجتاز الجبل وأن تجني البطاطا التي على سفحه الآخر . هذه هي حاله ، لسوف
ينزل من بارباسينا ، ليجني بطاطا العاصمة ويتذوقها . ويجب عليه ان يكون قاسياً
لا يرحم . أليس هو القادر القوي ؟ وانتصب واقفاً على حين فجأة ، ورفع ذراعيه
في حماسة ، وصاح بأعلى صوته :

- للغالب البطاطا !

ان العبارة لتعجبه قطعاً ، وانه ليجدها محكمة بارعة . لقد جمعت بين الایجاز والبلغة ، والعمق والصدق . وراح يتخيل البطاطا في جميع الصور الممكنة ، ويصنفها على حسب مذاقها وشكلها وقيمتها الغذائية ، وشبع مقدماً من مائدة الحياة . لقد آن له أن يتخلص من الاطعمة الرديئة التي لا تزيد على أن تخادع الجوع ، والتي كانت غذاءه حتى الآن . له بعد اليوم الطعام الغني ، الطعام القوي ، الطعام الوافر الغزير . لسوف يأكل حتى يموت من فرط الأكل ، فإن مات مات في طنافس الحرير . ووعده نفسه مرة اخرى أن يكون قاسياً لا يرحم ، وتذكر العبارة التي تلخص مغزى حكاية القبيلتين ، بل تخيل انه سينقش لنفسه خاتماً يكون شعاره : للغالب البطاطا .

ومرعان مانسي مشروع الخاتم . لكن العبارة نفسها ظلت ماثلة في ذهنه عدة أيام . للغالب البطاطا . انه لم يفهمها قبل الوصية . لقد وجدها غامضة لا تفسر . حقاً ان الضوء يختلف باختلاف النقطة التي تراه منها ، وان خير وسيلة لتقدير السوط أن تمسك بقبضته .

١٩

يجب أن لا يفوتنا أن نذكر أن روبيان تولى اقامة قداس على روح الفقيد ، وان كان يعلم أو يقدر أن الراحل العزيز لم يكن كاثوليكياً . ان كونكاس بوربا لم يجزأ بالكهنة ، لا ولا انتقد العقيدة الكاثوليكية . لكنه لم يكن يتحدث قط لا عن الكنيسة ولا عن المؤمنين . أضاف الى ذلك أن ما كان يجمهه لمذهب الطبيعة الانسية من احترام لا يتفق كثيراً مع الديانة الكاثوليكية في نظر الوارث . لكن هذا لم يمنع روبيان من اقامة القداس ، لأنه رأى ان ارادة المتوفي لا شأن لها في الأمر ، ولأن القداس لا يزيد على ان يكون تكريماً دينياً للراحل يتولاه الأحياء . وكان يرى عدا ذلك أنه ان لم يُقيم ، وهو الوارث الشرعي الوحيد

للراجل ، الصلوات التي لا يُضَنَّ بها على أي انسان مها يكن بانساً أو مجيلاً ،
عرض نفسه لفضيحة في المدينة كلها .
ولئن امتنع بعض الناس عن المجيء حتى لا يروا النصر الذي فاز به روبيان ،
فان عدداً كبيراً منهم - ليس من أهورهم شأناً - قد شهد القداس ، ورأى
بأم العين الحزن الصادق الذي كان يضني روبيان ، معلم المدرسة سابقاً .

٢٠

منذ قطعت تصفية الميراث مراحل كافية ، أصبح روبيان يهتم بأمر سفره الى
مدينة ريودوجانيرو التي قرر أن يستقر فيها متى انتهى كل شيء . صحيح انه
ما يزال مرتبطاً بالمدينتين كليهما ، ولكن من الممكن التنبؤ بأن الامور ستجري
بخطى سريعة .

٢١

في محطة فاسوراس ركبت صوفيا القطار مع زوجها كرستيانو دو أليدا لامي باليا .
ان كرستيانو رجل على جانب من السمعة ، في الثانية والثلاثين من العمر . أما
صوفيا فهي بين السابعة والعشرين والثانية والعشرين . وقد احتل المقعدين الحاليين
الى جانب روبيان ، فرتبا السلال ورزم التذكارات التي جاء بها من مدينة
فاسوراس حيث مكثا أسبوعاً ، ثم عقدا أزرار معطفها وأخذتا يتبادلان بضع
كلمات بصوت خافت .

وبعد سير القطار لاحظ باليا صاحبتا روبيان الذي كان وجهه الهاديء الرضي
مختلفاً عن وجوه المسافرين الآخرين الذين كانت وجوههم لا تتم الا عن الضجر
والضيق . فبدأ كرستيانو الحديث قائلاً ان الاسفار في القطار متعبة جداً ، فأيد
روبيان رأيه ، وزاد عليه أن القطار متعب وممل حتى لمن تعود السفر على ظهور
الحير . لكننا لا نستطيع أن ننكر أن السفر بالقطار تقدم ، فأجاب باليا :
- صحيح . انه تقدم كبير .

– لملك مزارع ؟

– لا يا سيدي

– أتقيم في المدينة ؟

– فاسوراس ؟ لا وإنما قضينا فيها ثمانية أيام . نحن نقيم في ريو دو جانيرو .

انني لأحس بأي ميل الى الزراعة ، رغم أنني أقدر هذه المهنة حق قدرها .

وانتقل الرجلان من الحديث عن الزراعة إلى الحديث عن تربية المواشي ،

ثم تطرقا الى مشكلة الرقيق ، ومنها انتقلا الى الكلام في السياسة . فلم ينس

كرستيانو أن يلعن الحكومة التي ادخلت في خطاب العرش عبارة عن امتلاك

العبيد ، وأدهشه أن روبيان لم يشاطره هذا الاستنكار . ذلك أن المعلم السابق

كان يعترم أن يبيع جميع ما أورثه كونكاس بوربا من عبيد ، إلا واحداً كان

بثابة خادم . وكان يرى أن ذلك قد يسبب له بعض الحسارة ، لكن باقي الميراث

يعوض هذه الحسارة الصغيرة تعويضاً كبيراً . ثم أن خطاب العرش ، وكان قد

قرأه ، يطالب باحترام الارزاق المكتسبة ، فإذا يعنيه من امر العبيد الجدد اذا

كان لاينوي أن يشتري عبيداً جدداً ؟ ولسوف يجرح الخادم الذي يحتفظ به متى

ملك تلك الميراث . وغير باليا موضوع الحديث وطفق يتكلم في السياسة ،

ومجلس النواب ، وحرب باراغواي ، أي في أمور عامة لم يكن روبيان يعنى بها

الا قليلاً . وكان يبدو على صوفيا أنها تصغي الى الحديث اصغاء متخفياً . وكانت

عيناها وحدهما تسطعان ، وهي لا تجهل جمالها ، فكانت تنظر بها تارة الى زوجها وتارة

الى روبيان .

وبعد انقضاء عشرين دقيقة في هذا الحديث ، سأل باليا صاحبه قائلاً :

– أنت باق في ريو أم أنت تنوي العودة الى بارباسينا ؟

– في نيتي أن أستقر بـريو . فقد سئمت الريف ، وأريد أن أنتفع بالحياة ،

حتى لقد اسافر الى أوروبا ، لكنني لما أقرر شيئاً في هذا الصدد بعد .

فالتفت عينا باليا حين سمع هذا الكلام ، وقال :

- فكرة رائعة . لو كان في وسعي أن اسافر الى اوروبا لفعلت . غير انني لا استطيع ذلك الآن . لعلك ذهبت الى اوروبا من قبل ؟
- لا ، لم أذهب من قبل . ولذلك راودتني هذه الفكرة حين غادرت بارباينا . يجب على المرء ان يتحرك قليلاً في هذه الحياة . لأدري متى احقق هذا المشروع ، لكن لاشك في أنني سوف .. ؟
- عين الصواب . يقال ان في تلك البلاد أموراً رائعة ، ولا عجب فهم اعرق منا كثيراً .. لكننا سندركهم في ذات يوم . ونحن في بعض الأمور نضارعهم ان لم نفقههم .. أنظر الى عاصمتنا مثلاً .. لست أدعي انها تنافس باريز أو لندن .. لكنها جميلة جداً ، وسترى ..
- سبق ان رأيتها .
- سبق ؟
- نعم . منذ زمان بعيد جداً .
- ستراها اجمل مما كانت . لقد تحقق فيها كثير من التقدم في الآونة الاخيرة . وحين تذهب بعد ذلك الى اوروبا ..
- هل زرت اوروبا ياسيدي ؟
- كذلك قاطع رويان صاحبه ، متجهاً بالكلام الى صوفيا .
- كلا ياسيدي .
- فاعتذر كرستيانو قائلاً :
- نسيت ان اعرفك بزوجتي .
- فانحنى رويان باحترام ، ثم التفت الى الزوج وقال له مبتسماً :
- ألا تعرفها بي أيضاً ؟
- فابتسم باليا كذلك ، وادرك ان كلا منهما ما يزال يجهل اسم الآخر ، واسرع يذكر اسمه .
- كرستيانو دي ألميدا أي باليا .

- بدرو روبيان دي ألفارنجا ، لكن جميع الناس يسموني روبيان .
وأراحها تبادل الاممين مزيداً من الراحة . ومع ذلك ظلت صوفيا لا تشارك
في الحديث . لكنها تركت الكلام لنظرها التي ازدادت الآن فتنة . كانت
روبيان يتكلم ويضعك ، ويضفي الى باليا متأثراً بهذه الصداقة بينه وبين رجل
لم يره قبل ذلك أبداً . حتى لقد قال لصاحبه انه من الممكن ان يقوموا بهذه
الرحلة الى اوروبا معا ، فأجابه باليا بقوله :
- لكنني لا استطيع ان اسافر قبل عدة سنين .

- لست اقول أن نساfer الآن ، فأنا أيضاً لا استطيع أن اسافر فوراً .
والرغبة التي قامت في نفسي حين غادرت بارباسينا لا تعدو ان تكون رغبة
بغير تاريخ محدد . لا شك أنني مسافر ، اما متى اسافر فذلك لا يعلم
الا الله .

فاتهز باليا هذه الفرصة وقال :

- وأنا ايضاً حين اقول انني مسافر بعد بضع سنين ، فانما اريد أن
اقول ايضاً : إن شاء الله . وقد لا يتعدى الأمر بضعة شهور . ان الله وحده
يعرف ما هو خير لعباده .

قال ذلك وهو يصطنع ما يناسب هذا الكلام من وضع الاذعان والتسليم .
ولكن ، لا صوفيا التي كانت تنظر الى قدميها ، ولا روبيان الذي لم يصغ
الى هذه الكلمات الأخيرة ، لاحظ ذلك . لقد كان روبيان يجترق شوقا الى ان
يقص على رفيق السفر قصة السبب الذي ينقله الآن الى العاصمة . كانت الرغبة
في الافضاء بالسر تحرق شفتيه حرقاً ، ولم يكن هنالك الا قليل من التردد
يجول بينه وبين البوح بكل شيء ، وكان هذا التردد يضعف قليلا قليلا .
علام لا يتكلم في الأمر ؟ ما هو بالجريمة على كل حال . ثم انه سيذيع ويعرفه
الناس كافة .

دمدم يقول أخيراً :

- هناك قضية ميراث يجب أن أفرغ منها قبل كل شيء .
- من والدك المحترم ؟
- لا .. من صديق . . صديق عظيم حرص على اكون وارثه
- الشرعي الوحيد .
- آ . .

- الوحيد . ثنى أن امثال هذا الصديق لم يبق منهم في هذه الايام كثير . كان أحسن الرجال ، يالدماعه الجبار ! يالذكائه الخارق ! يالثقافته الواسعة ! كان في آخر حياته مريضاً جداً ، وهذا هو السبب فيما كان يتصف به سلوكه من عنف ومن غرابة في بعض الاحيان . هل فهمت ؟ رجل غني مريض ، لا عائلة له ، فمن الطبيعي ان يكون صعب المراس . لكنه من ذهب على كل حال ، « من ذهب خالص » . اذا احترم احداً احترمه الى الابد . كنا صديقين حميمين لكنه لم يقل لي شيئاً . وبعد ذلك ، في ذات يوم ، حين فضت وصيته على اثر موته ، انضح انه اوصى لي بجميع املاكه . هذه هي الحقيقة . جعلني الوارث الوحيد . لاحظ ان الوصية لا تشمل على أي هبة لأحد غيوري . ويجب ان أذكر أيضاً انه لم يكن قد بقي من أهله أحد ، والشخص الوحيد الذي كان يمكن ان يصبح قريبه هو انا ، لو انه تزوج اختي ، لكن اختي ماتت ، رحمها الله ، وبقيت أنا صديقه الوحيد . غير انه عرف كيف يبرهن على صداقته . أليس كذلك ؟

- من غير اي شك .

وكانت نظرة باليا ملتمة ، فاذا هي تصبح الآن ساهمة ، اما روبيات فكان يحس في غمرة حماسه بأنه انتقل الى جنة مسحورة ليس لتفريد العصافير فيها من هدف الا ان تبارك حظه السعيد . لقد كان يسحره حقاً ان يتحدث عن الميراث . واعترف بأنه ما يزال مجهل مبلغ الميراث ، لكنه يستطيع ان يحسب على وجه التقريب أن ...

فقاطعه كرستيانو يقول :

– خير ان لا تحسب البتة . لن يقل المبلغ عن مائة قونت على كل حال ،
أليس كذلك ؟
– طبعاً !

– ما عليك والحالة هذه الا ان تنتظر هاديء البال . وهناك شيء آخر ...
– لا أظن ان المبلغ يقل عن ثلاثمائة قونت ..
– قلت هناك شيء آخر : يجب عليك أن لا تتحدث في هذا الامر الى أناس
لا تعرفهم . انني أشكر لك الثقة التي تفضلت فأوليتها ، لكنني أرى أن لا تبوح
بامورك مثل هذا البوح لأول من تلقاه من الناس . ان اللطف والتحفظ لا يجتمعان
دائماً .

٢٢

حين وصلا إلى ريو دو جانيرو افتروا أشبه بصديقين . وقد قال باليا لصاحبه
ان بيته في سانتاتيريزا تحت تصرفه . ومضى المعلم القديم ينزل فندق « الاتحاد »
وتواعد الرجلان أن يتزاورا .

٢٣

طلع الغد على روبيان وهو أشد ما يكون شوقاً إلى رؤبة الصديق الجديد
الذي انعقدت أواصر الصداقة بينه وبينه اثناء السفر ، وقرر ان يزوره في بيته
بسانتاتيريزا بعد الظهر . لكن باليا هو الذي جاء يزور صاحبه منذ الصباح . فقد
أراد أن يقدم إليه تحياته ، وأن يطمئن الى ان حالته على ما ينبغي لها ان
تكون ، وأن يسأله ألا يؤثر أن يقيم في بيته الواقع على الجبل ؟ رفض روبيان
أن ينتقل إلى منزل صاحبه ، لكنه ، قبل الحامي الذي دله عليه ، وهو يمت
الى باليا بقربى بعيدة ، وبعد من ألمع الحامين بربو رغم انه ما يزال في عنقوان
الشباب .

- انتفع به مادام لا يطلب الاجور التي تتناسب وصيته حتى الآن .
ودعا روبيان صاحبه إلى تناول طعام الغداء ، وصحبه الى مكتب قريبه ،
غير عابء باحتجاجات الكاب الذي كان يريد أن يرافقها . وسويت الامور
بسرعة .

قال له باليا وهو يستأذنه بالانصراف :

- ستأتي الى منزلي بسانتاتيريزا هذا المساء للعشاء . لا ... لا تتردد . اني
منتظر كقطعاً .
قال ذلك وانصرف .

٢٤

كان روبيان مرتبكا ، بسبب صوفيا خاصة . انه لا يعرف كيف يتصرف مع
النساء . وذكر عندئذ - والذكرى جاءت في محلها - العهد الذي قطعه على نفسه ،
وهو ان يكون قوياً لا يضعف . فذهب الى العشاء . ولقد كان موفقاً في
الهامه . أين كان في وسعه ان يقضي لحظة امتع من هذه اللحظة ؟ ان صوفيا
في بيتها اجمل منها كثيراً في القطار . في القطار ، كان معطفها يغطيها ، فما يرى
منها المرء الا عينيها المتوقدتين . اما في سانتاتيريزا ففي وسع المرء ان يعجب
لا بعينيها وحدهما بل بها كلها . كانت ترتدي ثوباً أنيقاً من الكتان يكشف عن
يديها الفاتنتين ، بل ويكشف قليلا عن ذراعيها . هي الآن ربكة البيت ،
تتكلم كثيراً ، وتحيط الضيف بألوان العناية والرعاية . فحين انصرف روبيان
كان في دوار .

٢٥

وتعشى في بيتها بعد ذلك كثيراً ، فكان ييدر في كل مرة خجولا متحفظاً .
ولئن اضعف التعود شيئاً فشيئاً حماسه الايام الاولى ، فان شعله متقدة لا يستطيع

اطفائها كانت ما تزال تختبئ في قلبه ، ان صح انها تختبئ حقا . صحيح ان هناك امورا أخرى ظلت تشغل بال صاحبنا مدة تصفية الميراث ، وخاصة حين طعن أحدهم في الوصية بحجة ان كونكاس بوربا لا يستطيع أن يوصي لأنه مجنون ، لكن صحة الوصية ما لبثت ان أُقرت ، وسرعان ما سوي الميراث . واحتفل باليا بالحادث ، فدعا إلى عشاء في بيته حضره عدا الاصدقاء الثلاثة ، المحامي وقاضي التحقيق وأمور الاجراء . وكانت عينا صوفيا في ذلك المساء أجمل عينين في العالم .

٢٦

« لكأنها تبدلان في كل يوم . مارأيتها قبل الآن كما كانتا هذا المساء » .
كذلك قال روبيان لنفسه وهو يهبط الجبل .
ثم جاء يوم الانتقال من الفندق ، وأقام روبيان في منزله بجي بوتافوجو ، وهو واحد من البيوت التي ورثها . وكان لا بد من تأثيث البيت ، فقدم باليا لصاحبه في هذه المناسبة ، مرة اخرى ، خدمات كبرى ، اذ أرشده بذوقه ونصائحه ، وصحبه من مخزن إلى مخزن ، ورافقه إلى محلات البيع بالزاد . وكانت صوفيا تصحبها احيانا ، ذلك ان هناك اشياء لا تحسن اختيارها الا امرأة ، على حد قولها . فكان روبيان يسعد بصحبها سعادة عظيمة ، ويلجأ الى جميع انواع الجبل ليطلب مدة وجودها الى جانبه ، فهو يطرح اسئلة لا محل لها ، ويخترع حاجات وهمية من أجل أن يطول الوقت الذي يستغرقه الشراء . وكانت صوفيا تقبل ذلك راضية مسرورة ، ولا تني تريبه الاشياء ، وتتكلم ، وتشرح .

٢٧

استعرض روبيان مخياله كله بعد أن احنسى قهوته جالسا في المكان الذي

تركناه فيه منذ قليل ، مسرّحاً بصره إلى بعيد ، إلى بعيد جداً . وظل يعبث
بجزام ثوبه . وتذكر أخيراً ان عليه ان يقوم ليرى كونسكاس بوربا ويفك رباطه .
فهذا واجب عليه ان يقوم به كل يوم . فنهض ومضى إلى آخر الحديقة .

٢٨

قال لنفسه وهو يسير : « ولكن ماهذه الرغبة التي تطاردني ؟ انها متزوجة ،
وهي مع زوجها على خير وفاق ، وزوجها صديقي ، وهو يثق بي اكثر من ثقته
بأي انسان آخر ... فقيم هذه الغوايات ؟ »

وتوقف عن المسير ، فتوقفت الغوايات أيضاً ... ياله من قديس كالقديس
انطون ! قديس (علماني) . لكنه يختلف عن ذلك المعتكف في ان وساوس
الشیطان كانت تستطيع بشيء من الالاح ان تعجبه في آخر الامر . ومن ثم هذه
التناقضات الدائمة :

« ما اجملها ! يظهر أنها تحبني حباً شديداً . ان لم يكن هذا حباً فما هو
الحب ؟ انها تشد على يدي بكثير من اللذة وكثير من الحرارة ... لا أستطيع أن
أتركها ... ولو طلبا الي ذلك ... الامر اقوى مني » .

سمع كونسكاس بوربا وقع خطواته ، فأخذ ينبج ، فأسرع روبيان يخلصه ،
وأحس في الوقت ذاته أنه يخلص نفسه بضع لحظات من المم الذي حاصره .
صاح به وهو يفتح له الباب :

— كونسكاس بوربا .

فأسرع الكلب في الخروج . ياله من فرح ! ياله من حماسة ! ماهذه الوثبات
يشها حول صاحبه ؟ واخذ الكلب يلعق يد مولاه من شدة سروره ، لكن مولاه
لم يزد ان لطمه ، فتراجع الكلب حزينا ، واضعاً ذيله بين قائمته . غير أن
صاحبه لم يلبث أن صفق باصابعه على حين فجأة ، فعاد الكلب بتواثب من جديد ،
فرحاً ذلك الفرحة نفسه .

- اهدأ ، اهدأ ...

وتبع كونكاس بوربا صاحبه وروبيان الذي خرج من الحديقة ، ودار حول البيت ، تبعه سائراً تارة ، متواثباً تارة اخرى . انه يستمتع بجريته استمتاعاً كاملاً ، لكنه لا يغفل عن مولاه لحظة واحدة . فهو يشخر ، وهو يتوقف من حين الى حين ليحك أذنه أو ليلتقط قملة على بطنه ، ثم يستدرك الزمن والمسافة واحدة ، ويلتصق بعلي صاحبه من جديد . كان يلوح له أن روبيان لا يفكر الا فيه ، ولا يخرج الا ليتسح له التنزه وأن يعرض اللحظات الطويلة التي قضاها مربوطاً . فاذا وقف روبيان عن المسير رفع رأسه ، قائلاً لنفسه : لاشك أنه يفكر في أمري ، فهو بسبيل وضع خطة لتنزهه نقوم بها معاً ، أو لمشروع آخر يتمتع كالنزهة . ولم يكن يخطر بباله أن يلطمه صاحبه بيده أو أن يلكزه بقدمه . أنه يجبول من ثقة ، وسرعان ما ينسى اللطمات ... انه لا يحتفظ الا بذكرى المداعبات ولو جاءت من مولاه وهو في حالة ذهول . انه يريد أن يكون محبوباً . وحسبه أن يظن أنه كذلك ...

والحياة التي يعيشها لم تكن سعيدة كل السعادة ، ولا شقية كل الشقارة . هنالك أولاً ذلك العبد الذي يغسله كل يوم بالماء البارد . انه لا يستطيع ان يألف أبداً هذا الاختراع الشيطاني . ولئن كان هذا الخادم الاسباني لا يطيقه فان الطباخ جان محبه كثيراً . وروبيان كثيراً ما كان يغيب عن البيت ، إلا أنه كان لا يسيء معاملته بل كان يتركه يدخل البيت ويسمح له بحضور الغذاء والعشاء وبعرافته الى قاعة الاستقبال أو الى المكتب . وكان في بعض الاحيان يلاعبه وينطهه ولكن متى جاء زائر ذو شأن اقتيد الى حظيرته . فاذا أبى أن يخرج وقاوم لم تجده المقاومة شيئاً ، لأن الخادم الاسباني يخرج عنوة . انه يعتمد في ذلك الى كثير من اللبونة والطف أول الأمر ، حتى إذا أدار روبيان ظهره ، شدّه من اذنه او من قدمه ورماه الى الخارج وأغلق جميع الابواب حتى يمنعه من العودة :

- كلب من جهنم .

فكان الكلب يحزن أشد الحزن لهذا الفراق المفاجيء ، وينكسر قلبه ، ويمضي يقبع في ركن من الاركان ثم يظل على حاله هذه صامتاً مدة طويلة . كان يدور على نفسه ثم يدور الى ان يهتدي الى وضع مريح فيسكن ويفض عيئه لكنه لا ينام وانما هو يستجمع افكاره وذكرياته ويحاول ان يربط بينها : ان قامه مولاه القديم تبدو له في بعض الاحيان كأنها في ضباب ، بعيدة بعيدة ، لكنها ما تلبث أن تمحي شيئاً بعد شيء ، ثم تختلط بقامة صاحبه الجديد ، فاذا الرجلان شخص واحد . ثم تراوده أفكار أخرى ...

افكار كثيرة ، مسرفة في الكثرة . هون عليك أيها القاريء ! ما هذه الأفكار أخيراً إلا أفكار كلب ، إلا غبار افكار ! ولعلك تقول انها اقل من غبار . انظر مع ذلك الى هذه العين التي تنفتح من حين الى حين ساهية لتأمل اللانهاية . ألا ترى فيها انعكاساً لشيء ما ، لشيء نعله يلتصع في أعماق طبيعة الكلب هذه ، شيء ليس ذنبه ولا اذنيه ولكنه مع ذلك جزء منه ؟ بأي اسم يمكن ان اسمي هذا الشيء ؟ ألا ما أفقر لغة الانسان !

وكان الكلب ينام في آخر الامر ، وكانت لحظات حياته كلها تعود في حلم الى رأسه : خليط صاحب من ذكريات الماضي وصور الحياة الحاضرة . فاذا أفاق من نومه نسي كل شيء لكنه كان يحتفظ منه بشعور ما لا أجروء ان أصفه بالكتابة حتى لا أحتقك كثيراً أيها القاريء العزيز . ان في وسع المرء ان يصف منظرآ من مناظر الطبيعة بقوله انه منظر كئيب لكنه لا يستطيع أن يصف بذلك الوصف كلباً . ان كتابة منظر من مناظر الطبيعة قائمة في أنفسنا . أما إسناد مثل هذا الشعور الى كلب فهو يفترض ان الكتابة تنبع من مصدر غير ذاتنا . ومهما يكن من أمر فان التعبير الذي كان يظهر في وجه الكلب لا يدل على الفرح . ولكن كان يكفي أيسر أمر من الأمور : أن يصفر له الطبخاخ أو أن يوميء إليه مولاه إيماة تم عن الصداقة ، حتى يسترد كل حماسه فاذا عيناه

توهجان واذا ببوزه يرتفع من اللذة ، واذا بأقدامه تثب وثبات غريبة ليست في الحسبان .

٢٩

ظل روبيان بقية الصباح مشرق المزاج مغتبط النفس . واليوم يوم احد . وهذان صديقان يجيئان لتناول طعام الغداء على مائدته . شاب في الرابعة والعشرين من سنه قد بدأ منذ قليل يبدد أموال أمه ، ورجل في نحو الخامسة والاربعين لم يبق عنده شيء يبده .

الاول اسمه كارلوس ماريا والثاني اسمه فريتاس . والرجلان كلاهما يعجبان روبيان لكن اعجابه باحدهما يختلف عن اعجابه بالآخر . ليست السن وحدها هي التي كانت تقرب بينه وبين فريتاس اكثر مما كانت تقرب بينه وبين كارلوس ماريا . ان طبع فريتاس ايضاً كان يحبه إليه . كان فريتاس يجيد الثناء على كل شيء ، ويتقن فن ارجاء المديح اللطيف لكل طبق من أطباق الطعام ولكل نوع من أنواع الخمر ! وكان لا ينصرف من بيت صاحبه إلا وقد حشى جيوبه بانواع السيجار دليلاً على تقديره لها واعجابه بها . وقد عرفه روبيان في مطعم بشارع البلدية ذهب يتعشى فيه ذات يوم ، هنالك قصوا عليه قصة هذا الرجل وحدثوه عن حظه الحسن والسيء ولكن من غير دخول في التفاصيل فقطب روبيان وجهه : ان فريتاس « حطام » ومعاشرته لن تحمل إليه أي متعة شخصية لا ولن تجلب له الاعتبار والتقدير . لكن فريتاس لم يلبث أن أخذ على عاتقه تبديد هذا الشعور الاول من نفس روبيان : انه رجل لامع الذكاء ظريف حاضر البديهة يجيد رواية النوادر ، يحسب المرء حين يرى مرحة انه ينعم بايراد لا يقل عن خمسين قونت . وحين تحدث روبيان عن الازهار الجميلة التي يزدان بها بيته سأله أن يسمح له بزيارته ليراها لانه كان يعشق الازهار . فما هي إلا أيام حتى جاء إلى بيت روبيان فعلاً قائلاً انه يريد رؤية تلك الوردات الجميلة وانه لم يمكث إلا

بضع دقائق ، ويرجو خاصة أن لا يزجج روبيان إن كان مشغولاً . وأرضى غرور روبيان كثيراً أن صاحبه ظل بتذكر الحديث الذي دار بينها ، فنزل الى الحديقة حيث وقف فريتاس منتظراً ، وأخذ يريه الوردات بنفسه ، فوصفها فريتاس بأنها رائعة ، حتى لقد بلغت حماسته في انعام النظر اليها أنه كان لا بد من انتزاعه انتزاعاً من كل شجرة من أشجار الورد لينتقل الى شجرة أخرى . كان يعرف اسم كل شجرة من هذه الاشجار ، بل لقد ذكر أنواعاً كثيرة منها كان روبيان يجملها ويجمل وجودها ، وكان يصف هذه الانواع فيقول انها كيت وكيت وان حجمها كذا (مشيراً إلى الحجم بتدوير الابهام والسبابة) ، وكان يذكر أسماء الاشخاص الذين يملكون منها شجرات بمتازة ، غير ان وردات روبيان تعد من أجود الانواع ، فهذه مثلاً هي من اندر الورد ، وكذلك تلك الاخرى . وكان البستاني يصغي إليه دهشاً . حتى اذا انتهت الزيارة قال روبيان :

— تعال نشرب قليلاً . ماذا تحب ان تشرب ؟

لم يرغب فريتاس في شيء بعينه ، لكنه مدح موقع البيت ، وأنعم النظر في تحف البورنز واللوحات والاثاث ، ثم نظر الى البحر وقال :

— حقاً انك لتعيش ياسيدي عيشة رجل راقٍ .

فتبسم روبيان راضياً . أن لكلمة الرجل الراقى وقماً جميلاً في أذنه ، حتى لو قيلت في معرض التشبيه ! ووصل الخادم الاسباني حاملاً صينية الفضة وعليها ألوان منتقاة من الاقداح وأنواع الشراب . انها للحظة بمتعة عند روبيان : قدم بنفسه الشراب لصاحبه ثم أوصاه بأن يذوق نوعاً من أنواعه قيل له أنه أفخرها جميعاً . فابتسم فريتاس ابتسامة من لا يصدق وقال :

— لعل في هذا شيئاً من المبالغة .

وجرع جرعة وأخذ يتلمظ ببطء ليدوقها ، ثم جرع جرعة ثانية فثالثة ، فاعترف وقد ظهر في وجهه معنى النشوة بأن الشراب رائع حقاً . ترى أين عثر عليه روبيان ؟ فأجاب روبيان بأن أحد أصدقائه ، وهو صاحب متجر كبير

للخمور ، أهدي اليه زجاجة منه ، فبلغ من اعجابه به انه لم يلبث أن طلب منه ثلاث « دزينات » .

وما هي إلا فترات قصيرة حتى توثقت علاقات الصداقة بين الرجلين .
واصبحت زيارات فريتاس لصاحبه على الغداء أو العشاء تزداد شيئاً بعد شيء ،
حتى لقد ازدادت أكثر بما كان يقدر لها أن تزداد ... هل من السهل على
الأمريء أن يقاوم رجلاً يحرص هذا الحرص كله على رؤية وجوه صديقه ، ويسعد
بذلك هذه السعادة كلها ؟

٣٠

سأله روبيان ذات يوم :
- قل لي ياسيد فريتاس ... هبني رغبت يوماً من الأيام في السفر إلى
أوروبا ، فهل تصحبي ؟
- لا
- لماذا ؟
- لأن صداقتي لاتكون بغير استقلال ، وقد لانتفق على خطة الرحلة .
- آسف . اني اقدر ميلك الى المرح .
- أنت مخطيء ياسيدي ، ان وراء قناعي الضاحك لوجهاً حزيناً . ان ما
أؤثره هو الحرائب والاطلال . فاذا سافرت الى اوروبا بدأت بزيارة خرائب
اثينا ثم ذهبت الى المسرح لاشاهد تمثيلية « متسول الخرائب » ، وهي مأساة
فظيعة ، ثم مضيت الى مجالس القضاء لأشهد المحاكمات التي تفصل في الافلاسات ،
والتي نرى فيها رجالا دمروا ثرواتهم ..
كان روبيان يضحك . انه يجب هذه الصراحة ويجب هذه الحرارة البليغة .

٣١

هل يرضي حبك للاطلاع ، ايها القاريء العزيز ، ان تعرف الآث نقيض

فريتاس ؟ انظر اذن الى الضيف الآخر الذي يتناول غداءه مع الرجلين : كارولوس ماريا . اذا كان الاول يملك مزايا « الصراحة والحرارة البليغة » التي يقدورها ووبيان تقديراً عظيماً ، فانه لمن الواضح ان الثاني هو نقيض ذلك تماماً . لن يدهشك اذن ان تراه يدخل الصالون بخطى بطيئة ، وفي وجهه فتور وكبرياء ، حتى انه ليأبى النظر الى فريتاس حين يقدم اليه . ان فريتاس الذي لعنه في مره بتودد ، لتأخره (فقد شافت الساعة على الثانية عشرة) لم يلبث ان غمره بسيل من احط انواع عبارات التملق .

وتستطيع ان تدرك أيضاً ، أيها القاريء ، ان صاحبنا روبيان كان ، رغم ايثاره فريتاس ، يضر لكارولوس ماريا احتراماً أعظم . لقد انتظره حتى الآن ، وهو مستعد لأن ينتظره حتى الغد ! لكن كارولوس ماريا كان لا يجترم واحداً من الرجلين لا روبيان ولا فريتاس !

ولننظر اليه من كتب : رجل قوي البنية صافي النظرة هادئاً ، يدل ظاهره كله على الثقة بالنفس . يحس المرء حين ينظر اليه انه مسيطر على نفسه ، وانه كذلك أكثر سيطرة على غيره انه ينظر الى كل شيء من عل ، وله ضحكة هي الى السخر أقرب منها الى المرح . هاهو ذا يجلس الى المائدة ، فيتناول شوكة وسكينة ، ويفض (فوطته) . انك تشعر عند كل حركة من حركاته شارة الشرف التي ينعم بها على صاحب البيت ، شارة شرف أو اشارات من الشرف ، ذلك لأنه يتواضع فيفضل بتناول الطعام على مائدته ، ولا يعامله كما يعامل فلاح من غلاظ الفلاحين .

على ان الغداء انقضى في مرح رغم هذه الفروق بين الضيفين . وكان فريتاس يلتهم لقمماً مضاعفة ، ولا يسمع لنفسه إلا بلحظات قصيرة من الهدنة . وسرّة أن اعترف في قرارة نفسه بانه لو بدأ الطعام في الموعد المضروب له (وهو الساعة الحادية عشرة) لما تلذذ به هذا التلذذ كله . لا شك ان المشرف على الفرق ما كان له أن يتلذذ بالطعام بسرعة أكبر من هذه السرعة ! وبعد عشر دقائق استطاع

ان يشرع في الكلام : انه الآن ابتسام كله ! واخذ ، وهو يفيض حركات
واشارات ، يسرد في كثير من التدفق عدداً كبيراً من القصص الخفيفة والنوادر
المضحكة . فكان كارلوس ماريا يستقبلها كلها تقريباً بجد عابس من قبيل الاستخفاف ،
لذلك اصبح المسكين روبيان لا يجرؤ أن يضحك لها رغم انه كان يراها فكهة .
وفي آخر الغداء بدأ كارلوس ماريا يتخلص من جموده قليلا ، وأصبح يتكلم ،
حتى لقد قص على صاحبه بضع مغامرات غرامية كان قد سمع بها . وعندئذ
سأله فريتاس على سبيل التملق ألا يستطيع أن يروي لها بعض مغامراته الخاصة ،
فانفجر كارلوس ماريا ضاحكا وقال :

— يا له من دور تريدون لي أن أمثله !

فتكلم فريتاس قائلاً انه لا يطلب اليه إشادةً وإنما هو يسأله أن يسره وقائع .
ولا ضير في هذا قطعاً ، وما من أحد يستطيع ان يفترض على كل حال ...
فقاطعه كارلوس ماريا موجهاً هذا السؤال الى صاحب البيت :

— أنت راض عن اقامتك ببوتافوجو ؟

فعض فريتاس على شفتيه غيظاً من هذه المقاطعة ، ولعن الرجل في سره مرة
أخرى ، وغاص في مقعده مغلق الوجه ، وأخذ ينظر الى صورة معلقة بالجدار .
أجاب روبيان بأنه راض كل الرضى عن اقامته ببوتافوجو ، وان الشاطيء رائع
حقاً . فقال كارلوس ماريا :

— لا شك في ان المنظر جميل ، لكنني لم استطع في حياتي ان اطبق الروائح
التي تفوح هنا في بعض الاحيان .
وأضاف ملتفتاً إلى فريتاس :
— ما رأيك ؟

فاستقام فريتاس وأخذ يشرح رأيه ، فقال انها كليهما على حق ، لكنه ألح
خاصة على ان الشاطيء ساحر حقاً رغم كل شيء . ولم يدع لشيء من غيظه ولا
انزعاجه ان يظهر اثناء كلامه ، حتى انه تلمظ فلقت نظر كارلوس ماريا الى نثارة

من الفاكهة كانت قد تشبثت بشاربه .

ودقت الساعة الواحدة بعد الظهر حين شارف الغداء على الانتهاء . كان روبان صامتاً ، يتذكر اطباق الطعام واحداً بعد واحد ، ويستعرض جميع مراحل هذه الوجبة ، ويرمق الاكؤس الفارغة والفتات المتبعثر راضياً مسروراً ، ويرقب ما على المائدة من فوضى تؤذن بقرب احتماء القهوة . ومن حين الى آخر كان يلقي نظرة على الخادم الذي يرتدي ملبسه الرسمية . حتى لقد لاحظ كارلوس ماريا مغتبطاً أشد الاغتباط بعد اولى الانفاس التي نشقها من احدى لفائف السيجار التي قدمها اليه . وفي هذه اللحظة دخل الخادم يحمل سلة صغيرة مغطاة بمنديل رقيق مع رسالة وصلت الآن .

٣٢

سأل روبان :

- من مرسل هذا كله ؟

- السيدة صوفيا .

كان روبان لايعرف خطها بعد ، فهذه أول مرة تكتب فيها اليه . ما عسى أن يكون الخبر ؟ ان اصابعه ترتجف ، وفي وجهه يظهر الاضطراب الذي يهزه . وفيما هو يفض الرسالة ، رفع فريتاس المنديل الذي يغطي السلة ، دون تخرج ، فاذا السلة مملوءة بثمار الفراولة . وقرأ روبان الرسالة منفعلاً أشد الانفعال . وهذه هي بضعة الاسطر التي تضمنتها :

« أبعث اليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة للغداء ، آملة ان تصلك في موعدها . يجب ان تأتي الينا هذا المساء حتما لتناول طعام العشاء . فذلك امر اصدوره كرستيانو .

صديقتك المخلصة

« صوفيا »

سال روبيان وهو يطوي الرسالة :

- ماهي هذه الفاكهة ؟

- فراولة .

- وصلت بعد فوات الأوان . فراولة ؟

كذلك ردد الكلمة دون ان يعرف ماذا يقول .

قال له فريتاس ضاحكا ، بعد خروج الخادم :

- لا داعي الى الاحمرار يا صديقي العزيز . تلك أمور تقع كثيراً للعشاق...

فقال روبيان وقد ازداد وجهه احمرار :

- للعشاق ؟ ولكن في وسعك أن تقرأ الرسالة ، فتوى بنفسك أن ...

وكاد يمد الرسالة ، لكنه عدل عن ذلك ، ووضعها في جيبه . كان منفعلًا

أشد الانفعال ، يتقاسمه الاضطراب والفرح في آن واحد .

قال له كارلوس ماريا :

- ليس في امكانك ان تنكر ان هذه الالتفاتة الرقيقة انما جاءت من شخص

يجبك . ثم انه لا اعتراض على هذا ، فالحب قانون عام . واذا كانت امرأة

متزوجة ، فليس يسعنا الا ان نحمد لك هذا التكرم ...

فقاطعه المضيف يقول :

- ناشدتك الله ، ارجوك .

فتابع كارلوس ماريا كلامه يقول :

أهي اذن أرمل ؟ سيان ... في هذه الحالة ايضاً يجمد التكرم .

اكبر خطيئة ، بعد الخطيئة نفسها ، لافشاؤها . ولو كنت مشرعاً لاقترح ان

يحرق جميع أولئك الذين يقترفون جريمة افشاء السر في هذه الامور ، ولقضيت

بأن يجروا الى العذاب باحتفال كالإحتفال الذي كان وفقاً على متهمي محاكم

التفتيش ، مع فرق واحد هو أن يلبسوا معطفاً مغطى بريش بغاء بدلاً من

قميص الكبريت .

وضحك فريتاس حتى كاد يختنق من الضحك ، وكان ينقر على المائدة من قبيل التصفيق ، فتمت روبيان وقد امتقع لونه فجأة ، انها ليست بالمتروجة ولا هي بالأرمل .

فأجابه كارلوس ماريا :

– هي اذن فتاة؟ فمتى يكون الزواج؟ ما ينبغي لك أن تتردد فقد آن الأوان .
ثم أضاف وهو يتناول بأصابعه بعض الثمار :
– فراولة الحطوبه . أن لها شذى كشذى أزهار البرتقال .

أصبح لايعرف ماذا يقول . وانتهى آخر الأمر الى التراجع ، فقال ان الثمار قد بعثت بها اليه زوجة أحد أصدقائه . فغمز كارلوس ماريا بعينه . أما فريتاس فقال ان كل شيء قد اتضح الآن ، ففي البداية كان السر الذي يحيط بالسلة ، وكذلك طريقة ترتيب السلة ، وحتى مظهر الثمار التي بدا أنها ثمار « زانية » (قال ذلك ضاحكا) ، ذلك كله كان يطبع الأمر بطابع الخطيئة ومجافاة الاخلاق ، أما الآن فقد سويت المسألة .

واحسبى الصحب القهوة صافية ، ثم انتقلوا الى الصالون . ظل روبيان يبدو قلق البال رغم احتياظه . وبعد لحظة من تفكير ، قدر أن ظنون صاحبيه الاولى ترفع قدره وترضي غروره : أت تخون امرأة زوجها من أجله . حتى لقد انتهى الى الاعتقاد أنه أسرف في الدفاع عن نفسه بتلك الحراوة المفرطة . لقد كان في وسعه أن يعترف بأن الأمر أمر خاص حقاً ، مادام لم يذكر أي اسم . على أنه من الممكن أن تكون حرارة انكاره قد تركت هي نفسها عند محدثيه شيئاً من الشك ، ومن الريبة ... ان هذا يعزبه ، وها هو ذا يتسم .

نظر كارلوس ماريا الى ساعته . انها الثانية . يجب عليه ان ينصرف . شكره روبيان ألف مرة ومرة على تفضله بقبول الدعوة ، ورجاه أن لا يتأخر في تكرار الزيارة . أليس من الممتع أن يقضوا يوم الأحد من حين الى حين في مثل هذه الاحاديث الودية ؟

صاح فريتاس وهو يقترب :

— فكرة عظيمة .

وكان قد دس نصف « دزينة » من لفائف السيجار في جيبه ، فهمس في اذن

روبيان حين خرج :

— اخذت التذكار المعتاد . ستة أيام من المتعة ، متعة في كل يوم .

فقال له روبيان :

— خذ مزيداً .

فأجابه :

— لا ... لكنني سأجيه لآخذ لفائف اخرى .

شيعها روبيان حتى الباب الحديدي . وحين سمع كونكاس بوربا أصواتهم هرع من آخر الحديقة ليحييهم في حماسة ، وليحي مولاه خاصة . وقد اهتم الكلب بكارلوس ماريا ، حتى لقد أراد أن يلعق يده ، لكن صاحبنا سحبها مشمئزاً ، فلكز روبيان الكلب بقدمه ، فهرب الكلب معولاً . وافترق الاصحاب .

قال كارلوس ماريا لصاحبه فريتاس :

— الى أين أنت ذاهب ؟

فقدّر فريتاس أن كارلوس ماريا ربما كان ذاهباً الى زيارة في نواحي سان

كليمانت ، ولما كانت يجب اصطحابه أجابه بقوله :

— أنا ذاهب الى آخر الشاطئ .

فقال الآخر :

— أما أنا فألى الجهة الاخرى .

٣٣

بعد أن رأهما روبيان ينصرفان ، عاد الى الصالون وأخذ يقرأ بطاقة صوفيا

مرة ثانية . ان كل كلمة من كلمات هذه الرسالة غير المنتظرة سر من الاسرار لكن التوقيع هو اعتراف حقاً . لقد ذيلت الرسالة بتوقيعها : « صوفيا » ، « صوفيا » فقط . لم تضيف الى اسمها الشخصي أي اسم . أما قولها : « صديقتك المخلصة » فهو مجاز ولا شك . وأما الكلمات الأولى : « أبعث إليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة للغداء » ... فهي تدل على براوة نفسها الطيبة الكريمة ؟ لقد رأى روبيان هذا كله ، وأحسه بغريزته . وفجأة وجد نفسه يقبل الورقة ، بل لقد أخطأت التعبير ... وجد نفسه يقبل الاسم ، الاسم الذي سميت به عند تسميدها ، الاسم الذي نادتها به أمها مراراً ثم انتقل الى زوجها رمزاً الى عقد الزواج ، ثم طار الآن من جميع هؤلاء الذين ملكوه الى حين ليحيى اليه ، اليه هو ، هو روبيان ، في ذيل صفحة من الورق .. صوفيا . صوفيا . صوفيا .

٣٤

— لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟

كذلك سأله صوفيا عندما ظهر على باب الحديقة في سانتاتيريزا .

— لم ينته الغداء إلا في الساعة الثانية ، وبعد الغداء قمت بترتيب بعض الاوراق . ثم انني لم أتأخر كثيراً (أضف ذلك وهو ينظر الى ساعته) والساعة تكاد لا تبلغ إلا الرابعة والنصف

قالت صوفيا وهي تظهر العتب :

— الاصدقاء يصلون متأخرين دائماً .

فشعر روبيان بأنه مذنب ، لكن وقته لم يتسع حتى للاعتذار . فأمامه ، قرب المنزل ، اربع سيدات جالسات على مقاعد من حديد ، ينظرن اليه نظرة غريبة وهن صامتات . انهن مدعوات صوفيا ينتظرن بفارغ الصبر وصول الثري الشهير روبيان . فقدمنه صوفيا الين . ان ثلاثاً منهن متزوجات اما الرابعة فهي فتاة أو قل هي عانس ، لها من العمر تسعة وثلاثون عاماً ، ولها عينان سوداوان

أتعبها الانتظار . انها ابنة ضابط برتبة ماجور يقال له سيكويرا ، لم يلبث أن ظهر في الحديقة .

قال الماجور لروبيان منذ قدم اليه :

— إن صديقي باليا قد حدثني عنك سابقاً . وفي وسعي أن أؤكد انه نعم الصديق لك . لقد قص علي قصة المصادفة التي وثقت عرى الصداقة بينكما . خير الصداقات في بعض الاحيان صداقة تقوم مصادفة . اليك هذا المثال : في عام ١٨٣٠ ، قبل عهد الرصاية بقليل ، تعرفت بصديقي الذي أصبح أعز أصدقائي حينذاك ، بمصادفة تشبه هذه المصادفة كل الشبه . تم ذلك في صيدلية برناردس الذي كان يلقب بـ « حنا ذي الربلتين الضخمتين » ... يجيل الي انه كان في شبابه بين عام ١٨٠١ و ١٨١٢ يضع لساقيه ربلتين اصطناعيتين . لقد بقي له اللقب على كل حال . الصيدلية في شارع سان جوزه ، عند زاوية شارع الميزيريكورود ... حنا ذو الربلتين الضخمتين .. وانت تعلم أن الريلة الاصطناعية تجمل حقاً منظر الساق ... اسمه الحقيقي برناردس ، حنا آلفس برناردس ... وصيدليته في شارع سان جوزه ... وهو مكان كنا نلتقي فيه لتحدث ونتناقش حتى ساعات متأخرة من الليل . كنا نذهب مرتدين المعاطف ، حاملين العصي ، حتى لقد كان بعضنا يجمل فوانيس . أما أنا فلا ... كنت أرتدي معطفاً فحسب ... كنا نذهب الي هنالك لابسين المعاطف . وبرناردس — أقصد آلفس برناردس ؛ فذلك هو اسمه — أصله من مارينا ، لكنه نشأ هنا في ريو ... ، حنا ذو الربلتين ، الضخمتين ، ذلك هو لقبه . يقال انه كان في شبابه يضع ربلتين اصطناعيتين ، اذ كان من فتيان المدينة الأنيقين . لقد ظلت أتذكره زمناً طويلاً ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ... كنا نذهب الي هنالك لابسين المعاطف ...

غرق روبيان تحت هذا السيل من الكلام . لكنه وقد وقع في الفخ ، لا يرى مخرجاً يفر منه . ان الماجور يحاصره من كل جهة . ليس هناك أي باب للخروج واستمر سيل الكلام ينهمر إلى غير نهاية . لو استطاع روبيان ان

يلقي نظرة على جهة السيدات لسره على الأقل أن يلاحظ انه كان موضع استطلاعهن جميعاً ، وانه يلفت نظر تونيكا ابنة الماجور بوجه خاص . لكنه لم يستطع حتى ذلك ، والماجور لا يلوح عليه انه سيقطع هذا السبيل المنهر ، ماذا اقول ؟ بل هذا البحر المصطخب . وجاء اخيراً بالياً يحمل اليه قارب نجاة ... كانت صوفيا قد ذهبت تقول لزوجها ان روبيان وصل ، فنزل بالياً الى الحديقة بسرعة ليحيي صديقه ويقول له : « تأخرت كثيراً » . كان الماجور قد شرع عندئذ في سرد قصة لقب الصيدلي من اولها ، فتروك فريسته ومضى يلتحق بحلقة السيدات . وخرج بعد قليل .

٣٥

لا شك في أن هؤلاء السيدات المتزوجات جميلات . وحتى العانس منهن لم تكن دميمة ، في الخامسة والعشرين من سنها . لكن صوفيا قد كسفتن جميعاً . والحق ان هذه المرأة لبست بالمرأة التي لا تضارع ، كما كان يتراءى لصاحبنا ، لكنها كانت في الواقع جميلة جداً . انها واحدة من تلك النساء اللواتي يصقلهن الزمن ببطء يوماً بعد يوم ، كنجحات دقيق ، فاذا هن تحف جميلة حقاً . ان صوفيا توشك ان تتم الثامنة والعشرين من عمرها ، وهي الآن أجل مما كانت في السابعة والعشرين . وفي وسعنا أن نفرض انها ستبلغ الثلاثين قبل ان يفرغ النحات من لمساته الاخيرة ، هذا اذا لم يشأ ان يستمر في عمله سنتين أو ثلاث سنين أيضاً .

ان عينها مثلاً قد تبدلتنا الآن عما كانتا عليه اثناء تلك السفرة التي كانت يبدو خلالها أنها تتابعان الحديث بين روبيان وبالبا . لقد اصبحتا احلك سواداً ، وهما لا تتابعان الآن شيئاً ، حتى انه ليخيل الى الناظر اليهما انها هما اللتان تتحدثان ، وياخذيشها ماأبلغه ! وفيها أصبح يبدو أنضر نضارة وأطرى طراوة ؛ وكتفاها وذراعاها ويدها قد ازدادت رشاقة ، ويزيد رشاقتها ما تقوم به من

حركات مدروسة وإشارات مقصودة . وحتى تكاثف حاجبها - وهو ما كانت تضيّق به صوفيا وتكرهه . وما وجدته روبيان نفسه لا ينسجم وسائر وجهها - كان وان لم يقل عن حاله السابقة يسهم في اسباغ هذا الطابع الخاص على وجهها . كانت صوفيا في ذلك المساء ترتدي أبهى حلة . لقد شدت صدرها وخصرها بقميص صغير من الصوف بنديقي اللون ، قميص بسيط ، لكنه أنيق . وفي أذنيها قرطان من اللؤلؤ الطبيعي ، كان روبيان قد أهدهما اليها في عيد الفصح .

ان هذه المرأة الشابة هي ابنة موظف عجوز من موظفي الدولة ، تزوجت في العشرين من عمرها كرستيانو دي أميدا أي باليا الذي كان يعمل وسيطاً تجارياً وكان في الخامسة والعشرين من عمره . ان باليا يحسن كسب زرقه ، فهو امرؤ نشيط بارع ، وذو ادراك قوي للأعمال ، حتى لقد استطاع في عام ١٨٦٤ ، رغم قلة خبرته ، أن يشم - ليس هنالك كلمة اخرى نستعملها في هذا المقام - نعم ، أن يشم الافلاس الصرفي الذي كان يتبياً ، وقال لنفسه : سيحدث شيء في يوم قريب أو بعيد ، فالوضع معلق بخيط راهن ، وعند أول صرخة تنذر بالخطر سينهار كل شيء .

لكن عيبه هو أنه كان ينقق أكثر مما يكسب . انه يحب الترف حباً شديداً . فايراداته ، ما حصله منها وما سيحصله ، كانت تتبخر حفلات وأتواباً أو حلياً لزوجته ، ومقتنيات كثيرة الانواع يشتريها راضياً لتزوين بيته ، وخاصة اذا كانت على آخر زيّ أو كانت مبتكرات حديثة . وكان في مقابل ذلك مقترراً على نفسه بعض التقدير ، الا فيما يتصل بالطعام . وكان يرتاد المسرح كثيراً لا يجبه حباً خاصاً ، فهو لا يملّ حفلات الرقص مثلما يمل المسرح . والحق انه كان لا يكثر من الخروج استمتاعاً بالخروج ، وانما يخرج ليطلع الناس على جمال عيني زوجته ، على جمال عينيها وجمال صدرها . لقد كان في الواقع محباً للظهور حباً غريباً : كان يلبس زوجته أتواباً عارية النحور حتى يستطيع جميع الناس أن يجسدوه على حظه . فهو من

هذه الناحية شبيه بالملك كاندول (١) ، لكنه أكثر احتشاماً من بعض النواحي ،
واكثر صخباً من نواح أخرى .

ويجب هنا أن ننصف المرأة الشابة . انها لم تستكن لنزوة زوجها في اول
الامر الا على مضض . لكنها بلغت من اثاره الاعجاب بها انها اصبحت في آخر
الامر تحب عرض مفاتها لتسعد برؤيتها انظار الناظرين (وما اسرع ما تصبح
العادة طبيعة ثانية) . يجب ان ننصفها فما صورها خيراً مما هي ولا شراً .
لا شك أن حب الظهور عندها كان يمكن أن يكتفي باظهار عينيها الضاحكتين ،
المثيورتين ، الجذابتين ، الجذابتين وكفى ، فكأنها اللافتة المعلقة على باب فندق
حجراته كلها مشغولة . فالناس تتمهل امام جمال اللافتة - تتمهل وتتأمل ثم
تقضي . كان حسبها هذا ، وما من شيء يوجب عليها ان تعرض المزيد من
مفاتها ومع ذلك استسلمت لارادة زوجها . غير أن باب الفندق - إذا صح
أن نطلق هذا الاسم على قلبها ، قد ظل مغلقاً ، بل ظل محكم الاغلاق .

٣٦

قال روبان لنفسه . « ما اجملها يارب . اني لأحس بان من الممكن أن
ارتكب فضيحة » .
هبط الليل ، وصاحبنا مسند ظهره الى احدى النوافذ ينظر الى صوفيا ،
وصوفيا تنظر اليه .

كان هنالك سيدة تغني . ان ازواج السيدات الثلاث قد قطعوا لهمم بالورق
وجاءوا الى الصالون بضع لحظات ينصتون الى غناء المغنية التي هي زوجة احدهم .
وكان باليا يرافق غناء المغنية بالعزف على البيانو ، لذلك لم يستطع أن يرى
النظرات المتبادلة بين زوجته وصاحبه الثري . لست ادري هل كان هنالك

(١) الملك كاندول ، ملك (ليديا) كان يجب ان يعرض زوجته على نديمه سافرة ،
فأحبت هذا النديم واتفقت معه على قتل زوجها (المغرب)

اشخاص آخرون أيضاً . لكن ما اعلمه على كل حال هو أن هناك شخصاً لاحظ سلوكها ملاحظة كاملة : وهذا الشخص هو تونيكا بنت الماجور .
وظل روبيان يردد لنفسه قوله . « ما أجملها يارب . اني لأحس بأن من الممكن أن ارتكب فضيحة » . ظل يردد لنفسه قوله هذا ، وهو ما يزال مسنداً ظهره الى النافذة ، محققاً الى المرأة الشابة التي ما انقطعت هي ايضاً عن التحديق اليه .

٣٧

لا يستغرب المرء أن تلاحظ تونيكا نظراتها المتبادلة ، ذلك أنها لم يكن لها من هم منذ وصول روبيان الا أن تلفت نظره اليها . ومن اجل ذلك كانت عيناها البائستان - عيناها اللتان عمرهما تسع وثلاثون سنة ، اللتان لم تستطعا حتى الآن أن تجدا رفيقتين ، اللتان كانتا تدانان من التعب الى اليأس - قد استردتا بعض الالتماع . ويجب ان نذكر أن التجربة الطويلة قد علمت تونيكا كيف تستعمل عينيها وكيف تسبغ عليها حين الحاجة كل ما يشتهى من العيون الناعسة . فكان من السهل عليها ان تعدها لمهاجمة صاحبنا الثري .

ورغم ان قلبها قد اصيب بخيبات كثيرة ، فقد اخذ يخفق مرة اخرى . شيء ما قال لها ان السماء ارسلت اليها هذا الثري الريفى حلاً لمشكلة زواجها . والحق انه غنى اكثر مما كانت تتخى من غنى . انها لم تكن تطلب الغنى . انها لم تكن تطلب الا زوجاً . وقد قامت بجميع حملاتها الزوجية دون ان تقيم وزناً للاعتبارات المالية . وقد قاتت مطامعها كثيراً منذ بعض الوقت . حتى أن آخر حملاتها كانت مطاردة لطالب صغير فقير !

ولكن من يدري لعل السماء قد كتبت لها ان يكون زوجها رجلاً غنياً . كانت تونيكا تؤمن بسيدتها العذراء ، عذراء الجبل بلا دنس . واخذت تطوق القلعة بحنكة وشجاعة .

قالت في نفسها : « الاخريات متزوجات جميعاً » .

ولم تلبث ان لاحظت ان نظرات روبيان وصوفيا لا تفتقر . ولاحظت مع ذلك ان نظرات صوفيا اقل من نظرات روبيان واقصر ، وبدا لها أن مرد ذلك بطبيعة الحال الى ما يقتضيه الظرف من احتياطات . ربما كانا عشيقين .. وأحزنتها هذه الفكرة . لكن الامل انتصر . اذ بين لها ان الرجل بعد ان يقوم بتجربة عاطفية أو عدة تجارب عاطفية ينتهي دائماً الى الزواج . والمشكلة اذن انما هي الوصول الى الاستيلاء عليه فاذا اراد ان يتزوج وان يبني اسرة تولى هذا الميل قتل كل ميل آخر في نفسه ، هذا اذا صح ان في نفسه ميلاً آخر .

وها هي ذي تضاعف جهودها حاشدة كل مفاتها من تحريك المروحة امام وجهها في خفة ورشاقة ، الى ارتعاش الشفتين . الى غمزات العينين ، الى المشي جيئة وذهاباً اظهاراً لأناقة الجسم وجمال القد . انها لم تدخر من ذلك كله شيئاً . وهذه هي الحطة القديمة التي كانت تستعملها دائماً . ولئن لم تنجح حتى الآن فلا خير ! أليس هذا هو المبدأ الذي يقوم عليه (اليانصيب) ؟ ان يوم الربح يعوض كل الخسارات الماضية ويزيد ...

ولكن حين أخذت السيدة تغني لاحظت تونيكاً كيف أن روبيان وصوفيا يشرب كل منهما الآخر بنظراته شرباً ، فاخفت شكوكها وأيقنت ان الامر ليس أمر لفتات عارضة طارئة . وانما هو تأمل حقيقي يذم البصر عن سائر ما في الوجود . وعندئذ ترجع في أذنيها ذلك الصوت الحزين ، صوت نعيق الغراب الذي ينمى كل أمل : انتهى الى الابد (١) .

وظلت مع ذلك تناضل فظفرت بجلوس روبيان الى جانبها بضع دقائق وحاولت أن تتم له بوضع عبارات جميلة تذكرت انها قرأتها في احدي الروايات ، أو

(١) بالانجليزية في الاصل ، والعبارة من قصيدة لادجار آلان بو عنوانها « الغراب »

(المترجم)

أوحى إليها بما في الظرف من حزن وكآبة ، فكان روبان يصغي ويحيب ، لكنه لا ينقطع عن مراقبة صوفيا ، ويقلق حين تترك الصالون أو حين تعود إليه ؛ حتى لقد جاوز ذهوله الحدود في إحدى المرات : كانت تونيكّا تعترف له بأنها تتمنى ان تعرف ولاية ميناس ومدينة بارباسينا خاصة ، فكيف المناخ هنالك ؟ فلم يزد على ان ردد ترديداً آلياً :

- المناخ !

لقد كان ينظر الى صوفيا التي كانت واقفة أمامه مدبرة إليه ظهرها ، تتحدث الى سيدتين جالستين .. إنه يتأمل جمال قولها وحركة جسمها المنتصب انتصاب باقة من الازهار منبجسة من آنية . ان رأسها أشبه بزهرة مانجوليا لا نظير لها ، قد غرست قائمة في وسط الباقة . ذلك ما كان روبان يتأمله حين سأله تونيكّا عن مناخ بارباسينا ، فلم يزد على أن ردد كلمتها ترديداً لا يشتمل حتى على لهجة الاستفهام .

٣٨

عزم روبان أمره . لم يبد له في يوم من الايام أن قلب صوفيا يدعو قلبه بمثل هذه اللجاجة الى السير معه في طريق من التخفي لا يرجع منه المرء عامة إلا وقد هرم وانطفأت حرارته . بعض الناس لا يرجعون أبداً . وآخرون يتوقفون في منتصف الطريق . وكثيرون لا يتجاوزون حتى عتبة الباب !

٣٩

كان القمر رائعاً . وهناك ، على الهضبة ، بين الارض والسماء ، تشعر النفس ، مهما تكن قليلة الجرأة ، انها قادرة على أن تواجه جيشاً عدواً فتغنيه ، فكيف والجيش حليف ؟ كانت صوفيا قد أعطت روبان ذراعها ليضمها الى الحديقة ويريا ضوء القمر . وقد دعت تونيكّا الى مرافقتها فأجابات الفتاة المسكينة

بان قدمها موجمة ، وانما ستلحق بها بعد قليل . ولكنها لم تفعل .
ظل الاثنان صامتين بعض الوقت . ومن النوافذ المفتوحة كان الاشخاص الآخرون يرون يتحدثون ، وفيهم الرجال الذين انقطعوا عن اللعب بالورق .
الخديقة صغيرة ، لكن سلم درجات الصوت الانساني يتيح لها أن يتبادلا كلمات جميلة دون أن يسمع حديثها احد .

وتذكر روبيان ، على حين فجأة ، تشبيهاً قديماً جداً ، مستمداً من قصيدة من قصائد عام ١٨٥٠ ، هذا إذا لم يكن شائعاً في أي نثر من أي زمان :
عينك نجوم الارض ، والنجوم عيون السماء . كذلك قال لها بصوت خافت مرتعش .

دهشت صوفياً أشد الدهشة . واذا بجسمها الذي كانت إلى ذلك الحين تسنده كله إلى ذراع روبيان يتصلب فجأة ... لقد اعتادت أن ترى صاحبنا قبل ذلك خجولاً ... النجوم؟ العيون؟ وأرادت أن لا يمزح هذا المزاح ، لكنها لم تعرف كيف تدبر جوابها بحيث لا تدحض قناعة تشارك فيها ، ولا تشجعه مع ذلك على الاسترسال . ومن ثم خيم صمت طويل .

تابع روبيان يقول :

- مع فرق واحد ، هو أن النجوم أقل جمالا من عينيك . ولكن ما هي النجوم في حقيقة الامر؟ لئن جعلها الله عالية هذا العلو كله فربما كان ذلك لأنها تفقد كثيراً من بريقها اذا هي رثبت من قرب أما عينك فلا . انها على قربها مني هذا القرب كله ، تظلان واسعتين ، متلائتين ، بل تظلان أشد تلاًوياً من السماء .

ان روبيان يبدو لها الآن بفصاحته وجراته مختلفاً كل الاختلاف عن عهدها به . ولم يتوقف روبيان عن الكلام ، بل تابع حديثه حول هذا الموضوع نفسه . انه ليس غنياً بالأفكار والموقف رغم ما طرأ على صاحبنا من تبدل ، خليق بأن يُنضب معين افكاره بدلا من أن يوحى اليه بأفكار جديدة . وكانت

صوفيا لا تدري ماذا تفعل . لقد جاءت الى الحديقة في صجة حمل وديع هادي ،
فاذا هي الآن مع ذئب شره يتضور جوعاً .

كان لا بد من أن ترد بشيء ما ، أن تضطره الى السكوت ، أن تقول له
انه يسير في طريق لا تحب أن تسير فيه ، ولكن على ان لا تغضبه وأن
لا تطرده ... وبجئت صوفيا عن مخرج ، لكنها لم تجد مخرجاً ، لأنها كانت
تصطمم دائماً بهذا السؤال الذي لم تعثر له على حل . أنتظاهر بأنها فهمت ، أم
تتجاهل ذلك ؟ وتذكرت عندئذ اللغات اللطيفة والكلمات الرقيقة التي بذلتها لروبيان ،
وتذكرت العناية الخاصة التي أحاطته بها . انه لمن المستحيل اذن ان تتظاهر
بأنها تجهل معنى هذه العبارات الغزلية التي يقولها . ولكن كيف تعترف بأنها
فهمتها ثم لا تطرده فوراً ؟ تلك هي المشكلة .

كان النجوم في اعلى السماء كانت تضحك من هذا الموقف المعقد .

اما ان القمر رأهما ، فلا خير .. ان القمر يجهل فن الهزء والسخر .
والشعراء الذين يجدونه حزيناً كاسف البال يدركون أنه كان ذات يوم عشيق
احدى النجوم الشاردة ، وان عشيقته قد هجرته بعد بضعة قرون . ومن
يدري ؟ لعلمها ما يزالان عشيقين ، ولعل الحسوف (واغفروا لي جهلي بعلم
الفلك) ان لا يكون الا موعد غرام ، ولعل الاسطورة التي تروي ان ديانا
هبطت الى الارض لتلقى أنديميون أن تكون اذن صادقة . ولكن لماذا هبطت
الى الأرض ؟ أي خير في أن يلتقي العشيقان في السماء نفسها ، كما تلتقي
الجداجد هنا على الأرض بين اوراق الشجر ؟ ان الليل يتولى ستر كل شيء
بغلالته الكريمة .

ثم ان القمر وحيد ، والوحدة تحمل صاحبها على الجد . ولا كذلك جمهرة
النجوم انها اشبه بعصابة من الفتيات الجميلات الفرحات المهذارات ، يضحكن
ويتحدثن بصوت واحد معاً عن جميع الاشياء وجميع الناس .
لست أنكر انهن عفيفات . ولكن ذلك يكون عندئذ أسوأ وأنكى ،

فهن يضحكن اذن دون أن يفهمن .. النجوم العفيفات .. ذلك هو الاسم الذي يطلقه عليهن عطيل الرهيب وتريسترام شاندي المرح ، كلاهما . إن المرء لا يستطيع ان يتخيل رجلين يبلغ التعارض بينهما في القلب وفي العقل على السواء ، ما ييلفه التعارض بين هذين الرجلين . ومع ذلك نراهما يتفقان في هذا الأمر ، وهو انها كليهما يصفان النجوم بالعفة . وهذه النجوم العفيفات تسمع الآن كل شيء ، تسمع كل ما تجاسر فم روبيان المتهور على أن يلقيه في اذن صوفيا المبهوتة . ان اقل ما اصبح من الممكن أن يوصف به صديقنا الحجول (يا أيتها النجوم العفيفات !) هو انه متحلل . الا نستطيع ان نقول انه « ابليس » نفسه ، حاول ان يخدع المرأة الشابة بجناحيه الملائكيين اللذين وهبها له الله ، ثم اذا به يخفيها فجأة في جيبه ، ويتعري ليظهر قرنيه الحبيشين فوق قمة رأسه ؟ انه وهو يضحك ، انه وهو يضحك تلك الضحكة المواربة التي يصطنعها الخبثاء ، يعرض عليها في آخر الامر لا ان يشتري روحها فحسب ، بل ان يشتري جسدها أيضاً .. يايتها النجوم العفيفات !

٤١

تمت صوفيا تقول :

— فلنعد .

وقد أرادت ان تسحب ذراعها ، لكن روبيان أمسك بها . لا .. لماذا نعود ؟ نحن هنا مرتاحان ، مرتاحان جداً .. أين يمكن أن يتوافر لنا من الراحة ما يتوافر هنا ؟ أم تراني أضايقك ؟ فأجابت صوفيا بانه لا يضايقها ، بالعكس .. ولكن عليها أن تعود الى الصالون لتعني بضيوفها .. انهم هناك منذ مدة طويلة .

— منذ اقل من عشر دقائق . ما عشر دقائق ؟

— ولكن قد يلاحظون غيابنا .

ارنعمش روبيان حين سمع كلمة « غيابنا » .. غيابنا « نحن » ... ورأى في ذلك بداية تواطؤ . ربما لاحظوا « غيابنا » حقاً . انها على حق . يجب

أن يفترقا . لكنه يريد أن يسألها شيئاً واحداً ، بل شيئين . الاول هو أن لاتنسى هذه الدقائق العشر الرائعة مدى الحياة ، والثاني هو أن تنظر كل يوم ، متى هبط المساء ، الى « صليب الجنوب » ، لانه سيفعل ذلك هو أيضاً ، فتتصل روحهما عندئذ اتصالاً حميماً بين الله والبشر .

كان هذا الرجاء شعرياً ، لكنه كان وحده كذلك فلقد كان روبيان ، وهو يشد على المرأة الشابة ليمنعها من الذهاب ، يوشقها بنظرة ملتزمة ، فلا حركته ولا نظراته تشتت على أي أثر من شعر . وأوشكت صوفيا ، أن توجه اليه كلمة حادة ، لكنها تذكرت أن روبيان صديق وفيّ للأسرة فصمت . وأرادت أن تضحك ، لكنها لم تستطع ذلك ، فحزنت في أول الأمر ، ثم أذغنت ، ثم توسلت وتضرعت . تضرعت اليه باسم أمه التي لاشك أنها في السماء ... لكن روبيان لم يعياً بالسماء ، ولا بأمه ، ولا بشيء . وكان يمكن أن يقرأ المرء في وجهه قوله : ما السماء ؟ ما أمي ؟

دمدمت المرأة الشابة تقول بصوت خافت :

- آي ... حطمت أصابعي .

وعندئذ أخذ روبيان يثوب إلى صوابه ، فخفض الضغط على أصابعها لكنه

لم يتركها . قال لها :

- طيب ... اذهبي ، ولكن يجب أولاً ...

ومال ليقبل يدها فاذا هو يسمع صوتاً قريباً يرده إلى الاحساس بالواقع

رداً كاملاً .

٤٢

- هيه ! تتأملان جمال ضوء القمر ؟ انه رائع ، أليس كذلك ! ليلة خلقت

للعشاق حقاً إنه رائع .. لم أر ليلة كهذه الليلة منذ زمن بعيد .. انظرا

ما أجمل الأنوار تحت .. انها رائعة والهيبة ... مثل أعلى للعشاق ... العشاق يحبون

دائماً ضوء القمر ... في زماني ، بمدينة ايكاراهي ...

انه الماجور الرهيب سيكويرا . لم يعرف روبيان ماذا يقول . حتى إذا انقضت لحظات الدهشة الاولى استعادت صوفيا روعها ، فقالت إن الليلة جميلة حقاً ، وأضافت أن روبيان بصر على القول إن ليالي ريو لا يمكن أن تضاهي ليالي بارباسينا ، وقد قص في هذه المناسبة نادرة عن كاهن يقال له مانديس ... اسمه مانديس . أليس كذلك ؟

فدمدم روبيان يقول :

- مانديس ، نعم ، الكاهن مانديس .

لم يكن في وسع الماجور ان يخفي دهشته . فذنه قد رآهما بأمر عينه وقد تماسكت يدهما ومال روبيان عليها برأسه قليلاً ، ورأى انتفاضتهما حين وصل الى الحديقة ، فكيف يزعمان انها كانا يتحدثان عن كاهن اسمه مانديس ؟ ونظر الى صوفيا فلم ير الا وجهاً ضاحكاً هادئاً لا سبيل للاضطرابات اليه ... لا أثر لخوف أو انزعاج . انها لتتحدث في انطلاق عفوي ... جعل الماجور يقول لنفسه : لعلي قد أسأت الرؤية . لكن روبيان أفسد كل شيء . انه مزعج صامت ، لم يزد على أن اخرج ساعته فقربها من اذنه كأنها متعطلة ، ثم مسحها بمنديله مسحاً خفيفاً من دون أن ينظر الى صوفيا ولا الى الماجور .

- استمرا في الحديث ... أما انا فعلي أن اذهب لأرى صديقاتي . لا أستطيع

ان ادعهن وحدهن . هل انتهى الرجال من لعبهم المنحوس ؟

فقال الضابط وهو ينظر الى صوفيا نظرة غريبة :

- نعم لقد انتهوا . حتى انهم سألوا عن السيد أين هو . ومن اجل ذلك

جئت الى هنا عسى أن أجده في الحديقة . أنتما هنا منذ مدة طويلة ؟

قالت صوفيا :

- بل منذ لحظة

ثم تركتها واتجهت نحو البيت بعد أن ربتت على كتف الماجور في مودة

وحرصت على ان تتحاشى الدخول من باب الصالون ، فدخلت من باب غرفة الطعام ، بحيث انها اذا لحقت بضيوفها ، ظنوا كانت أثناء هذه الغيبة تأمر الخدم بتهيئة الشاي .

واسترد روبيان صوابه ، لكنه مازال لا يجد ما يقول . وكان لزاماً عليه مع ذلك أن يقول شيئاً ما . نادرة الكاهن مانديس فكرة طيبة . لكن الصعوبة هي انه ليس هناك كاهن ولا نادرة . واحس انه عاجز عن أن يلفق أي شيء . فاكتمى بأن دمدم قائلاً :

— ها . . . نعم ... الأب مانديس . حقاً لقد كان رجلاً فكها هذا الكاهن مانديس .

قال الماجور وهو يتسم :

— أنا أعرف هذا الكاهن . الكاهن مانديس ! أعرفه تمام المعرفة . رحمه الله . هل مكث في ولاية ميناس بعض الوقت ؟
دمدم الآخر مبهوراً :
— أظن ذلك .

— أصله من ساكارايا . كانت تنقصه هذه العين (قال الماجور ذلك وهو يسدد اصبعه الى عينه اليسرى) . اذا كان هذا هو ، فاني أعرفه تمام المعرفة . أم لعل الذي ذكرتماه شخص آخر ؟
— جازر جداً .

— رحمه الله . كان رجلاً لا مأخذ عليه ، لكنه كان يجب رؤية النساء الجميلات ، كما يجب المرء أن يتأمل لوحة جميلة لرسام كبير . وأي رسام كبير يمكن ان يقارن بالصانع الأعظم ؟ أنظر مثلاً الى السيدة صوفيا . كان لا يصادفها في الشارع مرة الا ويقول لي بعد ذلك : التقيت اليوم بزوجة باليا الجميلة ... رحمة الله عليه . انه من ساكارايا ... ولا شك في انه كان على جانب كبير من حسن الذوق ... ان امرأة صديقنا باليا رائعة حقاً ، رائعة الوجه ، رائعة

الجسم ، بل انني لأراها أقرب إلى حسن التكوين منها إلى الجمال بل المعنى الاصيلي ... ما وأيك ؟ .

اجاب روبيان :

- نعم ، ربما كنت على حق .

فاضاف الماجور وهو يشعل لفافة سيجار :

- زد على ذلك انها لطيفة وربة بيت ممتازة .

ان نور الثقاب قد بسط على وجه الماجور تعبيراً وحشياً ، أو تعبيراً عدائياً في اقل تقدير . وشعر روبيان بقشعريرة تسري في ظهره . ترى هل سمع الماجور شيئاً ؟ هل رأى شيئاً ؟ أم أنه حزر ؟ هل روبيان امام شخص متكتم ، أم هو امام شخص خبيث متآمر ؟ ان وجه الرجل موحد لا يمكن النفاذ اليه . ومهما يكن من امر فخير لروبيان ان يتوقع ما هو شر . ولو رأيت بطلنا على ذلك الوضع الحزين ، لحسبته واحداً من أولئك الملاحين الحذرين الذين ظلوا سنوات طويلة يبحرون على محاذاة الشواطئ فاذا هم يجدون أنفسهم ذات يوم وسط الامواج في عرض البحر . ومن حسن الحظ ان الحوف يوحى الى صاحبه ببعض الافكار في كثير من الاحيان . فها هو ذا روبيان يخطر بباله فجأة ان يتملق صاحبه ، فقال في غير تردد انه يجده شخصاً محبباً الى القلب كثيراً ، وانه يضع منزله الواقع على شاطئ بوتافوجو ، رقم كذا ، تحت تصرفه ، وانه يشرفه كثيراً ان تتعقد بينها الصلات ، فليس له في ريو دو جانيرو الا عدد قليل من الاصدقاء : باليا الذي غمره بلطفه والسيدة صوفيا الكريمة المهذبة ، وثلاثة أشخاص آخرين أو أربعة . انه يعيش وحيداً ، وربما عاد الى ميناس .

- فوراً .

- لا .. لن أعود فوراً ، ولكن ربما عدت قريباً . انك لتعرف أن من

عاش حياته كلها في مكان ما يصعب عليه كثيراً أن يألف الحياة في مكان آخر .

- هذا يختلف باختلاف الافراد والظروف .

- صحيح ... انه يختلف ، لكنه هو القاعدة العامة .
- ربما كان هو القاعدة العامة ، لكنك ستكون أنت الاستثناء من القاعدة .
ان ريو مدينة شيطانية . فالمرء هنا يقع في الحب بسرعة كسرعة التقاطه الزكام .
ولن تمضي لحظات حتى يجيء دورك . أراهن أنك ستصبح رجلاً متزوجاً قبل ان
تقضي ستة اشهر .

قال روبيان لنفسه : « اذن لم ير شيئاً » .
وأردف يقول فرحاً أشد الفرح :

- ربما ... ولكن في وسع المرء ايضاً ان يتزوج ميماس ... لا يعوزنا هناك
كهنة .

فأجاب الماجور ضاحكا :

- ولكن يعوزكم هناك الكاهن مانديس .

فابتسم روبيان وقد لاح في وجهه الانزعاج ، وتساءل هل تضرر كلمات
الماجور شيئاً من الغمز أم هي لا تضر شيئاً من ذلك . ومن حسن الحظ أن
الماجور استلم زمام الحديث وأخذ يتكلم في أمور لا أول لها ولا آخر . تكلم
على الجو ، على المدينة ، وعلى الوزارة ، والحرب ، وعلى المارشال لوبيز ، وعلى
غير ذلك ايضاً ... لقد تغير الموقف تغيراً كبيراً . لا شيء كان يمكن أن
يسر روبيان كما سره هذا السيل من الكلام الذي كان أشد غزارة من سيل
الكلام الذي تدفق من الضابط عند وصوله . وكلما ازداد الضابط ايغالاً في حديثه
الذي لا ينتهي ، ازدادت الغبطة العذبة التي تنتشر في قلب روبيان . وكان يحاول
من حين إلى حين أن يقول بضع كلمات اذا استطاع ، لكنه كان لا ينقطع عن
هز رأسه خاصة ، علامة الاستحسان والتأييد . واعتقد مرة أخرى أن الماجور لم
ير شيئاً .

- بابا ... بابا .. أنت هنا ؟

كذلك نادى صوت عند باب البيت .

إنها تونيكاً . لقد جاءت تبحث عنه لينصرفا . صحيح ان الشاي سيقدم بعد قليل ، لكنها أصبحت لا تطيق البقاء ، لأن صداعاً قد ألم بها . هذا ما قالته لأبيها بصوت خافت . ثم مدت يديها الى روبيان . فطلب منها أن تبقى بضع دقائق أيضاً ، لأن والدها المحترم ...

فقاطعها الماجور يقول :

- لا تضيع وقتك سدى ، فهي الآمرة الناهية !

وألح روبيان على الماجور مرة أخرى أن يزوره في بيته ، بل رجاء أن يحدد للزيارة موعداً في هذا الاسبوع نفسه منذ الآن ، لكن الماجور أجابه بأنه لا يستطيع ان يلزم نفسه بموعد محدد فوراً ، وبأنه سيجيء اليه متى استطاع أن يجيء . ان أوقاته مليئة ، فهناك عمله بالسكنة ، وهو عمل يستغرق وحده وقتاً طويلاً ، ثم هناك ...

- أنتصرف يا بابا ؟

- حالاً . هل رأيت ؟ لا أستطيع حتى الكلام لحظة . هل استأذنت ،

ترى أين قبعتي ؟

٤٣

أثناء هبوطها الراحية ، تحملت تونيكاً تمة حديث أبيها . انه حديث لا ينضب معينه ، تغير موضوعه لا أسلوبه . لكن تونيكاً سمعت هذا السبل من الكلام دون أن تنتبه له أقل انتباه . انها غارقة في تخيل كل ما حدث ذلك المساء ، وفي تصور نظرات صوفيا وروبيان .

ووصلا الى بيتها بشارع « سينا » ، مضى الأب الى فراشه . أما البنت فلم تستلق على سريرها رأساً ، وانما جلست على كرسي صغير قرب منضدة كانت تحتفظ فوقها بصورة للعدراء . لا تظنوا أن عواطف كريمة هادئة تهز نفسها . انها وان لم تعرف من الحب شيئاً ، تفهم بعض الفهم ما هي الحياة الزوجية . وبدأت لها

صوفيا في صورة كريمة منفردة ، تراءت لها في ملامح شيطان ، نصفه امرأة ونصف أفعى . وشعرت نحوها فجأة بكره شديد ، وقررت أن تنتقم منها ثم انتقام بإبلاغ زوجها كل شيء . قالت لنفسها : « سأذكر له كل شيء ، شفاهماً أو كتابة ... لا بل شفاهماً ... سأقول له كل شيء ، يوم أنفرد به ، » .

وأطلقت العنان لخيالها ، فتصورت باليا وهو يُبهِت للنبا ، ثم تصورت غضبه ، وتصورت ما ستوجهه الى امرأته من تفريع وشم : شقية ، حقيرة ، قذرة . ما أجل وقع هذه الكلمات في قلبها المستعر . وراحت ترددها فتجد فيها شفاء لغليها هي . انه ليسررها أن تذلل صوفيا بالخيال ، وان تتصور زوجها سيرغها في الوحل ، مادامت لا تستطيع أن تفعل بها ذلك هي نفسها ... قذرة ، حقيرة ، شقية ...

واستمر هذا الحلق الداخلي مدة طويلة ، استمر نحو عشرين دقيقة ... ثم هدأ قلب تونيكا ، وثاب إليها رشدها شيئاً بعد شيء . والحق انها كانت فقيرة الخيال ، لذلك لم تلبث أن عادت الى الواقع القريب . نظرت حولها ، فلم تر إلا غرفتها ، غرفة العانس ... كل شيء مرتب في فن ، في فن بارع خلع مظهر الحرير على قماش من الكريتون ، وخلع شكل الستائر على قطع بالية من النسيج ، واستطاع أن يزين أبسط الأشياء فيجعل منظرها القاسي الى منظر جميل ، واستطاع أن يبدل حزن الجدران العارية فرحاً ، وأن يخفي فقر الأثاث القليل . لكأنها قد أعدت كل شيء لاستقبال عريس حبيب .

لكن الريح اثناء عصفها الحائق لم تجلب لها في يوم من الايام الحطيب الذي طال انتظاره ، لا ولا قال لها الصبح الأبلج في يوم من الأيام أين عساها تعثر عليه . فلا شيء إلا ان تنتظر ، وان تنتظر ...

ولما هدأ غضب تونيكا وسكن خيالها ، تأملت غرفتها المنعزلة مرة أخرى . وأخذت تفكر في صديقات طفولتها ، في صديقات المدرسة . لقد تزوجن جميعاً ، جميعاً ؛ وآخر واحدة منهن تزوجت ، وهي في الثلاثين من عمرها ، ضابطاً من

ضباط البحرية . لقد أنعش هذا الزواج آمال تونيكا بعض الوقت ولم تكن مترددة ، خقق قلبها أول مرة لضابط صغير في الخامسة عشرة من عمرها ... ما أبعد ذلك العهد الآن ! مرت عليها خمس سنوات ، ثم أصبحت بعد ذلك في التاسعة والثلاثين ، والأربعون قريبة كل القرب . أربعون عاماً وما تزال عانساً . وشعرت تونيكا بقشعريرة تسري في جسمها . وظلت تنظر حولها ، فعاد إلى ذاكرتها كل شيء . وأخيراً نهضت نهوضاً مفاجئاً ، وسارت بضع خطوات ، ثم هالكت على سريرها باكية .

٤٤

لا تحسبن أيها القاريء العزيز أن ألم تونيكا كان أعمق من غضبها . ان هذين الشعورين اللذين هزأها واحداً بعد واحد لا تختلف قوتها وإنما تختلف نتائجها . أما الغضب فقد ظل عقيماً ، وأما المذلة فقد ولدت تلك النوبة المشروعة من البكاء . وليس معنى ذلك أن تونيكا لم تتمن أن تختنق صوفياً وأن تركلها برجليها وأن تمزق قلبها تمزيقاً وهي تلقي في وجهها تلك الشتائم المقدعة التي أسندتها إلى زوجها ... لكن ذلك كله لم يتعد مرحلة الخيال . صدقني إذا قلت لك ان هناك طغاة لا يخطر ببالك أنهم طغاة .. وإنما تعوزهم الفرصة . من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن كاليجولا لم يعد إلى الحياة بضع لحظات في نفس هذه الفتاة ؟

٤٥

واحد يبكي وآخر يضحك . تلك هي سنة العالم بإسدي العزيز ، وذلك هو ما يسونونه بالكمال الكلي العام . فان لم يكن ثمة إلا دموع كان العالم رتيباً مملاً ، وان لم يكن ثمة قهقهات كان العالم متعباً . اما التوزيع المناسب للاحزان والافراح ، للبكاء والضحك ، فذلك هو ما يهب العالم تنوعه المنشود ويرد إلى الحياة توازنها .
ان روبيان هو الفرح . انظر إليه وهو يهبط الهضبة ، وقد غمرت قلبه

النشوة واخذ يشهد النجوم على سعادته بموسيقى لا تستطيع أي لغة أن تصفها . فلما وصل الى تحت بدت له الشوارع الحالية مليئة بجمهور نشيط متحرك ، ونحول الصمت في اذنه الى ضجة صاخبة ، وعلى كل نافذة خيل اليه أن يرى قامة امرأة تميل اليه وتمخو عليه ، امرأة لها وجه أخاذ ، وحاجبان كثيفان . انهن جميعاً صوفيا ، صوفيا الوحيدة ، صوفيا الفريدة ، صوفيا التي ليس كمثلها امرأة ! وكان روبيان يتصور في بعض الاحيان انه قد امرف في الجراءة ، وانه لم يلتزم ما ينبغي التزامه من تحفظ . انه يتخيل المشهد الذي جرى في الحديقة ، ويتصور ما أظهرته المرأة الشابة من مقاومة وتبرم ، فتنتابه عندئذ قشعريرة ، ويهقه أن يتخيل أنها قد يغلقان باب بيتها في وجهه بعد الآن ، وقد يقطعان كل صلة به .. كل ذلك لانه تعجل الامور .. نعم ، كان ينبغي له ان يصبر .. ان الفرصة لم تكن مناسبة البتة .. كان البيت مليئاً بالناس والاضواء .. أي شيطان وسوس له ان يتحدث فجأة في الحب ، دون احتياط ودون تحفظ ؟ نعم ، لقد كانت على حق ، وانه ليستأهل ما صنعته اذ تركته هناك ومضت .

فكان يخاطب نفسه عندئذ بصوت عال :

— لقد تصرفت تصرف مجنون .

انه لا يفكر الآن في العشاء الذي كان شهيماً ولا في الخمر التي كانت سخية ، لا ولا في الكهرباء التي تتموج في الهواء حين يكون المرء في صحبة نساء جميلات . بل يرى انه كان مجنوناً ، مجنوناً يستحق أن يوثق .

ثم غير روبيان موقفه ، فاذا هو مدافع بعد أن كان متهما . أليست صوفيا نفسها هي التي جرته الى هذا السلوك : نظراتها الكثيرة الطويلة ، وضعها كله ، ملاحظاتها ، ايثارها اياه باجلاسه الى المائدة قربها وثم عنايتها به ، وهيتها الناعسة اثناء حديثها اللطيف معه ، هذا كله كيف لا يعد تشجيعاً ونداء ؟ وها هو ذا يلتبس لصاحبه الاعذار ، فيعمل التناقض الظاهر بين لفتات تلك المرأة ووضعها في الحديقة : أليست هذه اول مرة تسمع فيها مثل هذا الكلام من

شخص غير زوجها ؟ ألم يكن من حقها أن ترتعش واللقاء يتم على مقربة مثل هذا العدد الكبير من الناس ؟ ثم انه قد اسرف في سرعة الكشف عن نفسه ، وتعجل الأمور تعجلاً كبيراً . حقاً انه لم يبرهن على شيء من الاعتدال . كان ينبغي له أن يتقدم خطوة خطوة ، وان لا يضغط يدها الى الحد الذي يوجعها . وخلص روبيان الى هذه النتيجة : لقد كان خشناً . وعادة مزة اخرى يخشى ان يغلقا في وجهه باب بيتها . ثم ارتد ثانية الى الامل . ففكر في وضع المرأة الشابة وفي تلك القصة التي اخترعتها هي نفسها ، أعني قصة الكاهن مانديس ، فرأى أنها دليل على التواطؤ ، وفكر كذلك فيما يجمله له زوجها من احترام .. لكنه حين وصل الى هذه النقطة من تفكيره ارتعش . ان هذه الفكرة تجعله يشعر بألم الضمير . نعم ، ان باليا يتق به . زد على ذلك أن باليا مدين له بمبلغ من المال ، عدا ثلاث حوالات قبلها من أجله .

قال لنفسه « لا أستطيع وما ينبغي لي ان امضي الى ابعد بما مضيت » . ثم استدرك يقول انه لا يد له في الامر والحق يقال ، فهي التي تستثيره منذ مدة طويلة . فلتحاول بعد الآن ما شاء لها هواها ان تحاول . لا بد إذن من مقاومتها . لقد اقرضته هذا المال من دون أن يطلب مني ذلك تقريباً . كنت اعرف انه في حاجة اليه .. وبعد الذي اظهره نحوي من اهتمام .. صحيح ان الحوالات هو الذي طلب مني ان ارقعها ، لكنه لم يطلب شيئاً غير ذلك . ثم انني اعرف انه رجل نبيل شريف . اعرف انه يعمل كثيراً . ان شيطان المرأة هو الذي جاء يقف بيننا بعينيه الواسعتين وجسه الجميل . ما اجمله من جسم يارب ! لقد كانت رائعة حقاً في هذا اليوم . حين كانت ذراعها تلمس ذراعي ونحن على المائدة ، وغم كمي ..

كان روبيان قلقاً متودداً ، انه لا يريد ان يخون صديقه ، لكن ضميره كان ينقسم عندئذ الى معسكرين متعادين ، يهاجم اولهما الثاني ، ويرد الثاني على الاول مفسراً ، وكلاهما حائر ..

وبعد ان سار هكذا على غير هدى ، وجد نفسه فجأة في ساحة الكونستيتوسيون . فخطر له أن يذهب الى المسرح ، لكن أوان المسرح كان قد فات . فاتجه عندئذ نحو ميدان سان فرنسيسكو ليركب عربة ويعود الى بوتافوجو . كان هنالك ثلاث عربات ما لبثت ان اتجهت نحوه تعرض عليه خدماتها . ان سائقي العربات يكيلون المديح لحيلهم . أنظر الى هذا الحصان الجميل ، أنظر الى هذا الجواد الكريم .

٤٦

أيقظت ضجة الاصوات والعربات متسولا كان نائماً على درجات الكنيسة . جلس المسكين ليوى ما حدث ، ثم لم يلبث أن استلقى من جديد . لكنه افاق من نومه ، وهاهو ذا راقد على ظهره يحدق الى السماء . ان السماء تحديق اليه ايضاً ، هادئة كهدهوته سواء بسواء . لكن السماء ليس لها من الشحاذ غضون وجهه ولا نعلاه الباليتان المثقوبتان ، ولا اسماله الحلقة . انها سماء رائعة ذات نجوم ، هادئة أولمبية ، كالسما التي اشرفت من عليائها على زفاف يعقوب أو انتحار (لوكرس) . السماء والشحاذ ينظر كل منهما الى الآخر ، كطفلين يجادل كل منهما أن يضحك الآخر ، ولكن بوقار رفيع ، فلا تكبر ولا صغار ، كأن الشحاذ يخاطب السماء بقوله :

« لست بساحقتي على كل حال »

وكان السماء تجيبه بقولها :

« لا ولا أنت بعارج لمي »

٤٧

لم يكن روبيان فيلسوفاً البتة . والمقارنة التي عقدها في هذه المناسبة بين همومه وهموم الفقير البائس لم تحمل اليه . الا طرفاً من الغيرة قال لنفسه « ان هذا الوغد لا يفكر في شيء . انه سينام بعد لحظة ، اما أنا .. »

- هيا اركب يا مولاي . حصاني من جيات الخيل . سنصل بعد خمس عشرة دقيقة .

وقال الحوذيان الآخران كلاماً من هذا القبيل ، ورددا الالفاظ نفسها تقريباً .
- تعال يا مولاي وسترى .

- انظر الى هذا الحصان الصغير .

- تفضل . لن تستغرق المسافة الا ثلاث عشرة دقيقة . بعد ثلاث عشرة دقيقة تكون في منزلك .

وبعد تردد طويل ركب روبيان اقرب عربة اليه ، وامر الحوذاني ان يمضي به الى بوتافوجو . وتذكر عندئذ حادثة من حوادث شبابه كان قد نسيها من زمان طويل . ترى هل ذكرى هذه الحادثة هي التي حملت اليه على غير شعور منه حلاً للاضطراب الذي كان يهز نفسه ؟ ومهما يكن من أمر فان روبيان لم يكن يرغب في شيء الا ان يجد خلاصاً من هذه الافكار التي كانت تحاصره منذ نهاية تلك السهرة الجديرة بالذكر .

وقع ذلك منذ زمان بعيد- جداً ، كان روبيان يومئذ في ريعان شبابه ، وكان فقيراً شديد الفقر . ففي ذات يوم ، في الساعة الثانية من الصباح ، خرج من البيت الذي يقيم فيه بشارع كانوا (وهو اليوم شارع ٧ ايلول) ، ووصل الى ميدان سان فرنسيسكو دي باولا . ومن هناك أخذ يهبط شارع أوفيدور . كانت تدور في رأسه يومئذ بعض الهوموم . انه يسكن عند صديق دعاه الى السكنى عنده مدة ثلاثة أيام ، وذلك منذ أربعة أسابيع . والناس تقول ان الضيف يجتمل ثلاثة أيام ، اما بعد ذلك فيصبح ثقيلاً .. والامر الذي لا شك فيه هو أن روبيان الذي كان غراً بسيطاً كينامي ، وكان مع ذلك كثير الشك والحذر كباولستي^(١) ، كان في ذلك اليوم مهموم البال جداً لأنه قرر أن يتروك بيت صديقه بأقصى سرعة بمكنة . ومنذ خرج من البيت واجتاز ميدان

(١) نسبة الى مدينة سان باولو .

سان فرانسيسكو وهبط شارع أوفيدور ، كان قد بلغ من فرط الفرق في أفكاره درجة لا يستطيع منها ان يسمع شيئاً ولا أن يرى شيئاً .

وفجأة ، عند زاوية شارع الاوريف ، أوقفه تجمع عدد من الناس يحيطون بموكب غريب . ففي وسط الموكب وقف رجل مرتد ملابس السلطة القضائية ، يتلو حكماً بصوت عال وحوله كاهن وجنود وأفراد بله يشاهدون ويسمعون . غير أن هناك زنجين هما اللذان يلفتان الانتباه . أولهما نحيل متوسط القامة موثق اليدين ، مطرق الى الارض ، أشهب اللون ، في عنقه حبل مربوط ، والثاني بمسك بالحبل ، رافع رأسه ينظر إلى الامام ، ولونه شديد السواد لامع . انه يواجه فضول الناس غير هياب . حتى اذا انتهى القاضي من تلاوة الحكم أخذ الموكب الآتي من السجن إلى ميدان مورا ، يسير في شارع الاوريف .

ومن الطبيعي أن يتأثر روبيان بهذا المشهد تأثيراً كبيراً ، وقد لبث متردداً بضع ثوان ، كتردده في هذا المساء حين كان عليه أن يختار عربة . ان صراعاً داخلياً يمزقه . فجزء من نفسه يهيب به أن يقفل راجعاً وأن يمضي الى شأنه ، وجزء آخر يوحي اليه أن يسير مع الموكب ليشهد شق الزنجي . انه لأمر نادر أن يرى المرء شقاً . « هيا . بعد عشرين دقيقة ينتهي كل شيء . » - « بل دعك من هذا ، وعليك بأمر . » وأغمض صاحبنا عينيه واستسلم للمقادير . ولكن المقادير لم تجعله يهبط شارع اوفيدور حتى يصل الى كيتاندا ، وإنما قادتة إلى شارع الاوريف خلف الموكب . قال لنفسه : لن أشهد تنفيذ الاعدام . إنه لا يريد أن يرى إلا سلوك المحكوم عليه ، ووجه الجلاد ، وباقي الاحتفال ... أما الشق نفسه فلا يريد أن يراه . وكان الموكب الصغير يتوقف من حين الى حين فيعيد ضابط القضاء تلاوة الحكم بينما يهرع الناس الى أبواب بيوتهم أو يقفون خلف النوافذ . ثم يستأنف الموكب سيره ويستمر في تقدمه على هذا النحو من الفخامة . والتعليقات على الجريمة تنهمر غزيرة . هي جريمة قتل وقعت في ماتابوركوس . والقاتل يوصف بأنه رجل سفّاح كاسر . وهذا ما بث في روبيان القوة اللازمة للنظر اليه دونما شفقة . لكن وجه المحكوم عليه بالإعدام ليس الآن وجه مجرم .

لقد حل الذعر محل القسوة . وأخيراً وجد صاحبنا نفسه في الميدان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم بالاعدام ، من دون أن يشعر بذلك . كان في الميدان أناس كثيرون ينتظرون ، انضم اليهم أولئك الذين كانوا يسيرون وراء الموكب ، فامتأل الميدان بحشد كثيف .

قال روبان لنفسه : والآن فلأمض الى سآني .

لكنه استدرك فقال ان المحكوم بالاعدام لم يصعد على المنصة بعد ، ولم ينفذ فيه الحكم فوراً وثمة إذن متسع من الوقت . وهبه بقي فقي وسعه أن يغمض عينيه ، كما فعل رجل يقال له ألبوس أمام مشهد الحيوانات المفترسة . يجب أن نلاحظ هنا أن روبان لم يسمع في حياته أحداً يتحدث عن ذلك الرجل الذي عاش في الأعصر الحالية . فلم يكن يجهل إذن أن الرجل أغمض عينيه ، بل كان يجهل أنه لم يلبث أن فتحها من قبيل حب الاطلاع ...

ولكن ها هو ذا المحكوم عليه يصعد المنصة . ان رعشة تسري في الحشد كله . وبدأ الجلاد عمله . فاستدارت قدم روبان اليمنى يمينا كأنها هو يريد أن يذهب ، غير أن القدم اليسرى التي كانت تستلمهم عاطفة مناقضة ظلت حيث هي ، وقام في نفس روبان صراع دام بضع لحظات ، كالصراع الذي قام في نفسه منذ قليل : « انظر الى هذا الحصان . - انظر إلى هذا الحصان الجواد . - لا تكن قاسي القلب . - لا تكن ضعيف الجنان » . على هذه الحال من التردد ظل روبان بضع ثوان الى ان أزفت اللحظة الحاسمة . فشخصت العين كلها ومنها عيناه الى نقطة واحدة . لم يفهم روبان ذلك الاحساس العجيب الذي أخذ بأحشائه وأوثقه في مكانه حتى لكان يبدأ من حديد قد سمرته . ولم تدم اللحظة الحاسمة الا هنيهة خاطفة . اضطربت ساقا الرجل فجأة في تشنج ، ثم تصلب جسمه كله ، بينما وثب الجلاد الى كتفيه في مهارة . وسرت في الحشد مهمة . وصرخ روبان . ثم لم ير شيئاً .

٤٨

- قد تكون قد لاحظت باصاحب السعادة كيف أن حصاني سريع .

فتح روبيان عينيه وكان قد أنغمضها نصف انغماض ، فرأى الحوذني يقرع سوطه قرعاً خفيفاً ليحث الحصان على العدو . انتزع روبيان في داخل نفسه من الرجل لأنه انتزعه من ذكرياته التي كان غارقاً فيها . صحيح انها ليست بالذكريات الممتعة ، ولكن هذه الذكريات البعيدة كل البعد تمتاز الآن بأعظم مزية وهي انها تمنعه من التفكير في الحاضر كأنها ماكسير عجيب . وها هو ذا الحوذني يوقظه فيفيق منتفضاً . ان العربة تصعد شارع لآبا . حقاً لقد كان الحصان يلتم المسافة التهاماً ... وتابع الحوذني كلامه قائلاً :

– ان هذا الحصان يكن لي حياً عظيماً . اعرف ان ذلك أمر يصعب تصديقه . لكنني استطيع أن أقص عليك قصصاً خارقة في هذا الصدد . هنالك أناس يقولون انني الفق حكايات لكن ما أقوله ياسيدي هو الحقيقة الخالصة . يعرف الناس جميعاً ان الحصان والكلاب خير صديقين للانسان . وربما كان الكلب يمتاز بهذا على الحصان ...

فما ان سمع روبيان كلمة « الكلب » حتى تذكر كونكاس بوربا فجأة . لاشك ان الحيوان ينتظره بفارغ الصبر . ان روبيان لم ينس الشرط الذي اشتملت عليه الوصية ، وقد حلف لينفذها تنفيذاً دقيقاً . ويجب أن نذكر من جهة أخرى انه لا يخاف ان يهرب الكلب فحسب ، بل يخاف كذلك أن يفقد امواله . وهذا الخوف لم يكن ليمحي من نفسه رغم كل ما كان يقوله له المحامي . كان المحامي يقول له : ان الوصية لا تشتمل على أي بند ينص على أن المال يتول الى شخص آخر اذا هرب الكلب ، وذلك ان الميراث لا يمكن أن يفلت منك ، فقيم الخوف من هربه ، ولعل الأفضل ان يهرب ، فتتقص همومك .. هذا كل ما في الامر . وكان روبيان يتظاهر بقبول هذه الشروح ، لكن الشك يظل قائماً في قرارة نفسه . ان ما يعرفه من امثلة كثيرة عن دعاوى طال امدها ، وما يعرفه عن اختلاف الآراء القضائية في امر واحد بعينه ، وما قد يشنه حاسد أو حاقد من هجوم عليه ، وخوفه من أن يصبح ذات يوم فقيراً لا يملك

شروى نقيير ، كل ذلك كان لا يزال ينقر في رأسه . وهذا هو السبب في انه فرض على الكلب ذلك الحبس القاسي ، وهذا هو السبب أيضاً في انه شعر بعذاب الضمير حين تذكر انه قضى فترة ما بعد الظهر وفترة السهرة دون أن يفتن الى كونكاس بوربا مرة واحدة .

قال لنفسه : « انني عقوق » .

ثم لم يلبث أن استدرك فقال انه أشد عقوقاً من ذلك أيضاً ، لأنه لم يتذكر كونكاس بوربا الآخر الذي اورثه كل شيء . وفجأة خطر بباله أن كونكاس بوربا الكلب وكونكاس بوربا الرجل قد لا يكونان الا مخلوقاً واحداً بعينه ، فاعلم روح كونكاس بوربا الراحل قد تجمعت جسد كونكاس بوربا الكلب ، لا لتتطهر من خطاياها فحسب ، بل لتراقب المولى الجديد للكلب . ان زنجية من سان جوان دلري هي التي أدخلت في روعه أفكار التناسخ هذه حين كان صيباً . قالت له انها الارواح المثقلة بالخطايا تحمل في اجسام الحيوانات ، حتى لقد حلفت له انها تعرف كاتباً بالعدل قد تحول الى قنقر أميركي ..

- ارجو من سعادتك أن لا تنسى ان تقول لي أين يقع البيت .

كذلك قال له الحوذني فجأة . فأجابه روبيان :

- قف هنا .

٤٩

نبح الكلب من داخل المنزل ، ولكن ما ان دخل روبيان حتى هرع اليه فرحاً اعظم الفرح ، فغمره روبيان بملاطفاته رغم انه كان منزعجاً أشد الانزعاج . كان يتصور أن الراحل قد يكون ثاوياً فيه ، فتسري في جسمه قشعريرة قوية . وصعد الاثنان درجات المصطبة ، ثم لبنا عليها بضع لحظات في ضوء مصباح أمر روبيان أن يظل مشتعلًا . ان صاحبنا روبيان أقرب الى التصديق الساذج منه الى الايمان .

ما من عقيدة كانت تدفعه إلى أن يهاجم أي شيء أو أن يدافع عن أي شيء .
حتى ليتمكن تشبيه ذهنه بقطعة رخوة من الشمع لم ينقش عليها شيء حتى الآن .
وقد وهبت له حياة ريو دي جانيرو هذه الميزة الخاصة : وهي أن يستطيع في عالم
يضم اناساً قلبلي التصديق ، أن يظهر بمظهر الجاحد ...

وبانتظار أن يُفتح له الباب ، اخذ ينظر الى الكلب . وأخذ الكلب ينظر
اليه نظرة يحق للمرء معها أن يتصور أن كونكاس بوربا الاصلي قائم فيه . انها
تلك النظرة الممتلئة بالتأمل التي كان يصطنعها الفيلسوف حين يتحدث في كبريات
المشكلات الانسانية ... واقشعر بدن روبيان مرة اخرى . لكن خوفه ، على
شدته ، لم يكن من القوة بحيث يشل يديه ، وها هو ذا يمر بها على رأس الكلب ،
ويدغدغ أذنيه ورقبته .

- مسكين كونكاس بوربا . أنت تحب مولاك ، أليس كذلك ؟ انك تعرف
أن روبيان صديق وفي لكونكاس بوربا ...

والكلب يحرك رأسه تحريكاً بطيئاً ، من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى
اليسار ، ليتيح لصاحبه أن يحسن مداعبة اذنيه الطويلتين المتهدلتين ، ثم يرفع
ذقنه ليحك له صاحبه رقبته ، وصاحبه يطبع ... وعينا الكلب ، اللتان كانتا
من اللذة مغمضتين نصف اغماض ، قد ظهر فيها ذلك المعنى الذي كان يظهر في
عيني الفيلسوف حين كان يشرح لروبيان ، من على سريره ، أموراً لا يفهمها روبيان
إلا قليلاً أو لا يفهمها البتة .. واغمض روبيان عينيه . وفُتح له الباب أخيراً .
فودع الكلب لكنه كان بتودده وتجنبه اليه اثناء الوداع كمن يطلب اليه أن يدخل .
وتولى الخادم الاسباني ارجاع الكلب الى تحت .

أمر روبيان الخادم بقوله :

- لا تضربه .

ولم يضربه الخادم ، لكن ارجاعه الى تحت كان وحده أمراً مؤلماً ،
فظل الكلب الطيب يشن في الحديقة مدة طويلة . دخل روبيان ، فخلع ثيابه ،

ورقد على سريره . آه .. حقاً لقد عاش يوماً حافلاً بالانفعالات المتنوعة المتناقضة ، من أحلامه عند الصباح وغدائه مع صديقيه ، الى فكرة التقمص التي راودته ، بالإضافة إلى ذكرى المشنوق وإلى اعترافه بالحُب ، وهو اعتراف لم يقبل في الظاهر قبولا حسناً ، لكنه لم يصد كذلك صداً عنيفاً ، كما انه لم يعد سراً خافياً ... وهذا انكى ما في الامر .

كل شيء يختلط الآن في رأس روبيان ؛ وفكره ينقذف من جهة الى جهة ككرة من المطاط بين يدي صبي . ولكن الاحساس بالحُب اقوى احساس . ان روبيان دهش من نفسه ، بل نادم على موقفه . غير أن الندامة لا وجود لها الا في ضميره ، أما خياله فلا شيء يستطيع ان ينتزع منه صورة صوفيا ... دقت الساعة الاولى من الصباح ، ثم دقت الثانية فالثالثة .. ما تزال صوفيا تلوح من بعيد .. وما يزال الكلب ينبح تحت ... والنوم لا سبيل اليه .. الساعة قد دقت الثالثة ، ولكن منذ متى ؟ هاهي ذي تشير الآن الى الثالثة والنصف . وأخيرا ، بعد تلك الحواطر كلها غلبه النوم في لحظة . كانت الساعة عندئذ تقارب الرابعة من الصباح .

٥٠

أيتها القارئة العزيزة ، لا تحسبي أن ذلك اليوم الحافل قد انتهى . اننا لا نعرف ما الذي جرى بين صوفيا وزوجها بعد انصراف ضيوفها ، وربما كان ذلك أشيق من مشهد تنفيذ الحكم بالشنق .

عليك إذن بالصبر ، ولنعد إلى سانتاتيريزا مرة اخرى . ان الصالون ما يزال مضيئاً لكنه مضاء بمصباح واحد ، اما المصابيح الاخرى فقد اطفئت ، وكان هذا المصباح الوحيد على وشك أن يطفأ هو أيضاً ، حين طلب باليا إلى الخادم ان يتربث قليلا . كانت صوفيا تم أن تترك الحجرة ، لكن زوجها اوقفها فارتعشت .

قال لها :

- كانت حفلتنا موفقة جداً .

- نعم ، موفقة جداً .

- سيكويرا مزعج ، لكن مرحة يجعله محتملاً على كل حال . كانت ابنته انيقة هذا المساء . هل لاحظت كيف كان راموس يلتمهم كل ما بوضع في طبقه ؟ لسوف ترين في ذات يوم أنه أكل زوجته ...

قالت صوفيا مبتسمة :

- زوجته ؟

فأجابها زوجها :

- أوافقك على انها سمينة قليلا . لكن زوجته الأولى كانت اسمن منها ، ولا شك انها لم تمت ميتة طبيعية ، وانما ابتلعها هو ..

كانت صوفيا مسندة ظهرها الى الاربكة تضحك لامازيح زوجها . وتنادرا ببعض ماجرى في الحفلة أيضاً . وفجأة قالت صوفيا لزوجها وهي تدغدغ شعره :

- لكنك لا تعرف الى الآن اطرف حادثة وقعت في السهرة .

- ماهي ؟

- احزر .

صمت باليا بضع لحظات وهو ينظر الى امرأته محاولا أن يعرف ماهي تلك الحادثة التي هي اطرف ما حدث في السهرة . لكنه لم يستطع ان يجزر . افترض عدة فروض فكانت امرأته تهز رأسها نفيًا . فقال لها أخيراً :

- ماهي اذن ؟

- لا ادري . احزر .

- لم استطع ان احزر . قولي ما حدث !

- على شرط .. لا اريد صراخاً ولا زعلا .

فاظلم وجهه باليا . صراخ ؟ زعل ؟ ماعسى أن يكون الأمر اذن ؟
أصبح لا يضحك ، وانما تطوف على شفتيه ابتسامة مصطنعة ، شاحبة ، مدعنة .
تفرس في وجه امرأته ، وسألها :

- ماذا حدث ؟

- هل تعدني بما طلبته منك ؟

- اعدك . ما هو الأمر ؟

- اذن فاعلم انني في هذا المساء سمعت شيئاً أقل ما يوصف به هو انه
تصريح غرامي .

شحب وجهه باليا شحوبا شديداً . انه لم يعدها بأن لا يشحب وجهه . نحن
نعلم انه كان يبلغ من حبه لزوجته ذلك المبلغ الغريب وهو أن يعرض جمالها
الى ابعد حد . لكن النبأ الذي تذكره الآن لا يمكن أن لا يثيره . ولاحظت
صوفيا اصفراره المفاجيء ، وسرها انها اثارته هذه الاثارة الشديدة . ومن أجل
أن تستمتع بهذه اللذة مدة اطول مات بصدرها وحلت طارة شعرها التي كانت
تضايقها قليلا ، ووضعت دبابيس شعرها في منديلها ، وتنفست تنفساً طويلاً ثم
هزت رأسها وأمسكت بيد باليا الذي ظل طوال ذلك الوقت واقفاً :

- هي الحقيقة يا عزيزي ، لقد تغزل احدهم الليلة بزوجتك .

فقال باليا وقد نفذ صبره :

- ولكن من هو ذلك الوغد الذي تجرأ ..

- لا .. اذا غضبت هذا الغضب كله فلن اقول شيئاً . من هو ؟ أتريد

أن تعرف من هو ؟ اذن حافظ على هدوئك . هو روبيان .

- روبيان ؟

- نعم ، وما كنت لأتصور صدور مثل هذا عنه . انه يبدو خجولاً

شديد الخجل ، متحفظاً شديد التحفظ . صدق من قال : ليس الراهب بمسوحه .

ما من احد من الرجال الكثيرين الذين يزوروننا خاطبني يوماً بمثل ما خاطبني به

هذا الرجل . صحيح أنهم ينظرون اليّ لانني غير دميمة .. لماذا تسير هكذا
جيئةً وذهاها ؟ قف .. لا اريد أن ارفع صوتي .. نعم . هكذا أحسن .
لنعد الى الموضوع . انه لم يكاشفني بالحب مكاشفة صريحة .
- ها .. اذن لم يفعل ؟

كذلك قاطعها زوجها على الفور . فأجابته بقولها :
- لكن النتيجة واحدة .

وقصت عليه ماجرى في الحديقة ، منذ لحظة خروجها الى الحديقة مع
روبيان حتى لحظة وصول الماجور . وختمت القصة بقولها :

- هذا كل ما حدث . وهو كاف لان تدرك أنه إذا لم ينطق بكلمة الحب
فما ذلك الا لأن هذه الكلمة لم تراود شفثيه . لكنني أؤكد لك أن يديه
كانتا تتكلمان كلاماً واضحاً حين كانتا تشدان على اصبعي .. هذا كل شيء .
غير أن علينا الآن ان نغلق الباب في وجهه ، سواء أ فعلنا ذلك دفعة واحدة
أم شيئاً بعد شيء . اما أنا فأفضل أن نغلق الباب في وجهه فوراً . على أن الامر
لك ، تفعل ما تشاء . مارأيك ؟

ظل باليا بضع لحظات ينظر الى زوجته نظرة بلهاء ، وهو يعض على شفثه
السفلى . ثم جلس على الاربيكة دون أن يقول شيئاً . انه يفكر في الأمر .
وها هو ذا يجد أن من الطبيعي أن تأسر فتنة زوجته رجلاً من الرجال ، فلماذا
لا يكون هذا الرجل روبيان ؟ لكنه كان يثق بروبيان ثقة عظيمة حتى لقد
كتب بنفسه نص البطاقة التي ارسلتها اليه صوفيا مع سلة الفاكهة ، ولم ترد
صوفيا على أن نسختها ووقعتها وأرسلتها . ما كان ليخطر ببال باليا يوماً أن
روبيان يمكن ان يصرح بحبه لأي امرأة من النساء ، فكيف بصوفيا . ولكن
هل الأمر امر حب حقاً ؟ الا يمكن ان يكون أمر مزاح يبيحه له ما بينه
وبين الاسرة من مودة حميمة ؟ صحيح ان روبيان كان ينظر اليها كثيراً ،
وكان يبدو له ايضاً أن صوفيا تبادلته نظراته في بعض الاحيان .. وما هذا الا

تلطف من امرأة جميلة . ثم مادامت العينان ملك يمينه هو ، أفلا يستطيع أن يتكرم على غيره ببعض نظراتهما أحياناً ؟ ما ينبغي لامريء أن يكون غيوراً على عصب بصري على كل حال . بذلك حدث باليا نفسه . ونهض صوفياً ومضت الى البيانو تضع عليه المنديل الذي لفت به دبائيس شعرها ، ونظرت الى وجهها في المرآة لترى كيف صار شعرها بعد أن حلت طارته . فلما عادت الحد الأريكة تناول زوجها يدها وقال لها وهو يضحك :

- يجيل الي انك تصدعين رأسك أكثر مما يستحق الأمر . ان تشبيهه عيني امرأة بالنجوم ، أو تشبيه النجوم بعينها ، شيء يستطيع المرء أن يفعله على مرأى ومسمع من جميع الناس ، حتى يستطيع أن يهتف به في حشد من الناس شعراً أو نثراً . وذات العينين الجميلتين المسرفتين في الجمال هي المسئولة عن الأمر كله . ثم انني رغم كل ما قصصه علي ، ما زلت أعده ريفياً غراً .

- وهل الشيطان اذن ريفي غر ، لأنني قد رأيت فيه الشيطان نفسه . ثم ما قولك فيما طلبه الي من ان أتأمل صليب الجنوب في ساعة معينة من الليل لتلقي روحانا ؟

فأجاب باليا قائلاً :

- في هذا شيء من الحب طبعاً . ولكن ألا ترين أن مثل هذا العمل الساذج لا يمكن أن يصدر الا عن نفس بسيطة بعض البساطة . هذه هي اللغة التي تستعملها البنات في الخامسة عشرة من العمر ... وهي اللغة التي يستعملها البله في جميع الازمان ويستعملها كذلك الشعراء . وما هو بالبنت ولا هو بالشاعر .

- صحيح ... ولكن ما قولك في أنه شد على يدي ليمعني من مغادرة الحديقة؟ انتفض باليا حين سماع هذا السؤال . ان الشيء الذي كان لا يزال يؤلمه أشد الايلام هو أن أيديها قد تلامست وأن صاحبه لجأ إلى القوة ليحول بين زوجته وبين الانصراف . حقاً إنه لو استطاع لذهب الى روبيان ليمسك بتلابيه . غير

أنت أفكاراً أخرى مرت بخاطره فمحت هذه الرغبة من نفسه ، فاذا بصوفيا التي خشيت أن تكون قد أهاجته ، تراه يرفع كتفيه احتقاراً ، ولا يزيد على أن يقول إن ذلك كان منه فظاظة في حقيقة الامر . وأضاف يقول :

- ولكن ، يا صوفيا ، كيف خطر ببالك أن تدعيه الى الحديقة لرؤية ضوء القمر؟
- لقد طلبت الى تونيكا أن تأتي معنا .

- ولكن حين رفضت تونيكا مرافقتكما كان ينبغي لك أن تجددي وسيلة للعدول عن الذهاب . والاعذار في هذه الحالة سهلة . أنت قيصت له الفرصة .

نظرت صوفيا اليه وقد قطبت حاجبيها الكثيفين ، وهمت أن تجيبه لكنها صمتت . واستمر باليا يفيض في هذا النوع نفسه من الكلام قائلاً ان الغلظة غلظتها هي ، وانه كان عليها أن لاتتيح له الفرصة ...
قالت امرأته :

- ولكن ألسنت أنت الذي قلت لي ان علينا أن نعامله في كثير من المراعاة؟ وما كان لي طبعاً أن أذهب معه الى الحديقة لو كنت أقدر ما سيحدث فيها ، ولكن أين لي أن أتوقع من رجل هاديء هذا الهدوء كله ، من رجل ولا أدري كيف أصفه ، أن يخرج فجأة من قوقعته ليغازلني هذه المغازلة ؟ فقال لها زوجها وهو يتسم ابتسامة متكلفة :

- اذن عليك بعد الآن أن تسيئي الظن في القمر والحديقة .
- ولكن ، يا كرستيانو ، كيف أكلمه حين يأتي الى هنا مرة ثانية ؟ لا ... انني أشعر بأنني لن استطيع ذلك قطعاً . اسمع ... الافضل ان لا نراه بعد اليوم أبداً .

فوضع باليا ساقاً على ساق ، وأخذ ينقر على حذائه . وظلا كلاهما صامتين فترة من الوقت . ان باليا يفكر في هذا الاقتراح الذي جاءت به امرأته ، لا لأنه يريد أن يتبعه ، بل لأنه لا يعرف بماذا يجب زوجته التي تظهر هذا الاستياء كله ، وتتصرف تصرفاً يدل على شدة حرصها على كرامتها . انه لا ينبغي

له أن يشجب هذا الاقتراح ، ولا أن يتبعه ، فماذا عساه يصنع . ونهض ووضع يديه في جيبه ، وأخذ يمشي . وبعد بضع خطوات وقف امامها وقال :

– أغلب الظن أننا نصدع رأسنا بأمر قد لا يكون إلا ثمرة إفراط الشراب . ألم تلاحظي أنه كان لا يعاف شرب الكأس الذي يقدم إليه ؟ رأس خفيف وشيء من الانفعال ... فاذا هو يقول ما يقول ... لست أعني أنك لم تعجبيه ، كما أعجبه نساء كثيرات .. تذكري أنه كان منذ بضعة أيام في حفلة راقصة بقصر « كاتيتي » ، وانه عاد من الحفلة مفتوناً بالسيدات اللواتي لقيهن ، وخاصة بسيدة يقال لها مدام مانديس ، وهي ارملة ، فيما أظن .

فقاطعه صوفيا قائلة :

– ولماذا لم يطلب إلى تلك المرأة الجميلة ان تتأمل « صليب الجنوب » ؟
– انه لم يتعش هناك ، ومن جهة اخرى لم يكن ثمة حديقة ولا قمر .
والذي أريد أن أقوله على كل حال هو أن صديقنا لم يكن على حقيقته في هذا المساء . ولعله بعض الآن أصابع الندم على ما بدر منه . ولعل نفسه تقيض بالحجل والشعور بالعار ، ولعله يتساءل هل في وسعه أن يعتذر ، أم الأفضل أن لا يثير الموضوع البتة . بل ان من الممكن جداً أن يمضي إلى حد التغيب فترة من الوقت ...

– أحسن .

– إلا إذا دعواته .

– ولماذا ندعوه ؟

قال باليا وهو يجلس إلى جانبها :

– صوفيا ، لا أحرص الآن على الدخول في التفاصيل . كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني لن اسمح لمخلوق على وجه الارض ان يقصر في احترامك .
قال ذلك ثم صمت بعض الوقت ، وصوفيا شاخصة بصرها إليه تنتظر أن يكمل كلامه .

- لن أسمع بذلك مخلوق على وجه الأرض ، وويل لمن يجرؤ أن يلمسك ،
وويل لك أيضاً إذا رضيت بذلك . انك لتعلمين حق العلم أنني لا أعرف في هذا
الأمر هوادة ، ولا شيء يحمل إلي الثقة والهدوء إلا يقيني من عاطفتك أو قولي
من حبك . فقيم أزعج نفسي بهذا الموقف الذي وقفه روبيان ؟ وتذكري أن
روبيان صديقنا ، وأن له علي حق الاعتراف بالجميل .

- بضع هدايا ، وبضع حلبي ، وشرفات بالمسرح ، هذا لا يكفي لأن
أتأمل معه « صليب الجنوب » .

قال باليا منتهداً :

- ليت هذا كل شيء .

- ماذا هنالك أيضاً ؟

- لا فائدة من الدخول في التفاصيل .. هناك شيء آخر ... سأحدثك عنه
فيما بعد . ويجب أن تكوني واثقة ، على كل حال ، أنه ما من شيء يمكن أن
يحملني على التراجع لو رأيت فيما قصصته علي أمراً ذا بال . انسي لا أرى فيما
فيما قصصته علي أمراً ذا بال . وما هو في حقيقة الامر إلا غبي مسكين .

- لا .

نهضت صوفيا . أصبحت هي أيضاً لا تريد بالدخول في التفاصيل . وتناول
زوجها يدها ، لكنها ظلت لا تنبس بكلمة . ان باليا ينظر إليها مبتسماً وقد
أسند رأسه على ظهر الأريكة ، لا يعرف ماذا يقول . وقال بعد بضع ثوان
ان الوقت متأخر وانه سيأمر باطفاء جميع الانوار ، ثم أضاف بعد صمت قصير:
- طيب ! سأكتب إليه غداً أن لا يدوس عتبة هذا البيت بعد الآن .

ونظر إلى امرأته ينتظر منها أن تنهأ عن ذلك ، لكن صوفيا حكمت حاجبيها
ولم تجب بشيء . وكرر باليا اقتراحه ، ولعله كرره هذه المرة صادقاً ، فقالت
له صوفيا في تدمر :

- اسمع يا كرستيانو ، من ذا الذي يطلب إليك أن تكتب إليه رسائل ؟

انني آسفة منذ الآن على انني حدثتك عن الامر . وكل ما هنالك انني نقلت
اليك ما عدده امتهاناً لكرامتي ، وحين اقترحت عليك أن تقطع صلاتنا بالرجل
ذكرت أن علينا أن نفعل ذلك شيئاً بعد شيء أو دفعة واحدة !

- ولكن كيف نستطيع أن نقطع صلاتنا به دفعة واحدة ؟

- نغلق باب بيتنا في وجهه . على أنني لا أذهب الى هذا الحد . وفي وسعك
أن تفعل ذلك شيئاً فشيئاً ان أردت ...

كان هذا تنازلاً من صوفيا ، وقد قبل باليا هذا التنازل راضياً . لكن وجهه
لم يلبث أن اكفهر مرة أخرى ، وترك يد امرأته فجأة بجرعة يائسة ، ثم لم
يلبث أن أمسك بجسها وقال لها بصوت أقوى :
- لكنني يا حبيبتى مدين له مجال كثير .

فوضعت صوفيا يدها على فمه ، ونظرت الى المرمدعورة ، ثم قالت :

- طيب . دعنا من هذا الامر . وسأرى كيف يتصرف بعد الآن . وسأحاول
أن أكون أكثر ابتعاداً عنه .. ولكن عليك أنت في هذه الحالة أن تظل كما
كنت ، حتى لا يظهر انك على علم بما حدث . سأرى ما الذي أستطيع أن أفعله .
- أنت تفهمين يا صوفيا ، هنالك صعوبات تعترض أعمالي ، هنالك عقبات لم
تكن في الحسبان ... استحقاق دفع هنا ، واستحقاق دفع هناك . وما لا أدري
أيضاً !.. ومن اجل ذلك ... ولكن يجب أن نحتفظ بالابتسامة يا عزيزتي ...
كل ما حدث ليس بذى بال ... أنت تعرفين مدى ثقتي بك

- تأخر الوقت ، هيا بنا الى النوم .

- نعم ، هيا بنا الى النوم .

كذلك ردد باليا وهو يقبل صوفيا على خدها . فدمدمت صوفيا تقول :

- بي صداع شديد . لعل السبب هو الرطوبة ، الا أن يكون تلك القصة
الطويلة ... بي صداع شديد حقاً .

كان باليا قد استعم وحلق ذقنه وارتردى نصف ثيابه وأخذ يقرأ الجرائد بانتظار الافطار ، حين دخلت زوجته في صباح القعد الى مكتبه . كانت شاحبة بعض الشحوب . سألتها زوجها :

— ألم يخف الصداع ؟

فخرجت من بين شفيتها جمجمة غير مفهومة ، لا هي نعم ولا هي لا . فأكد لها باليا أن صداعها سيزول في النهار . ان مرده الى تمب الحفلة وتأخر العشاء ... ثم استأذنها في انهاء قراءة مقالة تتصل بشئون الاعمال . ان المقالة تدور حول خلاف بين تاجرين في امر حوالات . فقد نشر أحدهما بالأمس مقالة في هذا الموضوع ، وها هو ذا الثاني يرد عليه اليوم . قال باليا وهو ينهي قراءة المقالة : رد كامل جداً . وشرح لزوجته مسألة الحوالات تفصيلاً ، وأوضح مجرى العملية ، وجلا موقف الحصين ، وتحدث عن الشائعات التي تدور في هذا الصدد ، مستعملاً في ذلك كله تعابير تجارية محضة . وكانت صوفيا تصغي إليه وهي تنهد ، لكن الشوه الذي تفرضه المهنة على صاحبها لا يعبأ بتنهدات النساء ، ولا بكياسة الرجال . ومن حسن الحظ أن طعام الافطار كان قد أعد أثناء ذلك .

لم تطعم المرأة الشابه إلا طبقاً من المرق . وفي الساعة الثانية بعد الظهر ، بينما كانت هي وحيدة ، مضت تجلس في الحديقة أمام باب البيت . وأخذت تستعيد أحداث قصة البارحة . انها في حالة نفسية ملتبسة لا يمكن تحديدها . نصفها عب ونصفها تين . فهي نادمة على أن حدثت زوجها في الامر ، لكن ذكرى التعليقات التي حاول زوجها أن يقنعها بها تثيرها مع ذلك . وفيما هي غارقة في تأملاتها سمعت كلمات الماجور ترن في أذنيها واضحة متميزة : « هيه . تأملان جمال ضوء القمر ؟ » . لم يكن ذلك إلا حفيف أوراق الشجر ، لكن أذنيها وجدت فيه اصداء الكلمات التي قالها الماجور في الليلة البارحة . انتفضت صوفيا . لقد كانت سيكويرا قليل التحفظ والكتمان . انه يجب أن يحشر أنفه في شئون غيره ، هذا صحيح ، ولكن أترأه يضي الى حد اذاعة الامر ونشره ؟ وتصورت صوفيا أن

الناس أخذوا منذ الآن يشتبهون فيها ويشهرون بها . وراحت تضع الخطط تلو الخطط . لن ترى بعد اليوم أحداً . . بل ستسافر ... في وسعها أن تسافر الى نوفا فريبورجو مثلاً ، أو الى مكان أبعد من ذلك أيضاً ... لقد أسرف زوجها حين طلب اليها أن تستقبل روبيان كأن شيئاً لم يحدث ، وخاصة للسبب الذي ذكره . انها لاتريد أن تعصي طلبه ولا أن تلبيه ، لذلك أصبحت لاتفكر إلا في السفر متعلقةً بأي حجة ما . قالت متنهدة :

— هذا كله ذنبي أنا .

نعم ، كان ينبغي لها أن لانحيط روبيان بتلك العناية كلها ، ولا أن تكون لطيفة معه ذلك اللطف كله ، ولا أن تسمح بنشوء تلك الصداقة الحميمة بينها وبينه . . عدا تلك الطرقات التي تبادلاها في الليلة البارحة . فلو أنها فعلت ذلك لما حدث شيء ، هكذا راحت تفكر في ذلك تفكيراً لاحد ولا نهاية له . ان كل شيء يحنق صوفيا الآن . الازهار ، والاثاث ، وجدجد يعني ، وأناس يتحدثون في الشارع ، وقرقعة آنية البيت ، وسائقو العربات ذاهبين آيين ، وحتى ذلك الزنجي الهرم الذي يصعد الرابية أمام بيتها . ان مشيته المستأنية تلطم أعصابها لطمًا .

٥٢

ومر امام البيت شاب طويل ، فحياها تحية طويلة وهو يبتسم ، فردت صوفيا تحيته رغم انها دهشت أشد الدهشة . قالت لنفسها . « من عساه يكون ؟ »

وراحت تتساءل . اين تراني عرفته ، ذلك أن وجهه ليس غريباً عني ، ولا قامته ولا عيناه الواسعتان الهادئتان . اين تراني رأيته ؟ واستعرضت بذكرتها عدة حفلات شهدتها ، لكنها لم تصل الى نتيجة . وتذكرت آخر الامر حفلة رقص أقامها في الشهر الماضي احد المحامين احتفالاً بعيد ميلاده . نعم لقد التقت به هنالك . حتى لقد رقصا احدى الرقصات معا ، وذلك ما

يمكن ان يعد التفاتة منه ، لأنه لم يكن يرقص ابدأ . وتذكرت انها سمعته يتحدث بعبارات عذبة جداً عن جمال المرأة قائلاً إن قوامه العينان والكتفان . (نحن نعلم أن صوفيا لا تستطيع أن تحسد في هذا اهداً) ولم يتطرق يومئذ الى أي موضوع آخر .. لم يتحدث الا عن العينين والكتفين .. كان في الكلام على هذا معيناً لا ينضب .. حتى لقد قص بضع نوادر وقعت له ... صحيح ان بعض هذه النوادر لم يكن شائفاً ، لكن الرجل كان مبدعاً في الحديث كل الابداع . وكان الموضوع الذي يدبر عليه حديثه يناسب صوفيا . نعم انها تتذكر الآن كل شيء . ما ان تركها الرجل ليلتئذ حتى جاء باليا يجلس الى جانبها ويقول لها اسم هذا الرجل الذي راقصها ، اسمه الذي لم تدركه ادراكاً واضحاً حين قدم اليها قبل ذلك : كارلوس ماريا . (هو ذلك الشخص نفسه الذي عرفناه على مائدة الغداء التي أولها روبيات) قال لها زوجها وقد تملى غروره أن الرجل اهم بزوجه خلال تلك المدة الطويلة كلها :

— انه أبرز شخصيات السهرة .

فصححت صوفيا كلام زوجها بقولها :

— من الرجال .

— اما شخصيات النساء فأنت أبرزها .

ذلك ما اسرع باليا بقوله وهو ينظر الى جسم امرأته ، ثم يدبر طرفه في القاعة وقد ظهر في وجهه ذلك التعبير الذي تعرفه صوفيا حق المعرفة ، والذي كان لا يسيئها قط ، أعني التعبير عن انه هو السيد والمالك .

حين انتهت صوفيا من تذكر ذلك كله كان كارولوس ماريا قد ابتعد . على أن تذكر هذه الأمور كان هدنة قصيرة في معركة القلق التي كانت قد استولت عليها . كانت تشعر بألم في ظهرها ، وقد هدأ الألم بضع لحظات ، الا انه لم يلبث أن عاودها أشد بما كان . واستوخت صوفيا في قاع المقعد ،

وانغمضت عينها . وحاولت ان تجد سبيلا الى النوم لكنها لم تستطع . ان همومها عنيدة كالوجع الذي تحسه ، بل انها اقسى منه . وكان اصطفاق الأجنحة يقطع الصمت من حين الى حين . انها حمامات بيت مجاور تعود الى اعشاشها . لقد فتحت صوفيا عينها في اول الأمر مرة أو مرتين عند مرورها ، ثم اعتادت هذه الضجة ، فظلت مغمضة عينها لترى هل تستطيع حقاً أن تنام ، وبعد فترة من الوقت سمعت وقع اقدام ، فرفعت رأسها ظانة انه كارلوس ماريا في طريق عودته . لكنها رأت ساعي البريد يحمل اليها رسالة من الريف . فتناولت منه الرسالة ، وفيما كان الرجل يخرج من الحديقة تعثرت قدمه بمقعد فسقط الى الارض على طوله ، وتبعثرت الرسائل في جميع الجهات . فلم تملك صوفيا ان تحبس نفسها عن الانفجار ضاحكة .

٥٣

اغفروا لها هذا الضحك . أنا أعرف أن قلقها واليلية المسهدة التي قضتها وخوفها من اقاويل الناس ، أعرف ان ذلك كله يتعارض تعارضاً قويا مع هذه الضحكة التي ليست في محلها . ولكن لعلك ، ابنتها القارئة العزيزة ، لم ترى في حياتك ساعي بريد يهوي الى الارض على طوله . إن آلهة هوميروس - وهي آلهة لا بشر - كانت تتناقش ذات يوم في الاولمب مناقشة جدية بل حامية . وفيما هي تتناقش اخذت جونون المزهوة المتعجرفة تغار من أحاديث تيتيس وجوبيتر في الثناء على آشيل ، فقاطعت فجأة ابن ساتورن ، فأخذ جوبيتر يردد ويعصف ، وأخذت زوجته من جهتها ترتعد غضباً . وكان الآخرون لا يزيدون على أن يتنهدوا أو ينتحبوا . ولكن حين تناول فولكان الاناء المملوء بالشراب وأخذ يسقي الحاضرين وهو يعرج ، انطلقت في الاولمب على حين فجأة نوبة جنونية من ضحك لا ينطفىء . لماذا ؟ انك ياسيدي العزيزة لم ترى ساعياً ينقلب على ظهره في يوم من الايام .

وفي بعض الاحيان لاحاجة إلى سقوطه ، وفي أحيان اخرى لاحاجة إلى وجوده ، بل يكفي تخيله أو تذكره . ما من عذاب مها يكن عنيماً يمكن ان يمنع ابتسامة عابرة أن تطوف بالشفقتين حين تستيقظ في الخيال على فجأة ذكرى حادثة مضحكة مها تكن تافهة . فلندع اذن صوفيا تضحك وتقرأ الكتاب الذي وصل اليها من الريف .

٥٤

بعد خمسة عشر يوماً بينا كان روبيان في بيته دخل عليه زوج صوفيا فجأة . لقد جاء يسأل صاحبه ما الذي حدث له ، وأين اختفى حتى لا يرى قط ؟ أكان مريضاً ، أم هو لا يحفل بأصدقائه الذين لم يوتوا من اليسار مثل الذي أوتيه ؟ تم روبيان ببضع كلمات ولم يتم جملته . فلاحظ باليا أن في الصالة رجلاً ينظر إلى اللوحات ، فقال خافضاً صوته :

— ساعني ، لم الاحظ أن عندك زوارا .

— أساعك ؟ هو صديق مثلك . يا دكتور (١) ، أقدم لك صديقي كرتيانو دي ألميدا أي باليا . أظن إنني قد حدثتك عنه قبل الآن . صديقي الدكتور كاماشو ، جوان دوسوزا كاماشو .

حتى كاماشو رأسه محيياً ، وقال ببضع كلمات ، ثم أراد أن ينصرف . لكن روبيان أصر عليه أن يبقى . أليسا كلاما صديقيه ؟ ثم ان ضوء القمر لن يلبث أن يضيء خليج بوتافوجو الرائع .

ضوء القمر — ألا يزال يذكر ضوء القمر ؟ وهذه العبارة « أظن انني حدثتك عنه قبل الآن ، ، كل ذلك أثر في الزائر الجديد تأثيراً جعله يصمت ببضع دقائق . ويجب أن نضيف إلى هذا أن صاحب البيت كان لا يعرف ماذا يقول

(١) يطلق هذا اللقب في البرازيل مع المحامين ورجال السياسة وعلى جميع الاشخاص الذين لهم مقام هام .
(المترجم)

هو أيضاً . وقعد الثلاثة ، روبيان على الأريكة ، وباليا وكاماشو على كرسيين متقابلين . وكان كاماشو محتفظاً بعصاه ، فوضعها على ركبتيه ، ثم أخذ ينقر بها أنفه وهو ينظر إلى السقف . وكانت تسمع من الخارج قرعقة عربات وخيول ، تمازجها أصوات بعض الناس . الساعة هي السابعة والنصف من المساء ، بل هي تشارف الثامنة . وطال الصمت . لكن روبيان وباليا لم يلاحظا ذلك . وها هو ذا كاماشو يضيء إلى النافذة وقد ملّ هذا الوضع ، ثم يهتف وهو يلتفت اليها قائلاً :

— هو ذا القمر قد ظهر .

فقام روبيان بحركة ، وقام باليا بحركة أخرى . ولكن لا تحسبوا انها قاما بحركتهما لغرض واحد . أما روبيان فقد أراد أن يتجه إلى النافذة ، وأما باليا فقد أوسك أن يشب إلى عتق صاحب البيت ، لا يدفعه إلى ذلك خوفه من أن يرى نبا المغامرة ينتشر بين الناس وتذيع حوله الشائعات بقدر ما تدفعه إليه ذكرى عنف روبيان في قبضه على يدي امرأته ليشدها إليه . ولكن أحداً من الرجلين لم يتم الحركة التي قام بها ... وسرعان ما وضع روبيان ساقا على ساق ، ومال نحو كرسيانو يسأله :

— هل تعلم انني سأترككم ؟

٥٥

كان باليا يتوقع كل شيء الا هذا . وزال غضبه لتجل محله دهشة أضيف اليها شيء من الأسف ، وذلك مالم تكن تتوقعه أنت أيضاً أيها القاري العزيز ، أليس كذلك ؟ يتروكهم ؟ طبعاً . سيغادر ريو دو جانيرو ! هذا هو العقاب الذي فرضه على نفسه للسببة التي ارتكبها في سانتا تيريزا . لقد ندم على ما فعل فوراً ، وهو يشعر الآن بالحجل ، حتى أصبح لا يجرؤ أن يظهر أمام امرأة صديقه . تلك هي الفكرة الأولى التي خطرت ببال باليا . ثم انبثقت في ذهنه فروض

أخرى ، منها أن غرام روبيان ما يزال أقوى بما كان ، وأن سفره ليس سوى وسيلة للابتعاد عن موطن هواه . وخطر بباله كذلك أن وراء هذا السفر مشروع زواج . فأحدث له هذا التصور شيئاً من خيبة الأمل . وامتزج هذا الاحساس الجديد بما شعر به من أسف للفراق القريب ، وبما شعر به من الغضب الذي أخذ يهدر في قرارة نفسه منذ لحظة . يالها من فسيفساء عجيبة من العواطف ! كذلك ستقول أيها القاريء . نعم انها فسيفساء عجيبة من العواطف ، ولكن ثقب أن الفسيفساء ذات اللون الواحد نادرة جداً في الحياة النفسية . وإنما المهم بعد كل شيء ، ما دام التناظر مفقوداً ، أن لا تتنافر الألوان تنازراً شديداً . وذلك حال صاحبنا . فقد نحسب من النظرة الأولى التي نلقها على مشاعره أن عواطف متنوعة أشد التنوع قد ارتسخت على صفحة نفسه - أقول ذلك للحفاظ على التشبيه بالفسيفساء - لكننا إذا أنعمنا النظر فيها من كتب أدركنا ما في كيانه من انسجام عام ووحدة نفسية ، رغم ما هنالك من تعارض في الألوان .

٥٦

ولكن لماذا كان روبيان بسبيل أن يتروكهم ؟ ما هو الباعث على هذا القرار المباغت ؟

في اليوم الذي أعقب حادث سانتاتيريزا ، استيقظ روبيان من نومه مكتئب لمزاج خائر النفس ، حتى انه لم يحسن تناول طعام الافطار . ما من شيء كان في ذلك الصباح يشوقه . انه يدس قدميه في حذائه شارد الأب فلا هو يتفضل بالقاء نظرة على التحف النادرة أو الثمينة التي يمتلئ بها بيته ، ولا هو يطيق أن يجتمل وثبات الكلب الحارة اكثر من دقيقتين ، فما كاد يدخله الى الصالون حتى طرده . لكن كونكاس بوربا استطاع أن يفلت من رقابة الحدم وأن يتسلل الى الحجرة مرة أخرى ، فما كان من روبيان إلا أن لطمه على أذنيه لطمه جعلته يقف عن الوثب دفعة واحدة ، واستلقى على الارض وهو يحدق إلى مولاه .

كان روبيان حانقاً وخجلاً في آن واحد بما أقدم عليه بالأمس . تذكرون أننا رأينا من قبل ، في الفصل العاشر ، ان صاحبنا سرعان ما يشعر بعذاب الضمير ، رغم ان عذابه هذا سريع الزوال في أكثر الاحيان . وهنا يجب أن نشير الى ما كان يجعل عذاب الضمير هذا مقيماً بعض الشيء . في الحالة التي تحدثنا عنها من قبل كان الأمر أمر رسالة كتبها كونكاس بوربا الراحل ، وهي رسالة تدل دلالة واضحة على اضطراب صاحبها . لقد حرص روبيان على أن لا يطلع الطبيب عليها رغم الفائدة التي يمكن أن يجنيها منها العلم وأن تجنبها منها العدالة . فلو قد اطلع الطبيب على تلك الرسالة لذهب عذاب ضميره ، ولكن كان يمكن أن يذهب الميراث أيضاً ، الميراث الصغير الذي كان يتوقع أن يرثه من صاحبه المريض . والآن يعاني ضميره عذاباً من محاولة دفع امرأة الى خيانة زوجها . صحيح أن روبيان كان في قرارة نفسه يجب صوفياً منذ زمن طويل . وصحيح أيضاً أن قوة سحرية دفعته الى الفعل ولكنه ما كان ليجرؤ على أن يكشفها بحبه تلك المكاشفة التي أساءت استقبالها على ذلك النحو لولا موقف المرأة ولولا هياجه العارض في تلك اللحظة ؛ وبعد أن زالت أنجرة الليل ، أصبح الرجل لا يشعر بالحجل فحسب ، بل يشعر أيضاً بعذاب الضمير . لئن تعددت الخطايا أن الاخلاق لواحدة .

ولكن دعونا الآن من العواطف والأفكار التي عصفت بروبيان على هذه الصورة خلال عدة أيام . لقد توقع روبيان في يوم الأحد التالي شيئاً ما ، توقع مثلاً أن تصل اليه بطاقة كالبطاقة التي وصلت إليه في يوم الأحد الماضي ، سواء أوصلت مع البطاقة فاكهة من ثمار الفراولة أم لم تصل . فلما جاء يوم الاثنين كان قد اتخذ قراره : إنه سيسافر الى ميناس ليقتضي هناك شهرين . إنه يحس بالحاجة الى الإستجمام في جو بارباسينا . عزم على ذلك من دون أن يحس للدكتور كاماشو حساباً .

كرر باليا سؤاله :

— ستركنا ؟

— أظن ذلك . سأسافر إلى مينا .

فابتعد كاماشو عن النافذة وعاد إلى الجلوس على الكرسي الذي كان قاعداً

عليه ، وقال وهو يتسم :

— كيف تسافر إلى مينا ؟ دعك الآن من مينا . لسوف تسافر إليها

حين الحاجة . وما أظن أن ذلك سيتأخر كثيراً على كل حال .

لم يكن دهش بالياً من كلمات كاماشو أقل من دهشة من كلمات روبيان .

من أين أتى هذا الرجل الذي يبدو أن له سيطرة كبيرة على صديقه ؟ وألقى

عليه نظرة سريعة . انه متوسط القامة ، مستطيل الوجه ، قوى الفكين ،

قليل شعر اللحية ، ذو أذنين بارزتين . ذلك كل ما أدركه بالياً في هذه

اللحظة القصيرة . ولاحظ مع ذلك أيضاً أنه يرتدي قميصاً ناعماً في ترف ، وأنه

ينتعل حذاءين أنيقين . لكنه لم يستطع أن يلاحظ عينيه ولا ابتسامته ولا

أسلوبه في الحديث والحركة ، ولم يتح له أن يلاحظ بداية صلعه ولا يديه

المعروقتين الشعراوين .

٥٧

كاماشو رجل من رجال السياسة . تلقى دراساته الحقوقية بكلية (رسيه)

وعاد ليستقر في منطقته ويمارس مهنة المحاماة . لكن هذه المهنة لم تكن عنده

لا ذريعة . انه منذ كان طالباً في الجامعة قد أنشأ جريدة سياسية ان لم تكن

ذات اتجاه واضح معين فقد كانت تعج بأفكار مستمدة من هنا ومن هناك ،

معروضة بأسلوب يمكن ان يوصف بأنه جاف ومتنفع معاً . وفي وسعنا أن

نستمد من هذه الجريدة التي اصدرها في صباه بعض افكاره الاساسية .

« النظام في الحربية ، والحربية في النظام : ما من سلطة تسيء استعمال القانون

إلا وتخون نفسها ، حياة المبادئ ، ضرورة أخلاقية للأمم الفتية والأمم القديمة على

السواء ، أعطني سياسة حكيمة أعطك مالية سليمة (بارون لويس) ، يجب أن
نغطس في « أردن » الدستور من جديد ، أيها الحكام ، افسحوا المجال للرجال
البواسل يكونوا لكم خير سند ، الخ الخ . »

لكنه ادرك وهو في البلد الذي ولد فيه ، أن أمثال هذه الحكم ليس لها
رواج ، وكذلك الأسلوب الذي كتبت به . وسرعان ما فطن حين أنشأ جريدة
ثانية إلى أن السياسة المحلية ليست بالامر المجرد الى هذا الحد . لذلك عدل عدولاً
كاملاً عن تحقيقاته الجميلة تلك ، وارتضى أن يركز جهوده في تسمية النواب المحليين ،
والاهتمام بالاعمال التي تعود بالمنفعة على المنطقة ، والمشكلات الصغيرة الخاصة بالقرية ،
من دون أن أن يغفل عن مكافحة الجريدة المعادية ، وعن ملء مقالاته بالأسماء
الاعلام وغير الاعلام من كل جنس ونوع . وكان يعنى عناية دقيقة بالنعوت التي
يطلقها على الأشخاص . فاذا هاجم الحكومة أُلصق بها هذه النعوت حتماً : مشثومة ،
متفسخة ، ملطخة بالعار ، فاجرة ، حتى اذا تبذلت الوزارة بتبديل الرئاسة ،
اندفع في مناصرتها اندفاعاً لا يضارعه فيه أحد ، فتبدلت النعوت فصارت : فعالة ،
رشيدة ، عادلة ، أمينة على المبادئ ، شعلة من حسن الادارة والتدبير ، الخ الخ .
ودام هذا النوع ثلاث سنين ، استبد هوى السياسة خلالها بالمجاز الشاب .

وقد أصبح عضواً في مجلس المنطقة ، ثم عضواً في مجلس النواب ، فحاكماً
لمنطقة من الدرجة الثانية (فأتيح له أن يرى جرائد المعارضة تفرقه بسيل من
النعوت التي كان يستعملها هو من قبل : مشثوم ، متفسخ ، ملطخ بالعار ،
فاجر ...) . لقد عرف كاماشو فترات صعود وفترات هبوط ، ولكنه لم ينقطع
 يوماً عن الخطابة والكتابة والنضال العنيد ، سواء في مجلس النواب وفي غير مجلس
النواب . لقد انتهى الى الاستقرار في العاصمة عضواً بمجلس النواب تحت شعار
المصالحة الوطنية في عهد حكومة مركيز بارانا ، واستطاع أن يحصل على بعض
التعيينات التي سعى إليها وتوسط فيها . ولكن لئن كان المركيز يسأله النصيحة في كثير
الاحيان ، حتى ليفضي اليه ببعض مشاريعه ، فما من أحد كان يوقن بما يقوله

كاماشو ، لأن كاماشو ، كان لا يتردد في الكذب إذا لزم الامر من أجل أن يسبغ على شخصه علو الشأن وخطورة المنزلة .
لكن الأمر الثابت على كل حال هو أن كاماشو يريد أن يصبح وزيراً ، وانه لا يدخر وسعاً للوصول إلى تحقيق هذا الهدف ، حتى لقد كان ينتقل من جماعة إلى أخرى تبعاً للظروف سعيًا وراء هذا الغرض . كان يلقي في المجلس النيابي خطبا طويلة عن الحكم ، محشوة بالارقام والمواد القانونية وخلاصات التقارير والاستشهادات بنصوص لكتاب فرنسيين (مترجمة ترجمة رديئة) . ولكن المسافة بين الكأس والشفقتين كبيرة ، لذلك ظل الشراب الذي كان يمكن أن يطفىء ظمأه بعيدا عن متناول يده ، رغم كل ما فعل ، في حين أن اشخاصاً آخرين استطاعوا الوصول إلى هذا الهدف دون أن يبذلوا في سبيله ما بذله هو من حماسة .

ان في السياسة « عوانس » . وكاماشو يدخل الآن في عداد تلك الطبقة الحزينة الكثيرة ، طبقة أولئك الذين يبدد أملهم في الزواج مع الزمن . لكنه لا يجرؤ أن ينسحب من الميدان طائماً مختاراً . وما من أحد مع ذلك يعهد اليه بأي وزارة حين تشكيل الحكومة ، حتى لو كان يضرر له احسن النيات . وأحسن كاماشو بأن نجمه الى أفول ومن اجل ان يتظاهر بأن له نقوداً لم يكن له منه شيء في حقيقة الأمر ، أصبح يكتبني بالظهور بمظهر الصديق لأصحاب السلطة ، والتحدث على رؤوس الاشهاد عن زيارته للوزراء وكبار رجال الدولة .

ولم يكن من الناحية المادية بغير موارد . ان اسرته صغيرة : زوجة ، وابنة تشارف الثانية عشرة من عمرها ، وابن بالمعمودية في التاسعة . والكسب الذي يجنيه من مهنة المحاماة يسد حاجات الاسرة في يسر ومجبوحة . لكن السياسة في دمه . فهو لا يعنى بغيرها ، ولا يقرأ الا ما يتصل بها ، اما الادب والعلوم الطبيعية والتاريخ والفلسفة والفنون فقد ظلت بعيدة عنه كل البعد . وحتى في القانون كانت معارفه محدودة . انه لم يحتفظ من الدراسة التي تلقاها في الجامعة الا ببعض طلاء قانوني ، تضاف اليه معرفة بالتشريع اللاحق وخبرة أتاحت

له مهنة المحاماة أن يحصلها . لكن ذلك كان يكفيه ليرافع إلى القضاء ويكسب رزقه .

٥٨

لقد التقى بروبيان منذ بضعة أيام أثناء سهرة ذهب يقضيها في منزل مستشار البلاط . كان الناس يتحدثون عن احتمال عودة المحافظين إلى الحكم ، وعن احتمال حل المجلس . وفيه شهد بروبيان منذ قليل الجلسة التي طلبت أثناءها حكومة ايتابوراهي الاقتراح على الميزانية ، فكان في تلك السهرة يتحدث في حماسة عن مشاعره ، وعن الأروقة التي كانت تعج بالناس ، وعن الخطاب الذي ألقاه بونيفاسيو ، وعن الاقتراح فالتصويت . . كان واضحاً ان هذه الحماسة لا يمكن أن تصدر إلا عن طبيعة ساذجة بعض الشيء ، بل كانت فوضى اشاراته ، وحتى حرارة كلماته ، تسبغ على حديثه بلاغة الصدق . وكان كاماشو يصغي إليه في انتباه . ثم تذرع بحجة من الحجج ليمضي به إلى أحد الأركان ، وليسر إليه بتعليقات خطيرة عن الموقف الراهن ، فكان روبيان يرد عليه بهزات من رأسه ، ولا يكاد يقول إلا بضع كلمات قصيرة يؤيد بها كلامه ، قال له كاماشو أخيراً :

— لن يبقى المحافظون في الحكم مدة طويلة .

— تعتقد ؟

— هذا مؤكد . هم لا يريدون الحرب (١) ، لذلك لا بد أن يسقطوا حتماً .

انظر كم كنت نافذ البصيرة حين وضعت برنامج الجريدة !

— أي جريدة ؟

— سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وفي الغد تناولوا طعام الغداء معاً في « فندق البورصة » . إن كاماشو هو الذي دعا روبيان . وحدثه عن الجريدة الذي أنشأها منذ بضعة أشهر ، والتي

(١) هي الحرب مع باراغواي (المترجم) .

بتخلص برنامجها في نقطة واحدة هي الاستمرار في الحرب مهما يكن الثمن .
لقد كانت الانتقاسات في صفوف حزب الاحرار في اوج حداثتها ، فبدا له
أن خير وسيلة لخدمة حزبه هي أن يجعل له شعاراً حياً قومياً .
قال مختتماً كلامه :

– والآن يفيدنا هذا كثيراً ، لان الحكومة تجنح الى السلم . سأنشر منذ
الغد مقالاً عنيفاً في هذا الموضوع .

كان روبيان آذاناً مصغية ، وكان نظره لا يفارق صاحبه لحظة ، حتى إذا مال
كاماشو برأسه الى صحنه انتهز هو هذه الفرصة ليلتلع بضع لقم على عجل . لقد
أسكره أن ينفذ هذا النفاذ الى أسرار السياسة . والحقيقة ان فكرة انخراطه في
المعركة بنفسه ليجني من ذلك فائدة ما ، كأن يصبح عضواً في المجلس مثلاً ،
كانت تملأ خيال صاحبنا منذ ذلك الحين بأحلام ذهبية . ولم يقل له كاماشو شيئاً
غير ذلك . وفي الغد ذهب يزوره بيته ، لكنه لم يجده . وقد جاء اليوم منذ
لحظة ، قبيل وصول باليا على غير ميعاد .

٥٩

ألح روبيان يقول :

– نعم ، ولكن يجب أن أذهب إلى ميناس .

فسأله كاماشو :

– ولماذا ؟

وطرح عليه باليا هذا السؤال نفسه . لماذا يذهب الى ميناس ؟ اللهم إلا أن
لا يطول غيابه أكثر من بضعة أيام ... أم تراه ملء العاصمة وسئمها ؟
– آ... لا بالعكس .

بالعكس ، انه في العاصمة سعيد كل السعادة لكن يحن دائماً الى البلد الذي رأى
فيه النور ، مهما يكن هذا البلد بشعاً ، ومهما يكن موحشاً . وهذا الشعور

يكون أقوى حين لا يترك المرء بلده الا في سن الرجولة . انه يريد أن يرى بارباسينا مرة اخرى . ما من شيء يضارع بارباسينا حتماً . واقلت روبيان من من سيطرة صاحبيه افلاتاً تاماً خلال بضع دقائق . ان حبه لمسقط رأسه يجري في عروقه ، فلا الطموح ولا حب الظهور ولا اللذات العابرة ، لاشيء من ذلك كله يصمد أمام حينه الى بلده . ولئن انطوى قلبه على شيء من النفاق في بعض الاحيان ، واستجاب لنداء المصلحة كثيراً ، فليس هذا القلب الآن الا قلب إنسان طيب سم اللذات بل سم ثروته نفسها .

ونظر كاماشو وباليا احدهما الى الآخر . كانت هذه النظرة أشبه ببطاقة تعارف تبادلها ضميرهما . كانت كافية ليحكم كل منهما على الآخر وليتفاهم معه ... لمنها خير من أي شرح . نعم يجب أن مجال بين روبيان والسفر . لأن ميناس قد تستأسره الى الابد . ووافقا على أن يسافر الى ميناس ، ولكن شريطة أن يؤخر هذا السفر ... أن يؤخره بضعة أشهر ... وربما ذهب معه باليا حينئذ . ان باليا لا يعرف ميناس ، وهذه فرصة طيبة لزيارتها .

سأله روبيان :

— أنت ؟

— نعم ، أنا . لاني أرغب في السفر الى ميناس وإلى سان باولو منذ مدة طويلة . وما زلنا نرجيء السفر منذ سنة بكاملها من حين الى حين ... ان صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار جداً شديداً . الا تذكر ... يوم التقينا في القطار؟ كنا عاتدين يومئذ من فارسواس . لكن مشروع السفر الى ميناس لم يفارق خيالنا أبداً . نعم سنسافر نحن الثلاثة معاً .

فتعلم روبيان بقرب موعد الانتخابات ، لكن كاماشو تدخل فأكد له أنه ليس من اللازم أن يسافر الى ميناس لهذا الغرض وان الأولى ان تسحق الافعى من رأسها أي بالعاصمة . وفي وقت روبيان متسع بعد ذلك للسفر الى حيث يجب ، وللحصول على جزائه أيضاً . تحرك بطلنا على أريكته جزاؤه ؟ لاشك أن

هذا الجزء مقعد في مجلس النواب . أمل رائع . ان مثل هذا المطمع لم يدر في خلداه يوماً حين لم يكن إلا شيطاناً تعيساً . لكن جنون العظمة يستبد به الآن ، ويثير رغبته في المجد والظهور إلى أقصى حدود الإثارة الملهبة . وألح مرة اخيرة على ضرورة ذهابه الى ميناس لقضاء بضعة ايام ، ولكن الحقيقة توجب على أن أذكر أنه أصبح لا يتمنى أن يوافق صاحبه على سفره .

كان ضوء القمر رائعاً . ان لمنظر الخليج من النافذة جمالاً بالغاً يستحيل على من يقطن ريو ان يقع على مثله في أي موطن من الارض . وكما رأى روبان في الحلم خيال صوفيا يحظر لحظة من بعيد على سفح الراية ، ثم يغيب شيئاً فشيئاً ، فكذلك كان صخب الجلسة الاخيرة في مجلس النواب لا يزال يدوي في أذنيه . ومضى كاماشو الى النافذة ، ثم لم يلبث ان عاد فوراً ، فسأل روبان :

— كم تمكث في ميناس ؟

— لا أدري بعد . لكن مكوثي هنالك لن يطول .

— على كل حال سنتحدث في هذا الامر غداً .

واستأذن كاماشو بالانصراف . وبقي باليا بضع لحظات ، ليقول صاحبه ان ان من الغريب ان يعود الى ميناس قبل أن يصفي ما بينها من حساب . فقاطعه روبان قائلاً :

— أي حساب ؟ ومن ذا الذي يطالب بحساب ؟

فأجابه كرسيانو :

— واضح أنك لست من رجال الاعمال .

— لست من رجال الاعمال . هذا صحيح . لكن المرء يدفع ديونه حين يقدر على دفعها . فكذلك جرت الأمور بيننا دائماً . ولكن من يدري ؟ كن صريحاً . أنت في حاجة إلى شيء من المال ؟

— لا ... أشكرك أجزل الشكر . هناك صفقة أحب أن أعرضها عليك . لكنني أتركها ليوم يكون لنا فيه متسع من الوقت أكبر . وإنما حثت اليوم

لأراك ، حتى لا اضطر الى أن أنشر في الصحف اعلاناً أقول فيه « مفقود صديق اسمه روبيان العلامة الفارقة : له كلب » .
فاستلمح روبيان المزحة . وحين خرج باليا شيعة الى ناصية شارع مار كيزدو برانتس . حتى اذا ودعه وعده أن يزوره في سانتاتيريزا قبل سفره الى ميناس .

٦٠

مسكينة ولاية ميناس . حين كان روبيان عائداً الى بيته وحده كان لا يفكر إلا في وسيلة تسمح له بأن لا يذهب الى ميناس . إن اقوال صديقيه تترجع في أذنيه كأنها كتبت بأحرف من نار . « هنا يجب ان تقتل الافعى . هنا يجب ان يسحق رأسها » . « صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار جداً شديداً . » حقاً ان ولاية ميناس مسكينة .

وفي الغد تلقى روبيان جريدة لم يكن قد رآها من قبل ، هي جريدة « الحفير » . ان الافتتاحية تهاجم الوزارة هجوماً عنيفاً ، لكنها تنتهي ببناء موجه الى جميع الاحزاب والى الأمة بأسرها . « يجب أن نغطس في « أردن » الدستور مرة أخرى » . وقد وجد روبيان المقالة رائعة ، وحاول أن يعرف أين تطبع هذه الجريدة حتى يشترك فيها . لأنها في شارع آجودا . وذهب الى هناك فور خروجه من منزله . حتى اذا عرف أن رئيس تحريرها ليس إلا الدكتور كاماشو هرع يمشي الى مكتبه .

لكنه كان لا يزال في شارع آجودا حين سمع صرخة موجهة تنطلق فجأة :

— ديوليندو ، ديوليندو .

كذلك كانت تعول امرأة امام مخزن من مخازن الأسرة .

التفت روبيان فادرك على الفور ما وقع . ان طفلاً في الثالثة او الرابعة من عمره يجتاز الشارع امام عربة كانت في تلك اللحظة تهبط المنحدر . وقد صار تحت أرجل الحيل تقريباً رغم ما بذله الحوذي من جهود . لوقفها . فما كان من

روبيان الا ان رمى بنفسه الى العربية فانزعز الطفل من الخطر . وحين تناولته امه من يدي روبيان لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة . كانت شاحبة أشد الشحوب وما تزال ترتجف . وأخذ بعض الاشخاص يشتمون الحوذي ، لكن رجلا أصلع كان في جوف العربية امره أن يتابع طريقه ، فأطاعه . لذلك فان ابا الطفل ، الذي كان في المخزن ، لم يجد العربية حين خرج هو ايضاً . كانت العربية قد انصرفت ، وأخذت تنعطف عند ناحية شارع سان جوزه .
قالت الام :

— كاد يموت . لا أدري ماذا كان يمكن ان يحدث لابني المسكين لولا هذا الرجل .

قام في الحي ما يشبه ثورة . الجيران يدخلون ليعرفوا ما حدث ، والاطفال والسود يتأملون هذه الجلبة الشديدة في الشارع مشدوهين . لكن الطفل الصغير لم يكن قد اصيب إلا بجخدش في كتفه اليسرى من أثر السقوط .
قال روبيان :

— لا شيء . على كل حال لا تدعوه يخرج الى الشارع هكذا بعد الآن . انه ما يزال صغيراً ...
أجاب الأب بقوله :

— شكراً ياسيدي . ولكن أين قبعتك ؟

فلاحظ روبيان انه قد اضاع قبعتة . غير أن صبيّاً يرتدي اسمالا بالية كان قد التقطها ، وهو الآن يقف على باب المخزن ينتظر ان يستطيع ردها الى اصحابها . فأعطاه روبيان بضعة نقود مكافأة له ، وذلك امر لم يخطر ببال الصبي حين مضى يلتقط القبعة ، لأنه لم يفعل ما فعل إلا ليكون له نصيب من المجد في الحادثة . ومع ذلك قبل المكافأة مسروراً ، ولعل ذلك كان اول علم له بشئ الاعمال الخيرة .
قال الأب :

- ولكن انتظر ... أأنت مجروح ؟

كان على يد روبيان قليل من الدم . لقد جرحت راحة يده ، لكن الجرح يسير لم يشعر به إلا في تلك اللحظة . فهرعت ام الطفل تبحث عن ماء ومنشفة رغم احتجاجات روبيان الذي قال ان الامر يسير لا يستحق هذا العناية كله . وسرعان ما عادت المرأة تحمل الماء ، وفيما هي تغسل له يده ، مضى زوجها الى الصيدلية المجاورة يشتري شيئاً من المرهم . حتى اذا عولجت اليد بالمرهم وربطها روبيان بمنديل . ونظفت المرأة قبعتها بالفرشاة . وحين ذهب ، أغرقت المرأة وزوجها بوابل من عبارات الشكر لأنه انقذ حياة ابنها . اما الناس الآخرون الذين كانوا على الباب وفي الشارع فقد أحاطوا به كأنهم أكليل من المجد .

٦١

دخل روبيان مكتب كاماشو ، فسأله هذا :

- ما لديك ؟

فقص عليه روبيان الحادثة التي وقعت في شوارع آجودا . فاذا بالمهامي يفرقه بسيل من الاسئلة عن الطفل وابويه ورقم المسكن ، الخ . لكن روبيان قطع الاستجواب قطعاً حاسماً . فسأله صاحبه :

- ألا تعرف اسم الطفل على الاقل ؟

- سمعتم ينادونه ديولندو . ولكن دعنا من هذه السفاسف . لقد جئت

لاشترك في جريدتك . وصلني منها اليوم عدد ، واحب أن أسهم في ...

فأجابته كاماشو بأنه لاداعي الى الاشتراك ... فالجريدة من ناحية الاشتراكات

تسير سيراً حسناً . وانما تعوزها الادوات الطباعية . ويجب التوسع فيما تنشره

أيضاً . يجب ان نكثر من المواد ، وأن نزيد من عنايتنا بالانباء ، وكذلك

بالمتنوعات واخبار البورصة والمرفاً ، ويجب اصدار صفحة تضم رواية مترجمة عن لغة

جنسية ، النخ . وعلى كل حال ، فلا الاعلانات ولا الدعاوة تعوز الجريدة ، ولعل
وبيان أدرك ذلك .

- طبعا .

- لقد تم جمع رأس المال كله تقريباً . يجب أن يكون هناك عشرة
أشخاص ، يوجد منهم الآن ثمانية . أنا وسبعة آخرون . لم يبق الا أن نجد
شخصين أيضاً ، فتمى انضم الينا شخصان آخران اجتمع لنا رأس المال كاملاً .
تساءل روبيان بينه وبين نفسه : « ترى ما هو المبلغ المطلوب ؟ »

ان كاماشو صامت الآن ، بقرع حافة مكتبه بموسى ، ويلقي على روبيان
من حين إلى حين نظرة محتلمة . وروبيان يطوف يبصره على الحجرة . ان
اثانها قليل . بضع ملفات على منضدة صغيرة الى جانب المحامي ، ورف مليء
بالكتب : مؤلفات لوبون ، وبييرا اي سوزا ، ودالوز ، ومجموعة قوانين ،
واخيراً صورة معلقة بالحائط تجاه المكتب .

قال كاماشو وهو يشير الى الصورة باصبعه :

- هل عرفت صاحب الصورة ؟

- لا ...

- بل أنت تعرفه . أنعم النظر .

- لم اعرفه .. حقاً لا اعرفه . أهو نونس ماشادو ؟

فقال النائب السابق وقد ظهر في وجهه الحزن :

- لا ... يستحيل أن تجد صورة جيدة لنونس ماشادو . صحيح أن

هناك صورة مطبوعة له ، لكنني لا اجدتها جيدة . ان هذه الصورة هي
صورة المركيز .

- مركيز بارباسينا ؟

- مركيز بارانا . المركيز العظيم . صديقي الحميم ، لقد حاول ان يجمع

الاحزاب لذلك انضمت اليه . لكنه مات قبل الاوان ، ومات معه العمل

الذي شرع فيه . على أنه لو حاول اليوم أن يتبع تلك السياسة نفسها لوجدني أعارضة . نعم ، لقد انتهى عهد المصالحة ، واليوم حرب لا هوادة فيها . يجب علينا أن نقضي عليهم قضاء مبرماً . اقرأ جريدة « الحفير » ، إنها رفيقة النضال . ستوصل الى بيتك .

- لا

- لماذا ؟

خفض روبيان عينيه حين رأى تكشيرة كاماشو المتسائلة . ثم قال :
... لقد عزمت امري . أريد أن اعاون اصدقائي . أن اتلقى الجريدة مجاناً ؟!

- قلت لك . ان كل شيء يسير سيرا حسناً من ناحية الاشتراكات .
- صحيح ... لكنك قلت لي أيضاً انكم في حاجة الى شخصين آخرين لا كإل رأس المال .

- الى شخصين . نحن الآن ثمانية .

- وما مقدار رأس المال ؟

- رأس المال خمسون قونتاً ، على كل شخص خمسة .

- عدني مساهما بخمسة قونتات .

فشكره كاماشو باسم المبادئ ، وقال انه كان ينوي ان يدعوه الى الانضمام اليهم ، فذلك حق اكتسبه روبيان بإيمانه واخلاصه وحبه للقضايا العامة . اما وانه انضم اليهم من تلقاء ذاته ، فلم يبق لكاماشو الا أن يعتذر اليه عن انه لم يدعه الى الانضمام قبل الآن . واطلعه المحامي بعد ذلك على قائمة المكتتبين وعلى رأسهم هو نفسه . ألم يقدم الجريدة والادوات والاشتراكات وعمله على نحو بطولي حقاً ؟ واراد ان يستدرك ، لكنه كرر يقول بغير تواضع كاذب : عمل بطولي حقاً . لو قال غير ذلك لكذب . لقد كان منذ طفولته

يسحق الافاعي ، وغدت هذه العادة ملازمة له . نه يريد ان يقاتل ، ولسوف يموت وهو في القتال ، ولسوف يكفن بالعلم الوطني .

٦٢

وانصرف روبيان . وفيما هو يجتاز الممر التقى بسيدة فارعة الطول ترتدي ملابس سوداء ، وتسمع لمشيها هففة حرير وقرقعة زجاج . فلما هم روبيان بهبوط السلم سمع صوت كاماشو يصيح بصوت أعلى من صوته المألوف :

- أوه . سيدتي البارونة !

فتوقف على الدرجة الاولى . وأخذت البارونة تتكلم بصوت بلوري . ان الموضوع موضوع دعوى . بارونة . ولكن لابد لروبيان أن يتابع هبوطه شاء أم أبى . وها هو ذا ينزل السلم ببطء حتى لا يظهر عليه أنه وقف ينصت للحديث . ان عطراً غريباً لطيفاً يتموج في الهواء ... هو العطر الذي خلفته البارونة وراءها . شيء يطيش له اللب . انها بارونة .. واجتاز الباب الخارجي أخيراً ، فرأى مركبة واقفة . كان الوصيف منتصباً بقامته على الرصيف ، والحوذي قاعداً في مكانه ينظر الى الناس وهم يمرون . ان الرجلين كليهما يرتديان الملابس الرسمية . اي غرابة في هذا كله ؟ لاغرابة مطلقاً . انها سيدة تحمل لقباً ، سيدة غنية معطرة ، لعلها لاترفع دعوى الا قتلاً للوقت . الشيء الغريب في حالة روبيان الخاصة هو احساسه ، من دون أن يدري لماذا ، بأنه لايزال ذلك المعلم الصغير المسكين ببلده بارباسينا .

٦٣

وفي الشارع التقى بصوفيا تصحبها سيدة متقدمة في السن وامرأة شابة . لكنه كاد لايلقي نظرة على المرأتين المجهولتين ، فعيناه لاتريان الا صوفيا . وتخطبا دقيقة أو دقيقتين في شيء من الحرج ، ثم تابع كل منها طريقه . وقد وقف

روبيان بعد قليل ينظر وراهه ، لكن النساء الثلاث كن يتابعن سيوهن دون أن يلتفتن .

قال روبيان لنفسه بعد الغداء : « أذهب اليوم الى هناك ؟ » .
وفكر طويلاً ، لكنه لم يستطع أن ينتهي الى اتخاذ قرار . فهو تارة يقول نعم ، وتارة يقول لا لقد وجد سلوكها غريباً ، لكنه تذكر ايضاً انها تبسمت له ..
صحيح أن تبسمها كان قليلاً ، لكنهما تبسمت على كل حال . قال لنفسه :
اذا جاءت أول عربة من اليمين ذهبت ، واذا جاءت من الشمال لم اذهب .
وقعد على المقعد في وسط الصالون ليحسن مراقبة الشارع . وماهي الا لحظات حتى ظهر « طنبر » آتٍ من الشمال . حسم الامر . لن يذهب اذن الى سانتاتيريزا . لكن اللاشعور رد عليه : صحيح أن عليه أن يتقيد بالشرط الذي حدده بنفسه ، ولكن « الطنبر » ليس عربة ، وانما درج الناس على ان يسوا بهذا الاسم انواعاً اخرى من المركبات . وفي هذه اللحظة وصلت من اليمين عربات كثيرة كانت عائدة من جنازة . وذهب روبيان الى سانتاتيريزا .

٦٤

مدت صوفيا يدها اليه في لطف دون أي أثر من آثار الحقد . والسيدتان اللتان كانتا تسيران معها منذ قليل في الشارع هما الآن في البيت بملابس المنزل . وتم التعارف . اما الشابة فهي ابنة خالتها ، واما المتقدمة في السن فهي خالتها .. صاحبة تلك الرسالة التي سببت سقوط ساعي البريد في الحديقة . ان اسمها دونا ماريا أوجوستا . وهي تملك أرضاً صغيرة في الريف وعدداً من العبيد وعليها بضعة ديون . فذلك كل ما تركه لها زوجها عدا الحشرات . والفتاة تدعى ماريا بنديكتا ، وهو اسم قالت انه لا يعجبها كثيراً لأنه من اسماء العجايز ، لكن الام ردت عليها بقولها ان العجايز كن صبايا في زمانهن ، وان ما يحكى عن التناسب بين الاسماء واصحابها لا وجود له الا في خيال الشعراء وكتاب الروايات . ان اسم ماريا بنديكتا هو اسم جدتها بنت لويز

فاسكونسلوس نائب الملك بنته المعمودية ، فماذا تريد خيراً من هذا ؟
قصصن ذلك كله على روبيان ، دون أن يبدو على ماريابنديكتا أنها
ترتاب فيه . ومن أجل أن تسوي صوفيا الامور ، أو لسبب آخر ، أسرعت
تضيف أن أقبح الاسماء يصبح جميلا اذا كان صاحبه جميلا ، وعلى هذا يكون
اسم ماريابنديكتا ساحراً فاتناً .

وختمت كلامها بأن التقت الى روبيان وسألته :

- أليس هذا رأيك ؟

فقالت ماريابنديكتا وهي تضحك :

- كفى مزاحاً يا ابنة خالتي .

ولكن من حقنا أن نعتقد أن الحالة وروبيان لم يفهم أحد منها تلك الحدة ،
فالحالة قد أخذ يغلبها النعاس ، وروبيان كان يلعب كلباً صغيراً أسود العينين
اهدي صغيراً الى صوفيا . انه حيوان نحيل ، كثير الحركة ، علق في رقبته جرس .
ولكن لم يسع روبيان لزاء الحاح صوفيا الا أن يجيب بالموافقة رغم انه لم يعرف
الامر الذي يدور عليه السؤال . وزعلت ماريابنديكتا . والحق انها لم تكن
على حظ عظيم من الجمال ، ولا ينبغي أن نسألها ابتسامة مغرية ولا نظرة فاتنة .
لكنها تمتاز بالانطلاق في غير تكلف ، وليس فيها شيء مما في بنات الريف
من خرافة ، ثم ان بها رشاقة فطرية تعوضها بما قد يعوز ملابسها من الانسجام .
لقد ولدت بالريف وهي تحب الريف . والأرض التي يمتلكها أهلها بالريف
قرية جداً . انها في ايجواسو . فكانت تأتي الى ريو من حين الى حين لقضاء بضعة
أيام ، لكنها ما ان تمكث بها ثماني وأربعين ساعة حتى ينفد صبرها وحتى تشتد
رغبتها في العودة الى منزلها بالريف . ولم تكن على جانب كبير من الثقافة . فقد علموها
القراءة والكتابة ، وشيئاً من دروس الدين والحياطة ، ولا شيء غير ذلك .
وفي الآونة الاخيرة (كانت وقتئذ في التاسعة عشرة من سنها) ألحت صوفيا
أسد الاحاح على ضرورة تعلمها العزف على البيانو ، فوافقت الحالة على ذلك ، فجاءت

ماريا إلى ابنة خالتها فقضت عندها ... ثمانية عشر يوماً . لقد استحالت عليها ان تمكث مدة أطول من هذه المدة . كانت في بعدها عن أمها تحس بحزن شديد وكآبة بمضة ... فما لبثت ان عادت الى الريف تاركة استاذها مشدوها مبهوتاً . ذلك انه قد وجد منذ الدروس الأولى ان تلميذته تملك موهبة قوية لتعلم الموسيقى .

— آ . . . لا شك أبدأ في انها موهوبة جداً .

وقد ضحكت ماريا بنديكتا كثيراً حين نقلت اليها صوفيا رأي استاذها فيها ، وأصبحت منذ ذلك الحين لا تنظر اليه نظرة جد . حتى لقد أخذت تضحك في بعض الأحيان ضحكاً قوياً أثناء الدرس . فكانت صوفيا تقطب حاجبيها من قبيل التأنيب ، كان الرجل المسكين يسأل عما حدث ، ثم يأخذ يعمل هذا الضحك من تلقاء نفسه بأنه ربما كان من ذكريات الصبا راودت خاطر الفتاة ، ثم يستأنف الدرس . لكن ماريا بنديكتا لم تتعلم ، آخر الامر ، لا العزف على البيانو ، ولا الكلام باللغة الفرنسية ، وهو النقص الثاني الذي كانت صوفيا ترى انه لا يغتفر . أما دونا ماريا أوجوستا فانها لم تفهم شيئاً من انزعاج ابنة اختها لهذا الامر . فلم تعلم الفرنسية ؟ وأجابتها ابنة اختها بقولها ان تعلم الفرنسية امر لا بد منه لاجادة الحديث ، وللقيام برحلات ولقراءة رواية ... فكانت الحالة نجيبها بقولها :

— لقد كنت سعيدة دائماً من دون أن أتعلم الفرنسية . وما أهل الريف الذين يتكلمون لغتهم القروية بأكثر شقاء من سكان المدن . حتى لقد اضافت في ذات يوم قولها :

— ولن يعوزها المحبون بسبب جهلها الفرنسية . ان في وسعها أن تتزوج .. ولقد قلت لها ان في وسعها أن تتزوج متى أرادت ، وانني قد تزوجت أنا أيضاً ، ان في وسعها ان تدعني وحيدة في الريف أموت كما تموت بهيمة هرمة . — ماما .

- ما الذي يجزئك ؟ ستري حين تُخطبين . فلسوف تسافرين مع الخطيب وتهجرينني . اليك ماريا جوزة ، أليس هذا ما فعلته ؟ انها تعيش فوق ، في ولاية سيارا(١) .

قالت صوفيا :

- لكن زوجها قاضي صلح .

- قاضي صلح ، أو قاضي حرب ... سيان عندي ... المهم أن العجوز مزروعة في مكانها ... تزوجي ياماريا بنديكتا ، تزوجي ، أسرعي . حين أموت فسأكون إلى جوار ربي . لن يكون معي أولادي ، وانما تكون معي السيدة العذراء ، أمنا جميعاً . تزوجي ، هيا تزوجي .

كان هذا النقيق كله يهدف إلى غاية واضحة محددة ، هي أن تصرف ماريا بنديكتا عن الزواج باثارة سُفقتها . واذا لم تصرفها عن الزواج صرفاً تاماً فلا أقل من أن تؤجله ما استطاعت تأجيله . لاأظن أن دونا ماريا أوجوستا قد اعترفت بهذه الخطيئة يوماً لكاهنها ، ولعلها لم تكن تدرك أنها ترتكب خطيئة ، فما ذلك عندها إلا ثمرة أناية مردها إلى الشيخوخة والمرض . لقد ظلت دونا ماريا أوجوستا تحاط بالحب والعبادة طوال حياتها . كانت أمها تعشقها عشقاً ، وبقي زوجها إلى آخر يوم يحبها كما أحبها أول يوم . فلما مات هذان الشخصان نقلت إلى ابنتها ماكانت تشعر به من ظمأ إلى الحب . وقد افلتت منها إحدى بناتها حين تزوجت ، فزواج الثانية يهددها إذن بوحدة رهيبه . وهي لذلك تفعل كل مااستطيع أن تفعله لتحول دون وقوع هذه الكارثة .

٦٥

كانت زيارة روبيان قصيرة . فما أن دقت الساعة التاسعة حتى نهض يستأذن بالانصراف ، وكان يتوقع أن تستمله صوفيا وأن تطلب اليه أن لايزهد قبل مجيء كرستيانو الذي يُنتظر وصوله من لحظة أخرى . كان يتوقع على الاقل أن

(١) ولاية بالشال الشرقي من البرازيل (المترجم)

تقول له بحركة فجائية : أنتصرف منذ الآن؟ ولكن صوفيا ضمت حتى بهذا . .
واكتفت بأن اليه مدت يدها في شيء من ذهول . على أنها كانت طبيعية جداً
معه طوال مدة الزيارة ، فليس يبدو عليها أنها تحمل له أي حقد . . . لكن عينيها
لم تكونا ناعستين كما كانتا من قبل . فكأنه لم يحدث بينهما شيء مما حدث ، بل
كأن ذكرى فاكهة الفراولة وضوء القمر قد زالت . كان روبيان يشعر بضيق
وهرج ، فلا يدري ماذا يقول ، ولم تكن صوفيا كذلك فقد كانت تعرف ماذا
تريد أن تقول حق المعرفة ، وكانت إذا لزم الامر تنظر إليه وجهاً لوجه
هادئة كل الهدوء .

تمم يقول وهو يحمل بيده قبعته وعصاه :

- تحبني لكرستيانو .

- شكراً . لقد ذهب يزور أحد الاصدقاء . ولكن يخيل الي انني اسمع
وقع خطاه . لا شك في انه هو .

ولم يكن ذلك ككرستيانو بل كارلوس ماريا . وادهش روبيان أن يرى
كارلوس ماريا هنا ، لكنه لم يلبث أن قدر وجود السيدتين الاخريين هو السبب
في مجيئه .. ربما كان أحد اقربائها .

قال روبيان لكارلوس ماريا الذي قعد إلى جانب دونا ماريا اوجوستا :

- كنت خارجاً لحظة وصلت أنت !

فقال كارلوس ماريا وهو ينظر الى صورة صوفيا :

- آ . . .

وشيعت صوفيا روبيان حتى الباب ، وقالت له ان زوجها سيؤسفه حتما انه
لم يكن بالبيت ، لكن الزيارة التي ذهب ليقوم بها هي من الزيارات التي لا يمكن
ارجاؤها .. زيارة تتصل باعمال .. وسيذهب إليه ككرستيانو معتذراً .

فاجاب روبيان :

- وفيم الاعتذار ؟

واراد أن يضيف شيئاً آخر ، لكن قبضة يد صوفيا وانحناءاتها في احترام مودعة اياه ، اشارتا اليه أن ينصرف ، فانحنى هو أيضاً . وفيما كانت يجتاز الحديقة سمع صوت كارلوس ماريبا يقول في (الصالون) :

- احتج على زوجك ياسيدي . انه رجل فاسد الذوق جداً . فتوقف روبيان .

قالت صوفيا :

- ولماذا ؟

فتابع كارلوس ماريبا كلامه يقول :

- بسبب صورتك هذه التي وضعها في الصالون . فانت في الواقع اجمل

منك في هذه اللوحة ، اجمل كثيراً .. قارن بانفسكن ياسيدياتي .

٦٦

حين عاد روبيان الى بيته وتذكر كلمات كارلوس ماريبا قال لنفسه . « يا لهذه

البساطة التي قال بها ذلك كله .. ينقد الصورة من اجل ان يمدح صاحبة الصورة .

والصورة مع ذلك تشبه صاحبها شبيهاً كبيراً .. »

٦٧

في صباح الغد بينما كان روبيان في سريره ارتجف فجأة . ذلك أن جريدة

« الحفير » كانت أول جريدة فتحها ، فقرأ فيها المقالة الافتتاحية ، ومقالة لاحد

المراسلين ، وبعض الاخبار ثم وقع بصره فجأة على اسمه .

- ما هذا ؟

نعم انه اسمه ، مطبوعاً بلون احمر قانٍ يمتد على الصفحة بكاملها . والمناسبة

هي الحادثة التي وقعت أمس في شارع آجودا . وبعد الدهشة الأولى شعر

روبيان باستياء شديد . يالها من فكرة بشعة أن ينشر المرء على هذه الصورة

جانباً من حياة الناس الخاصة ، لاسيما إذا عرفه من حديث جرى بين صديقين

وأبى ان يمضي في القراءة ، فهو يعرف ما تشتمل عليه المقالة ، لذلك رمى
الجريدة ليتناول غيرها . لكنه كان - وأسفاه - قد فقد هدوءه كله ، واصبح
لا يستطيع ان يركز انتباهه فيما يقرأ ، فهو ينط بعض الاسطر أو لا يدرك
معناها أو هو يصل الى اخر العمود فيتساءل كيف وصل الى آخره !

حتى اذا نهض عن سريره قعد على مقعد كبير الى جانب السرير وتناول
جريدة « الحفير » مرة اخرى . وانصب بنظره على النبا . انه يحتمل أكثر من
عمود . « أكثر من عمود لأمر تافه هذه التفاهة كلها » . كذلك قال لنفسه .
ومن أجل أن يعرف كيف استطاع كما ماشو أن يدبج كل هذا الكلام حول
الموضوع أخذ يقرأ المقالة قراءة سريعة ، وهو غاضب من هذه النعوت التي نعته
بها الكاتب ومن هذا الوصف الدرامي للحادث .

قال بصوت عال :

- استحق ذلك . لسوف يعلمني هذا أن أصون لساني .

واستحم وارتدى ثيابه ومشط شعره ، لكنه لم يستطع ان ينسى اقوال
الجريدة . أصبح يحس بأن كاتب المقالة قد راعاه حقاً بنشر نبا هذا الحادث
الذي بعده هو تافهاً غير ذي بال ، وراعاه خاصة بما أسبغ على الحادث من
خطورة حتى وكأنه أمر سياسي منقل بالتناج الخطيرة . وحين جلس روبيان
الى المائدة لتناول طعام الافطار عاد فتناول الجريدة ، فقرأ الأنباء الأخرى ،
وقرأ قائمة التعيينات الحكومية ، وقرأ قصة جريمة وقعت في جارانينوس ،
وقرأ التنبؤات الجوية ، الى أن وقع بصره مرة اخرى على المقالة المستنكرة بما
يشبه القصد ، فأخذ يقرؤها الآن في تمهل . حتى إذا انتهى قراءتها ، اعترف
بانه لا يستطيع على كل حال أن يشك في صدق كاتبها وإخلاصه . أما مبالغات
الاسلوب فلعلها ترجع الى ان قصة الحادث قد أثرت في نفس كما مشو تأثيراً
بلغ من القوة أنه أفقده القصد والاعتدال . ذلك امر لا شك فيه . . وتذكر
روبيان دخوله الى مكتب النائب السابق ، وتذكر كيف قص عليه الحادث ، ثم عادت

به الذاكرة أيضاً الى الورا ، فلاح له الحادث نفسه مرة أخرى . انه الآن وقد جلس جلسة مريحة في حجرة عمله يعيش المشهد من جديد : الطفل ، العربية ، الخيل ، عويل الام ، الوثبة التي وثبها بدافع قوة لاتقاوم ... إنه ما يزال يجهل كيف حدث ما حدث ... لكن حجاباً قد أسدل على عينيه عندئذ فجأة ... لقد ارتقى على الطفل والخيل وقد صمت أذناه وعميت عيناه لا يبالي الخطر الذي تعرض له هو نفسه ... وكان يمكن جداً أن يبقى هنالك وقد قلبته الخيل وهشمته العجلات ميتاً أو جريحاً ... وبه جرح فقط ... أليست هذه هي الحقيقة ؟ ليس في وسع المرء إلا أن يعترف بأن اللحظة كانت حرجة ... والدليل على ذلك أن الام والجيران جميعاً ..

وخرج روبيان من تأملاته فقرأ المقالة مرة أخرى . اما انها قد كتبت كتابة جيدة ، فهذا مالا شك فيه . وأعاد قراءة بضع فقرات وهو يشعر بكثير من الرضى . لكن هذا الشيطان قد شهد الحادث بنفسه ... ياله من وصف حي ! ما أرتقى هذا الاسلوب ! صحيح أنه بالغ في وصف بعض الوقائع - وهذا يرجع بلا ريب الى سوء الذاكرة - لكن هذه المبالغة نفسها لاتمجنها الاسماع . وشعر روبيان بشيء من الزهو وهو يرى اسمه يتكرر عدداً كبيراً من المرات . « صديقنا ، صديقنا الفذ ، صديقنا الشجاع ... » .

وعند الغداء ضحك روبيان من نفسه . انه لا يرى الآن أن استيائه في الصباح لم يكن له ما يسوغه . أي غرابية في أن يطلع كما ماشو قراءه على حادث وقع فعلاً ، حادث سائق ، مؤثر ، حادث لا يقع مثله كثيراً ؟ وحين خرج ، استقبله الناس بالتهنئة عدة مرات ، حتى أن فريتاس سماه سان فان سان دوبول . فكان بيتسم ، ويشكر ويتواضع قائلاً : أمر لا يستحق الذكر . وصاح أحدهم :

- لا يستحق الذكر ؟ اننا في حاجة الى كثير من هذه الامور التي لاتستحق

الذكر ! لقد انقذت حياة طفل !

وأخذ روبيان يقتنع ببطلته شيئاً فشيئاً ، وظل يصغي وبيتسم . وقص

الحادثة أيضاً على عدد من المستطلعين أرادوا أن يسمروا نأها من فم صاحبها نفسه . ورد بعض المستمعين بسرد قصص كانوا هم ابطالها . فهذا انقذ حياة رجل ، وذلك انقذ صبية كانت تستحم في غدير باسيو فأوشكت أن تغرق ... ثم رويت حكايات انتحار أمكن تقاديه بتدخل المنقذ الذي يروي القصة ، اذ انتزع المسدس من بين يدي البائس الشقي ، وحمله على ان يلحف انه . . . وهكذا كسحاع الشمس الذي يسقط على البيض فيفقس ، جاء هذا المجد الجديد الحار ، مجد روبيان ، ففجر على حين فجأة كل تلك الطائفة الكبيرة من المآثر التي كانت الى ذلك الحين مجهولة . وظهر لصاحبنا حساد أيضاً ، ومن هؤلاء الحساد من لم تسبق له به معرفة ، لكنهم غاروا منه لاشيء إلا لأنهم سمعوا المديح يكال له . وذهب روبيان الى كاماشو يشكر له مقالته ، ولم ينس أن يعتب عليه بعض العتب ، لأنه أفشى ما أفشى به اليه . لكن هذا العتب كان ضعيفاً حتى لكأنه متممة بأطراف الشفاء . ومضى بعد ذلك يشترى عدداً من نسخ « الخفير » ، ليرسلها إلى اصدقائه ببارباسينا . وما من جريدة أخرى أشارت إلى النبأ ، لكن روبيان عمل بنصيحة فريتاس ، فأعاد نشر الخبر في ركن « بريد القراء » من « جريدة التجارة » .

٦٨

قبلت ماريا بنديكتا أخيراً أن تتعلم الفرنسية والبيانو . لقد ظلت ابنة خالتها تلح عليها في ذلك كل لحظة خلال أربعة أيام ، حتى لقد بلغت من البراعة في اللجاجة أن دونا ماريا اوجوستا قررت أن تعجل العودة الى الريف مخافة أن تنتهي ابنتها إلى الانصياع . والحق ان ماريا قاومت كثيراً ، فكانت تقول ان هذه أمور زائدة ، وان فتاة الريف لا تحتاج أبداً الى فنون المدن هذه . ولكن كارلوس ماريا كان في ذات مساء هناك ، فطلب الى ماريا بنديكتا ان تعزف شيئاً ، فاحمر وجه ماريا احمراراً شديداً ، لكن صوفيا أنقذت الموقف بكذبة فقالت :

- لا تسألها هذا . انها لم تعزف مرة واحدة منذ وصولها . وهي تقول انها لا تعزف في هذه الايام الا لأهل الريف .
فقال الشاب ملحاً :
- هبنا من أهل الريف .

ومن حسن الحظ أنه لم يلبث أن انتقل إلى موضوع آخر ، فجعل يتحدث عن الحفلة الراقصة التي أقامتها بارونة بيوهي (وهي تلك البارونة التي صادفها روبيان في مكتب كاماشو) ، فقال انها حفلة رائعة ... آ ... رائعة حقاً ... نعم . وأضاف أن البارونة تقدره تقديراً كبيراً .

وفي الغداة صرحت ماريا بنديكتا لابنة خالتها انها مستعدة لتعلم البيانو والفرنسية والكمان ، وحتى الروسية إذا أرادت . ولكن بقي أن تقتنع الأم . فلما علمت الأم بعزم ابنتها رفعت ذراعيها نحو السماء وصاحت : ماذا ؟ تتعلم الفرنسية ؟ تتعلم البيانو ؟ مستحيل . . والا فلن تكون ماريا بنديكتا ابنتي ... وفي وسعها عندئذ أن تعزف على البيانو وأن تغني وأن تتكلم بلغة الرطنطو وباللغة الحثية أو بلغة الشيطان . فامل الشيطان يأخذهم جميعاً في ذات يوم . لكن باليا استطاع أن يسمعها صوت العقل وأن يردّها إلى الصواب . قال لها ان هذه الدراسات ، مهما تكن نافلة في نظرها ، فهي الحد الأدنى من الثقافة الواجبة لفتاة عصرية .

فقاطعتة دوناً ماريا أوجوستا تقول :

- ولكنني ربيت ابنتي في الريف وللريف .

- للريف ؟ من ذا الذي يعرف لاي شيء يربي المرء أولاده ؟ لقد كان والدي يهمني لأن أكون كاهناً ، ومن أجل هذا تعلمت بعض مبادئ اللاتينية . انك لن تعيشي ابد الدهر ، ثم ان حالتك المالية أقرب الى الارتباك ، ومن الممكن جداً أن تصبح ماريا بنديكتا وتسمي فاذا هي لا تملك شيئاً البتة ... البتة ؟ .. لا ... فاذا مادمننا احياء سنقاسمها كل ما نملك .. ولكن أليس من

الخير أن يكون المرء بعيد النظر وان يتبصر في العواقب ؟ انها نستطيع في المستقبل إذا حدث أن فقدتنا جميعاً ، أن تعيش في مجبوحة من مجرد تعليم الفرنسية والبيانو . فيكفي أن يكون في قوسها هذان الورتان حتى تضمن لنفسها مكرراً افضل . وهي جميلة ، كما كنت أنت جميلة في زمانك ، وهي تنعم أيضاً بزايا خلقية عظيمة . فمن الممكن أن تجد زوجاً ذا يسار . أنت لاتعلمين أن في ذهني منذ الآن شخصاً اريده لها ، شخصاً رصيناً جاداً .

— ها . اذن ستتعلم الفرنسية والبيانو وفن الحب ؟

— فن الحب ؟ ماذا تقصدين بهذا الكلام ؟ أنا لم ازد على أن اشرت الى رأي شخصي ، الى مشروع تراءى لي انه قد يحقق سعادتها وسعادة امها ... كان في ذهني .. ولكن حسبي هذا .. ياخالتي اوجوستا .

وقد ظهر في وجه باليا من الزعل ما حمل الحالة على ابدال لهجتها المرة بلهجة جافة ، دون أن ترضخ . غير ان الليل حمل اليها النصح . ان علمها بمجالتها المالية ، واملها في ان يكون لها صهر ثري قد فعلا في اقناعها ما لم تفعله أي حجة من الحجج . ذلك ان الشباب المتأثرين في الريف انما يصاهرون الاسر الكبيرة التي تملك اطيافاً وتنعم بثراء وطيد . وانتهت بعد يومين الى اتفاق وهو أن تمكث ماريا بنديكتا عند ابنة خالتها ، وان تذهب كلناهما إلى الريف من حين الى حين ، وان تأتي الحالة الى المدينة في بعض الاحيان لرؤيتهما . حتى لقد قال باليا انه سيجاول متى سنحت الظروف المواتية ، ان يصفى اعمال السيدة العجوز بالريف ، وأن يجيء بها الى العاصمة لتستقر فيها استقراراً نهائياً . لكن دوناً ماريا هزت رأسها حين سمعت هذا الكلام .

لا تحسبوا ان الامور كلها قد جرت على هذا النحو السهل الذي وصفته . فالحق انه كان هنالك ارتباك وعذاب وأسف وتمرد من جانب ماريا بنديكتا . وبعد عودة الام الى ارضها في الريف بثمانية عشر يوماً ارادت ماريا بنديكتا . ان تزورها ، فصحبها صوفيا اليها ومكثتا هنالك اسبوعاً . وبعد شهرين جاءت الام الى ريو تقضي فيها بضعة ايام . واستطاعت صوفيا بكثير من الحنكة

والدراية أن تعود ابنة خالتها على متع المدينة شيئاً فشيئاً : على المسارح والزيارات والنزهات والحفلات والاثواب الأنيقة والقبعات الجميلة والجواهر وما الى ذلك .
لئن كانت ماريا بنديكتا قوية الشخصية فهي لا تعدم ان تكون امرأة . لذلك أحببت هذه الطرائف كلها . غير أنها لم تتخل عن اقتناعها الحميم بانها تستطيع ، مق شاءت ، أن تحطم جميع هذه الروابط الراهنة وان تعود الى الريف . وكانت في بعض الاحيان ترى الريف في منامها أو تراه في أحلام اليقظة . وفي ابان الحفلات الراقصة الاولى ، لم يكن هيجان السهرة هو الذي يملأ قلبها حين عودتها الى البيت بل كان الذي يملؤه هو الحنين الى ايجواسو . وكان هذا الحنين يزداد كذلك في بعض ساعات النهار حين يرين على الشارع وفي البيت هدوء كامل . ذلك أن خيالها يطير عندئذ الى شرفة المنزل القديم التي الفت ان تشرب فيها القهوة الى جانب امها . وكانت عندئذ تتذكر العبيد والاثاث القديم والحفنين الجميلين اللذين اهداهما اليها عربها - وهو مالك من اثرياء المالكين في سان جوان دلري - واللذين لا يزالان هناك ، لان صوفيا لم تسمح لها بأن تحملها معها الى ريو .

وكان استاذ البيانو وأستاذ الفرنسية يجيدان مهنتها . واستطاعت صوفيا ان تفهمها سرا ان ابنة خالتها متألمة من انها تدرس وهي في هذه السن ، وسألته ان يلتزما الصمت الكامل في شأن هذه الدروس . فوعدها بذلك . واكتفى استاذ البيانو بان قص على بعض زملائه قصة هذا الرجاء الذي تقدمت به اليه صوفيا ، فضحكوا من ذلك ضحكا كثيراً ، وراح كل منهم يقص بعض النوادر عن زبائنه . ومهما يكن من امر ، فان ماريا بنديكتا قد بلغت من سهولة التعلم ومن العناد في الاكباب على الدراسة ان ابنة خالتها نفسها كانت ترى من حين الى حين ان من اللازم أن تقطع عليها عملها لتقول لها :

- ارتاحي قليلا يا ابنتي .

فتجيبها الفتاة ضاحكة :

- بل يجب ان اتدارك الوقت الذي فات .

ومن أجل ان تحملها صوفيا على الراحة كانت تنظم لها عندئذ نزهات

مرنجة ؛ فتارة تزوران حياً من احياء المدينة ، وتارة تزوران حياً آخر . وكانت ماريا بنديكتا لا تضيع وقتها سدى اثناء ذلك ، فهي في بعض الشوارع تقرأ الاعلانات الفرنسية وتسال ابنة خالتها عن معاني الكلمات التي تجهل معانيها . لكن ابنة خالتها كانت في بعض الاحيان لا تفوقها علماً بمعاني هذه الكلمات ، لان مفرداتها مقصورة على شئون الازياء ، واحاديث الصالونات لا تتعدها .

على ان ماريا بنديكتا كانت تتقدم بخطى سريعة لا في الفرنسية والبيانو فحسب ، بل في التلاوم مع الوسط الجديد تلاؤماً سهلاً لم يكن في الحسبان . حتى لقد اصبحت تنافس صوفيا وغم ما اصوفيا من روح خاصة تسبغ على جميع قسماتها وعلى جميع حركاتها فتنة تفرد بها . حتى لقد أخذ الناس ينظرون الى ماريا بنديكتا ويلاحظونها الى جانب ابنة خالتها رغم ما بينها من اختلاف ، بل ان صوفيا التي كانت تمدح الفتاة في كل مكان ، اصبحت الآن تلتزم الصمت حين تمدح الفتاة أمامها ، ولكن دون أن تنقص من قيمتها طبعاً . وكانت ماريا بنديكتا تجيد الحديث ، لكنها إذا صمتت مدة طويلة ، فتلك « لحظات وجومها » على حد تعبيرها . وكانت ترقص رقصة التقابل بغير حماسة ، وذلك امر مستحسن في هذا النوع من السلوى ، وكانت كلفة بالنظر الى الناس وهم يدورون في زوبعة الفالس أو البولكا . وقد ظنت صوفيا أن الحجل هو الذي يمنعها من رقص الفالس أو البولكا ، فارادت أن تعلمها هاتين الرقصتين في البيت بحيث لا يراهما إلا كرستيانو عازفاً على البيانو ، لكن ماريا بنديكتا كانت ترفض ذلك دائماً .

وقالت لها صوفيا ذات مرة :

— هذا آخر معالم توحشك القروي .

لكن ماريا بنديكتا ابتسمت عندئذ ابتسامة بلغت من الغرابة أن صوفيا لم تلح . كانت هذه الابتسامة لا تدل على غضب ولا على أسف ولا على احتقار . احتقار ؟ وفيم الاحتقار ؟ ومن المحقق مع ذلك أن تلك الابتسامة كانت تبدو هابطة من عل . ومن المحقق أيضاً ان صوفيا كانت ترقص الفالس والبولكا في حماسة ،

وانه ما من امرئة أخرى تحسن الاستناد إلى كنف فارسها كما تحسن هي ذلك .
وكارلوس ماريا الذي يكاد لا يرقص أبداً ، كان لا يرقص الفالس إلا مع صوفيا ،
وكان يقول انه يقبل أن يراقصها دورة أو دورتين فحسب . لكن ماريا لاحظت
في ذات مساء انها رقصا طوال ربع ساعة .

٦٩

عدت الدقائق الخمس عشرة على ساعة روبيان الذي كان جالساً إلى جانب ماريا
بنديكتا . سألته عن الساعة مرتين : مرة عند بدء الرقص ومرة عند نهايته .
وقد مالت الفتاة على الساعة لترى بنفسها عقرب الدقائق .

سألها روبيان :

- أنت نعسة ؟

فنظرت اليه ماريا بنديكتا خلسة ، فادركت من هدوء وجهه ان سؤاله
لا يشتمل على أي سخر . فأجابته بقولها :

- لا ... ولو ارادت ابنة خالتي ان تعود إلى البيت مبكرة لساء في ذلك .

- آ... لا ... لن تعود مبكرة وهي لا تستطيع الآن أن تتعلل بصعود

سانتاتيريزا ، فبيتها قريب من هنا كل القرب .

والواقع انها كليتها تقيمان الآن في شارع فلانججو ، والحفلة الراقصة مقامة

في شارع آركوس .

ويجب ان أذكر لكم ان ثمانية اشهر قد انقضت الآن على بداية الفصل

السابق . وان أموراً كثيرة قد وقعت اثناء هذه المدة . ان روبيان هو الآن

شريك زوج صوفيا في محل للاستيراد يقع في شارع الفندق ، ويحمل اسم

« باليا وشركاه » ، ذلك هو المشروع الذي أراد كرستيانو أن يعرضه على صاحبه

في ذلك المساء الذي التقى فيه بالدكتور كاماشو ببيت بوتافوجو . وقد تردد

روبيان مدة طويلة قبل أن يشارك في المشروع رغم أن كرستيانو قد صور له

عملاً مضمون النتائج . لقد طلب اليه أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال ، وهو

امرؤ لا يفهم شيئاً من شئون التجارة ، ولا يجب ان يعنى بها البتة . أضف

الى ذلك أن نفقاته الشخصية كانت وحدها ضخمة ، وان ما يملكه من مال كان في حاجة الى نظام صارم في التوفير والى أن لا يصرّف الا في الوجوه التي ينبغي لرب اسرة أن يصرّف ماله فيها ، ثم ان المشروع الذي عرض عليه كان يبدو له غامضاً أشد الغموض ، لأنه لم يستطيع أن يفهم تلك الحسابات المعقدة التي قدمها باليا ، ولا ما اوضحه من تقديرات الارباح وقوائم الأسعار وجداول التعريفات الجبركية . ومن حسن الحظ ان الشروح الشفوية كانت تغني قليلا عن الاضايير الغامضة . فكان باليا يذكر لصاحبه اموراً هائلة كثيرة ، وينصحه بانتهاز الفرصة لتشغيل ماله من اجل مضاعفته .. اما اذا كان لا يتق بصاحبه فذلك امر آخر . وليس على باليا عندئذ الا أن يشترك في ذلك المشروع مع جون روبرت الذي كان في الماضي شريكا في محل ولكنسون المؤسس عام ١٨٤٤ والذي عاد رئيسه الآن الى انكابترا اذا أصبح عضواً في مجلس النواب .

لم يقبل روبيان المشروع فوراً ، وإنما طلب امهاله خمسة ايام . لقد كان يحس انه حين يخلو الى نفسه يكون اكثر حرية . لكن الحرية لم تزده في هذه المرة الا ارتباكاً وحيرة . حسب المال الذي انفقته الى الآن ، وقدر ما سبق أن ضيعه من الثروة الذي اورثه اباها الفيلسوف . وكان كونكاس بوربا راقداً في تلك اللحظة في غرفة صاحبنا ، فاذا هو يرفع رأسه مصادفةً ويأخذ يتحدث الى مولاه . فارتعش روبيان . انه لم يستطع في يوم من الايام أن يمحو من ذهنه محوياً تاماً ان روح كونكاس بوربا الآخر يمكن ان تسكن في جسم الكلب . حتى لقد رأى في عيني الكلب هذه المرة معنى اللوم . ثم ضحك روبيان . هذه سخافة . هل يمكن ان يكون الكلب رجلاً ؟ ومع ذلك خفض يده على غير شعور ، واخذ يدلك اذني الكلب كمن يريد ان يستميله اليه . وبعد استعراض الاسباب التي تدعو الى الرفض جاء دور الاسباب التي تدعو الى القبول . الا يمكن أن يكون المشروع مربحاً ؟ الا يمكن أن يضاعف ثروته حقاً ؟ يضاف الى ذلك أن هذا مركز وجيه ، حتى لقد يعود عليه بفوائد كبيرة عند الانتخاب إذا أراد يوماً أن يرشح نفسه لمجلس النواب

كما فعل الرئيس السابق لمحل ولكنسون . وهناك سبب آخر اقوى . انه يخشى لغضب باليا اذا هو رفض الاشتراك في المشروع ، ويخشى أن يظهر بمظهر من لا يريد أن يعهد اليه بالمال مع ان باليا قد رد اليه منذ بضعة أيام جزءاً من دينه عليه ، ووعدته برد الباقي بعد شهرين .

لم يكن أي سبب من هذه الأسباب ذريعة يخفي وراءها سبب آخر ، ولما هي عرضت لذهنه من تلقاء نفسها . ولم تنتبق صورة صوفيا في خياله إلا آخر الأمر ، رغم أنها ظلت طوال تلك المدة ثابتة في اللاشعور . انها احد الأسباب القوي لما قرره ، لابل هي السبب الوحيد الذي لا يعترف به . وهز روبيان رأسه كمن يريد أن يطرد الصورة من رأسه ، ونهض . وصوفيا لا تعوزها الحيلة ، فها هي ذي تعود الى لا شعور بطلنا فتعتم به ، ولما كانت تحترم حق كل انسان في الحرية تركت له ان يقرر طائماً مختاراً انه سيشارك في المشروع الذي عرضه عليه كرستيانو شريطة أن يعطي بعض الضمانات . هكذا تأسست الشركة التجارية ، وهكذا أسبغ روبيان على زيارته الدائمة مظهراً مشروعاً .

قالت ماريا بنديكتا بعد بضع ثوان من الصمت :

— ألا ترى ياسيد روبيان أن ابنة خالتي جميلة جداً؟

— أوافقك كل الموافقة ، دون أن يقدر هذا فيما لك أنت من مزايا .

— جميلة وحسنة القوام .

ووافق روبيان كذلك راضياً . وراحا يتابعان بنظراتهما الراقصين اللذين يتموجان الآن في الصالون على أنغام الفالس . ان صوفيا فاتنة . كانت ترتدي ثوباً أزرق فاتماً ، عاري النجر كثيراً (للسبب الذي سبق أن بسطناه في الفصل ٣٥) . ان ذراعيها السافرتين البضتين اللتين يتلامع عليهما بريق الذهب تؤلفان مع كنفها وصدورها مجموعة متنسقة رائعة ، وان جسمها ينسجم مع أضواء الصالون انسجاماً طبيعياً جميلاً . وكان يزين رأسها تاج من اللؤلؤ الاصطناعي ، لكنه يبلغ من جودة التقليد انه يتسق كل الاتساق مع اللؤلؤتين الطبيعيتين اللتين تزينان أذنيها واللتين

كان قد أهداهما إليها روبيان .

ولم يكن كارلوس ماريا إلى جانبها بالرجل الدميم فهو كما عرفنا ذلك من قبل رجل حسن القوام ، وما تزال له تلك النظرة الهادئة التي عرفناها فيه على مائدة روبيان ، وليس يتصف بما يتصف به شبابٌ غيره من سلوك متكلف ومن حركات تتصنع الاحترام ، بل كل ما فيه يوحي بنوع من الجلال الهاديء اللطيف الكريم . ومع ذلك ، لئن كان واضحاً من النظرة الاولى إنه إذ يراقص صاحبتة انما يتفضل عليها ، لقد كان واضحاً كذلك إنه كان مزهواً براقصة آتق سيدة في هذه السهرة . وهذان الشعوران لا يتناقضان ، بل يلتقيان في ذلك الاحساس العميق الذي يتميز به كارلوس ماريا ألا وهو رضاه عن نفسه وإعجابه بها . وعلى ذلك كان وجود صوفيا في نظره عبادة ترفعها اليه احدى المؤمنات . لقد كان كارلوس ماريا لا يدهش لشيء . فلو استيقظ ذات صباح فرأى نفسه امبراطوراً ، لما استغرب الا تأخر الوزارة عن المشول بين يديه لتنهئته .

قالت صوفيا :

– سأرتاح قليلا .

فسألها مراقصها :

– أتعبت أم ... مللت ؟

فقالت :

– بل تعبت فقط ...

واستاء كارلوس ماريا من سؤاله الذي يشتمل على الظن الآخر ، فأسرع يبعد

هذا الظن قائلاً :

– طبعاً ، ولماذا تملين ؟ لكنني أظن أنك تستطيعين ان تبدلي لي هذه التضحية ،

وهي أن تستمري في الرقص قليلا . خمس دقائق ؟

– خمس دقائق .

– ولا دقيقة زيادة ؟ اما أنا ففي وسعي أن استمر الى الأبد .

خففت صوفيا رأسها . فاضاف كارلوس يقول :

- معك انت طبعاً .

وظلت صوفيا تحدد إلى الارض ، دون أن تجيب ، ودون أن توافق ، وحتى دون أن تشكر . ربما لم يكن ذلك منه إلا ملاحظة ، وفي العادة ان ترد المرأة على الملاحظة بشكر ... وهي لم تسمعه يتكلم على هذا النحو لأول مرة ، حتى لقد سبق أن صرح لها ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، بأنها تستحق أن تكون في الصف الاول بين جميع نساء الارض . وأعقب ذلك صمت دام ستة اشهر : اربعة قضتها في بتروبوليس وشهرين آخرين لم يظهر خلالها قط . انه لم يستأنف زيارته لها الا منذ مدة قصيرة ، فعاد يقول لها تلك المدائح نفسها ، سواء على انفراد أو على مشهد من الناس . واستمر يرقصان ، لكنها يلتزمان الآن صمتاً كاملاً . وأخيراً قطع هو الصمت قائلاً : ان البحر في الليلة الفاتئة كان يلطم الشاطيء في حنق أمام بيت صوفيا . فسألته :

- هل مررت هناك ؟

- كنت هناك . كنت ذاهباً إلى جهة « الكاتيبي » ، وكان الوقت متأخراً ، فخطر لي أن أنزل حتى شاطيء فلاننجو . وكانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت فأراهن أنني لم أخطر لك على بال . وكنت في أثناء ذلك أكاد أسمع تردد أنفاسك .

حاولت صوفيا أن تبسم لكن كارلوس ماريا أردف يقول :

- كان البحر يلطم الشاطيء لطباً قوياً ... هذا صحيح ... لكن قلبي كان لا يقل عن البحر قوة خفقان ... مع فاروق واحد هو أن البحر غبي تتلاطم أمواجه من دون أن يعرف لماذا ، أما قلبي فيعلم حق العلم أنه يخفق لك أنت .

جمجت صوفيا :

- أوه

أكان ذلك دهشة ؟ أكان استياء ؟ أكان ذعراً ؟ تلك أسئلة تعرض دفعة

واحدة . وأحسب أن المرأة الشابة نفسها ما كان لها أن تستطيع الاجابة عنها في وضوح ، من فرط ذهولها حين سمعت تصريح الشاب . ومن المحقق على كل حال انها لم تكذب كلامه . ولا أستطيع أن أزيد على هذا إلا أن جمجمتها كانت من الضعف والاختناق بحيث لم يكذب بسعها . أما هو فقد ظل أمام الناس ساكناً كأن عليه قناعاً ، فلم يعبر عن أي انفعال ، قبل التصريح ولا أثناءه ولا بعده ، حتى لقد احتفظ على أطراف شفثيه بتلك الابتسامة الساخرة المعهودة فيه حين يهزأ بأحد الناس ، كأننا هو قد أطلق نكتة لاذعة . ومع ذلك كانت عيون كثير من النساء تتجسس على وجه صوفيا وحركاتها وأوضاعها ونظرتها المنكسة إلى الارض في عناد . وقال لها :

— وجهك يدل على الاضطراب ، فأخفه بالمروحة .

فاذا بصوفيا تأخذ بتحريك المروحة على غير شعور ، ورفعت عندئذ رأسها ، فأدركت انها محط انظار الناس جميعاً ، فامتقع لونها . الدقائق تجري سريعة كالثواني . لقد انقضت الدقائق الخمس التي حدداها . . . انقضت منذ مدة طويلة . . . وأنت الدقيقة الثالثة عشرة . . . ورواها تقفز دقيقة أخرى ، فأخرى . . . قالت صوفيا لفارسها انها تريد أن تجلس ، فقال لها :

— أوصلك ثم انسحب .

فأجابته بسرعة :

— يل تبقى . . .

ثم أضافت مستدركة :

— الحفلة ناجحة جداً .

— نعم . . . وأريد أن احتفظ منها بأجمل ذكرى . كل ما سأسمعه من كلام سيكون أشبه بنقيق الضفادع بعد تغريد طائر جميل ، طائر كالطيور التي عندك في البيت . أين تريد أن أتركك ؟

— الى جانب ابنة خالتي .

أخلى لها روبيان مكانه ، ومشى يرافقه كارلوس ماريا . اجتاز كارلوس الصالون ومضى إلى الحجرة الصغيرة التي تقع عند المدخل وتقوم مقام غرفة خلج المعاطف . كان في هذه الحجرة عشرة رجال يتحدثون ، وكان روبيان ، حتى قبل الوصول إلى هذه الحجرة ، قد أمسك بذراع كارلوس ماريا في غير كلفة ليسأله أمراً ما . والحق انه كان لا يحفل بهذا الأمر كثيراً ، وإنما كان يريد ان يؤخر الشاب قليلاً رجاء ان يحاول النفاذ الى ما يمكن من نيات . لقد بدأ يعتقد أن الظن الذي يعذبه منذ زمن طويل قد يكون جائزاً بل صادقاً ، خاصة بعد هذه المحادثة الطويلة ، وبعد موقفها هي ازاءه .

كان كارلوس ماريا لا يعرف شيئاً عن الهوى القوي الذي يعصف بقلب « الميناسي » ، هذا الهوى المكتوم المكبوت الذي كان صاحبنا لا يرتجى منه إلا ما قد تجود به عليه المصادقة ... مكتفياً باليسير اليسير وهو ان يرى حبيبته لا أكثر ، مسهد الليالي رغم ذلك ، دافعاً من ماله كل ما يطلبه منه الزوج لأعماله التجارية ... ويجب أن نذكر انه لم يكن يفار من الزوج فعلاقة الزوجين الخالصة لم تثر في نفسه كرها لسيد صوفيا ومولاها الشرعي في يوم من الأيام ، ومرت الشهور تلو الشهور لا تغير عواطف روبيان ، ولا تطفئ آماله . اما أن يظهر له منافس غير الزوج فذلك ما اذله ، فاذا هو يشعر بصفة الغيرة لأول مرة .

قال كارلوس ماريا وهو يلتفت :

— ماذا ؟

ودخل في الوقت نفسه الى تلك الحجرة التي كان الرجال العشرة يناقشون فيها امور السياسة — كدت انسى أن اقول ان الحفلة الراقصة قد اقيمت في منزل كاماشو لمناسبة عيد ميلاد زوجته . فلما وصل صاحبنا كان الحديث عاماً ،

وكلوا يتكلمون جميعا في آن واحد لأن الموضوع واحد : زوبعة من الافكار من كل جنس ونوع ... واخيراً استطاع احدهم - وهو من اصحاب الرأي - ان يسيطر على الحلبة ، فساد الصمت بضع لحظات ، واخذ الآخرون ينصتونه وهم يبدخون . قال صاحب الرأي :

- في وسعهم أن يفعلوا ماشاؤا ، لكن القصص الأدبي لامفر منه . وستدفع الأحزاب ديونها مع الفوائد كاملة غير منقوصة الى آخر جيل . إن المبادئ لا تموت ، والأحزاب التي تنسى هذه الحقيقة تنتهي الى الوحل والمذلة .

وكان هناك رجل آخر شبه اصلع ، لا يؤمن بالقصاص الأدبي ، أخذ يشرح رأيه . لكن رجلا ثالثاً لم يلبث أن اشار الى طرد بعض الجباة العامين ، فاذا العقول التي ضلت قليلاً في متاهات العقيدة . تسترجع نشاطها بسرعة : ان هؤلاء الجباة لا يؤخذ عليهم شيء غير آرائهم ، وصرفهم لا يسوغه أن يكون الذين حلوا محلهم اكفاء ... لكن احدهم متهم باختلاس ... وهناك آخر هو صهر رجل اسمه ماركرز قد اطلق رصاص مسدسه على رئيس مقاطعة سانت جوزيه دوس كامبوس ... وما قولكم في العقداء الجدد ؟ الصيد الحقيقي للسائق .

سأله روبيان حين رآه يأخذ معطفه :

- أنت ذاهب ؟

- نعم . لقد نعست . هلا ساعدتني في ادخال هذا الكم ؟ لقد نعست .

- لكنك تبكر في الذهاب . ابق . ان صديقنا كاماشو لا يجب ان يرى

الفرسان ينصرفون . من ذا الذي يراقص الفتيات بعدك ؟

فأجاب كارلوس ماريا ، وهو يبتسم ، بانه لا يميل الى الرقص كثيرا ، وانه راقص دونا صوفيا لأنها تحسن الغالس حقاً ، فلولا ذلك لما رقص . وقد نعس الآن فهو يؤثر سريره على جوقة الموسيقيين . قال ذلك ومد اليه يده في تعاضم ، فصافحه روبيان وهو ما يزال غارقاً في شكوكه .

انه لا يعرف كيف يفكر . لماذا يدعها في منتصف الحفلة بدلاً من ان

ينتظرها ليشيعها حتى عربتها ، كما فعل في المرات السابقة ؟ .. لعل روبيان مخطيء
اذن في ظنونه ... واخذ يفكر ، فتذكر ليلة سانتاتيريزا ... يوم تجرأ فصاح
المرأة الشابة بعواطفه ، وتناول يدها الجميلة ، يدها الناعمة الرقيقة ... لقد قطع
عليها الماجور يومئذ خلوتها . لكن لماذا لم يستأنف مصارحته ؟ انها لم بيد عليها
الغضب .. وزوجها لم يلاحظ شيئاً ... وعاد روبيان يتصور ان كارلوس ماريا
ربما كان غريبه ، وملاً عليه هذا التصور شعاب ذهنه . صحيح انه انصرف لنعاسه
ولكن ماتعليل وضعها اذاه ؟ واخذ روبيان يذهب الى باب الصالون حيناً
لبرى صوفيا ، ثم يمضي يعتم بركن من الاركان أو يقترب من مائدة اللعب .
انه قلق ، مضطرب .

٧١

حين عادت صوفيا الى بيتها ، وأخذت تفض شعرها ، تحدثت عن السهرة
حديثها عن سهرة مملّة . كانت تثناءب ، وقالت انها تشعر بألم في قدمها . ولم
يؤيد باليا رأيا ، بل قال ربما كانت هي المتعبة ، وإذا كانت تشعر بألم في قدمها
فمرد ذلك الى أنها قد أفرطت في الرقص . فأجابته بأنها لو لم ترفض لماتت ضجرآ .
واستمرت تنزع دبابيس شعرها ، وتضعها في آنية من البلور واحداً بعد واحد .
وكان شعرها يتدلى على كتفها اللذين لا يغلها إلا قميص ناعم من نسيج الكتان .
وكان باليا وراءها ، فاذا هو يقول على حين فجأة : ان كارلوس ماريا يجيد رقص
الفالس كثيراً فارتعشت صوفيا ثم نظرت إليه في المرأة ، فلاحظت ان وجهه
لا يدل إلا على هدوء ، فأجابته مزيدة رأيه قائلة انه يرقص الفالس رقصاً لا بأس
به حقاً ..

— بل رقصاً بمتازاً يا سيدتي .

— ها ، نعم ... تمدح الآخرين لعلمك بأن أحداً لا يقدر أن يحل محلك .

أعرفك حق المعرفة أيها المغرور .

فهد باليا ذراعاه وأمسك بذقنها واضطرها إلى النظر إليه : مغرور ؟ لماذا ؟
لماذا يكون مغروراً ؟

- آي ... لا توجعني .

كذلك قالت صوفيا متأوهة .

فقبل باليا كتفها ، فابتسمت بغير ضيق وغير صداد ، على خلاف ما حدث
في تلك الليلة التي انقضت في سانتاتيريزا حين قصت على زوجها تمادي روبيان .
لا شك أن هواء البحر أدعى إلى سلامة الصحة من هواء الجبال .

وفي صباح الغد أيقظها تغريد عصافير المنزل في وقت مبكر كأنه يجمل إليها
رسالة . وتكاسلت على سريرها ، وأنغمضت عينها ، لترى رؤية أوضح . ولكن
ماذا ترى ؟ لا شك أن هواء شاطئ البحر أفضل ... وبعد نصف ساعة كانت
صوفيا تتكئ على النافذة ، تتأمل الامواج التي تغنى على الشاطئ ، والامواج
التي ترتفع بعيداً ثم تتكسر على مدخل المرفأ . والتهب خيال المرأة الشابة فتساءلت
أليس هذا نوعاً من الفالس ترقصه الامواج ؟ وطارت هكذا على أجنحة خيالها .
ثم وجدت نفسها آخر الامر تنظر إلى الشارع في مواجهة البحر كأنها هي تبحث
عن أثر الرجل الذي كان هنالك أول أمس في غياب الليل ... أحسب أنها استطاعت
أن تهتدي أخيراً إلى آثار مروره ، وإن كنت لا أحلف على ذلك . ومن المحقق
على كل حال انها قارنت عندئذ بين ما ترى وبين الاقوال التي سمعتها من الشاب .

« كانت الليلة ساطعة الضوء فكنت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت
فأراهن أنني لم أخطر لك على بال . وكنت في أثناء ذلك أكاد أسمع تردد
أنفاسك . كان البحر يلطم الشاطئ لطماً قوياً ... هذا صحيح ... لكن قلبي
كان لا يقل عن البحر قوة خفقان ... مع فارق واحد هو أن البحر غبي تتلاطم
أمواجه من دون ان يعرف لماذا ، أما قلبي فيعلم حق العلم أنه يخفق لك انت . »
ارتعشت صوفيا وحاولت أن تنسى هذه الكلمات ، لكن الكلمات كانت تأتي
إلا أن تتردد : « كانت الليلة ساطعة الضوء ... » .

وبين جملتين شعرت بأن شخصاً يضع يده على كتفها . انه زوجها قد عاد من أقطاره وهو الآن ذاهب الى مركز المدينة . وها هو ذا يودعها في حرارة ، وبوصيها خيراً بما ربا بنديكتا التي استيقظت بمتلثة بالأفكار السود .

صاحت صوفيا قائلة :

- استيقظت ؟

فأجابها كرتيانو :

- وجدتها في قاعة الطعام حين نزلت ، وقد استبدت بها تلك الرغبة في العودة الى الريف منذ صحت من نومها . لقد رأيت حلماتاً ... لا أدري ماذا ...

- وجوم جديد ...

قالت صوفيا ذلك ، ويبدو رشيقه خفيفة اصلحت ربطة عنق زوجها ، ورفعت جيد ستوته ، وودع كل منها الآخر . ونزل باليا وخرج ، وظلت صوفيا واقفة على النافذة . وقبل ان يجتفي عند ناصية الشارع التفت الى وراء ، فلوح كل منها للآخر بيده على عاداتها .

« كانت الليلة ساطعة الضوء ، فكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة ... اما أنت فأراهن ... »

وحين استطاعت أن تنتزع نفسها من أحلامها آخر الأمر ، كانت الساعة ، نحت ، تدق التاسعة . فحلفت صوفيا ، وقد غضبت من نفسها وعذبها ضميرها ، حلفت بأقدس ما عندها ، انها لن تفكر في الحادث بعد اليوم ابداً . قالت لنفسها انه حادث تافه لا يستحق ان تفكر فيه ، وان غلطتها الوحيدة هي انها سمحت للشاب أن يتأدى في وقاحته الى آخر حدودها . لكن عذرها في هذا انها لعلها تفادت بذلك وقوع فضيحة رهيبية ، لأن الشاب كان يمكن أن لا يتورع عن مرافقتها الى

مقعدها وعن الاستمرار في مصارحتها على مرأى ومسمع من جميع الناس . وكان ذلك التصريح ما ينفك يتردد في ذاكرتها بتلك الكلمات نفسها وذلك الصوت نفسه : « كانت الليلة ساطعة الضوء ، فكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة ... » .

٧٤

بينما كانت صوفيا تردد لنفسها التصريح الذي سمعته البارحة ، كان كارلوس ماريا يفتح عينيه ويتمطى ؛ وقبل أن ينهض من فراشه ليستحم ويرتدي ملابسه ويمضي في نزهة على الحصان ، أخذ يتذكر أحداث الأمس . تلك عادة من عاداته . انه لا يعدم أبداً أن يقع على حادثة أو كلمة أو أمر يسير يمكن أن يتلقى غروره . هذه وقفة يقفها فكره للراحة ... هي مرحلة من الطريق يضع فيها قدمه على الارض ليسترد أنفاسه وليشرب على مهل بضع جرعات من الماء البارد . فاذا لم يجد أي حادثة ترضيه كل الإرضاء ، أو إذا لم تعد إلى ذاكرته إلا الوقائع التي لا ترضي لم يسئ ذلك ، فحسبه أن يتذكر كلمة قالها هو نفسه ، وحسبه أن يشعر بأنه عاش ، وان يستمتع بهذا الشعور ، حتى لا يعد أمس يوماً ضائعاً .

وظهرت صوفيا في ذكرى أحداث البارحة ، بل ظهرت من موكب هذه الأحداث في مكان بارز .. وتذوق كارلوس ماريا مرة أخرى الحديث الذي دار بينه وبين المرأة الشابة . لكنه حين وصل من استعراضه إلى تصريحه بالحب ، امتزج رضاه بشيء من الانزعاج . ترى ألم يسرف في الأمر ؟ ألم يورطه هذا الأمر في عهد أو حرج أو التزام ؟ وهب حسنات التصريح تفوق سيناته ، فان كارلوس ماريا ظل يتردد بين ما للأمر وما عليه ، فلم يعرف ما هو الشعور الذي ينبغي ان يستسلم له . وحين تذكر انه قص على صوفيا نزهته الليلية على ساطيء فلاننجو ، لم يستطع أن يمتنع عن الضحك ، لان القصة كلها محض تلفيق . قد خطر بباله أن يخترع القصة أثناء الحديث ، فهو لم يذهب إلى فلاننجو في الليل ، ولا راوده في لحظة من اللحظات أن يفعل ذلك . وانقطع أخيراً عن الضحك ،

وسرعان ما ندم على هذا الإفراط في المرح . إن اللجوء إلى تلك الكذبة ينقص قدره في نظر نفسه . وخطر بباله أن يذكر الحقيقة لصوفيا في اول اجتماع يلقاها فيه ، لكنه لم يلبث أن أدرك أن تصحيح الموشح شر من الموشح نفسه ، وأن هناك موشحات كاذبة لا يعوزها الجمال الشعري .

واسترد تفاؤله . ورأى بخياله قاعة الرقص ، والنساء ، والرجال ، والمرآح تحركها أيدي نافذ صبرها ، والشوارب المشعنة من الحلق . وشعر بعطر الحسد والإعجاب ينتشر حوله . والحسد حسد غيره طبعاً .. أما هو فمبأ من هذا العيب . والحسد والاعجاب اللذان يتخلجان في قلوب الآخرين هما ما يحدث في قرارة نفسه أكبر فرح . إن ملكة الحفلة قد ترامت عليه .. بهذا كان كارلوس ماريا يعبر عن التفوق الذي كان يريد أن يخلعه على صوفيا .. مع شعوره بأن فيها عيباً هاماً هو نشأتها وتربيتها ، ذلك انه يرى أن ماتصطنعه هذه المرأة الشابة من آداب السلوك ليس من فطرتها وإنما هو مكتسب في وقت متأخر ، قبيل زواجها ان لم يكن بعده ، وما تزال آدابها حتى اليوم لا تفوق كثيراً آداب بيتها .

٧٥

وانبثقت في خياله صور نساء أخريات يؤثرنه على غيره من الرجال لجمال حديثه ومفاتيح جسمه . ترى هل هو طامع فيهن جميعاً ، يستحيل أن نعرف ذلك ، لعله طمع في بعضهن ، ولكن ما لا شك فيه أن صحة كل واحدة منهن كانت تهيء له لذة متجددة دائماً . إن اخلاق بعضهن فوق كل شبهة ، ومع ذلك يسرهن أن يجتذبهن اليهن ، فيستمتعن بصحبة الفتى الجميل ، دون أن تتعرض فضيلتهن لأي خطر ، مثلهن كمثل المشاهد الذي يتلذذ بغرام عطليل ، لكنه يخرج من المسرح دون أن يكون عليه أن يلوم نفسه على قتل ديدمونة .

فكان جميع النساء يحطن بسرير كارلوس ماريا كالكليل من الأزهار . لسن

جميعاً في ريعان الصبا ، لكن امتياز المظهر يعوض عن نضارة الشباب . وهذا كارلوس ماريا يستقبلن كمثل إله من آلهة القدماء كيف يستقبل عابداته الجميلات مع قرابينهن ، وهو جامد في المرمر المقدود منه . إن كارلوس ماريا يميز أصواتهن في وسط الدمدمة الشاملة ، لا يميزها كلها في الحثى دفعة واحدة بل يميز ثلاثة منها أو أربعة في آن واحد .

وكان صوت صوفيا آخر صوت . أنصت إليه كارلوس ماريا وهو لا يزال يشعر ببقية من حب ، لكنه لا يحس تلك الحماسة التي ألهبت نفسه اول الأمر ، لأن ذكرى النساء الاخرى - وهن يمتزن جميعاً بزايا كبيرة - تقلل الآن من شأن المرأة الجديدة التي تم اقتناصها . على أنه لا يستطيع أن ينكر انها كانت جذابة جداً ، وانها كانت ترقص الفالس معه رقصاً رائعاً . أتراه يقع في هواها آخر الأمر ؟ ها هو ذا يتذكر في هذه اللحظة قصة النزهة التي زعم أنه قام بها على الشاطئ ، فينفض عن فراشه مستاءً معتكر المزاج . ماذا دهاني حتى لفقت هذه القصة ؟ وعاد يشعر بالرغبة في ذكر الحقيقة . إنه يشعر الآن بذلك شعوراً أقرب إلى الجد . ويقول في نفسه « الكذب خلقت بالخدم واضرابهم .. »

وبعد نصف ساعة كان كارلوس ماريا يمتطي صهوة حصانه ويخرج من بيته الواقع في شارع « الانفاليد » . وإذا كان يسير في اتجاه « الكائيتي » تذكر أن بيت صوفيا يطل على شاطئ فلانجور . فلاعجب ان مال بالزمام قليلاً ، فهبط احد الشوارع العمودية على البحر ، ليسر أمام بيت المرأة الجميلة التي تحسن رقص الفالس . لعلها الآن واقفة على النافذة ، ولعله سيراها تحمر قبل أن تحييه . ذلك كله طاف بخاطر الشاب في بضع ثوان .. حتى لقد عطف الزمام .. لكن قلبه - لا الحصان - جمع عندئذ متمرداً : أليس يسرع في الجري وراءها بعض السرعة ؟ ومال بالزمام إلى الجهة الاخرى واستمر في نزهته .

ان كارلوس ماريا يجيد ركوب الخيل . والناس الذين يرون بذلك المكان أو يكونون على أبواب بيوتهم لا يملون من الاعجاب بقامة الفتى ، وسهولة حركته ، وجمال وضعه . تبدو عليه وهو فوق جواده هيئة الأمراء ، وهو يستقبل هذا الاعجاب على غموزه في سماحة (وهذا التساهل هو الشيء الوحيد الذي يمن به على العامة) فتى كان الأمر امر اجلال له رأته يعد جميع الناس بشراً على حد سواء .

- استيقظت ؟ استيقظت ؟

هكذا قالت صوفيا حين وجدت ابنة خالتها تقرأ الصحف .

فانتفضت ماريا بنديكتا ، لكنها لم تلبث أن استردت هدوءها . لقد نامت نوماً مضطرباً واستيقظت في ساعة مبكرة . قالت : انني لم اخلق لمثل هذه السهرات التي تنتهي في وقت متأخر . فأجابتها الاخرى على الفور بأن عليها أن تتعود ذلك ، فالحياة في ريبودوجانيرو ليست كالحياة في الريف حيث ينام الناس مع الدجاج ويستيقظون على صباح الديكة . ثم سألتها عن رأيها في الحفلة الراقصة ، فرفعت ماريا بنديكتا كتفها في غير مبالاة ، وتمتت تقول انها حفلة ناجحة جداً ، لكن صوتها كان من الانخفاض بحيث أن الكلمات القليلة التي أرادت أن تنطق بها لم تكفد تسمع . وفي أثناء ذلك قالت لها صوفيا انها قد رقصت كثيراً الا الفالس والبولكا ، فلماذا لم ترقص الفالس والبولكا أيضاً ؟ فرشقت الفتاة ابنة خالتها بنظرة حانقة وقالت :

- لا احب ذلك ؟

- كيف لانهين ذلك ؟ هو الحجل .

- الحجل ؟

- اعني انك لم تتعودي .

- بل أنا لا أحب أن يشدني رجل الى صدره ، ويجعلني بين ذراعيه ، ويضي
يطوف بي على هذا النحو امام جميع الناس . انني اجد ذلك مؤذياً .

فما ان سمعت صوفيا هذا الكلام حتى اكفهر وجهها فلم تجب بشيء ، وغيرت
موضوع الحديث . اخذت تتكلم عن الريف ، وسألتها هل صحيح انها راغبة
في العودة الى بيتها كما قال كريستيانو . فأجابتها ماريا بنديكتا في قوة بينا هي
تقلب الجرائد على غير هدى :

- نعم . انني لا اطيق أن أعيش بعيدة عن أمي .

- ولكن لماذا؟ ألسنت سعيدة معنا ؟

فلم تجب مارياً بنديكتا بشيء ، بل كزت شفتها وأخذت تجيل نظرتها
في إحدى الصحف ، كأنها تبحث عن شيء ما . كان واضحاً انها مضطربة
قلقة . واصرت صوفيا على ان تعرف اسباب هذا التبدل المفاجيء ، وامسكت
يديها ، فوجدتها باردة .

قالت لها اخيراً :

- يجب أن تتزوجي . وعندني لك خطيب .

الخطيب هو روبيان . لقد كان باليا يريد ان يصل الى هذه النتيجة . لانه
يريد ان يزوج قريبته لشريكه ، فبذلك يظل كل شيء في داخل الاسرة . هذا
ما كان يقوله باليا لامراته . وقررت زوجته أن تتولى الامر بنفسها ، وقد
سنحت الآن فرصة الوفاء بوعددها . ان في قبضة يدها خطيباً لماريا بنديكتا .

سألها ماريا :

- من هو ؟

- واحد .

هل تصدقون أن صوفيا لم تجرؤ أن تنطق باسم روبيان ؟ ... لقد قالت
لزوجها مرة أنها حدثت ماريا بنديكتا في الامر مع ان شيئاً من ذلك لم يحدث .

وها هي دي الآن تريد ان تقدم اقتراحها فعلا ، فيأبى الاسم ان يخرج من
فمها . انه لغريب حقاً من هذه المرأة ، التي لا تشعر نحو روبيان بأي حب ،
ان ترفض تقديمه لابنة خالتها . لكن الطبيعة قادرة على كل شيء ياسيدي العزيز .
ان الطبيعة التي خلقت غيرة عطيل ، وخلقت غيرة فارس جريو ، استطاعت
كذلك ان تخلق هذه الغيرة الاخرى ، غيرة امرأة تأبى أن تتخلي عن رجل
لاتريد أن يكون لها .

كررت ماريا بنديكتا سؤالها :

- ولكن من هو ؟

فاجابتها صوفيا :

- سأقول لك فيما بعد ، دعيني الآن ارتب الامور .

وانتقلت الى موضوع آخر .

فتغيرت هيئة ماريا بنديكتا . ان ابتسامه تدبر عن الفرح والامل تضيء
الآن وجهها . وان عينها تفيضان بمعاني الشكر ، حتى لكأنها تريد ان
تقول شيئاً ما ، شيئاً غامضاً لا يستطيع أحد أن يسمعه بله أن يفهمه .

- انها تحب ان ترقص الفالس . ثم ماذا ؟

من التي تحب ان ترقص الفالس ؟ ابنة خالتها . لقد رقصت كثيراً في الليلة
البارحة مع كارلوس ماريا حتى ظن ان الرقص لم يكن الا حجة . أن ماريا
بنديكتا مقتنعة الآن بانها هي الدافع الوحيد الى هذه الخلوة الطويلة بين كارلوس
ماريا وبين ابنة خالتها ... لقد تحدثا طويلا بين الرقصات ، ولا شك أن
الحديث كان يدور عليها هي ، لان ابنة خالتها تنوي أن تزوجها منه ، لكنها
طلبت اليها ان تدع لها تدبير الامور . ربما كان كارلوس ماريا يراها دميصة أو
ثقيلة الظل . ولكن مادامت ابنة خالتها ستدبر الامور ! .. ذلك كل ما كانت
يقرأ في عيني الفتاة الملتصتين .

ذلك عن الفتاة ، أما روبيان فإنه لم يتخل عن شكوكه بمثل هذه السهولة . وقد قرر أن يتحدث الى كارلوس ماريا ، حتى لقد ذهب إلى شارع الانفاليد في اليوم التالي ثلاث مرات . لكنه لم يجده ، فغير رأيه ، ولزم بيته بضعة أيام لا يخرج ، الى أن انتزعه من عزله الماجور سيكورا ، اذ جاء يبلغه انه يقيم الآن في شارع (٢ كانون الاول) . وقد أعجب الماجور اعجاباً شديداً بالبيت المترف الذي يسكنه صاحبنا ، وبما يضمه من زخرف ونحف ومذهبات وستائر وما الى ذلك . واتخذ من ذلك مناسبة للافاضة في حديث طويل عن أثاث قديم ما يزال يحفظ ذكراه ... ثم توقف عن الكلام فجأة ليقول لروبيان انه يجده حزينا مكتئب المزاج ، وان هذا طبيعي لأن ثمة شيئاً يعوزه :

- صحيح انك سعيد ، لكن هذا البيت يعوزه امرأة . يجب ان تزوج .

تزوج ثم قل لي بعد ذلك هل أنا على حق !

فتذكر روبيان السهرة التي قضاها في سانتا تيريزا ، السهرة التي دار فيها ذلك الحديث بينه وبين صوفيا ، فأحس برعشة تسري في ظهره . لكن اقوال الماجور لا تشتمل على شيء من السخر ، ولا تخفي وراءها أي مصلحة . ان ابنته ما تزال على حالها التي تركناها عليها في الفصل الثامن عشر ، مع فارق واحد وهو أنها بلغت الأربعين من سنها . إنها الآن في الاربعين وعانس . لقد بكت في يوم عيد ميلادها منذ الصباح . لم يزدن شعرها بوردة ولا شريط . وما من احتفال . ولا شيء إلا حديث طويل من أبيها على مائدة الإفطار عن طفولتها ، وبضع نوادر عن أمها وجدتها ، وعن القناع الذي لبسته في حفلة متنكرة ، وعن حفلة تعييد عام ١٨٤٨ وعن الدودة الوحيدة التي عاشت في احشاء كولونيل يقال له كلودوميرو ، لاشيء إلا ركام من الذكريات يمكن أن يقتل الوقت . لكن تونيكما لم تصغ إلى حديثه إلا قليلاً لأنها كانت غارقة في أفكارها ، وكانت تذوق منذ الآن تلك المرارة الرهيبة ، مرارة العزلة الروحية التي ستميش فيها ، آسفة أشد الأسف في الوقت

نفسه على ما بذلت من جهود في سبيل العثور على زوج . أربعون عاماً . لقد
آن أوان التوقف .

لكن الماجور لم يكن في رأسه شيء من هذا كله ، وكان صادقاً كل الصدق :
كان يجد أن بيت روبيان ليس فيه روح . وكرر يقول وهو يستأذن بالانصراف :
- تزوج ثم قل لي بعد ذلك هل أنا على حق !

٧٩

وما ان خرج الماجور حتى ارتفع صوت بهذا السؤال :
- ولم لا ؟

فنظر روبيان حوله مذعوراً فلم يجد إلا الكلب ساكناً ينظر إليه . لقد كان
من السفف بمكان أن يظن السؤال صادراً عن كونكاس بوربا - أو قل عن
كونكاس بوربا الآخر المتقمص جسم الكلب - لذلك ابتسم صاحبنا في احتقار ؛
لكنه في الوقت نفسه كرر الحركة التي وصفناها في الفصل التاسع والستين ، فمد
يده وأخذ يحك أذني الكلب وعنقه في حنان ، لاعتقاده أن من شأن هذا أن
يرضي الراحل إذا صح رغم كل شيء أنه متقمص جسم الكلب ...
هكذا ازدوج بطلنا ، ولكن أمام نفسه من غير جمهور يراه !

٨٠

غير أن الصوت كثر يقول : « ولم لا ؟ » واستمر روبيان يفكر .
نعم ، لماذا لا يتزوج ؟ لعل ذلك أن يخلصه من هذا الهوى الذي يفتسه
شيثاً فشيئاً بلا أمل ولا عزاء . ثم ان الزواج باب يطل على المجهول . نعم ،
يجب أن يتزوج ، أن يتزوج بسرعة ، أن يعرف كيف يتزوج .
كان قريباً من مدخل الحديقة حين أخذت هذه الفكرة تشغله . ثم عاد الى
داخل البيت ، بعد ان صعد درجات المصطبة وفتح الباب ، وهو لا يعي شيئاً

البتة . وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب ردت الى الواقع وثبة كونكاس بوربا الذي كان يرافقه . أين الماجور ؟ وأراد أن ينزل مرة أخرى ليجده ، لكنه لم يلبث ان تذكر انه قد شبعه حتى الشارع منذ لحظة . لقد فعلت ساقاه كل شيء . قادته وحدهما ، فما اصطدم بشيء ولا ضل السبيل ، من اجل ان تبيحا لرأسه ان ينصرف إلى تأمله انصرفاً أكمل . مرحى للساقين الطيبتين ! الساقين العزيزتين ! ما عسى يفعل الفكر لولاها ؟

يا للساقين العظيمتين ! لقد ظلنا تقودانه حتى أوصلناه الى الأريكة ، وتمددنا معه في رفق ، بينما استمر فكره يتعمق في فكرة الزواج هذه . الزواج وسيلة للهرب من صوفيا . وربما كان أكثر من ذلك ايضاً ...

نعم ، ربما كان ايضاً وسيلة لأن تسترد حياته وحدتها التي فقدتها بتغير البيئة والثروة . غير أن هذا الرأي لم يأت من فكره حقاً ، ولا من ساقيه ، وإنما أثاره شيء آخر لم يستطع أن يميزه تمييزاً حسناً ولا تمييزاً سيئاً ، شأنه في ذلك شأن العنكبوت . ماذا يعرف العنكبوت عن موزارت ؟ لا شيء . والعنكبوت مع ذلك يصغي الى نشيد من أناشيد الموسيقى الكبير مسروراً . والقط الذي لم يقرأ يوماً الفيلسوف كانت ، ربما كان حيواناً متفلسفاً . الحق ان الزواج قد يكون هو الحيط الذي يتيح له أن يسترد ما افتقده من شعور بالوحدة . ان روبيان يشعر الآن بكل ما تشتمل عليه حياته من تفكك . حتى أصدقاؤه الذين يجهم كثيراً ويتلقونه كثيراً يسبقون على حياته طابع الرحلة .. رحلة يتغير فيها اللسان دائماً بتغير البلد ، فهو التركية تارة ، وهو الاسبانية أخرى ، وهكذا دواليك ... وان صوفيا لتسهم في خلق هذه الحال . انها متغيرة أشد التغير ، متبدلة أشد التبدل . فالايام تقضي تلو الايام وصاحبنا يسعد على وجهه ، ولا تحيب آماله على وجهه .

كان روبيان لا يعمل شيئاً . ومن أجل ازجاء الوقت وملء ساعات الفراغ الطويلة كان يحضر جلسات محكمة التمييز أو يجلس النواب ، ويشهد الاستعراضات

العسكرية ، ويقوم بنزهات طويلة ، حتى إذا جاء المساء قام بزيارات لافائدة منها أو ذهب إلى المسرح دون أن يجني من ذلك أية متعة . وكان بيته بما يسوده من ترف باهر وبما يتسوج في هوائه من أحلام ، لا يزال ادعى مكان إلى راحة باله وهدوء فكره .

وقد أخذ منذ قليل يملأ جزءاً كبيراً من وقته القراءة . فكان يقرأ روايات، لكنه لا يقرأ إلا الروايات التاريخية التي كتبها الكسندر دوما أو الروايات المعاصرة التي ألفها فوييه ، على أنه كان يقرأ روايات فوييه في صعوبة لأنه لا يعرف الفرنسية معرفة كافية . أما روايات الكسندر دوما فمن حسن الحظ أن هنالك ترجمات لها . وكان مع ذلك يجازف فيقرأ كتباً أخرى ، إذا كانت الأحداث التي تقص هذه الكتب تجري هي أيضاً في جو مجتمع ارستقراطي ملكي . فكانت مشاهد بلاط فرنسا التي يتخيلها الكسندر دوما المدهش ويصف مواكب نبلائها ، المسايقين ، المغامرين وكذلك محافل الكونتيسات والادواق الذين يصورهم فوييه أشبه بنباتات مرهقة تعيش في بيوت من زجاج ، وكذلك تلك الاحاديث المتعالية أو الفكهة ، البارعة على كل حال ، التي يدبرونها جميعاً ، كان ذلك كله يفقده الاحساس بالزمن . وكان في جميع الاحيان تقريباً يدع الكتاب يسقط من يده آخر الأمر ، ويظل سادراً متأملاً غائماً العينين . فلعل مركيزاً من الزمان القديم يقص عليه عندئذ طرفاً من الماضي .

٨١

حلم بالحفلة قبل أن يحلم بالخطيبة . ولم يتليء رأسه في ذلك اليوم وفي الأيام التي أعقبته الا بالبذخ والابهة والعربات - هذا إذا أمكن أن يوجد عربات من تلك العربات القديمة الفخمة التي رأى صورها في نقوش الكتب العتيقة ! .. يالها عربات عظيمة رائعة ! وأقوى لذة كان يشعر بها هي أن يذهب في أيام الاعياد ينتظر الامبراطور على باب القصر ليرى وصول الحاشية الامبراطورية

وخاصة مركبة صاحب الجلالة . يالها من مركبة ! ماهذه الابعاد ! ماهذه النوايض ! ماهذه الالوان اللطيفة العريقة ! والحبول التي تجر المركبة ثمانية أو عشرة ، والحوذي الذي يقودها وقور وقار البابا ... وكانت تأتي بعد ذلك عربات أخرى ، أقل عظمة من الاولى طبعاً ، لكنها تبلغ من العظمة مع ذلك مايكفي لاثارته إعجاباً بها .

لقد كان في وسعه أن يستعمل لزواجه واحدة من تلك المركبات ، أو مركبة أصغر منها ، لولا أن المجتمع قد تساوى كله في استعمال العربية الحديثة المبتذلة . لابس . سيركب العربية الحديثة . وها هو ذا يراها مزدانة الجوف بأهلي حلة . كيف تكون هذه الحلة ؟ انه لايعرف الآن ذلك معرفة تامة ، لكنها ستكون من نسيج غير شائع ، من شأنه أن يسبغ عليها طابع الندرة . وستجرها جياد فذة . وسيرتدي الحوذي ملابس مرصعة بالذهب ... ملابس لم ير الناس مثلها من قبل . وسيكون المدعوون جميعاً من علية القوم ، سيكون بينهم قادة كبار ودبلوماسيون ورجال من أعضاء مجلس الشيوخ ، ووزير أو وزيران ، وكثير من رجال الأعمال . وسيكون بينهم سيدات ، سيدات من الطبقة الراقية . وأخذ روبيان يذكر أسماءهن . هاهو ذا يراهن مقبلات ، وقد وقف في أعلى سلم القصر يرمق بطرفه نهاية السجادة الكبيرة الصاعدة اليه . وهاهن اولاء يجترن الدهليز ثم يصعدن الدرجات باحذيتن الصغيرة المصنوعة من الدمقس .. ان عددهن في أول الامر قليل ... ثم يزداد العدد ويزداد . العربات تصل تلو العربات ... ثم يصل الكونت والكونتيسة أونتيل ... ان الكونت رجل وسيم الوجه ، والكونتيسة سيده على جانب عظيم من الرقي . ويقول له الكونت عند وصوله : « هانحن اولاء قد جننا ايها الصديق العزيز » ، وتقول الكونتيسة : « حفلتك رائعة حقاً ياسيد روبيان » .

وفجأة يصل سفير البابا ... ها ... نعم ... لقد نسي روبيان أن سفير البابا هو الذي سيزوجها . هاهو ذا يجيء . هذان هما جورباه البنفسجيان ... وعيناه

الواسعتان النابوليتان . انه يتحدث حديثاً حاراً مع وزير روسيا . ان أجمل أعناق المدينة تتألق الآن تحت أضواء الثريات المصنوعة من الكرسنال والذهب ، بعضها قائم ، وبعضها مائل على المراوح تنفتح وتنطوي بغير انقطاع . وهناك النجوم المتألثة على أكتاف رجال الجيش ، وهناك الاكاليل الجميلة تزين رؤوس النساء . وتعزف الجوقة الموسيقية رقصة فالس . فتضي أذرع الرجال المستديرة في افاقة ورشافة ، تبحث عن الاذرع العارية التي تلبس قفازات تصل الى المرفق . ويأخذ الرجال والنساء يدورون في القاعة ازواجاً أزواجاً : خمسة أزواج ، عشرة ، اثني عشر ، عشرين ... ويكون العشاء رائعاً أيضاً . كرسنال من بوهيميا واطباق من هنجاريا ، وخزف من سيفر ، وخدم انيقون يرتدون جميعاً ملابس عليها شارة هي الحرف الاول من اسم روبيان .

٨٢

هذه الاحلام كلها كانت تذهب وتجيء في رأس روبيان . ترى أي ساهر بروسيرو (١) خفي أحال الجزيرة المتبدلة جنة عجيبة « هيا يا آرييل ، جيء برفاقتك الى هنا لأطلع هذين الزوجين على بعض معجزاتي » . ان الكلمات هي كلمات الملهاة ، لكن الجزيرة لم تكن هي نفسها ، لا الجزيرة نفسها ولا الجنة . لم تكن الجزيرة الا رأس صاحبنا ، ولم تكن الجنة آلهة ولا قصائد ، بل بشراً وثراً . لكنها حافلة مع ذلك بآيات الجلال . يجب ان لانسى أن بروسيرو الذي جاء ذكره عند شكسبير هو دوق ميلان ، ولعل هذا سبب وجوده في جزيرة صاحبنا .

والواقع ان الخطيبات اللواتي كن يظهرن الى جانب روبيان في مواكب هذه الاحلام التي تدور على عرسه كن جميعاً فتيات ذوات ألقاب ، وكانت اسماؤهن جميعاً من اكثر اسماء الطبقة الارستقراطية في بلادنا رنديناً ورواجاً . واليكم تعليل ذلك : لقد عثر روبيان منذ بضعة اسابيع على مفكرة من وضع ليبرت ، فلما قلب صفحاتها وقع

(١) احد ابطال شكسبير في ملهاة (العاصفة) (المغرب) .

على فصل الألقاب . ولئن كان روبيان يعرف عدداً من هذه الألقاب ، لقد كان بعيداً عن معرفتها كلها . واشتري المفكرة ، واخذ يقرؤها ثم يعيد قراءتها من اول سطر الى آخر سطر ، من المراكز الى البارونات ، ثم يعود القهقري فيردد الاسماء التي يجدها جميلة ، ويحفظ كثيراً منها على ظهر القلب ، ويتناول في بعض الاحيان قلما وورقة ، فيختار لقباً حديثاً أو قديماً ، ثم يكتبه عدة مرات متتالية كأنه صاحبه وكأنه يوقع به على ورقة :

مر كيز بارباسينا

مر كيز بارباسينا

مر كيز بارباسينا

مر كيز بارباسينا

مر كيز بارباسينا مر كيز بارباسينا

ويظل يفعل ذلك الى آخر الصفحة ، مغبراً خطه مرة بعد مرة ، فهو تارة باحرف كبيرة وتارة باحرف صغيرة ، وهو تارة مائل الى شمال ، وتارة قائم تماماً : كان يكتب على جميع الاشكال الممكنة . حتى اذا انتهى ، تناول الورقة وراح يقارن بين التواقيع ، ثم ترك الورقة وغرق في احلام عميقة . هذا هو السبب في أن خطيباته اللواتي يصورهن له الخيال كن من طبقة الاشراف . لكن اسوأ ما في الأمر أن قسماهن جميعاً كانت هي قسامت صوفيا . قد يشبهن في أول الأمر جارة له أو فتاة رآها أمس في الشارع . وقد يكن في أول الأمر تحيفات أو بدينات . لكنهن ما يلبثن أن يتغيرن ، فاذا هن يسمن أو ينحطن ، وإذا وجوههن تصير الى ذلك الوجه المشرق ، وجه صوفيا الجميلة ، وقد اتقدت عيناها أو هداأنا . ألا يمكن لذن أن يفلت منها في يوم من الايام ولو تزوج ؟ وخطرت بباله ذات مرة فكرة موت باليا . كان ذلك في يوم من الأيام عند خروجه من بيتها ، بعد أن قالت له أموراً كثيرة رائعة لكنها غامضة . ولقد غرق روبيان عندئذ في سعادة كبيرة ، لكنه لم يلبث أن منع نفسه من ذلك متطيراً . وبعد

بضعة أيام عاد يفكر في مشروع زواجه تفكيراً نهائياً ، لأن صوفيا غيرت موقفها منه مرة أخرى . الا أن باليا نفسه هو الذي كان ينتزعه من أحلام الزواج مرة بعد مرة .

– أنت مشغول هذا المساء ؟

– لا .

– اذن اليك هذه البطاقة للاوبرا ، شرفة رقم ٨ ، الصف الاول على الشمال . وكان يصل قبل الاوان لينتظرهما وليقدم لصوفيا ذراعه . فاذا كانت رائقة المزاج كانت السهرة رائعة ، أما اذا لم تكن كذلك كانت السهرة عذاباً كعذاب الشهداء على حد تعبيره الذي قاله يوماً للكلب :

– كانت سهرة الامس عذاباً كعذاب الشهداء يا صديقي المسكين .

فنبح الكلب يجيبه :

– تزوج وستقول لي بعد ذلك هل كنت على حق .

فأجابه وهو وهو يمسك بقائمتيه من أمام ويضعهما على ركبتيه :

– نعم يا صديقي المسكين . أنت على حق . أنت في حاجة الى صديقة طيبة

توليك من العناية ما لا أستطيع أو ما لا أعرف . أما زلت يا كونكاس بوربا تذكر

صاحبنا كونكاس بوربا ؟ ما كان أطيبه وأعظمه من صديق . لقد كنت أحبه كل

الحب أنا أينما ، وكانت صداقتنا قوية . لو كان حياً لشهد زواجي ، ولشرب

الانخاب – أو لشرب نخب العريسين على الأقل – ولصنعت له من أجل ذلك قدحاً

من ذهب وماس ... ما اعظمك يا كونكاس بوربا ! ..

كان عقل روبيان يشارف الهاوية .

٨٣

وذات يوم خرج من بيته ابكر مما اعتاد ، وكان لا يعرف ابن يقضي أول

النهار ، فعزم على الذهاب الى المخزن الذي يملكه هو وباليا . لقد انقضى اسبوع لم

يذهب خلاله إلى فلانمنجو لان صوفيا كانت تعاني نوبة من نوبات فتورها في معاملته . فلما وصل الى المخزن رأى كرستيانو يرتدي ثياب الحداد . ذلك أن خالة امرأته ، دونا ماريا أوجوستا ، قد توفيت في بيتها بالريف . وقد وصل نبأ وفاتها أول أمس في ساعة متأخرة من النهار :

— أهي أم تلك الفتاة ؟

— هي نفسها .

وتكلم باليا عن المتوفاة في حنان طافح ، ثم قص على صاحبه ما تعانیه ماريا بنديكتا من حزن شديد قائلاً : ان منظرها مؤلم حقاً . وسأله لماذا لا يأتي في هذا المساء نفسه إلى فلانمنجو ليساعدهما في التسرية عنها . فوعده روبيان بالجيء .

— تعال . انك بمجيئك تقدم لنا معونة . والفتاة المسكينة تستحق هذه المعونة . انها فتاة بمتازة حقاً ، أنت تعرف ذلك . انها على جانب عظيم من التربية الحسنة ، بل من التربية الصارمة . أما من ناحية المزايا الاجتماعية ، فلئن لم تغرس فيها منذ الطفولة ، لقد تداركت ما فاتها من وقت في سرعة مذهلة بمعونة صوفيا . وبالحا من ربة بيت ! حقاً أيها الصديق العزيز . لا أظن أن من الممكن أن نجد في سنها فتاة أكمل منها . ستبقى الآن معنا . ان لها اختاً متزوجة من قاضي صلح في سيارا ، ولها كذلك عراب في سان جوان دلري كانت المرحومة لاتي تشيد بفضائله . ولست اظن أنه سيطلب التحاق ماريا بنديكتا به ، ووجه فعل ، فلن أدعها تسافر . هي الآن لنا . لن نفصل عنها لجرد ان عرابها يريد أن ينزلها في وصيته . وختم باليا كلامه ، وهو ينفض باصبه بعض الغبار عن (ياقة) روبيان ، ختم قائلاً : ستبقى هنا .

شكره روبيان . ولذا كانا في المكتب ، أي في آخر المخزن ، نظر روبيان من خلال قضبان الحاجز ، فرأى رزماً من البضاعة تدخل المخزن ، فسأل ما هذه الرزم ، فاجابه باليا أنها قماش من قطن انكليزي . فردد في غير مبالاة :

- قماش من قطن انكليزي .

قال له باليا :

- بالمناسبة ، هل علمت أن محل موارس وكونيا قد أخذ يسدد جميع ديونه كاملة ؟

وكان روبيان لا يعرف من الأمر شيئاً ، ولا يعرف أن هناك محلا يملكه هذان الشريكان ، ولا يعرف هل لها أو ليس لهما ديون عليه . فلم يزد على أن أصغى إلى النبأ مظهرآ سروره به ، ثم تهيأ للانصراف . لكن شريكه استمهله بضع لحظات . ان وجه شريكه يعبر الآن عن فرح شديد ، حتى لكأنه لم يفقد أحداً من أسرته وعاد يتكلم عن ماريأ بنديكتا فقال أنه ينوي أن يزوجها وأنها ليست من أولئك الفتيات اللواتي يستجبن لأول شاب أنيق ، أو اللواتي يركبن رؤوسهن . انها على جانب عظيم من حصافة الرأي ، وتستحق زوجاً ممتازاً ، تستحق شخصاً جاداً كثير الجد ..

- صحيح .

فدمدم شريكه فجأة يقول :

- اسمع . لا تعجب لما سأقوله لك . أعتقد أنك أنت الرجل الذي سيتزوجها .

فاجاب روبيان مبهوتاً :

- أنا ؟ لا .. لا ..

وأضاف يقول فوراً للتخفيف من وطأة الصراحة في رفضه :

- أنا واثق أنها فتاة كاملة من جميع النواحي . ولكنني .. الآن ..

لا أنوي أن أتزوج .

- لا يقول أحد أن تتزوج غداً أو بعد غد . والزواج أمر لا يرتجل

ارتجالاً . ما أريد أن أقوله هو أنني احس أنك ستزوجها . وأنت تعرف

ما هي تلك الاحساسات التي تتنبأ بالمستقبل . ألم تحدثك صوفيا أبداً عن احساسي

بهذا الأمر .

- أبدا .
- غريب . يخيل لى انها ذكرت لى أنها حدثتك فى الامر مرة أو مرتين .
- جائز . أنا كثير الذهول .. ولكن فى أى أمر حدثتنى ؟ فى مشروع زواجى من هذه الفتاة ؟
- بل فى أمر هذا الاحساس الذى يخالجنى . ولكن حسبنا الآن هذا . ولنضع للزمن أن يفعل فعله .
- الى اللقاء .
- الى اللقاء . تعال هذا المساء فى وقت مبكر .

٨٤

« إذن لقد كانت صوفيا تريد أن تزوجنى ، كذلك أخذ روبيان يفكر عند خروجه من المخزن . تلك طبعاً اسرع وسيلة للتخلص منى . تريد أن تزوجنى ، أن تجعلنى ابن عم لها .. وقد قطع روبيان جزءاً كبيراً من الشارع قبل أن يصل الى هذا الافتراض الثانى : لعلها لم تنس ، وإنما كذبت على زوجها عامدة حتى تحول دون تحقق هذا المشروع . فاذا صح هذا ، فالموقف مختلف كل الاختلاف . وبداله هذا التعليل منطقياً . واستمر يسير فى طريقه وقد استرد هدوءه .

٨٥

لكن الزمان يبدو طويلاً جداً حين لا يدري المرء ماذا يعمل ، وان استطاع أن يبلغ من الهدوء مبلغاً كبيراً . إن تحرق روبيان الى حلول المساء من أجل أن يذهب الى فلاننجو كان يشعره بأن الساعات ليس لها نهاية . ان الوقت مبكر ، انه أبكر من أن يعمل صاحبنا أى شيء ، ابكر من أن يذهب الى شارع أوفيدور أو يعود الى بوتافوجو . وكان الدكتور كاماشو فى فاسوراس يدافع عن أحد المتهمين أمام محكمة الجنائيات . وليس هناك أى تسلية

عامة منتظرة ، فلا احتفال في مكان ولا وعظ في كنيسة . لاشيء ، لاشيء على وجه الاطلاق . وأخذ روبان يضرب في الشوارع على غير هدى من فرط سأمه وممله ، يقرأ اللافتات تارة ويتوقف تارة أخرى ليراقب أتفه حادث يقع لعربة من العربات . كيف لم يشعر بمثل هذا السأم يوماً في ميناس ؟ وظل اللغز بلا جواب .. ان المرء يجد في رودي جانيرو من التسليات ما لا يجد مثله في ميناس ، وكثيراً ما تسلى روبان في هذه المدينة فعلاً ، غير أنه يعاني مع ذلك هنا هذه الساعات من الضجر الثقيل .

من حسن الحظ أن لهؤلاء الذين لا يدرون ماذا يعملون رباً يسعفهم . فها هو ذا روبان يتذكر أن فريتاس (انكم تعرفون فريتاس ، ذلك الرجل الفرح دائماً) مريض بمرض خطير . فاستوقف روبان عربة وذهب بعوده في بيته الواقع على شاطئ فورموزا . وظل يتحدث مع المريض قرابة ساعتين . لكن المريض نام أخيراً . فاستأذن روبان أمه بالانصراف - وأمه رثمة حقاً - حتى اذا وصل الى الباب قال لها قبل أن يمضي :

- لابد انك في حاجة الى بعض المال .

واذ عضت السيدة العجوز على شفتيها وغضت طرفها ، أردف يقول :

- ليس هذا عاراً . لئن كان العسر محزوناً ليس هو بالعار قط . واحب أن تقبلي مني هذا المبلغ الذي سأتركه لك من اجل ان تواجهي به بعض النفقات ، وستردونه الي في ذات يوم حين تقدرين أن تردوه .

وكان قد فتح محفظته واخرج منها ست ورقات نقدية كل واحدة منها بعشرين الف قرش ، فطواها ووضعها في يد السيدة العجوز . ثم فتح الباب وخرج . فبلغت العجوز من الدهشة درجة لم يخطر ببالها معها أن تشكر له صنيعه . فلما سمعت صوت العربة وهي تتحرك هرعت الى النافذة . لكن الرجل الذي احسن اليها كان قد غاب .

ثم ذلك كله عفواً ، حتى أن روبيان لم يتسع وقته للتفكير فيه إلا بعد أن استأنفت العربة سيرها . ويظهر أنه رفع عندئذ ستارة النافذة الصغيرة لينظر الى خلف . لكن العجوز كانت وقتئذ ترجع الى داخل البيت ، فلم يلمح إلا ذراعها . وشعر روبيان بكل السعادة التي يشعر بها امرؤ حين يدرك انه صحيح الجسم معافى . وأسند ظهره الى مقعده ، وزفر زفرة عميقة من شعوره بالراحة ، ونظر الى الشاطئ ، ثم مال الى امام لأنه لم يستطع أن يرى الشاطئ تماماً حين يجيئه .

قال له الحوذي وهو سعيد كل السعادة بهذا الزبون الطيب الذي وفق اليه :

- أيعجب هذا سيادتك ؟

- كثيراً .

- أما جئت الى هنا من قبل ؟

- أحسب أنني جئت ، ولكن منذ زمان بعيد ، في اول رحلة قمت بها

الى ريودوجانيرو . ذلك أنني من ميناس ... هل لك أن تقف قليلاً ؟

فوقف الحوذي حصانه ، فنزل روبيان ، وأمر الحوذي أن يسير بالعربة

على سرعة خطاه .

ان هذه البقع الكبيرة من الحضرة التي تنبجس من الماء على مقربة من

روبيان تشكل منظراً رائعاً حقاً . وما اقربها من الشارع ! لقد اراد روبيان

ان يتأملها من كذب ، حتى اصبح لا يبالي الشمس . نسي المريض وأم المريض

وقال لنفسه : لو كان البحر كله على هذه الشاكلة قد نثرت فيه الاراضي والنباتات

نثراً ، لكان ذلك يستحق الإبحار . وغير بعيد من هذا المنظر ، على مسافة

خطوات ، كان يرى شاطئاً لازاروس وشاطئاً سان كركستوفان .

تم روبيان يقول :

— برايا فرموزا (١) اسم على مسمى .

غير أن الشاطيء يتغير الآن وجهه . فابتداء من ساكودو ألفيريس يجد المرء بيوتاً مبنية على جهة البحر . ومن حين الى حين تحمل محل الابنية قوارب قد ارتفعت أشرعتها في الهواء وغطست في الوحل أو التراب . ولمح روبيان على مقربة من هذه القوارب اطفالاً حفاة الأقدام يرتدون قمصاناً ، قد أخذوا يلعبون حول رجل منبطح على بطنه رافع احدى ساقيه في الهواء . والاطفال يضحكون جميعاً ، غير ان واحداً منهم يضحك اكثر من سائرهم ، لأنه كان يعجز عن رد ساق الرجل الى الأرض . انه طفل صغير في الثالثة من عمره ، يتشبث بالساق مستميتاً ، وينزلها شيئاً فشيئاً حتى لتكاد تلامس الارض ، لكن الرجل لا يلبث عندئذ ان يتحرك فاذا هو يرفع الساق والطفل كليهما .

تلبث روبيان بمكانه بضع لحظات يراقبهم فلما لاحظ الصبي ان هناك من يراقبه ضاعف جهوده ، لكنه فقد عندئذ انطلاقه على طبيعته . وتوقف الصبية الآخرون عن اللعب ، وهم اكبر منه سناً ، وأخذوا يتفرسون في روبيان . لكن روبيان لا يميز شيئاً . انه يرى كل شيء فيما يشبه الضباب . وظل يسير مدة طويلة ، فقطع ساكو دو ألفيريس ، وقطع جامبوا ، وتوقف قليلاً امام المقبرة الانكليزية ذات القبور القديمة المغروسة في الرابية ، ووصل اخيراً الى حي ساوودي . وهناك رأى شوارع ضيقة ، واخرى منحدره ، وبيوتاً متجمعة على سفوح التلال أو على قممها ، وازقة صغيرة . ومنازل قديمة جداً - يرجع عهد بعضها الى العصر الملكي - منازل متآكلة ، مبقعة مترنحة ، قد جعلها تقادم الزمن سوداء لكنها تعج بالحياة ... فأثار هذا كله في نفسه الشعور بالحنين .. الحنين الى الاسمال البالية ، والحياة الكادحة الصعبة ... الهادئة مع ذلك كل الهدوء . غير ان هذا الشعور لم يدم الا قليلاً . ولم يلبث السحر الذي في نفسه ان فعل فعلة : انه لجميل جداً أن يتخلص المرء من الفقر .

(١) يعني هذا الاسم « الشاطيء الجميل » (المعرب) .

وصل روبيان إلى آخر شارع ساوودي . انه ييم الآن على وجهه حائر العينين ، لا بلوي على شيء . ومرت قربه امرأة لم تكن جميلة ولا انيقة ، يدل ظاهرها على أنها فقيرة ، لكن جميع قسامتها تفوح منها النضارة . لعلها في الخامسة والعشرين من عمرها ، وهي تمسك طفلا من يده . تعثر الطفل بين ساقى روبيان فقالت المرأة الشابة وهي تشده :

- ماهذه الحركات أيها العبي . .

ومال روبيان إلى الصبي يساعده ، فقالت وهي تبسم :

- شكراً جزيلاً .

ثم حيته . فرفع روبيان نبعته وابتسم لها كذلك . ومرة أخرى استولت على نفسه الرغبة في أن تكون له أسرة . « تزوج ، ثم قل لي هل أنا على حق ، » ووقف ونظر إلى خلف ، فرأى المرأة الشابة تبتعد بخطى سريعة ، بينما الطفل تضطرب ساقاه الصغيرتان إلى جانبها ليلحق بها . وقمل صاحبنا في سيره وأخذ يفكر في النساء اللواتي يمكن أن يعزفن معه انشودة الزواج بأيدي أربع على موسيقى كلاسيكية جادة اذا كان هنالك شيء من ذلك . وفكر حتى في ابنة الماجور التي لاتعرف الا بضع رقصات من رقص المازوركا . لكنه سمع على حين فجأة ترجع صوت القيثارة . قيثارة الخطيئة تنقر عليها أصابع صوفيا ، وبدا له صوت هذه القيثارة رائعا ومصمما في آن واحد ، فتبدد بذلك كل صفاء مشروعه الأول ... لكنه أصرّ بعض الاصرار ، وحاول أن يرتد إلى الموسيقى الاخرى ، فطفق يفكر من جديد في المرأة الشابة التي لقيها في شارع ساوودي ، وفي حركاتها الحلوة الرشيقة ، وفي الصبي الصغير الذي كانت تمسك بيده .

وحين رأى العربية تذكر مريض برايا فورهوزا . فتنهد وقال :

- مسكين يافريتاس .

وسرعان ماتذكر المال الذي تركه لأم المريض ، فرأى أنه أحسن صنعاً .
و حين خطر بباله أنه ربما كان قد أعطى العجوز ورقة أو ورقتين زيادة على ما كان
ينبغي له أن يعطيها ، أسف على أنه تصور هذا التصور ، ومن أجل أن يتخلص من
هذه الفكرة التي راودت ذهنه تخلصاً كاملاً ، صاح بصوت عال :
- يا لها من عجوز مسكينة ، يا لها من عجوز مسكينة !

٨٩

واذ راودته هذه الفكرة مرة أخرى ، هرع نحو العربة ، فصعد إليها ،
وجلس ، ثم أخذ يكلم الحوذي هرباً من افكاره :
- نزهة طويلة . حقاً انه لمكان جميل هنا ، وانه لمكان عجيب أيضاً ،
بشواطئه وشوارعه التي تختلف كل الاختلاف عن الاحياء الاخرى . انني أحب هذا
كثيراً ، ويجب أن أتردد إلى هذا المكان كثيراً .

فابتسم الحوذي ابتسامة بلغت من الغرابة أن روبيان ظل منها متحيراً أشد
التحير . انه لا يعرف ماذا كان في كلامه من أمر يثير الضحك . أترأه استعمل
كلمة يمكن أن يساء فهمها في ريودوجانيرو ؟ لكنه كرر لنفسه الجملة بكاملها
فلم يكتشف فيها شيئاً من ذلك . ان جميع الكلمات التي تضمنها الجملة هي من
الكلمات الرائجة استعمالها . ومع ذلك ظل الحوذي يبتسم ، وظل وجهه على تلك
الحال نفسها يعبر عن مزيج من الاحترام والمكر معاً ، وأوشك روبيان أن
يسأله عن السبب الذي يجعله على هذا ، لكنه أمسك في الوقت المناسب ، اذ تولى
الآخر استئناف الحديث ، قال :

- سيادتك تحب اذن هذا الحي كثيراً . اسمح لي أن لأصدق هذا الكلام .
وعليك أن لا تزعل ، فلست أريد ان أوذي شعورك ، وما أنا بالرجل الذي يغضب
زبوناً رضيعاً مثلك . لكنني لأصدق حقاً أن الحي هو الذي يعجبك .

فسأله روبان مجازفاً :

- ولماذا ؟

فهر الحوذني رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، وظل يقول انه لا يصدق شيئاً من هذا الكلام ، لا لأن الحمي غير جدير بالاعجاب بل لانه من الواضح أن روبان يعرف هذا الحمي من قبل حق المعرفة . فعاد صاحبنا يكرر ماقاله له في المرة الاولى ، ذاكراً انه لم يعد لى هذا الحمي بعد رحلته الاولى الى ريودوجانيرو منذ زمان طويل ، وانه لم يحتفظ بأي ذكرى عنه . ولكن الحوذني ظل يضحك ، فكلمها ازداد زبونه جزمًا وقطعاً في كلامه ، ازداد هو تبسيطاً ، حتى أصبح يعبر عن قوله : لا ، بحركات من يده ورأسه وشفتيه ... وختم قائلاً :

- أنا أعرف هذا الامر . ولبست عيناى في جيبي . لعل سيادتك تظن أنني لم الاحظ كيف نظرت الى المرأة الشابة التي مرت منذ هنيهة ؟ ان هذا وحده يدل على أن لك حساً مرهفاً وانك نحب ...

تلقى هذا الكلام غرور روبان ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن استدرك سائلاً :

- أي امرأة شابة ؟

فأجابه الرجل :

- ألم أقل لك ؟ سيادتك متحفظ جداً ، وحسناً تصنع على كل حال . لكنني امرؤ متكتم ليتك تعرف كم مرة عملت هذه العربة في أمثال هذه الروحات والغدوات .. ومنذ مدة قصيرة أقلت شاباً وسياً أنيق الهندام ... شاباً من طراز عال .. وكان الامر أمر نساء طبعاً ... ذلك يلاحظ من أول وهلة .

فقاطعه روبان قائلاً :

- ولكنني ...

أصبح روبان لا يستطيع أن يحافظ على هدوئه . ان الظن الذي يعبر عنه

الحوذى لا يسيئه .. والحوذى يتصور أن صاحبنا ما يزال يريد أن يخفي مغامرة ..
أردف يقول :

- اسمع . انني أعرف ما أقول حق المعرفة . مثلك كمثل ذلك الشاب الذي يسكن في شارع الانفاليد ... تماماً ... وفي وسع سيادتك ان تكون مطمئناً كل الاطمئنان إلى أنني لن أقول شيئاً ، ولن أفشو سراً . وتلك على كل حال أمور لا شأن لي بها . لكنك لاتستطيع أن تحملني على الاعتقاد بأن رجلاً من الرجال يشي من برايا فورموزا الى هنا على الاقدام للذة المشي ، مع أن هناك عربة تحت تصرفه لقد ذهبت سيادتك إلى المرعد المضروب ، ولكن الشخص الذي أردت لقاءه لم يجيء ...

- أي شخص ؟ لقد ذهبت أعود مريضاً هو صديق لي يوشك أن يموت .
كرر الرجل يقول :

- تماماً كذلك الشاب الذي يقطن شارع الانفاليد . لقد ذهب هو إلى خياطة زوجته ، كما لو كان متزوجاً !
سأله رويان وقد لاحظ اسم الشارع في هذه اللحظة :
- شارع الانفاليد .
فأجاب الحوذى :

- لأستطيع أن أزيد شيئاً على ما قلت . لقد كان آتياً من شارع الانفاليد .. شاب له شاربان ، وعينان واسعتان ، بل واسعتان جداً . لو كنت امرأة لعشقتة أنا ايضاً ... أما هي فلا أدري من أين كانت آتية ، ولو عرفت ذلك ماقلته .. كل ما أعلم أنها كانت جميلة جداً .

واذ رأى أن زيونه يصغي الى كلامه محملاً تابع يقول :
- آ... سيادتك لاتستطيع أن تتصور ... لاهي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ... جميلة الجسم ، قد حجبت نصف وجهها بوشاح . فتاة جميلة حقاً .
الفقراء يستطيعون أن يقدروا الجمال كما يقدره غيرهم .

دمدم روبيان يقول :

- ولكن ماذا حدث ؟

- ماذا حدث ؟ وصل كسيادتك على عربتي هذه ، ثم نزل ودخل بيتاً نوافذه محكمة الاغلاق ، قائلاً انه ذاهب الى خياطة زوجته . واذ لم أكن قد سألته شيئاً ، واذ كان طوال الطريق صامتاً غارقاً في أفكاره ، أدركت ما بنفسه . وربما كانت هذه هي الحقيقة من جهة أخرى ، ذلك أن هناك خياطة تقطن شارع الهارموني حقاً ...

- الهارموني ؟

- لا ... طيب . تكاد سيادتك تتزعزع مني سري . فلنبدل الموضوع ولن

أقول بعد الآن شيئاً .

وكان روبيان ينظر الى الرجل مذهولاً ، وصمت هذا دقيقتين أو ثلاث

دقائق ، ثم لم يلبث أن أرف يقول :

- ثم انه ليس هناك امور كثيرة اضيفها على ماذكرت . لقد دخل الرجل

ومكثت انا انتظره . وبعد نصف ساعة لمحت هناك بعيداً طيف امرأة ، فقدرت

على الفور الى أين هي ذاهبة . وسرعان ما صدق ظني . فقد اقتربت ثم اقتربت

وهي تنظر خلسة الى جميع الجهات ، فلما مرت امام البيت لم اقل لها شيئاً

ولم تكن هي الاخرى في حاجة الى أن تقرع الجرس وانما حدث ما يحدث في

الحكايات الخرافية : انفتح الباب من تلقاء نفسه ، فانسلت الى داخل البيت .

أتظن أنني اجهل هذه الامور ؟ وكيف تريد سيادتك لمثلي أن يربح قرشاً من

هنا وقرشاً من هناك زيادة بغير هذا ؟ ان ما يدره العمداد لا يكاد يطعم صاحبه .

فلا بد من اللجوء الى مثل هذه الوسائل الصغيرة .

٩٠

حدث روبيان نفسه وهو في بيته بملابسه السود قائلاً : لا ... لا ...

يستحيل أن تكون هي .

انه منذ عودته لم ينقطع عن التفكير في القصة التي حكاها له الحوذني . وقد حاول أن يطرد هذه القصة من ذهنه ، بترتيب اوراقه ، ^{ايها} بالقراءة ، أو بتصفيق اصابعه بغية ان يرى توابث كونكاس بوربا ، لكن الصورة ظلت تطارده قال له عقله ان هناك كثيراً من اطراف النساء الرشيقات ، ولا برهان على أن طيف المرأة الذي لاح للحوذني في شارع المارموني هو طيف المرأة الشابة . لكن الطمانينة التي حملها هذا التفكير الى قلبه لم تدم طويلا . فسرعان ماخفض رأسه وعاد يطلق خياله غامضاً وراء شخص - ليس الا صوفيا نفسها - يسير ثم يدخل على حين غرة في بيت لم يلبث ان اغلق بابَه فوراً ... وفجأة بلغت الصورة من شدة الرضوح في ذهنه انها جعلته يحمدق الى الحائط ، كأنه باب البيت الذي في شارع المارموني مائل الآن امامه . وجرت بقية التصورات بعد ذلك في رأسه كما يلي : هاهو ذا يقرع الباب ، ثم يدخل ، ثم يشب الى عنق الحياطة ، ويجبرها على ان تقول الحقيقة اذا هي ارادت أن لا تموت . فاذا بالمرأة المسكينة تعترف له بكل شيء ، ازاء هذا التهديد ، ثم تقوده الى حيث يرى السيدة . فاذا هي غير صوفيا . وشعر روبيان بنجمل من نفسه حين تاب الى رشده :

« لا ... لا ... يستحيل أن تكون هي . »

وارتدى صدرته ، ومضى يعقد ازرارها امام نافذة تطل على الفسحة الخلفية . كان عبود من النمل يمر في هذه اللحظة على قاعدة النافذة . وما اكثر ما رأى هذا المشهد من قبل . لكنه تناول في هذا اليوم منشقة ضرب بها النمل ضربتين من دون ان يدري لماذا ، فقتل منه عدداً كبيراً . لعل واحدة من النمل لاحت له « لاطويلة ولا قصيرة ، جميلة الجسم » . وما هي الا لحظة حتى ندم على ما بدر منه . ما شأن النمل وماهي علاقته بشكوكه ؟ ومن حسن الحظ ان زيزاً اخذ يغني في هذه اللحظة ، فجاء غناؤه موافقاً الى درجة جعلت صاحبنا يتوقف عن عقد ازرار صدرته ... زرزرز ف . ف . ف زرزرز ... ف . ف . ف . ف . ف

ايتها الطبيعة ، ما كان أعظم حكمتك ، وما كان اروع كرمك حين
وضعت زيزاً حياً الى جانب عشرين غلة ميتة ! تلك هي بلا ريب الفكرة التي
ستدور في ذهن القاريء ، ولكنها لم تدر في ذهن روبيان ، فمن لم يقدر في
يوم من الايام على تقريب الوقائع بعضها من بعض لاستخلاص النتائج منها ، فلن
يبدأ ذلك الآن بينا هو يكمل عقد ازرار صدرته ، فكيف به وهو لا يسمع
شئاً ولا ينتبه لشيء غير الزيز .. مسكين ايها النمل الميت ! عد الآن الى هوميرك
الغولي (الفرنسي) ، وناقشه الحساب . ان الزيز هو الذي يضحك الآن مصححاً الحكاية :
أكنت تسيرين ؟ اني سعيد بذاك فموتي اذن الآن !^(١)

٩١

ودق جرس الغداء في أثناء ذلك ، فاصطنع روبيان هيئة هادئة كل الهدوء
حتى لا يلاحظ مؤاكلوه شيئاً (ان له في كل يوم ضيوفاً أربعة أو خمسة) .
ووجد ضيوفه في الصالون يتحدثون وهم ينتظرونه . فلما دخل عليهم ، هبوا
واقفين ومضوا اليه يصفحونه في حرارة . وعندئذ استولت على روبيان رغبة
قوية عارمة في أن يعطيهم يده ليقبلوها . ولكنه أمسك الوقت المناسب ، دهشاً
هو نفسه من هذه الفكرة التي خطرت بباله .

٩٢

وفي المساء هرع الى فلامنجو . لم يستطع ان يتحدث الى ماريا بنديكتا
التي كانت في غرفتها فوق ، مع صديقتين لها هما فتاتان من الجيران . وقد
جاءت صوفيا تستقبله عند الباب ، فقادته الى غرفة صغيرة كان فيها خياطتان
تعدان ملابس الحداد . وكان كريستيانو قد وصل منذ هنية ، ولكنه لم
ينزل بعد .

(١) بالفرنسية في الأصل ، والاشارة هنا الى حكاية الصرار والنملة للشاعر الفرنسي لافوتين
الذي جعل النملة تشمت بالصرار .

قالت له صوفيا :

- اجلس هنا .

وجلست معه . لقد كانت رائعة في ذلك المساء ! ان كلماتها التي تتخللها ابتسامة ودية عفة ، كانت رصينة ورقيقة معاً . حدثته عن خالتها وابنة خالتها ، وعن الجو والخدم والحفلات ، وعن نقصان الماء ، وعن طائفة كبيرة من الامور كانت تكتسي في فمها قيمة عظيمة سواء أكانت في حد ذاتها تافهة أم لا . وكان روبيان يصغي اليها مسحوراً . ومن أجل أن تشغل نفسها كانت تخطط في الوقت نفسه بعض الستائر ، وكلما حانت لحظة من صمت التهم روبيان بعينه يديها الرشيقتين اللتين تبدوان كأنهما تلعبان بالابرة لعباً .

سألته صوفيا :

- هل تعلم أنني بسبيل تشكيل لجنة من السيدات ؟

- اجعل ذلك . وما غاية هذه اللجنة ؟

- ألم تسمع نبأ ذلك الوباء الذي اجتاح مدينة بولاية آلاجواس ؟

أجابته بذلك ثم ذكرت أنها قد بلغت من الحزن لهذا الامر درجة قررت معها على الفور ان تنظم جمعية من السيدات لجمع التبرعات . وقد جاء موت خالتها فقطع المساعي الاولى التي بذلتها في هذا السبيل ، ولكنها ستستأنف العمل فور الانتهاء من القداس التذكاري الذي سيتم في نهاية الأسبوع الاول من الحداد . وسألته رأيه في الامر . فقال :

- يخيل اليّ ان الفكرة جيدة جداً . أليس في اللجنة رجال ؟

- بل سيدات فقط .

ثم ختمت كلامها بقولها ضاحكة :

- الرجال يقدمون مالاً .

وسرعان ما قرر روبيان بينه وبين نفسه أن يكتب بمبلغ كبير حتى يحض أولئك الذين يكتبون بعده على أن يكونوا أسخياء . لان كل ما قصته صوفيا

كان هو الحقيقة بعينها . ولكن من المؤكد أيضاً ان انشاء اللجنة سيذيع صيتها
وسيساعدها على الارتقاء درجة في سلم المجتمع . ومن أجل ذلك كان السيدات التي
اختارتهن أعضاء في اللجنة لا ينتهين الى الحلقة المألوفة من صلات صوفيا . حتى انه
لم يكن بينهم إلا واحدة اعتادت أن تهييها . وبوساطة أرملة لمع نجمها في المجتمع
فيما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٠ ، فاحتفظت برهافة ذلك العهد والحين اليه ، ظفرت
صوفيا باشتراك جميع أولئك السيدات في عملها الخيري واصبحت منذ ذلك الحين
لا تستطيع أن تفكر في أمر غير هذا الامر . فاذا بدت في بعض الاحيان
نائمة على كرسيها الهزاز عند المساء ، لم تكن في حقيقة الامر نائمة ، وانما هي
قد أغضت عينها لتزداد قدرة على تخيل نفسها بين رفيقاتها في اللجنة . وهن جميعاً
من عيون السيدات . فمن السهل على القارئ والحالة هذه أن يفهم السبب الذي
من أجله كان هذا الموضوع مركز الحديث بين صوفيا وروبيان . ومع ذلك
كانت صوفيا تهتم بصديقها من حين الى حين . فتسأله عن معنى هذه الغيبات الطويلة ؟
كيف تنقضي ثمانية ايام ، وعشرة ايام ، وخمسة عشر يوماً ، واكثر من ذلك
في بعض الاحيان ، من دون أن يزورها ؟ وقد اجابها روبيان بأن عليها أن
لا تتصور وراء غيابه سبباً خاصاً ، ولكنه حين قال ذلك ظهر عليه من شدة
الانفعال مما جعل احدي الحياطين تلكز الاخرى بقدمها . ومنذ تلك اللحظة
أصبحت هاتان المرأتان - حتى حين يسود الصمت لحظة ويتخلل تلك اللحظة رنين
الابر وصرير المقصات وحفيف قطع القماش الذي يمزق - لا تحولان بصرهما عن
صاحبنا الذي كان لا ينفك من جهته عن التحديق الى ربة البيت في عناد .
وفي أثناء ذلك جاء من يقول ان هناك شخصاً قدم معزياً وهو رجل
يعمل مديراً لأحد المصارف . وقد أبلغ باليا نبأ قدمه ، فنزل يستقبله .
واستأذنت صوفيا صاحبها بالغياب عنه بضع لحظات ، ومضت الى ماريا بنديكتا .

٩٣

حين بقي روبيان مع المرأتين اخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ولكن من

دون أن يحدث كبير ضجة ، حتى لا يزعج أحدا . إن بعض عبارات باليا كانت تصل إلى الصالون : « على كل حال ، في وسعكم ان تنقوا... » ، « ليست ادارة المصارف لعبة من لعب الاطفال ... » ، وكان مدير البنك لا يقول كبير شيء ، وانما كان يتكلم بلهجة جافة وصوت خافت .

وها هي ذي احدى الحياطين تطوي الثوب الذي بين يديها ، وترتب قطع القماش والمقصات وبكرات الحيطان في تعجل شديد ، قائلة قد تأخر وانها ذاهبة .
- انتظري دقيقة يا دوندون . أنا أيضاً ذاهبة .

- لا ... لا ... لا أستطيع . كم الساعة ياسيدي ، من فضلك ؟
اجابها روبيان :

- الثامنة والنصف .

- رباه كم تأخرت !

ولكي يقول روبيان شيئاً ما سألها لماذا لا تنتظر قليلا كما تطلب اليها رفيقتها فأجابته في احترام :

- لا انتظر الا دونا صوفيا . ألا تعرف أين تسكن ؟ انها تسكن في شارع ياسيو . أما أنا فيجب أن اسير حتى شارع الهارموني . والطريق من هنا إلى هناك طويلة .

٩٤

وما هي الا لحظة حتى نزلت صوفيا ، فاذا هي تجد روبيان قد تبدل تبديلاً كاملاً واصبح زائع النظر فسألته عما به ، فأجابها بأن شيئاً من الصداع قد ألم به ولا شيء غير ذلك . ومضت دوندون . واستأذن مدير المصرف بالانصراف ، فشكر له باليا لطفه ، وقال ان زيارته شرف عظيم له . أين هي قبعته ؟ ووجد القبعة . واعطاه المعطف كذلك . واذا بدا على المدير أنه ما يزال يبحث عن شيء ما ، سأله كريستيانو أي العصا ؟ فاجابه المدير :
- لا ياسيدي . هي المظلة . أظنها هذه . نعم هي هذه . إلى اللقاء .

فقال له باليا :

- أكرر شكري . شكراً جزيلاً . ضع قبعتك ، فالجو رطب ، وليس
بيننا تكلف . شكراً . شكراً جزيلاً .

قال ذلك وهو ينحني نصفين ، ويصافح يده بكلتا يديه .
فلما عاد الى داخل البيت هبط الى شريكه الذي كان يصر على الانصراف .
فانضم الى صوفيا يسأله أن يمكث قليلاً ، ونصحه أن يجتسي قدحاً من الشاي ،
فيشفي من الصداع فوراً . ولكن روبيان رفض . قالت له المرأة الشابة
وهي تصافحه :

- ان بك برودة كبيرة كهودة الثلج ، فلماذا لا تنتظر قليلاً . لا شيء
انفع من ماء المليسة ، سأتيك بشيء منه .
فاوقفها روبيان قائلاً لا داعي إلى ذلك ، فهو يعرف هذا النوع من التوعك
وليس يذهب الا النوم . وأراد باليا أن يرسل من يحضر له عربة . لكن
روبيان أجابه بان هواء الليل قد ينفعه ، وانه واجد عربات عند « الكاتيني »
على كل حال .

٩٥

« سوف ادركها قبل الكاتيني » . كذلك قال روبيان لنفسه وهو يصعد
شارع « البرنس » .

لقد قدر أن الخياطة سلكت هذا الطريق . ولمح بعض القامات في كل جهة
من جهات الشارع من بعيد . وبدا له أن احداها قامة امرأة . فقال لنفسه .
« لاشك أنها هي » ، وأخذ في السير . لقد كان مضطرباً أشد الاضطراب ،
كما تقدرين ذلك : شارع الهارموني ، خياطة ، سيدة ، أبواب تفتح ثم تغلق .
فليس يدهشنا ، والحالة هذه ، أن نراه يصد في تعجله سيداً كان يمشي الهويناً
خافض الرأس . لقد صدم الرجل ، حتى أنه لم يعتذر اليه ، بل اسرع مزيداً
من الاسراع اذا رأى المرأة تسير هي أيضاً سيراً سريعاً جداً .

ان الرجل الذي صدمه روبيان لم يكذب يلحظ ذلك . لقد كان يسير غارقاً في افكاره ، لكنه معتبط منشرح الصدر خالي البال من كل هم ومن كل قلق . انه مدير المصرف الذي زار باليا معزيا . لقد شعر بالصدمة ، لكنه لم يجفل بها قط ، بل سوّمى معطفه ، وعاد الى تفكيره ، وتابع طريقه هادئاً .

ويحسن ان نذكر في تعليل عدم اكترائه بالصدمة أنه قد عانى خلال ساعة واحدة من هذا اليوم ألوانا من الانفعال متعارضة اشد التعارض . لقد ذهب أول الأمر الى بيت وزير من الوزراء يلتمس منه لاحد اخوته امرأ من الامور . وكان الوزير قد فرغ من غدائه فجلس يدخن هادئاً لا ينبس بكلمة . فعرض عليه مدير المصرف الامر عرضاً مضطرباً أشد الاضطراب مكرراً ومعيداً قوله ومغفلاً بعض الأشياء منتقلاً من جملة الى أخرى بغير صلة ظاهرة ، ومن أجل أن يكون في وضعه مايدل على الاحتشام والتوقير ، جلس جلسة غير مريحة ، وقد مهدت شفتاه تبسماً في احترام ، وراح يصطنع التحيات تلو التحيات في خضوع ومذلة ويعتذر . وقد طرح عليه الوزير عندئذ بعض الأسئلة ، فأجاب اجابة طويلة بل اجابة مسرفة في الطول ، وأنهى كلامه بتسليم الوزير مذكرة في الأمر . ثم نهض ، وشكر ، وصافح الوزير ، ومشى ، فشيعة الوزير حتى الشرفة ، وهناك انحنى مرتين ، مرة بعلم ووعي وذلك في أعلى السلم ، ومرة بغير وعي وذلك في الحديقة تحت ، حيث لم يجد أمامه وزيراً بل باباً من زجاج ومصباحاً للشرفة . ولم يلبث أن دس رأسه في قبعته ومضى . لقد خرج عندئذ شاعراً بالمذلة حانقاً على نفسه ، لا لعدم بلوغه غايته فصعب ، بل لما اضطر الى اصطناعه من مجاملات ، والى تقديمه من اعتذارات ، والى اتخاذه من وضع مبهين ، ولسائر تلك السلسلة من أعمال التذلل التي قام بها دون أن يجني منها في آخر الأمر الى أي ثمرة . وعلى هذه الحال من الشعور اتنا وصل الى بيت باليا .

لكن نفسه استردت هدوؤها خلال عشر دقائق ، نتيجة لتحيات الاحترام التي

غمره بها رب البيت ، ولدابه على مز رأسه تأييداً ، ولتبسبه الدائم ، ناهيك عن الشاي ولقائف السيجار التي قدمها اليه . لقد اصطنع المدير عندئذ القسوة والاستعلاء والترفع ، ولم ينبس ببنت شفة ، حتى لقد كشر أنفه احتقاراً حين عرض عليه باليا رأياً من الآراء ، فأسرع هذا مسلماً بسخافة الفكرة التي دارت في خلداه . وقد قلد المدير الحركات البطيئة التي رآها في الوزير ، حتى اذا انصرف كان رب البيت لا مدير المصرف هو الذي ينحني الخناء قوياً .

فلما صار في الشارع كان قد تبدل رجلاً آخر . فهذا هو السبب في مشيته الهادئة التي تفيض ثقة ، وفيما يرين على قلبه من طمأنينة ، حتى تلقى صدمة روبيان في غير مبالاة . كان وهو يتذوق مذلة كركستيانو أمامه ، ينسى شيئاً بعد شيء مذلة أمام الوزير .

حين وصل روبيان الى «الكاتيتي» كانت الحياطة تتحدث مع رجل ينتظرها هنالك ، ثم لم يلبث الاثنان أن مضيا معاً الى جهة جلوريا ، وقد تشابكت ذراعاهما كأنهما زوج وزوجة . أهما متزوجان ؟ أم هما صديقان لا أكثر ؟ وغابا عن نظر روبيان عند أول عطفة . قتلبت روبيان بالمكان ساكننا لا يتحرك وهو يتذكر مرة اخرى اقوال الحوذني ، والباب ، والشاب ذا الشاربين ، والسيدة الجميلة القوام ، وشارع الهارموني ... شارع الهارموني ... نعم لقد قالت : شارع الهارموني ...

وقد اضطجع روبيان متأخراً ، بعد أن لبث واقفاً على النافذة مدة طويلة ، والسيجار بين شفقيه ، وهو غارق في تأمل لانهاية له ، يحاول أن يعيد تعليلاً لهذا الامر كله . لاشك أن دوندون هي الشخص الثالث في قصة الحب هذه ، لا يمكن أن يكون الامر غير ذلك . لقد كان في نظرتها تكتم ونخف . كذلك فكر روبيان .

سأعود غدا ، سأبكر في الخروج من البيت فانتظرها عند ناصية الشارع . سوف أعطيها مائة الف قرش ، مائتي ألف ، خمسمائة الف ... لكنها ستعترف بكل شيء .

فلما بلغ منه التعب مبلغه ، نظر إلى السماء . هذا هو صليب الجنوب ..
آه ... ليتما وافقت على أن تنظر معه إلى صليب الجنوب . اذن لتغير كل شيء
بالنسبة إلى الاثنين كليهما . ولاح له ان مواكب النجوم تؤيد ماذهب إليه ظنه فهي
تلتصع التماعاً غير مألوف . واخذ روبيان يتأملها وهو يتخيل ألف مشهد ومشهد
من مشاهد الحب - حالماً بما كان يمكن أن يقع . حتى اذا سم قلبه هذا الغرام
الرومي ، تصور فجأة أن صليب الجنوب ليس كوكباً فحسب ، وانما هو كذلك
وسام شرف (١) .

وسارت أفكاره عندئذ في طريق اخرى . إن اتخاذ صليب الجنوب وساما
قومياً يسعى إليه الناس هذا السعي كله فكرة عبقرية . وتذكر انه رآه
قبل ذلك على صدور من خدموا الدولة . انه لزينة جميلة ، زينة نادرة بوجه خاص .
وهنف يقول :

- عظيم .

وكانت الساعة تشارف الثانية حين ترك النافذة . اغلق النافذة ومضى يرقد
في سريره . ولم يلبث أن نام . واستيقظ في الغداة على صوت الخادم الاسباني
يحمل إليه رسالة .

٩٨

استيقظ روبيان منتفضاً ، وجلس في سريره دون أن ينتبه للخط الذي على
الظرف ، وفض البطاقة وقرأ :

« قلقنا امس أشد القلق بعد ذهابك . لا يستطيع كرسنيانو أن يعودك الآن ،
لأنه صحا من نومه متأخراً ، وعليه أن يذهب إلى مفتش الجمرك . طمئنا عن
صحتك . تحيات ماريا بنديكتا وتحيات .

صديقتك الشاكرة

« صوفيا »

(١) هو الجوق الامبراطوري للكروزيرو (صليب الجنوب) .

– قل لحامل الرسالة ان ينتظر .

وبعد عشرين دقيقة اعطى العبد الذي حمل الرسالة جوابها . أن روبيان هو الذي اعطاه الجواب . وسأله عن صحة السيدتين ، فقال له انها بخير ؛ فناوله بضعة نقود قائلاً له : اذا احتاج يوماً إلى شيء من المال فما عليه الا ان يجيئه في المساء ، فدهش الصبي وحملني ، ووعد روبيان بتنفيذ كل ما يريد منه . قال له روبيان في حنان :

– الى اللقاء .

ولبت ساكناً بينما أخذ حامل الرسالة يهبط درجات المدخل ، حتى اذا أوسك أن يجتاز الحديقة كلها سمع صوتاً يصبح به :

– انتظر .

فعاد ادراجه ليجيب النداء . وكان روبيان قد هبط الدرجات من جهته ، فانجه الشخصان كل منها نحو الآخر ، فلما التقيا توقفا دون ان يقول أحد منها شيئاً . وانقضت دقيقتان طويلتان لم يفتح روبيان خلاهما فمه . وأخيراً لم يزد على ان سأله عن صحة السيدتين ، وهو السؤال الذي طرحه عليه منذ هنيهة ، فلم يكن على الصبي إلا أن يؤكد له ما قاله من قبل .

وأجال روبيان طرفه في الحديقة . ان الورد وازهار المرجريت تقيض جمالاً ونضارة ، وأن القرنفل قد اخذت تتفتح أكمامه . وثة ازهار اخرى ، ثمة بنفسج ونباتات متسلقة ، فكان هذا العالم الصغير كله يجذب إلى روبيان بعين خفية صائحاً به :

– أيها القلب المريض ... اطفئ نار رغبتك ... اطفئنا وأرسلنا ...
قال روبيان :

– طيب . بلغ السيدتين تحياتي . ولا تنس ماقلته لك . اذا احتجت الي يه
فانت إلى هنا . ألم تضيع الرسالة ؟
– لا ... لا ... هي ذي ياسيدي .

- خير لك أن تضعها في جيبك ، ولكن حاذر ان تدعكها !
قال الصبي وهو يرتب الرسالة :
- لن ادعكها ياسيدي . لا تخف .

٩٩

خرج الصبي . وظل روبيان يتجول في الحديقة ، واضعاً يديه في جيب ثوبه .
انه ينظر إلى الازهار . أي خير في ان يبعث ببعضها ؟ هي هدية معتادة ، لا
بل هي هدية يكاد يكون ملزماً باهدائها . اما ينبغي له أن يرد اللطف بمثله ؟
لقد أخطأ اذ امتنع عن ارسال بعض الازهار . وهرع الى الباب ، لكن الصبي
كان قد بعد . وخطر ببال روبيان عندئذ ان ظروف الحداد تستبعد هذا النوع من
الهدايا ، فهدأت هذه الفكرة خاطره .

واستأنف تجواله في الحديقة ، فاذا هو يرى على الارض رسالة قرب صخرة ،
فانحنى وتناول الرسالة ونظر في العنوان ... انه « خطها » ، انه ذلك الخط
الفرديد الذي لا يكتب مثله غيرها . ومن أجل أن يزداد يقيناً قارنه بخط البطاقة
التي تلقاها منذ قليل . خط واحد بعينه . اما اسم المرسل اليه فليس الا اسم الشيطان :
كارلوس ماريا .

قال لنفسه بعد بضع دقائق : « حقاً . ان الصبي الذي حمل الرسالة الي كان يحمل
هذه الرسالة ايضاً . وسقطت منه » .

وبعد ان قلب الرسالة على جميع وجوها تساءل ماعسى ان يكون
مضمونها . آه ... مضمونها . ماعسى أن يكون المكتوب في باطن هذه
الورقة المجرمة ؟

هو الفسق والعهر ، وربما لغة الاثم والجنون كلها ملخصة في بضعة اسطر .
ونظر إلى الرسالة في الضوء ليرى هل يستطيع أن يقرأ منها كلمة أو كلمتين ،
لكن الورق كثيف ، ولا يمكن ان يشف عن شيء ، فلما خطر بباله على حين

فجأة ان حامل الرسالة قد يدرك بعد قليل انه فقد الرسالة فيعود ادواجه باحثاً عنها ، اسرع يضعها في جيبه وهرع الى البيت .

حتى اذا دخل اخرجها وعاد يتأملها . ان يديه تترددان مترجحتين ترجح ضميره . انه اذا فض الرسالة عرف كل شيء . واذا قرأها ثم احرقها لم يطلع احد على نصها ، واستطاع هو ان يستقر على حال بدلاً من ان يظل قلقاً امام هذا الركام من القطاعات ... وليست الالفاظ من اختراعي اياها القاريء الصديق ، وانما هي ألفاظه بعينها . فهو الذي كان يطلق هذه الشتام ويطلق غيرها أيضاً ، بينما هو جالس في وسط الصالون ساكناً محققاً الى السجادة التي تمثل رجلاً تركياً مسترخياً واضعاً غليونه في فمه ومسرحاً بصره التائه نحو البوسفور ... نعم ، لاشك أنه البوسفور ...

— يا الرسالة الملعونة !

كذلك همهم يقول بصوت أصم ، مردداً عبارة سمعها قبل بضعة أسابيع في المسرح . ان هذه الجملة الصغيرة التي كان قد نسبها الى تلك اللحظة ، تعبر وحدها عن التشابه الروحي بين المشهد والمشاهد .

وتضاعفت رغبته في فض الرسالة . ليس عليه من أجل ذلك الا أن يقوم بحركة يسيرة . مامن أحد يستطيع أن يراه ، فاللوحات المعلقة في الحائط هادئة لاتبالي ، والتركي الذي تمثله في السجاد ما يزال يدخن وينظر الى البوسفور . لكن صاحبنا ظل مع ذلك يشعر بوسواس تردعه عن فض الرسالة . صحيح انه وجد الرسالة في حديقته ، لكن الرسالة ليست له ، وانما هي للشخص الآخر . انما أشبهه بما ل وقع بين يديه ، أفليس من واجبه أن يرد المال الى صاحبه ؟ واعاد الرسالة الى جيبه وهو يحس بالحسرة . وتساءل هل يبعث الرسالة الى الشخص الموجهة اليه أم يردها الى صوفيا ؟ ثم استقر رأيه أخيراً على الحل الثاني ، لأنه ربما أتاح له أن يقرأ الحقيقة في وجه المرأة الشابة . قال لنفسه . « سأقول لها انني وجدت رسالة ، وقبل أن أعطيها اياها سأرى في وجهها أهى خائفة أم لا . أتراها يشحب لونها؟

سأهددها عندئذ ، وسأحدثها عن شارع الهارموني . وسأحلف لها أنني على استعداد لأن أنفق ثلاثمائة قونت ، بل ثمانمائة ، بل ألفاً ، بل الفين ، بل ثلاثة آلاف إذا اقتضى الامر ، من أجل خنق هذا الشخص الحقير

١٠٠

لم يصل أحد من رواد البيت لتناول طعام الغداء . انتظر روبيان نحو عشر دقائق ، حتى لقد أرسل خادماً إلى الباب يرى هل ظهر أحد . لم يظهر أحد . . . فكان لابد له من أن يعزم على تناول طعامه وحده .

كان روبيان ، بوجه عام ، لا يطيق وجبات الطعام من غير ضيوف . لقد بلغ من تعوده حديث أصدقائه وملاحظاتهم ونكاتهم وكذلك ما كانوا يجيئون به من مظاهر الاحترام ، انه اذا طعم وحده فكأنه لم يطعم شيئاً . لكنه كان في ذلك اليوم أشبه بشاؤول ينتظر داوداً قادراً على أن يطرد الروح الحبيث الذي تسلط عليه . حتى لقد أمسى بتمتلاً حقداً على حامل الرسالة الذي تركها تسقط منه . لقد كان من الافضل له ان يجهل كل شيء . ثم أخذ يتردد مرة اخرى . هل يرد الرسالة ؟ أم يحتفظ بها الى غير ميعاد ؟ كان روبيان يخشى أن يعلم . فهو قارة يعدل عن ذلك ولا يريد . ويمكن أن نقول ان رغبته في المعرفة لم تكن في آخر الأمر الا الأمل في ان يكشف ان ليس ثمة شيء .

وظهر داود اخيراً ، بين تناول الجبن وشرب القهوة ، ظهر في صورة الدكتور كاماشو ، الذي رجع من فاسوراس في الليلة البارحة . وكداود الذي حدثت عنه التوراة ، كان مع الدكتور كاماشو حمار محمل خبزاً ، وجرة خمر ، وما عز . لقد ترك أحد النواب ميناس مريضاً خطيراً ، وبدأ يعد العدة لترشيح روبيان بالكتابة الى مختلف شخصيات تلك الولاية . ذلك ماقصه على روبيان منذ اولى جرعات القهوة .

- أنا ارشح ؟
- إذا لم ترشح أنت ، فمن عسى يرشح ؟
وأوضح له كاماشو انه لا يمكن ان يكون هنالك من يفضله مرشحاً . ألم
يقدم خدمات كبيرة حين كان ميناوس ؟
- بعض الخدمات ، نعم .

- اما الخدمات التي قدمتها هنا فلها شأن كبير خاص . ألم تساعدني في
دعم الجريدة التي تنطق بلسان المباديء ؟ ألم تتلق معي الضربات التي كملت لي ،
ناهيك عن التضحيات التي نقوم بها جميعاً من الناحية المالية ؟ لقد تم الامور ،
وليس لك ان تحتج . سأعمل كل ما في وسعي من اجلك . ذلك كل ما أريد
ان أقوله لك . ثم انك بذلك تحل خلافنا .
- أي خلاف ؟

- الخلاف الذي قد يحدث بين الدكتور هرمنجلدو ، من كاتاس التاس ،
والكولونيل روموالد ، اذ يقال أنها كليهما سيرشحان نفسيهما إذا شعر مكان ،
ومن شأن هذا أن يشتم أصوات الناخبين .
- طبعاً . ولكن ماذا اذا أصرا

- اعتقد أنها لن بصراحين أجعل زعماء الحزب يؤكدون لها هذا القرار ؛
ذلك أن من الاشياء التي رموني بها ، أنني لست مفوضاً لحسم الامر ، فاعترفت
بأن هذا صحيح في هذه الحالة التي لم تكن في الحسبان ، ولكنني أضفت أنني
أتمتع بثقة زعمائي كاملة ، وأن زعمائي سيؤيدونني ولا ويب . عليك أن تعد الامر
منتهاياً . ماذا تظن ؟ أتظن أنني أبذل هنا كل ما أبذل من وقت ومال وموهبة
ثم لا أستطيع أن أستخدم صديقاً قدم كل هذه البراهين على اخلاصه للمباديء ؟
لا ... لا ... لا بد من أن يصغوا الي ويؤيدوا اقتراحي .

تأثر روبيان ، فطرح عدداً من الاسئلة عن الصراع الذي سيقوم ، وعن النصر
الذي سيعقب الصراع . هل من الضروري ان نقدر النفقات منذ الآن ؟ أترانا

في حاجة الى كتاب توصية؟ الى تقديم طلب؟ كيف يكون في وسعنا أن نطلع على حالة المريض؟ الخ... فأجاب كما مشو عن الاسئلة جميعها، ولكنه أوصى صاحبه كذلك بكثير من الحذر، قائلاً: رب أمر يسير في ميدان السياسة، يبدل مجرى حملة من الحملات ويكتب النصر للخصم. وهبك لم تخرج من المعركة منتصراً، فانك ستخرج منها راجحاً، لان اسمك سيسجل في الحوليات الانتخابية، وتلك سابقة لها قيمتها. وختم كلامه بقوله:

- عليك بالثبات والصبر.

ثم لم يلبث أن أضاف:

- وهل انا نفسي الا مثال للصبر والثبات؟ ان منطقتي واقعة بين أيدي طائفة من قطاع الطرق. نعم من قطاع الطرق، فليس لهؤلاء البديارو اسم غير هذا الاسم. واكثر من ذلك (أقول لك هذا على ألم وأرجو أن يظل سراً مكتوماً بيننا) ان لي اصدقاء يتآمرون علي، أناساً طامحين ليس لهم ضمير يردعهم، فهم يحاولون أن يخرجوني ليحلوا محلي... يالهم من أوغاد! آه يا عزيزي روبيان... ان سمكيات السياسة هذه تشبه عذاب سيدنا يسوع المسيح... ليس ينقصها شيء، لا التلميذ المرتد ولا التلميذ الخائن. تاج الشوك، والبصغات، وخشبة التعذيب، والنهاية هي الموت على صليب الافكار بسامير الحسد والغيبة ونكران الجميل...

وهذه العبارة التي وافت قريحته من حرارة الحديث، لاحت جديرة بأن يكتب فيها مقالا، فثبتها في ذاكرته، ثم سجلها بعد ذلك على قطعة من الورق قبل أن يأوي الى فراشه. لكن في تلك اللحظة، بينما كان يردد هذه العبارة في ذهنه ليثبتها في ذاكرته، قال له روبيان ان ذلك لحظة من انفعال عصبي لا أكثر، وان عهده به انه قادر دائماً على المشروع في أعمال كبيرة... وما ينبغي له أن يخشى هؤلاء المنافقين.

- أخشى هؤلاء المنافقين؟ طبعاً لا... اني امرؤ لا يخلف حتى الغيلان

ان كان لغيلان وجود . انى اقف لهم بقدم ثابتة . وليحذروا منا حين نصل الى الحكم . لسوف يدفعون الثمن يومئذ غالباً . اسمع ما أقوله لك . فى السياسة لاشيء يقتفر ولا شيء ينسى . ما يفعله المرء يدفع ثمنه .

ثم أردف يقول وهو يبتسم :

- صدقنى ان الانتقام لذة ... لذة رائعة . اذا حسبنا حسنات السياسة وسيئاتها غلبت الحسنات السيئات آخر الامر . صحيح ان هناك أناساً ينكرون الجميل ، ولكن المرء يستطيع ان يعاقبهم : يعزلهم ، يسجنهم أو يطاردهم ..
وكان روبيان يصغى خاضعاً مفتوناً . ان احساساً بالقوة كان يشع من كاماشو ، وكانت عيناه تقدهان شرراً . وكانت اللعنات تنبجس من فمه كلعنات أشعيا ، حتى لكأن المرء يرى أكاليل النصر تتلأأ فوق جبينه منذ الآن . فكان كل إشارة من إشارات رمز . وكأنه وهو يفتح ذراعيه بجرعة متعاطمة ، يعرض برنامجاً بكامله . كان يسكر أملاً .. وكان فى سكره فرح . وفى لحظة من اللحظات وقف أمام روبيان وقال :

- اسمع ايها النائب العزيز . حاول أن تلقي خطاباً تطلب فيه إغلاق باب المناقشة . « سيدي الرئيس .. » هيا ردد معي « سيدي الرئيس ، ابيح للناس أن أطلب اليكم .. »

فقاطعه روبيان بنهوضه على حين فجأة . لقد عراه نوع من الدوار . وها هو ذا يرى نفسه داخلاً على مجلس النواب لاداء القسم والنواب قيام . ان رعدة تسري فى جسمه . ومشيته مترددة . لكنه يجتاز القاعة رغم كل شيء ، ويصعد سدة الرئاسة ، ويحلف اليمين التقليدية . لعل صوته كان يرتجف قليلاً فى تلك اللحظة ..

١٠١

كان روبيان على تلك الحالة النفسية حين نعي اليه فريتاس . فسكب دموعه ، خلسة . وتكفل بنفقات الدفن . وفى الاصيل من الغداة شيع الراحل الى المقبرة وقد أرادت أم صديقه حين رأته يدخل الصالون ، ان تركع عند قدميه .

لكن روبيان شدها إليه من ذراعين في الوقت المناسب فحال بينها وبين الركوع ، فكان لهذه الحركة من بطلنا وقع كبير في نفوس الحاضرين جميعاً . وجاءه أحدهم فصافحه ، ثم قاده الى ركن من الاركان ، وأخذ يروي له بصوت خافت كيف أنه صرف من الخدمة منذ بضعة أيام بغير حق .. عمل ظالم مرده الى المؤامرات ...

- انظر ... هو وكر أوباش . واعدوني إذا استعملت هذه اللفظة . وحانت ساعة الجنازة . فأخذت الأم تودع فقيدها وداعاً يمزق القلب . قبلات وانتحابات وصيحات .. كل ذلك في آن واحد معاً . ولم تستطع النساء أن تنتزعها من هناك . فالتجأت الى رجلين ، واضطر الرجلان الى استعمال القوة . كانت تصرخ وتصر على أن تعود الى جثان أبنها : ابني ، ابني المسكين .

وتابع الرجل المصروف من الخدمة يقول :

- هذه فضيحة . ويظهر أن هذا العمل لم يرض عنه الوزير . ولكنك تعرف كيف تجري الامور ، فمن أجل أن لا يزعل المدير ...

- بم بم بم ...

كذلك كانت تدوي أصوات المطارق حين أخذوا يسرون التابوت . واستجاب روبيان للطلب الذي تقدموا به إليه وهو أن يمسك أحد حبال الغطاء الذي يغطي التابوت ، فترك الرجل المصروف من الخدمة لشأنه . وكان هنالك في الخارج عدد من المتسكمين المتفرجين . وعلى النوافذ جيران يحنون على الشارع بعضهم فوق بعض ، وقد امتلأت أعينهم بذلك الفضول الذي يوقظه الموت في نفوس الأحياء . ويجب أن نذكر أنه كانت هنالك ايضاً « مركبة » روبيان الفضة التي تختلف كل الاختلاف عن العربات الاخرى . لقد كان الناس يتحدثون من قبل عن هذا الصديق ، صديق المتوفى ، فجاء حضوره الآن مصدقاً لما كان يدور على اللسن من شائعات . واصبح الراحل محاطاً بشيء من الاعتبار . وفي المقبرة لم يكتب روبيان بان يهيل على التابوت أول حفنة من التراب ،

استجابة لرجاء جميع الناس ، وانما لبث بعد ذلك منتظرا الى أن انتهى الحفارون من ردم الحفرة بمجارفهم الكثيرة ردماً تاماً . وكانت عيناه مخصلتين . حتى إذا انتهى كل شيء ، مضى وقد أحاط به سائر الحاضرين . وعند باب المقبرة مد قبعته بجرعة واسعة ذات اليمين وذات الشمال ، محيياً جميع الرؤوس المكشوفة المطأطة . ولما صعد في مركبته ، سمع هذه الكلمات تقال بصوت خافت :

— يظهر أنه عضو بمجلس الشيوخ ، أو قاض من قضاة محكمة الاستئناف ، أو شيء من هذا القبيل .

لقد هبط الليل بينما كان روبيان راجعاً الى بيته يفكر في ذلك المسكين الذي دفنه مثل قليل . وها هو ذا يلتقي في شارع سان كريستافون ، بركبة اخرى . يتبعها جنديان على صهوتي جواديهما . تحمل هو أحد الوزراء في طريقه الى مقابلة الامبراطور . مد روبيان رأسه من باب العربة ، ثم أدخله ، ولبت لحظة يصغي الى وقع خطوات الجوادين . انها خطوات موقعة واضحة كل الوضوح رغم الضجة الناشئة عن وقع حوافر الخيول الاخرى . وبلغ تنبه ذهن صاحبا من القوة . أنه ظل يسمع وقع هذه الخطوات رغم أن المسافة بينه وبين الموكب قد أصبحت اكبر من ان يصل اليه الصوت في الواقع ... تك ... تك ... تك ...

١٠٣

بعد وفاة دونا ماريا أوجوستا بأسبوع أقيم لها القداس التذكري المقتاد في كنيسة سان فرنسيسكو دوباولا . وقد حضر روبيان القداس ، ورأى هنالك ماريا . ولم يكن في حاجة الى اكثر من ذلك حتى يستعجل الرسالة . فما هي الا ثلاثة أيام حتى وضع الرسالة في جيبه وهرع الى فلاننجو . كانت الساعة الثانية بعد الظهر . لقد ذهبت ماريا بنديكتا ترد الزيارة للجيران الذين واسوها في خلال الايام الاولى من حزنها . وصوفيا وحيدة في البيت تم أن تخرج .

قالت له وهي تدعوه الى الجلوس :

- لا بأس ، سأبقى ، أو أخرج فيما بعد .
فأجابها روبيان أنه لن يؤخرها كثيراً ، وأنه لم يجيء إلا ليرد إليها ورقة .
- اجلس على كل حال . في وضع المرء أن يرد ورقة وهو جالس .
كانت صوفيا من الجمال بحيث تردد روبيان في أن يقول لها الكلمات القاسية التي هيأها . كانت رائعة في ملابس الحداد كأن توبها قالب احاط بجسمها احاطة القفاز الاسود باليد . انها الآن جالسة ، ويمكن أن يري المرء قدميها وحذاءها الصغيرين المسطحين وجوربيها الحريريين ، وهي كلها أشياء تطلب العفو والرحمة ، أما السيف الذي في داخل الغمد - وهذا هو التعبير الذي استعمله كاتب قديم في وصف النفس - فكان يبدو عاجزاً كل العجز عن أن يخرج أي انسان . بالعكس .. بل كان يبدو نقياً نقاء البلور . وأوشك روبيان أن يضعف لكن الكلمات الاولى التي فاه بها لا تسمح له بالتراجع .

قالت صوفيا :

- ما هي الورقة ؟

فاجابها متجلداً :

- هي ورقة أظنها خطيرة . ألا تتذكرين أو تعلمين أنك أضعت رسالة ؟
- لا .

- هل تكتبين رسائل في كثير من الاحيان ؟

- في بعض الاحيان . ولكنني لا أتذكر أنني كتبت شيئاً على جانب

كبير من الخطورة . أرنى .

كانت عينا روبيان تائهتين . فلم يقل شيئاً ولم يفعل شيئاً . ونهض كمن يريد أن يخرج . ولكنه لم يخرج . وبعد بضع لحظات من الصمت والقلق أردف يقول في غير غضب :

- ليس سرّاً لديك أنني احبك . انت تعرفين ذلك ولا تطرديني ولكنك

في الوقت نفسه لا تستجيبين لعواطفني ، وتكتفين باثارتني بهذا الموقف الذي

تلقينه مني . لم أنس بعد سهرتنا في سانتايريزا ، ولا رحلتنا في القطار حين كنا جالسين نحن الاثنين وبيننا زوجك . أتذكرين ؟ انت تلك الرحلة قد سببت شقائي . فمذ ذلك اليوم سلبت قلبي . أنت خبيثة . انت كأفمي . ماذا صنعت لك ؟ أما أن لا تحبيني فذلك أمر أقبله ، ولكن لماذا لم تزيجي عن عيني غشاوة الضلال فوراً .

قاطعته صوفيا تقول وهي تنهض وتنظر الى جهة الباب :

- اسكت . هذا شخص قادم .

ولم يصل أحد . لكن كان يمكن أن يسمع كلام روبيان ، لأن روبيان كان يزداد حماسة أثناء حديثه وكان يرفع لهجته شيئاً بعد شيء . وها هو ذا يرفع صوته الآن اكثر من ذي قبل . انه لا يرافع الآن من أجل أن يربح قضية ، وإنما هو يفرغ ما في قلبه لا اكثر من ذلك ولا أقل . صاح يقول :

- لا يهيني أن يسمع كلامي احد . في وسع الناس أن يسمعوني . سأقول لك الآن كل ما بنفسي ، وستطرديني بعد ذلك وينتهي كل شيء . .. لا .. ليس يحق لاحد ان يعذب انسانا هذا التعذيب ..

- اسكت ، استحلفك بالرب .

- أي رب ؟ اصغي الى التتمة ، لانني قررت أن لا أبقي في نفسي شيئاً . واشتد قلق صوفيا ، وكانت تخشى حقاً أن يسمع احد الخدم كلام روبيان . فرفعت يدها وكمت بها فمه . فلما لامست هذه اليد المعبودة شفتيه عقل لسانه . فسحبت صوفيا يدها ونهيات للخروج من الصالون . ولكنها ما ان وصلت الى الباب حتى وقفت . وكان روبيان قد مضى الى النافذة ليروح عن نفسه ، ويسترد هدوءه .

١٠٤

لبث صوفيا تتنصت بضع ثوان ، ثم رجعت الى الصالون ، ومضت مع

شخصنة تنانيرها نجلس على اريكة (الاطلس) الازرق التي اشتروها منذ مدة قصيرة . والنفت روبيان فراها تهز رأسها هزة تأنيب . وقبل أن يفتح فاه بكلمة وضعت اصبعها على فمها متوسلة اليه أن يلزم الصمت ، ثم أرمأت اليه بيدها أن يقترب ، فأطاعها . قالت :

- اجلس .. اجلس على هذا الكرسي .

فلما جلس أردفت تقول :

- جميع الاسباب تدعوني الى أن اغضب منك ، لكنني لن أفعل ، لعلمي بانك طيب القلب ، ولانني ادرك أنك صادق . فاذا ندمت على ماقلته لي ، صفحت عنك .

قالت صوفيا ذلك وضربت بمروحتها الجهة اليمنى من ثوبها لتسوي ثنية من ثناباه ، وحركت أساورها البلورية السوداء ورفعت ذراعيها ثم تركتها تسقطان على ركبتيها ، وأخذت تنتظر جواب روبيان وهي تطوي مروحتها ثم تنشرها ، فاذا بروبيان يهز رأسه متمنعاً على خلاف ما كانت تتوقع . قال :

- لست أرى ما يوجب أن أندم ، وباني لأوثر أن لا تصفحي عني . ومهما يكن من أمر فلاني لن أنساك أبداً ، سئت ذلك أم لم تشائيه . في وسعي أن أكذب ، ولكن علام الكذب ؟ أنت التي لم تكوني صادقة ، أنت التي غرت بي ...

أنهضت صوفيا جذعها .

- ... لا تغضبي ... لست أريد أن أهينك ، ولكن اسمحي لي أن أقول لك أنك انت التي غرت بي في غير رحمة البتة . أن تحبي زوجك ، فهذا أمر أقبله ، وقد غفرت له لك . أما ان ...

قالت صوفيا مبهوتة :

- أما ماذا ؟

فوضع روبيان يده في جيبه فأخرج الرسالة ومددها إليها . فلما رأت صوفيا

امم كارلوس ماريا امتنع لوها أمتقاعاً شديداً . ولاحظ روبيان شحوبها ، لكنها ما لبثت أن سيطرت على نفسها ، وسألته ما معنى هذه الرسالة .

- هي رسالة منك .

- نعم هي مني .

وتابعت تقول في هدوء :

- ولكن ماذا أقول في هذه الرسالة ؟ ثم من أعطاك إياها ؟

وهم روبيان أن يشرح ، لكنه قدر أن ما قاله حتى الآن كاف ، فحيها لينصرف .

قالت صوفيا :

- من فضلك ... فض هذه الرسالة بنفسك .

- لم يبق لي هنا ما أعمله .

- لانهب ، فض الرسالة ، هذه هي . اقرأها كلها .

كذلك تابعت المرأة الشابة كلامها وهي تمسك به من كفه .

لكن روبيان شد ذراعه بعنفه ومضى يتناول قبعته ، ثم خرج . ولم تجرؤ

صوفيا ان تغادر الصالون ، خوفاً من الخدم .

١٠٥

خلال اللحظات الاولى التي اعقبت ذلك ، ظلت صوفيا في حالة عصبية لم تسمح لها حتى التفكير في الرسالة . واخيراً تنازلتها فقلبتها ثم قلبتها وهي لا تستطيع أن تحزر مضمونها . لكنها ، بعد ان استردت كل هدونها ، تذكرت شيئاً فشيئاً ان الرسالة تشتمل على منشور « لجنة الآلاجواس » ومزقت الظرف فاذا هو المنشور حقاً . ترى كيف وقعت هذه الورقة بين يديه ؟ ومن اين جاءت هذه الشكوك ؟ هل تصورها من تلقاء نفسه ، ام ان احداً صورها له ؟ هل هنالك سعايات ؟ ومضت الى الصبي الاسود الذي كلف حمل المنشور

الى كارلوس ماريا ، فسألك هل اوصل الرسالة ، ففرفت منه الحقيقة ، وهي انه حين وصل الى شارع الانقلايد ، لم يجد الرسالة في جيبه ، فكتم الامر عن سيدته خوفاً منها .

وعادت صوفيا الى الصالون وقد عدلت عن الخروج . ووضعت الرسالة والظرف ناحية من اجل ان تظهر روبيان عليها ، فيرى بام عينه أن ليس في الامر شيء . ثم خطر ببالها انه قد يحسب ان الورقة قد ابدلت ، فقدمت تقول : « لعنة الله » ، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً .

واخذ سيل من الذكريات يغزو ذهن صوفيا . وتسمرت امامها صورة كارلوس ماريا ، بعينه اللتين تشبهان عيني طيف ، محبوب ومكروه في آن واحد . وأرادت صوفيا ان تطرده ، لكنها لم تطفر بذلك ، فهو يرافقها عن يمينها وعن شمالها ولا يفقد شيئاً من رجولته القوية ، ولا من تعالیه الماكر . وهي تراه في بعض الاحيان منحنيا ينطق بتلك الكلمات التي سمعتها منه اثناء احدى حفلات الرقص ، تلك الكلمات التي سببت للمرأة الشابة ساعات طويلة من الارق واياما كثيرة من الامل ، ثم انتهت الى الضياع في غياب الوم . ان صوفيا لم تستطع ان تفهم في يوم على الايام اخفاق هذه المغامرة . ومع ذلك فقد كان يبدو أن كارلوس ماريا يجيها حقاً ، وما من أحد اكرهه على أن يكاشفها بعواطفه تلك المكاشفة الجريئة ، ولا على أن يقف تحت النافذة في ظلمة الليل ، كما ذكر لها ذلك . وتذكرت أيضاً اجتماعات اخرى به ، وكلمات عابرة مختلصة ، ونظرات حارة طويلة ، فلم تستطع أن تدرك كيف ان هذا الهوى العنيف كله لم يؤد في آخر الامر الى شيء . ربما كان السبب في ذلك أن الرجل لم يكن يحمل لها في يوم من الايام حباً ، وان الامر كله لا يعدو أن يكون عبثاً أو أن يكون وسيلة يتحقق بها كارلوس ماريا ماله على النساء من سلطان الاغراء . انه لم يكن الا رجلاً مغروراً بنفسه ، وانساناً مستهتراً تافهاً .

وماذا يعنيه آخر الامر من هذا السر ؟ ان كارلوس ماريما رجل تافه كل التفاهة . وقد اصبح لا يوقظ في نفسها الا الاشتمزاز والاحتقار . وراحت تضحك اخيراً على كارلوس ماريما ، وهي تحس أن ضميرها يعذبها من تفكيرها فيه ، واستمرت تحوم حول هذا الموضوع زمناً طويلاً رافعة عينها الى السماء كالملاك ، منتقمة من ذلك الابله - انها تسميه الآن بالأبله - . ولكن أليست تولى هذا الامر اكثر بما يستحقه من اهتمام ؟ والتفتت افكارها عندئذ ، في غضب ، نحو روبيان الذي اخرج مثل هذا الرجل من ظلمة النسيان بحكاية المنشور هذه ... ثم عادت تأملاتها الاولى ، الى كلمات كارلوس ماريما ... اذا كان جميع الناس يرونها جميلة ، فلماذا لا يراها جميلة وهو الذي تجرباً أن يصرح لها بذلك ؟ آه .. لعلها كانت تستطع أن تجعله يركع على قدميها لو لم تظهر له تلك الضعة كلها ، ولو لم تتأثر بمدائح ذلك التأثر كله .

وفجأة سمعت الخادم التي كانت في الحجرة المجاورة قرقرة شيء ينكسر، فهرعت الى الصالون فرأت سيدتها واقفة هنالك وحدها . قالت صوفيا :

- لا شيء .

- خيل الي أنني سمعت ...

- هو هذا التمثال الصغير قد سقط لمي . حظامه

صاحت الخادم :

- الصيني .

انه تمثال من القيشاني يمثل رجلاً صينياً . تمثال بريء مسكين يوضع عادة في أعلى أحد الرفوف . وقد وجدته صوفيا بين أصابعها ، لا تدري كيف ، ولا متى ، فلما تذكرت وضعها التي أرادت لنفسها ، لم تستطع أن تكبح جماح غضبها وهو غضب على نفسها في أغلب الظن - فرمت التمثال الصغير على الارض . يا للتمثال المسكين ... لم ينفعه أنه كان من قيشاني ولا أن باليا هو الذي أهدها إليها .

- ولكن كيف أمكن يا سيدتي أن ...

- اذهبي .

وتذكرت صوفيا موقفها من كارلوس ماريا ، تذكرت ما استطاع ان ينتزعه منها من رضح سهل ، وتذكرت ما كانت تقابله به من صفح ، وما كانت ترشقه به من نظرات ، وتذكرت كيف كانت تدع له يدها في سهولة .. نعم ، ذلك هو الامر . لقد رمت بنفسها عليه . ثم تبدلت عواطفها . ربما كان ينبغي البحث عن سبب آخر مختلف عن ذلك ؟ وراحت صوفيا تنبش ذاكرتها عسى أن تقع على سبب لذلك المهجران . هل بدرت منها حركة فيها فتور أو جفاء ؟ هل بدر منها شيء من الإهمال ؟ فتذكرت انها لم تجرؤ ذات يوم ان تستقبله وهي وحيدة فأمرت أن يقال له انها ليست في الدار . نعم ، من الجائز جداً ان يكون هو السبب . ان كارلوس ماريا رجل متكبر تجرحه اي اهانة . لقد عرف انهم كذبوا عليه ... ذلك هو السبب الحقيقي .

١٠٦

١٠٦ أو قل الفصل الذي يتساءل فيه القارئ حائراً : كيف يتفق حزن صوفيا هذا والقصة التي رواها الحوذني ؟ ولعله يسأل : أياكون موعد شارع الهارموني ، وصوفيا ، وكارلوس ماريا ، وحكاية ذلك الحب العامر الآثم ، أياكون ذلك كله أراجيف ؟ نعم ، انه أراجيف ، لكنها أراجيف لفقها القارئ وروبيان ، لا ذلك الحوذني المسكين الذي لم يذكر أي اسم من الاسماء ، ولا قص حكاية واقعة . وذلك ما كان في وسعك ، أيها القارئ ، أن تدركه لو أنك تأنيت في قراءة الاسطر التي ولدت شكوك روبيان . نعم يا صديقي العزيز .. عليك أن تتساءل بنفسك : هل يمكن أن تكون تلك القصة كلها صادقة ؟ هل كان لرجل ذاهب الى مغامرة من هذا القبيل أن يقف عربته أمام البيت الذي يلقي فيه عشيقته ؟ انه لو فعل ذلك لكان أشبه بمن يأتي بشاهد إلى مكان الجريمة . ان بين السماء والارض من الطرق اكثر مما تتخيل فلسفتك ..

أليس هناك طرق تقطع ذلك الطريق ويمكن أن تنتظر فيها العربة ؟
- صحيح .. وقد أعوز الحوذي ها هنا شيء من الخيال . ولكن ما الفائدة
التي يجنيها من تليفق هذه القصة ؟

لقد قاد الحوذي روبيان الى منزل مكث فيه صاحبنا قرابة ساعتين دون
أن يصرفه . ثم رآه يخرج من البيت ويركب العربة ثم ينزل منها فوراً ليسبي
على قدميه طالباً اليه أن يتبعه . فخلص من ذلك انه امام زبون غريب
الاطوار . ولكنه لم يخطر بباله حتى تلك اللحظة أن يلقق شيئاً . فاذا بامرأة
معا صبي صغير - وهي المرأة الشابة التي ذكرنا انه رآها في شارع ساودي -
تمر ، فيرمقها صاحبنا بتلك النظرة العاطفية الحزينة ، فقدر الحوذي عندئذ أن
الرجل ليس متلافا فحسب ، وانما هو كذلك فاسق ، فأخذ يجده عن الغزوات
التي تخيل اسنادها اليه . ولئن ذكر شارع المارموني ، فما ذلك إلا لقربه من
الحي الذي جاء منه . ولئن قال انه قاد رجلا من شارع الانقاليد فلعل ذلك
راجع الى أنه قد أركب رجلا من ذلك المكان فعلا بالامس - وربما كان هذا
الرجل هو كارلوس ماريا نفسه - أو لعله راجع الى أن موقف عربته هو في
ذلك المكان . المهم انه التقط طرفا من شأنه أن يجسد قصته ، تماماً كما تتخذ
من ذكريات النهار مادة تنسج منها أحلام الليل . وليس جميع الحوذيين
بقادرين على أن يخترعوا حكايات ، وحسبه فضلا انه استطاع أن يبني من قطع
واقعية شيئاً متماسكا .

ولم يبق إلا تلك المصادفة التي جعلت احدى الحياطين تقيم في شارع المارموني .
وهذه مصادفة حقاً . لكن الحياطة هي المسئولة عن ذلك . فلم يكن ليغز
عليها أن تجد لنفسها مسكناً في مركز المدينة لو شاءت أن تترك زوجها
ومهنتها . لكن هذين الشئيين هما اللذان كانت تحرص عليها فوق حرصها على
أي شيء في هذا العالم . ولم يكن هذا على كل حال بالسبب الكافي لأن اسقط
تلك الأسطر أو أن أختم الكتاب .

تهيات صوفيا لاستقباله . وقد وطنت نفسها على أن تنتهز الفرصة لتشرح له أمر الرسالة شرحاً مشفوعاً بالايان المغلظة ، حتى يدرك أنها لاتخشى من ذكر الحقيقة شيئاً . لكن ما عزمت عليه ذهب سدى . لأن روبيان لم يظهر ، وانقضى أحد آخر ، وانقضت آحاد اخرى ... وارسلت اليه صوفيا مع ذلك ذات يوم قسيمة تبرع للألاجواس ، فاكتب بخمسة قوننات .

قال له شريكه حين ذهب روبيان الى المخزن يحمل اليه الورقة :
- هذا كثير .

فأجابه روبيان :

- لن أكتب بأقل من ذلك .

- أبيع لنفسي أن الفت نظرك الى انك تستطيع ان تبرع بكثير، دون ان تبرع بهذا المبلغ كله . هل تظن أنه لا يشترك في هذا التبرع الا ثلاثة اشخاص أو اربعة ؟ إن اناساً كثيرين قد ارسلت اليهم اليوم قسيمة كالقسيمة التي ارسلت اليك ، حتى أن المرء ليرى هذه القسام في واجهات الحوانيت بميدان « التجارة » ... فليكن تبرعك بمبلغ أصغر .

- كيف أستطيع ذلك ، لقد كتبت الرقم .

- من السهل جداً أن تغير الرقم 5 فتجعله 3 ، وثلاثة قوننات مبلغ عظيم . صحيح أن هنالك مبلغ اكبر ، لكن اصحابها لا يستطيعون أن يتبرعوا بأقل منها بحكم مراكزهم أو ثرواتهم . ان بومفين مثلاً قد اكتب بعشر قوننات .

فلم يستطع روبيان أن يكبح ضحكة صغيرة ساخرة انطلقت منه ، وهز رأسه ، ولم ينزل عن قونناته الخمسة . ولو صحح لوضع وراء الرقم 5 رقم 1 ، حتى يصبح المبلغ خمسة عشر قونناً ، فيزيد تبرعه على المبلغ الذي اكتب به بومفين .

وأردف باليا يقول :

- في طاقتك أن تبرع بخمسة قوننات ، بعشرة قوننات ، بخمسة عشرة قونناً . لكن رأس مالك يحتاج إلى شيء من حسن التدبير ، وأنت تبعثره حقاً ...

لاحظ أن اتناجه قد قل منذ الآن ...

لقد كانت أموال روبيان مودعة عند باليا في الصندوق الحديدي المخزّن (أسهم ، ربيع أملاك ، الخ) . كان باليا هو الذي يقبض الارباح والايادات ، ويقبض أجور البيوت الثلاثة التي حمله على شرائها بشمن بنحس منذ زمن ، واتضح أن ربيعها كبير . وكان له أيضاً أنواعاً كثيرة من قطع النقد الذهبي ، لأن روبيان كان مولعاً بجمعها من اجل التمتع بتأملها . وقد أصبح باليا أدرى بمجموع الاموال التي تتألف منها هذه الثروة من صاحبها نفسه ، وكان يرى ما يصيبها من نقص في غير انقطاع . فألح يقول : ان ثلاثة قوننتات كافية . وما يبرهن على إخلاصه انه زوج مؤسسة اللجنة . لكن روبيان أصر على أن يتبرع بالقوننتات الخمسة . حتى لقد انتهز الفرصة فسأل صاحبه عشر قوننتات أخرى ، لأنه في حاجة إليها ، فأخذ باليا بحك رأسه ، وقال بعد بضع لحظات :

– معذرة . فم حاجتك الى عشر قوننتات ؟ ألسنت توقن أنك ستضيعها ، أو أنك ستخاطر بها على أقل تقدير ؟

ولكن روبيان هزيء باعتراض باليا قائلاً :

– لو كنت اوقن انني سأضيعها لما جئت اطلبها . وفي الامر بعض المخاطرة مافي ذلك شك ، لكن من لم يخاطر بشيء لم يفز بشيء . انني في حاجة اليها لأمر من الامور ، أو اقل لثلاثة امور : اثنان منها قرضان مضمونان ، وهما لا يتجاوزان قوننتاً ونصفاً على كل حال ، والثالث مشروع يكلف ثمانية قوننتات ونصف ... لماذا تهز رأسك وانت لاتعرف شيئاً عن هذا المشروع .

– طبعاً . لو سألتني نصيحتي ، لو حدثتني عن المشروع وعن الاشخاص ، لاستطعت ان اعرف هل لك ان تخاطر او لا . ولكنني اخشى ان يؤدي هذا كله الا الى ضياع مالك . هل تتذكر اسم تلك الشركة التي كان اسمها « اتحاد رؤوس الأموال الشريفة » ؟ لقد قلت لك يومئذ ان هذا الاسم الفخم لايدل الا ان على الغاية هي التخريب بالناس وتشغيل عدد من لا يصلحون لشيء . لكنك

لم تشأ ان تصدقني ، فرأيت بنفسك ماحدث . هبطت قيمة الاسهم الى ادنى درجة ، ولم يبق في هذا الفصل ايرادات لها .

— ماعليك اذن الا ان تبيع هذه الاسهم . بما . يكفيني ان استرد رأس مالي . او خذ القوتات العشرة من صندوق محلنا . سأتي الى هنا مرة اخرى ان شئت . او ارسل المبلغ الي بيوتافوجو . واذا كنت تؤثر رهن بعض الاسهم ، فافعل . فقاطعه باليا يقول في صرامة :

— لا ... لا ... لن افعل شيئاً من هذا . لن اعطيك عشرة قوتات . لن اخضع لك في كل امر بعد الآن . ان من واجبي ان اقاوم . قروض مضمونة ! ليتني اعرف اصحاب هذه القروض ؟ الا تلاحظ انهم يقترضون مالك ، ثم لا يردونه اليك ابدأ ؟ اشخاص لا يستحيون أن يتعشوا كل مساء في بيت دانتهم ، مثل كورديرو الذي رأيتك عنده . لا ادري هل الآخرون مديون لك بال ايضاً ، لكن ليس يدهشني ان يكونوا كذلك . ارى ان الكيل قد طفع . وما فاتحك في الامر على هذا النحو ! لانني صديقك . ولن تستطيع ان تقول ذات يوم انني لم احذرك في الوقت الذي ينفع فيه التحذير . من أي مورد تعيش في المستقبل اذا أنت أتلفت كل ماتملك ؟ ان محلنا يمكن أن يفلس ...

— لا ... لا ...

— بلى . كل انسان يمكن أن يفلس . لقد شهدت بنفسني افلاس سوتو ، صاحب المصارف ، عام ١٨٦٤ .

كان روبيان يجيل في خاطره آراء شريكه ، لأنه يجدها صائبة أو سديدة ، بل لأنه يراها في صورتها الحشنة . بعض الحشونة ، صادرة عن نية حسنة . فشكر لباليا نصائحه من صميم قلبه ، لكنه لم يأخذ بها ، فهو يصر اصراراً مطلقاً على أن يعطيه صاحبه عشر قوتات ، غير أنه وعده بأن يكون في المستقبل أشد حذراً ، وأبعد عن الاستجابة للرجاء والتوسل . ثم أليس يملك من المال ما يفيض ؟ فقال له باليا مصححاً :

– ما يفيض ، ربما ... أما ما يوهب فلا ...

ثم أردف يقول :

– لقد فات الوقت اليوم . وسأتيك بالقوننات العشر غداً . ولكن لماذا لا تجيء الى بيتنا في فلاننجو فتأخذها بنفسك ؟ ماذا صنعنا لك حتى تقاطعنا هذه المقاطعة ، أو ماذا صنعنا لك اذ يظهر ان الخلاف بينك وبينها مادامت اراك هنا . ما الذي حدث حتى تعاقبها هذا العقاب ؟ كذلك تابع باليا كلامه ضاحكاً .

فحول روبيان نظره . كانت كلمات باليا تبدو له مشتملة على شيء من السخر . انه يهزأ به كما لو كان على علم بكل شيء ، فلما عاد ينظر اليه في وجهه ذلك السؤال نفسه ، فأجابته بقوله :

– لم تصنعا لي شيئاً . وسأجيء اليكم في غد مساء .

– تعال على العشاء .

– على العشاء لا أستطيع ، لأن عندي اصدقاء . لكنني سأجيء بعد العشاء .

وأضاف يقول وهو يحاول ان يضحك :

– لا تعاقبها ، فانها لم تصنعا لي شيئاً .

قال باليا بينه وبين نفسه منذ خرج شريكه « لاشك أن أحداً قد تسلط عليه .. احداً يغار من صداقتنا ، فهو ... ومن الجائز أيضاً أن تكون صوفيا قد دبرت له مكيدة لتبعده عن البيت ... »

وظهر روبيان مرة أخرى على الباب . انه لم يكد يصل الى ركن الشارع حتى رجع أدراجه ليقول لصاحبه أنه سيجيء يأخذ المال من المخزن لحاجته اليه في وقت مبكر ، ولكنه سيزورهم في المساء . انه في حاجة الى المال قبل الساعة الثانية بعد الظهر .

١٠٩

في تلك الليلة حلم روبيان بصوفيا وماريا بنديكتا . رأهما في ارض خلاء

لا ترتديان إلا تنورة وقد تعرى ظهرهما تماماً ، وأخذ زوج صوفيا يجلدتهما في غير رحمة بسوط ذي ستة سيور ينتهي كل منها بدبوس ، وذلك معاقبة لهما ، فالدم ينزف من جسيهما واللحم يتمزق ويسقط على الارض ، وهما تعولان وتستغفران وتتلويان من فرط الألم . فاذا سألتني الآن عن السبب الذي من أجله كانت صوفيا هي الامبراطورة أوجينا وكانت ماريا بنديكتا احدى وصيفاتها لم أستطع أن أجيبك جواباً دقيقاً . وقديماً صاحت احدى شخصيات دالفارس دي آزيفيدو : « كذلك هي الأحلام ، نعم ، كذلك هي الاحلام يا بانسيروزو » . على أنني ، شخصياً ، أفضل رأي الشيخ بولونيوس الذي قال بعد أن سمع خطاباً مطولاً هاذياً طويلاً من هاملت : « إنه منسجم حتى في هذيانه » فعندي أن في هذا الخلط بين صوفيا والامبراطورة أوجينا شيئاً من الاتساق ، وكذلك فيما نحن قاصوه عليك الآن بما سيبدو أشد غرابة ايضاً .

فما إن رأى روبيان هذا المشهد حتى أوقف العقاب مستاء ، وأمر بشنق باليا وانهاض الضحيتين . وقد قبلت احدهما ، وهي صوفيا ، أن تركب العرببة المكشوفة التي كانت تنتظر روبيان ، ومضت العرببة بهما كليهما خبيماً ، أما هي فكانت نضرة مغناجاً كأنها لم تصب بشيء ، وأما هو فكانت تلوح في وجهه معاني النضر والسيطرة . والعرببة كان يجرها في أول الأمر حصانان ، لكن الحصانين أصبحا ثمانية ، أصبحا أربعة أزواج جميلة متوافقة . والشوارع والنوافذ سوداء من كثرة ازدحام الناس ، والازهار تطل عليها كالمنظر المدرار ، والاهازيج تنطلق من كل حدب وصوب ... ويشعر روبيان أن الامبراطور نابوليون الثالث . والكلب في العرببة ايضاً ، الى جانب صوفيا .

ولم يقف هذا الحلم عند حد ، ولم يحدث ما يكدره . ويفتح روبيان عينيه على حين فجأة . أهو برغوث قرصه ؟ شيء من هذا القبيل على كل حال . وكذلك هي الأحلام يا بانسيروزو . لكنني أعود فأقول انني أوتر ما قاله بولونيوس . « إنه منسجم حتى في هذيانه » .

اعطى روبيان القرضين ، وحقق المشروع . فأما المشروع فكان مساهمة في شركة يقال لها . « شركة تحسين الاقلاع والرسو في ميناء ريودي جانيرو » ، وأما القرضان فكان أحدهما سداداً لدين متأخر على جريدة « الحفير » ، دين مستعجل تتوقف الجريدة عن الصدور إن لم يدفع ...

قال كاماشو حين ذهب اليه روبيان بالمال :

- عظيم . وشكراً جزيلاً . تصور أن امرأ تافهاً كهذا كان يمكن ان يجتثق بسببه صوت جريدتنا الناطقة بلساننا . هذه أشواك المهنة ويا للأسف ان الشعب لم يتقف ، فهو لا يعرف اولئك الذين يعملون من اجله ولا يدعمهم ، اولئك الذين يخوضون المعركة كل يوم دفاعاً عن حرياته الدستورية . تخيل أننا لو لم نملك هذا المبلغ لفقدنا كل شيء ، ولعاد كل منا إلى شئونه الصغيرة ، ولحرمت المبادئ من يدافع عنها دفاعاً صادقاً .

فقال روبيان محتجاً :

- لن يحدث هذا ابداً .

- أنت على حق . وسنضعف الجهود . وستكون جريدة « الحفير » مثل آنتي التي تتحدث عنها الاسطورة ما ان تلامس الارض مرة حتى تنهض اشد بأساً مما كانت .

قال كاماشو هذا ثم نظر في رزمة الاوراق النقدية . هي قونت ومائتا كروزيرو ، أليس كذلك ؟ سأل هذا السؤال ثم وضع الاوراق في جيب ستورته . واستمر يقول انها يستطيعان الآن أن يطبئنا ، فقد هبت الريح تدفع الجريدة الى الامام ، ان كاماشو يفكر في بعض الاصلاحات المادية . حتى لقد مضى الى ابعد من ذلك فقال :

- علينا أن نهيء برنامجاً ، وأن نستشيرهم رفاقنا في العقيدة ، وأن

نهاجمهم إذا اقتضى الامر .

- كيف ؟

- كيف ؟ بأن نهاجمهم .. لا أقصد أن نهاجمهم ، وإنما أقصد أن نقومهم !

واضح ان جريدة الحزب قد أسرفت في الرخاوة بعض الاسراف . وإذا كنت أسميها جريدة الحزب ، فلأن جريدتنا هي جريدة افكار الحزب . هل تدرك الفرق ؟

- نعم نعم .

- اقول ان الجريدة توشك أن تصبح رخوة بعض الرخاوة !

قال ذلك وهو يقبض باصابعه على سيكار قبل أن يشمله . وتابع كلامه :

- فيجب إذن ان نلح على المبادئ ، ولكن بصراحة ونبل ، مقتصرين على قول

الحقيقة . ثن أن الزعماء في حاجة الى ان يسمعوا الحقيقة من افواه اصدقائهم ، من أفواه انصارهم . أنا لم اكن في يوم من الايام عدو المصالحة بين الاحزاب ، حتى لقد ناضت في سبيل تحقيق هذا الهدف . ولكن المصالحة يجب أن لا تعني الوقوع في حبال الخديعة . اليك هذا المثال من منطقتي : ان جماعة بنيارو لا يفوزون بتأييد الحكومة الا من أجل طردي . ورفاقتنا في المبدأ ، بدلا من ان يجاروا هؤلاء الناس لأن الحكومة تدعمهم ، هل تعرف ماذا يعملون ؟ انهم يدعمون جماعة بنيارو .

- لا بد أن لجماعة بنيارو هؤلاء شيئا من النفوذ .

قال كاماشو وهو يغلق اغلاقاً عنيفاً علبة الكبريت التي كان بسبيل فتحها :

- ليس لهم أي نفوذ . واحد منهم مجرم مشهور . وآخر كان صبي حلاق .

ثم انتسب ، والحق يقال ، الى كلية رسيف ... اعتقد ان ذلك كان في عام ١٨٥٥ ، عقب موت عرابه الذي ترك له بعض الاموال . إن حياته لفضيحة من الفضائح . إنه ما كاد يحصل على الاجازة حتى دخل المجلس الاقليمي ! رجل أبله ! لو صح انني بابا لصح أنه مجاز !

وتفاهما على التغييرات السياسية التي يجب ادخالها على الجريدة . وذكر كاماشو

صاحبه روبيان بأن ترشيحه للانتخابات لم يخفق الا بسبب معارضة زعماء الحزب . . بسبب معارضة بعض زعماء الحزب (هكذا استدرك مصححاً) . فأبده روبيان . وذلك ما سبق أن عرفه من صديقه في حينه . وقد أوردت هذه الذكري ما كان يشعر به من غيظ لهذا الاخفاق . لقد كان يمكن لابل كان يجب ان يدخل المجلس النيابي . وهؤلاء الافراد هم الذين لم يشاؤا ذلك . قال روبيان بينه وبين نفسه : ولكن سيرون في يوم من الأيام نتيجة ما جنوا من اثم وسيندمون على ما صنعوا . لسوف يذهلون ولسوف يجنون من الغيرة يوم يرونه نائباً ، عضواً في مجلس الشيوخ ، وزيراً . كان خيال صاحبنا متى أوراها صديقه ، يقذف على الفور ناراً ولهباً ، وينبغي أن لانرى في ذلك ، على كل حال ، بفضاً ولا حسداً ، يجب ان لانرى فيه الا طموحاً بريئاً ، واطمئناناً هادئاً الى الابد الباهرة التي تنتظره . وقد اسعد كاماشو ان يراه متفقاً معه في الرأي . قال :

– الناس جميعاً يرون هذا الرأي . واطن ان اصدقاءنا لن يؤذيهم بعض التهديد .

وفي ذلك المساء نفسه تلا على روبيان المقالة التي يناشد فيها الحزب أن لا يؤخذ بالمناورات الغدارة التي تقوم بها الحكومة إذ تدعم في بعض الاقاليم اناساً فاسدين لاقية لهم . وهذه هي الخاتمة التي ينجم بها كاماشو مقالته .

« ان الاحزاب يجب ان تكون موحدة الصفوف خاضعة للنظام . وهناك من يزعم – وما أعجبه من زعم » (١) .

ان هذا النظام وهذا الاتحاد يجب ان لا يبلغنا حد ازدياء المنافع التي تسقط من بين ابدي خصومنا ، « ولشد ما يضحك ذلك » (٢) من ذا الذي يستطيع ان يكفر هذا الكفر دون أن يرتعش من ذلك جسمه كله . وهب الامر كذلك ، هب المعارضة استطاعت مرة أن تقمض عينيها عن فساد الحكومة فيما يتصل باحتقار القوانين واستغلال السلطة وعن كل هذا التفسخ وكل هذه المغالطات . ان مثل هذه الحالات التي يجب من جهة اخرى ان تكون حالات استثنائية ، لا يمكن

(١) باللاتينية في الاصل .

(٢) باللاتينية في الاصل .

ان تكون مقبولة الى حين يكون المراد تشجيع العناصر الطيبة لا السيئة . ان في جميع الاحزاب خونة ماكرين . ومن مصلحة خصومنا أن يرونا نضعف لقاء تأييد يوهب للفئة الفاسدة من الحزب . هذه هي الحقيقة . ونكرانها يؤدي بنا الى حرب داخلية ، أي الى تمزق في روح البلاد نفسها . ولكن لا . ان الافكار السديدة لامتوت . انها راية العدالة . لسوف يطرد الباعة من الهيكل ، ولا يبقى إلا المؤمنون والاظهار ، اولئك الذين يغلبون المبادئ على المصالح التافهة ، المحلية ، الزائلة . ان جميع الذين لا يكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حرباً عواناً عليهم . « ذلك قدر محتوم » (١) .

١١١

حبذ روبيان المقالة في حرارة . وقال انها رائحة ، ولكن لعلها ليست عنيفة عنفاً كافياً ، فكلمة « الباعة » مثلاً جيدة ، ولكن اذا قيل « الباعة الاوباش » كان ذلك اجود . قال كاماشو :

— « الباعة الاوباش » ؟ هناك عيب واحد في قولنا « الباعة الاوباش » هو تكرار حرف الباء في الكلمتين . باعة أوبا .. باعة أوباش . الا نجد أن هذا لا يقع في الاذن وقعاً جميلاً ؟

— ولكنك أتيت قبل ذلك بكلمتين يتردد فيها حرف واحد : *Vès vis* .
 — بل *vae Victis* ، « الويل للمغلوب » هذه جملة لاتينية ! لعلنا نستطيع ان نضع جملة اخرى . نستطيع أن نقول مثلاً « التجار الاوباش » .
 — « التجار الاوباش » .. لا بأس ..

— صحيح ، لكن كلمة « تجار » ليس فيها من القوة ما في كلمة « باعة » .
 — لماذا لا تدع اذن كلمة الباعة في محلها . ان عبارة « الباعة الاوباش » عبارة قوية . ولن يلاحظ احد حكاية تكرار الباء هذه الكلمتين . أنا مثلاً لا يلفت

(١) باللاتينية في الاصل .

نظري هذا النوع من الامور ابدأ . انني احب ما هو عنيف « الباعة الاوباش » !
كرر كما مشو يقول بصوت خافت :

- الباعة الاوباش ، الباعة الاوباش . ان العبارة اجود . الباعة الاوباش .

موافق .

وقد قال هذه الكلمة الاخيرة وهو يصحح النص ، ثم أعاد القراءة .
لسوف يطرد الباعة الاوباش من الهيكل ، ولا يبقى الا المؤمنون والاطهار ،
اولئك الذين يغلبن المبادئ على المصالح التافهة المحلّية الزائلة . ان جميع الذين
لا يكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حرباً عواناً عليهم . ذلك قدر محتوم .
قال روبيان وهو يشعر بعض الشعور بانه كاتب المقال :

- عظيم

- أأعجبك ؟ هناك اناس يرون ان اسلوبي قد احتفظ بالنضارة التي كانت له
منذ ايام الدراسة . قد يكون هذا صحيحاً ، لست ادري ، وشعوري على كل حال
هو انني لم أتغير . يجب ان اكون قاسياً ، يجب ان نكون قساء .

الآن اريد ان اكون قد اتبعت في هذا الكتاب الطريقة التي اتبعها كثير
من المؤلفين - وم جميعاً من الاقدمين - والتي قوامها شرح مضمون فصل من
الفصول بعنوانه : « كيف وقع الامر الفلاني على هذا النحو او على ذلك » .
فتلك هي الطريقة التي اتبعها برنادرين ريبيرو وكثير غيره من خيرة الكتاب .
وحسبي ان اذكر من بين الكتب الاجنبية ، دون ان ارجع الى سرفانتس او
حتى الى رابليه ، مؤلفات فيلدنج وسموات التي يمكن ان يقرأ كثير من فصولها
بالنظر في عناوينها . تناول مثلاً كتاب توم جونس ، الجزء الرابع ، الفصل الاول ،
تجد هذا العنوان : « خمس صفحات من الورق » . الامر واضح ، بسيط ، لا ينجذع
احداً . هي خمس صفحات لا اكثر من ذلك ولا اقل . فالذين لا يحبون ان يقرأوها
لا يقرأونها ، والذين يحبون ذلك يقرأونها ، ومن اجل هؤلاء انما يختم المؤلف
هذا الفصل في لطف قائلاً : « الآن ننتقل الى الفصل التالي من غير تمهيد » .

فلو كانت هذه الطريقة هي المتبعة في هذا الكتاب لكان العنواّن التالي
يشترح كل شيء : « كيف ان روبيان وقد سره التصحيح الذي ادخله على المقالة
أخذ ينشيء ويجتر كثيراً من العبارات حتى انتهى من ذلك الى ان كتب جميع
المؤلفات التي سبق له ان قرأها » .

لعل بعض القراء لا يكتفون بهذا الكلام ، ويريدون تحليلاً كاملاً لهذا
التطور الذي تمّ في ذهن بطلنا . ولكن هلاًّ قدروا ان الصفحات الخمس التي
كتبها فيلدينج لانكفي لهذا الغرض ؟ ان ثمة هوة تفصل بين الجملة الاولى
التي شارك روبيان في كتابتها وبين انتقاله لنفسه جميع المؤلفات التي سبق
ان قرأها . ومن المحقق ان اصعب شيء لقيه هو الوثوب من تلك الجملة
الى الكتاب الاول ، ثم سارت الامور بعد ذلك سيراً سهلاً ... ولكن التحليل
سيظل طويلاً مسرفاً في الطول وسيظل مملأً كثير الاملال ، حتى على هذه الصورة .
وخير لنا أن ندع هذا كله وان لا نتذكر إلا شيئاً واحداً : هو أن روبيان
عد نفسه خلال بضع دقائق كاتب عدد كبير من المؤلفات التي كتبها غيره .

ولكنني أنساهل في مقابل ذلك هل الفصل التالي يمكن ان يلخص كله في
عنوانه وحده .

حافظ روبيان على قراره في أن لا يرى صوفياً بعد ذلك . انه على الاقل لم
يذهب الى فلاننجو . لكنه رآها ذات يوم تمر في عربة مع سيدة من سيدات
لجنة الآلاجواس ، فحنت رأسها وهي تبسم ابتسامة حلوة وتلوح بيدها محيية ،
فرد التحية برفع قبعته ، وشعر بشيء من الانفعال لكنه لم ينسمر في مكانه محمداً

إليها كما كان يتفق له ذلك في السابق ، وإنما اكتفى بالقاء نظرة على العربية وهي تتابع سيرها . وتابع سيره هو أيضاً ، وحاول أن يفسر لنفسه ، وهو يفكر في امر الرسالة ، هذه التحية الودية التي حيته بها ملوحة بيدها ، هذه التحية الودية الحالية من أي تخرج ومن أي حقد ، كأن لم يكن بينها شيء . ترى هل مرد هذه البشاشة التي لم يكن يتوقعها من صوفيا ، إلى تبعاتها كعضو من أعضاء اللجنة ، وإلى وجود رفيقتها معها ؟ ولكن روبيان لم يخطر بباله هذا الغرض . ولما تساءل : « أتكون مجردة من الكرامة الى هذا الحد ؟ ألا تتذكر تلك الرسالة التي وقعت عليها والتي كانت موجهة الى ذلك المتحدث الذي يقطن شارع الانقلايد ؟ ألا إن هذا لكثير إلا انه لإسراف . لكأنها تتحداه ، لكأنها تريد أن تقول له انها غير عابثة ، وانها ستكتب ما تشاء من رسائل . حسناً . لتكتب ما تشاء من رسائل . ولكن فلتكلف نفسها نفقة ارسالها بالبريد مضمونة... وهي نفقة ليست بالباهظة كثيراً ... » .

ورأى نفسه لاذع النكتة فأخذ يضحك . وكان من شأن هذا ، بالاضافة الى تحية كبيرة حياه بها رجل اثناء مروره ، أن يحا من نفسه كل المرارة التي ولدتها فيه هذه الذكريات . ففسي الامر كله ، واصبح لا يفكر إلا في القضية التي كان ذاهباً من اجلها الى « مصرف البرازيل » .

فلما وصل الى المصرف التقى بشريكه الذي كان خارجاً منه .

قال روبيان :

– أظن انني لمحت دوناً صوفيا منذ لحظة .

– أين ؟

– في شارع أوريف . كانت في عربة مع سيدة اخرى لا اعرفها . وانت

كيف حالك ؟

قال باليا دون ان يجيب عن سؤال صاحبه :

– رأيتها ولم تتذكر شيئاً ؟ ألم تتذكر ان عيد ميلادها يقع بعد غد في

يوم الاربعاء ؟ لست اسألك أن تجيء على العشاء ، فما بي من جرأة على ذلك ، ولو سألتك ان تجيء لكنت ادعوك الى ضجر . غير ان احتساء قرح من الشاي ينتهي في لحظة . فهل لك ان تجود علي بهذه السعادة . فلم يجب روبيان على الفور . لكنه قال اخيراً :

— سأجيب على العشاء . يوم الاربعاء ؟ ثق أنني سأجيب . يجب ان اعترف بانني كنت ناسيا . ولكن هناك اشياء كثيرة تشغلني . هل لك ان تنتظرنني في الخزن ؟ سأجيب بعد نصف ساعة .

ووصل قبل انقضاء نصف الساعة ، طالباً من باليا أن ينقده قوتين . وقد اصبح باليا لا يعارض في تبذيرات شريكه . ولئن كان يقول له كلمة من الكلمات من حين الى حين في هدوء . لقد نقده المال هذه المرة في غير اكثرات . واشترى روبيان قبل ان يعود الى بيته قطعة من الماس ، ارسلها الى صوفيا في يوم الاربعاء مع بطاقة ضمنها تهنئة بوضع كلمات .

وكانت صوفيا في مخدعها تتعلل حذائها حين حملت اليها الخادمة هديته . إنها ثالثة هدية تتلقاها في هذا اليوم . وانتظرت الخادمة ان تقض سيدتها الصرة لترى ما فيها هي أيضاً . فلما فضت صوفيا الصرة ورأت الجوهرة الرائعة لبثت مبهورة . فص جميل جداً من الحجر في وسط عقد . لقد كانت تتوقع أن تكون الهدية جميلة ، لكنها منذ وقوع الحوادث الاخيرة أصبح يصعب عليها أن تتصور أن يكون كريماً هذا الكرم كله . وأخذ قلبها يخفق .

— ألا يزال حاملها هناك ؟

— بل مضى . ما اروعها ياسيديتي !

واغلقت صوفيا العلبة ، وأكملت انتعال حذائها وظلت جالسة وحدها

زمناً تفكر في الماضي . ثم نهضت وهي تقول لنفسها :

— لاشك في أن هذا الرجل يعبدني عبادة .

وقررت أن ترتدي ملابسها ، لكنها خطرت امام المرآة فتوقفت بضع

لحظات اخرى . لم تكن تحب شيئاً كما تحب أن تتأمل نفسها في المرآة ، وأن

تقف معجبة تنظر الى تقاطيع جسمها الرائعة ، الى ذراعيها العاريتين ، وحتى الى عينيها اللتين تسطعان سطوعاً قوياً من اعجابها بنفسها . انها تحتفل في هذه الأيام ببلوغها السنة التاسعة والعشرين من عمرها ، وتوى أنها لاتقل الآن جمالاً عما كانت عليه في الخامسة والعشرين . ولم تكن في ذلك على خطأ . ووضعت مشدها وأحكمت ربطه ، فأناحت لصدرها أن يبرز بروزاً أخذاً . وخطر لها عندئذ أن تجرب العقد لترى هل يناسبها ، فتناولته ، فطوقت به جيدها . رائع ! وأدارت رأسها من اليمين الى الشمال ، ثم من الشمال الى اليمين ، واقتربت ثم ابتعدت ، وتصنعت بعض الملامح ونشرت في الخدع مزيداً من النور . إنه ما يزال رائعاً ! وتأكدت ان قفل العقد سليم ، فاحتفظت بالعقد على جيدها . وكررت تقول :

— هذا الرجل يعبدني عبادة .

قال روبيان لنفسه وهو ذاهب الى العشاء في فلاننجو : قد يكون هناك . ولكنني أستبعد أن يكون قد قدم هدية أجمل من هديتي . وكان كارلوس ماريا هنالك حقاً ، يتحدث مع إحدى سيدات لجنة الآلاجواس ، ومع ماريا بنديكتا . ولم يكن عدد المدعوين كبيراً ، وكانوا منتقنين انتقاء . فلا الضابط سيكويرا ، ولا ابنته ، ولا احد من الاشخاص الذين عرفهم روبيان اثناء العشاء بسانتا تيويريزا ، كانوا هناك ، بل بضع سيدات من لجنة الآلاجواس ، ومدير احد المصارف (هو المدير الذي زار الوزير) وزوجته وبناته ، وشخصية اخرى من شخصيات المصارف ، وتاجر انكليزي ، ونائب ، وقاض من قضاة محكمة التمييز ، واحد مستشاري مجلس الدولة ، وعدد من رجال الأعمال .. وبكاد يقتصر الحفل على هؤلاء .

ورغم أن صوفيا كانت في ذلك المساء في قمة مجدها ؛ فانها نسيت سائر الحاضرين حين لمحت روبيان يدخل الصالون ويتقدم نحوها . لقد رأت في وجهه غير ماعهدت أن ترى فيه من معان ، ورأت مشيته مشية واثق من نفسه ، ورأت رأسه مرفوعاً : لقد رآته على نقيض ما كان عليه من خراقة وخجل ،

سواء كان مرد ذلك الى أنه تبدل فعلاً ، أم الى أنها لم تره منذ زمن .
وصافحته صوفيا بقوة وهي تدمدم شاكرة . حتى إذا قاموا الى المائدة ،
دعدته الى الجلوس قريبا ، واجلست على الطرف الآخر رئيسة اللجنة . وكان
روبيان ينظر الى كل شيء نظرة من يشعر أنه أعلى من غيره : لم تبهره قسمة المدعويين ،
ولا فخامة الجور الذي يسيطر على القاعة ولا الترف المبسوط على المائدة : لا شيء من ذلك
كله يبهره . وحتى ما كانت تبذله له صوفيا من اهتمام كثير واتباء خاص لم يسكره وغم
أنه سره . ولم يزد ذلك صوفيا إلا اهتماماً به ورعاية له ، وكانت عينها
تغمrane بلطف خاص . وبحث روبيان بنظره عن كارلوس ماريا فرأى انه لا يزال
هناك ، بين السيدتين اللتين كان يتحدث اليها منذ برهة في الصالون ، وهما ماريا
بنديكتا وعضو لجنة الآلاجواس . ولاحظ صاحبنا أن كارلوس ماريا كان لا يعنى
إلا بها ، ولا يتبادل وصوفيا نظرة .

قال بينه وبين نفسه : « لعلها يخفيان لعبتها ! »

وخيل اليه حين نهض جميع الناس عن المائدة أنها تراشقا نظرة ، لكنه لم
يثق بهذا كل الثقة ، لما حدث عندئذ من جلبة . وذلك كل ما استطاع أن
يلاحظه . وأسرعت صوفيا تتناول ذراعيه ، وقات له وهي تسير معه :

— انتظرتك طوال الوقت منذ ذلك اليوم المشهود ، ولكنك لم تعد بعده
أبدأ . وكان من حقي مع ذلك أن اصر على رؤيتك لأستطيع أن أشرح لك
موقفي . سنتحدث في هذا الأمر بعد ذلك .

ولم يلبث روبيان أن مضى الى غرفة التدخين . فأصغى هناك الى الحديث
دون أن يقول كلمة واحدة ، وقد بدا عليه الدهول حتى إذا انصرف جميع
الضيوف لبث وحده جالسا على أريكة من الجلد ، وقد خلا رأسه من أي
فكرة . كان خيله وحده هو الذي يعمل ، بل كان هذا الخيال نفسه يعمل في
شيء من التناقض والكسل .. ربما كان ذلك لأنه أفرط في الطعام ! إنه يسمع
أصوات ضيوف السهرة يصلون ، والبيت يمتليء شيئاً بعد شيء ، وضجة الحديث

تقوى وتشدت ، وهو لا يخرج من أحلامه . حتى صوت البيانو الذي قطع جميع الأصوات الأخرى ، لم يردّه إلى الارض . إلا أن حفحة حرير في الغرفة أنهضته واثباً على حين فجأة ، فارتد الى الواقع ارتداداً كاملاً . قالت صوفيا :
- ها ... أنت هنا ... انك تعتم في هذا المكان تجنباً للضجر . ألا تريد حتى سماع الموسيقى الجميلة ؟ ظننت أنك انصرفت ، وكنت بسبيل البحث عنك .
ولما كانت لا تريد أن تضع دقيقة من الوقت ، راحت تقص عليه من دون أي تمهيد ما نعرفه من أمر الرسالة التي عثر عليها في حديقة بيته ، وذكرت أنه طلبت إليه أن يفض الرسالة بنفسه وأن يقرأها ، من قبل أن تقضها هي .
أي برهان كان يمكنها ان تقدمه دليلاً على براءتها أقوى من هذا البرهان ؟ وكانت تتكلم بسرعة ، وقد ظهر في وجهها الجذ والوقار كما ظهر فيه التأثر والانفعال .
حتى لقد اخضت عيناها في لحظة من اللحظات ، فحجفتها ، ولكنها ظلتا حراوين .
فأمسك روبيان بيدها ورأى دموعه الأخيرة - دموعه صغيرة - تنحدر على خدها وتصل الى ركن فمها . فحلف لها عندئذ أنه يصدق كل ما قالته له ، نعم حلف لها . ولكن فم تبكي ؟ وحجفت صوفيا عيناها مرة أخرى ، ومدت إليه يدها وهي تفيض شكراً ، وقالت :
- الى اللقاء القريب .

كانت الموسيقى ما تزال تصدح . فقال لها روبيان إن أحداً لن يأتي فيزعجها ماداموا يستمعون الى الموسيقى ، فأجابته بقولها :
- ولكنني لا أستطيع أن أغيب مدة طويلة . وهناك أوامر يجب أن أصدرها الى اللقاء القريب .

فقال روبيان ملحاً :

- أرجوك ، اسمعي ...

فوقفت صوفيا ، فقال لها :

اسمعي ، دعيني أقول لك ، ربما لآخر مرة ...

- لآخر مرة ؟

- من يدري ؟ هذا جائز جداً . ليس يعني كثيراً هذا الرجل ولا ما يفعله ،

ولكن قد ألتقي به هنا ؛ ولست أحب أن أتشاجر معه .

- لسوف نلتقي به هنا في جميع الأيام . ألم يبلغك كرسنيانو النبأ الى الآن؟

إنه سيتزوج ماريا بنديكتا .

فتراجع روبيان خطوة الى وراه .

وأردفت صوفيا تقول :

- نعم سيتزوجان . نبأ مفاجيء ولا شك ، لأنه لم يكن في الحسبان ؛ فلإما

أنها كانا يحسنان إخفاء ما عقدا النية عليه ، وإما أنه كان حباً يشبه الصاعقة .

وكيف كان الأمر فيها على وشك الزواج . لقد روت لي ماريا بنديكتا قصة

طويلة بهذا الصدد ، وأكد لي شخص آخر صدق هذه الرواية . والأمر واحد

على كل حال ، هو أنها قد أعجب كل منها بالآخر ، وصارح كل منهما الآخر .

وسيتزوجان قريباً . ولقد قال له كرسنيانو حين حدثه في الأمر ، إن الموافقة

منوطة بي أنا .. كما لو كنت أمها ! وقد وافقت فوراً ، وكل ما أتمناه لهما

هو أن يسعدا . والمرء يحس أنه فتى طيب ، وهي فتاة فذة ما في ذلك ريب ،

فكيف لا يسعدان ؟ إنه لزواج موفق . لقد ورث هو عن أبويه ثروة كبيرة ،

وماريا بنديكتا لا تملك شيئاً البتة ، لكنني هذبته وثقفتها كما تعلم . لا شك أنك

تذكر أنها حين جاءت إلينا كانت أشبه بحيوان متوحش : كانت لا تعرف شيئاً

على الإطلاق . وأنا التي هذبته وثقفتها . ومهما يكن من أمر ، فهذا ما يحدث

اليوم ، ولا شك في أن خالتي تستحقه ولا شك في أن ماريا تستحقه أيضاً . ذلك

هو الموضوع ، سيتزوجان قريباً جداً . ألم تلاحظ اليوم أنها ظلا معاً لم يفترقا

لحظة واحدة ؟ إننا لم نعلن الأمر رسمياً حتى الآن . لكن أصدقاء الأسرة قد

يكونون على علم به .

الحديث طويل من شخص كان مستهجلاً ذلك الاستهجال كله . ولم تلاحظ

صوفيا ذلك إلا متأخرة بعض التأخر . قالت لروبيان وهي توصيه أن يذهب الى الصالون : الى اللقاء بعد لحظة .

كان البيانو قد صمت وكانت تُسمع ضجة خفيفة من تصفيق وحديث .

١١٦

سيتزوجان ؟ اذن فكيف أمكن أن ...؟ ماريا بنديكتا ... ان ماريا بنديكتا هي التي تتزوج كارلوس ماريا ... أدرك روبيان كل شيء الآن . اذن لم يكن الأمر كله إلا خطأً والتباساً . ماظن أنه حدث مع شخص قد حدث مع شخص آخر ، هكذا يمكن أن يصل المرء الى الغيبة بل الى الجريمة .. تلك هي الافكار التي دارت في رأس روبيان أثناء اتجاهه الى قاعة الطعام حيث كان حشم البيت يمدون مائدة الليل . وتابع يقول وهو يذرع الغرفة جثة وذهاباً :

- هه ... لقد كان باليا يريد أن يزوجني ماريا بنديكتا ، من دون أن يدور بخلفه أن القدر يهيء لها خطيباً آخر . هو فتى جميل . هو خير منها على كل حال . ان ماريا بنديكتا لاوجود لها اذ يكاد لا يكون لها وجود إذا قبست بصوفيا . ولكن الحب هذا شأنه . سيتزوجان ، سيتزوجان قريباً ... أترأه يكون زواجاً فخمياً ؟ ربما ! يخيل لي ان باليا يعيش الآن في مجبوحة أوسع ... والقي روبيان في الوقت نفسه نظرة على الأثاث ، واطباق القيشاني ، واواني البلور ، والستائر . آ... نعم ... سيكون زواجاً فخمياً . ثم ان الخطيب غني ...

وفكر روبيان بعد ذلك في المركبة التي سيحتاج اليها في هذه المناسبة ، وفي الحمول التي يجب أن تجرها . وتذكر أنه رأى منذ بضعة أيام في الأنجنيوفليو حصانين رائعين سيهران الأبصار . فقرر أن يوصي على حصانين آخرين شبيهين بها تماماً ، مها يكن الثمن . ويجب عليه كذلك أن يقدم هدية الى الخطيبة . وبينما كان يفكر فيها وآها تدخل قاعة الطعام . قالت له :

كذلك قالت ماريا بنديكتا بعد بضع لحظات .

فأجابت دونا فرناندا :

- أيتها العذراء ! ألا إن هذا لكفر ... بل هو يا صغيرة كفران . فمن جهة أولى يجب أن لا يجب المرء أحداً كما يجب الله ، ومن جهة ثانية فان أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجل الأحمال ...

١١٩

« أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجل الأحمال ، » .

هذه الحكمة ليست رومانسية كثيراً . واحتجت ماريا بنديكتا . أليس

الحلم خيراً من البكاء ؟ إن للحلم نهاية ، أما الزوج السيء فقد يعمر طويلاً .

قالت ماريا بنديكتا تختم كلامها :

- أنت تقولين هذا لأن الله أعطاك ملاكاً ... هاهو هذا يصل .

- لا تقلقي . سيكون لك ملاكك أيضاً . بل لاني لأعرف ملاكاً رائعاً

أخبرته لك . أنت تعلمين أن الملائكة ليست بعيدة جداً عني .

ومن بعيد رآها تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، فأقبل عليها . وكانت بيده

جريدة مدعوك . وبدون أن يجي الضيفة انجبه بالكلام إلى امرأته ، فقال لها

وهو يركز أسنانه :

- هل تريدن أن تعلمي ماذا صنعوا لي يا نانا ؟ إن خطابي الذي ألقيته

بتاريخه قد نشر اليوم . فانظري في هذه الجملة . لقد قلت في خطابي :

في حالة الريب عليك بالامتناع ، فبذلك ينصح الحكماء . فقلبوا الجملة هكذا :

في حالة الدين عليك بالامتناع ... حقاً إن هذا لا يطاق . لاحظي أن الموضوع

الذي كان يدور عليه الكلام هو موضوع اعتادات لوزارة البحرية ، وقد قيل

أثناء المناقشة . إن النقفات كانت باهظة . فمن الجائر إذن أن يبدو ذلك غلاظة

وسفاهة مني فكأنني أدعو إلى الإختلاس فاصحاً بالامتناع عن الدفع . هذا محال

على كل حال !

أعرف انه ليس هناك موازين توزن بها العواطف ، لكن الذي أريد ان أقوله هو أنك مخلوقة تبلغين من النبل والجمال أن .. هيا اذهبي ، اذهبي حالا ، وبلا تابعت أقول الحقيقة كلها حتى تحمري أحمراراً شديداً ..

وكانت ماريا بنديكتا تحمر فعلا من شدة فرحها بكلمات روبيان . إن مشروعها قد فاز بالموافقة اللازمة من أهل البيت ، ولكن لاشيء عدا ذلك . وحتى كارلوس ماريا لم يظهر لها كثيراً من العاطفة : لقد كان يحبها في شيء من التحفظ . كان يجدتها عن السعادة الزوجية حديثه عن حق يتلقاه من القدر ، حق هو من طبيعة الأبناء ... وينبغي أن نذكر أيضاً أنه لم يكن في حاجة الى أن يعاملها غير هذه المعاملة من أجل أن تعبه أكثر من أي شيء في هذا العالم . وطلب إليها روبيان مرة أخرى أن تذهب ، وظل ينظر إليها كأنها ابنة . وراها تتبعد وهو على هذه الحال ، لتجتاز الغرفة وتختفي من أحد أبوابها . لها خفيفة الحركة فرحة ، تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه منذ برهة . ولم يتالك روبيان أن هتف :

— مخلوقة طيبة جميلة !

١١٧

إن قصة زواج ماريا بنديكتا قصة قصيرة . وهي تستحق أن تُروى رغم أن صوفيا تجدها مبتذلة . ويجب أن نسلم قبل كل شيء بأنه ما كان ليمت زواج لولا وباء الآلاجواس . وهذا ما يمكن أن نستخلص منه أن الكوارث مفيدة ، بل ضرورية . ولا تعوزنا الأمثلة على ذلك . وحسبي اليوم أن اروي هذه القصة القصيرة التي سمعتها في طفولتي والتي سأنقلها في سطرين : في يوم من الأيام كان كوخ يجترق على حافة طريق . وعلى مقربة منه قعدت صاحبة الكوخ على الارض (وهي عجوز فقيرة) تندب حظها وتبكي بدموع ساخنة . وفي أثناء ذلك مرّ رجل سكران ، فرأى الحريق ورأى المرأة ، فسألها هل البيت الذي

يجترق بيتها . فقالت له :

- هو بيتي يا سيدي ، وهو كل ما أملك في هذه الحياة الدنيا .

- فهل تسمحين لي إذن ان اشعل منه سيجاري .

لا شك في ان الكاهن الذي روى لي هذه القصة قد رتب النص الاصيل ،
اذ ليس من الضروري ان يكون المرء مثلاً حتى يشعل سيجارة من شقاء الناس .
لله درك يا أب شاجاس ! (كان اسم الكاهن الأب شاجاس) . لله درك
يا أب شاجاس ، يا من علمتني هذه الفكرة المغربية سنين طوالاً ، وهي ان المرء
لا يمكن ان يستغل شقاء غيره وهو مالك جميع قواه .. ناهيك عما يرهن عليه
هذا السكير من احترام لحق التملك حتى انه لم يجرؤ على اشعال سيجاره من
الانقراض إلا باذن صريح من صاحبته . أليس هذا كله افكاراً مغربة حقاً ؟
لله درك يا أب شاجاس ، لله درك !

١١٨

والآن ، وداعاً أيها الاب شاجاس . لنعد الى قصة الزواج . اما أن كارلوس
ماريا قد أعجب ماريا بنديكتا ، فذلك ما فهمناه ، او حزنناه على الأقل ،
منذ الحفلة الراقصة التي أقيمت في شارع الأركوس ، والتي رقصت صوفيا خلالها
معه رقصة طويلة ، فرأينا الفتاة تنهياً للعودة الى الريف في الغداة . لقد هدأتها ابنة
خالتها يومئذ ، قائلة إنها بسبيل العثور على خطيب لها . فقدرت ماريا بنديكتا
أنه راقص الليلة البارحة ، وأخذت تنتظر في صبر . ولم تفض بسرّها الى صوفيا
أولاً من قبيل الحياء والحقر ، وثانياً من أجل أن لا تفسد على ابنة خالتها لذة
إحداث المفاجأة بالكشف عن اسم الشخص . ثم لما إذا أفضت بسرّها حالاً كان
يمكن ان تفتت حماسة الشخص الآخر ، وبذلك تعرض جميع أحلامها للدمار .
ومها يكن من أمر ، فانه لا ينبغي لنا أن نطيل الكلام في هذه النقطة ، فما
هذا كله في آخر الأمر إلا حسابات صغيرة تقوم في ذهن فتاة شبت في قلبها
نار الحب !

وجاء وباء الآلاجواس . وجندت صوفيا لجنتها . وكان من شأن ذلك أن اتسعت دائرة العلاقات في اسرة باليا اتساعاً كبيراً . وقد دخلت ماريا بنديكتا نفسها عضواً في احدى اللجان الفرعية ، وبذلك عرفت جميع السيدات الأخريات ، ولكنها حظيت بتقدير احدهن خاصة وهي دونا فرناندا ، زوجة أحد النواب . ودونا فرناندا لم تتجاوز الثلاثين من عمرها الا قليلاً ، وهي سيدة تفيض صحة وجدلاً وانطلاقاً ، ولدت بمدينة بورتو أليجيري ، وتزوجت شاباً من الآلاجواس يحمل شهادة الليسانس ، وقد أصبح زوجها بعد ذلك نائباً عن مقاطعة اخرى ، وهو الآن بسبيله الى أن يصبح وزيراً فيها تقول الإشاعات . وقد ادخلت دونا فرناندا في اللجنة بحجة ان زوجها يرجع اصله الى الآلاجواس . ولم يندم أحد على ادخالها في اللجنة ، لأنها كانت تطالب التبرع من الناس بلهجة الأمر ، ولا تعاني عقدة الحجل ، ولا تطيق ان يقابلها احد برفض ! وكان كارلوس ماريا ابن عم هذه السيدة ، فلما وصلت الى ريودي جانيرو جاء اليها يزورها ، فرأى انها ازدادت جمالاً على جمالها سنة ١٨٦٥ - وهي السنة التي رآها فيها اول مرة - ولعله لم يخطيء . واستنتج من ذلك ان مناخ الجنوب يقوي الجسم ويضاعف المفاتن الطبيعية ، حتى لقد علل نفسه بأن يمضي الى الجنوب يقضي فيه اواخر أيامه . قالت له :

- تعال الى هناك ، وسأظفر بتزويجك . انني اعرف فتاة من بيلوناس هي في الحق جوهرة ثمينة ، ولا تريد أن تتزوج إلا بشاب من ريو .
- تريد أن تتزوجني طبعاً !
- تريد أن تتزوج شاباً من ريو واسع العينين . واعلم أنني لست بسبيل المزاح ، إنها فتاة جنوبية فذة حقاً . انظر ، هذه صورتها .
وفتحت دونا فرناندا محفظة للصور ، فأرته صورة الفتاة .
قال :
- ليست دميمة !

- فقط ؟

- بل هي أيضاً جميلة .

- يا ابن هي ، ما أكثر اظهارك للاشمئزاز !

فابتسم كارلوس ماريا من دون أن يجيب . إن هذا التعبير لم يعجبه . وأراد أن يغير موضوع الحديث ، لكن دوناً فرناندا عادت تتكلم عن زواج صديقتها . فهي تنظر إلى الصورة وتشرحها ، وتسبغ عليها شكلاً ولوناً ، واصفة عيني الفتاة وشعرها وبشرة وجبها . ثم تحدثت قليلاً عن تاريخ حياة سونورا . هذا هو اسم الفتاة . إن الكاهن الذي عمدها قد تردد في تسميتها بهذا الاسم ، رغم ما كان يحظى به أبو الطفلة من احترام ، وهو أحد أغنياء المالكين بالمنطقة ، لكنه رضى لهم أخيراً ، على أساس أن فضائل الطفلة قد تؤدي إلى أن يدرج اسمها في عداد القديسين .

قال كارلوس ماريا :

- تعتقدن أن اسمها سيدرج في عداد القديسين ؟

- إذا هي تزوجتك !

- هذا لا يدل على شيء . ولو تزوجت الشيطان لحدث لها الشيء نفسه على سبيل الشهادة . القديسة سونورا : ليس هذا الاسم قبيحاً ، وهو يعني مايعنيه . القديسة سونورا . ومهما يكن من أمر يا ابنة العم ...

فقاطعته تقول :

- اسكت ... أنت زنديق ...

ثم أردفت تقول وهي تخفيء محفظة الصور :

- إذن لم تحب صديقتي الجنوبية ؟

- لم أقل ذلك . ولكن دعيني هادئاً في عزوبيتي . ألا يكون المرء بذلك في منتصف الطريق إلى الجنة ؟

فانفجرت دوناً فرناندا ضاحكة وقالت :

- رحماك يارب ! هل تظن حقاً أنك ذاهب الى الجنة يوماً ؟
- أنا فيها منذ عشرين دقيقة . هل يشبه هذا الصالون الهاديء الرطيب الذي يبدو بعيداً كل البعد عن جمهرة الناس في الخارج ، إلا بالجنة ؟ إننا نستطيع هنا أن نتحدث في هدوء من دون أن نسمع تجديف الناس ، ومن دون ان يكون علينا احتمال تلك العقول العوجاء ، المتبلاة بالسل وداء الحنازير ، تلك العقول التي لا تطاق ، تلك العقول التي هي خير ما يصور الجحيم . هنا الجنة ، أو ركن من الجنة على الاقل . وما دام هذا الركن يتسع لنا ، فهو والانهائية سيان . اننا نتحدث عن القديسة سونورا ، والقديس كارلوس ماريا ، والقديسة فرناندا التي قررت أن تزوج الفتيات ، لتختلف قليلاً عن القديس جونسالو . فأين توجد جنة كهذه الجنة ؟

قالت دونا فرناندا :

- في بيلوتاس .

فقال متنهداً وهو يمد ساقيه ويرفع بصره نحو ثريا الصالون :

- بيلوتاس بعيدة جداً .

- على كل حال هذه هجمتي الأولى . وستلاحق هجباتي الى أن ترضخ لي . فابتسم كارلوس ماريا ونظر الى عينيّ ضفيرة الحرير التي عقدتها حول رقبتها في إهمال . ترى هل ألقى هذه النظرة ليتأمل العينين أم ليعجب برشاقة الجسم ؟ ولاحظ مرة اخرى أن ابنة عمه امرأة جميلة حقاً . وحضه هذا الجمال ، من غير أن يشعر ، على أن يرفع نظره الى اعلى قليلاً ، لكن الاحترام حمله على أن يحول عينيه بسرعة . وليست الصداقة وحدها هي التي دفعته الى إطالة زيارته في هذا البيت وإلى تكرارها : لقد كان كارلوس ماريا يجب محادثة النساء بقدر مايكره محادثة الرجال عامة . فهو يرى أن الرجال متعاطمون وعاميون ومملون وثقيلون وتافهون وغليظون وسخيفون . . . أما النساء فلسن عاميات ولا متعجرفات ولا مملات . وليس مجردهن من فتنتهن أن يكون بهن شيء من العجب والزهو ، بالعكس . . . إن بعض العيوب الثانوية تحتل فيهن أكثر مما

تحتل في الرجال . زد على ذلك أن لمن كل ما لجنسهن من حلاوة وعذوبة . وكان كارلوس ماريا يرى أن اكثرهن تقاهة لا تخلو من شيء . فاذا خلا بعضهن من الملاحه حقاً قال انهن رجال .

وفي أثناء ذلك كانت الصلات بين دونا فرناندا وماريا بنديكتا تتوثق يوماً بعد يوم . وكانت الفتاة تجتاز في تلك الآونة أزمة . فهي إلى ما تتصف به طبيعتها من حياء تظهر عليها الآن علامات حزن واضحة . وكان الاختلاف بين المرأتين - سواء من ناحية الطبع ومن ناحية المركز - هو بعينه ما يقرب بينهما . إن دونا فرناندا امرأة تفيض حباً للناس وعطفاً عليهم . كانت تحب الضعفاء والحزاني ، لشعورها بأن عليها أن تعيد إليهم المرح والشجاعة . ويعزو الناس إليها أعمالاً كثيرة من أعمال البر والتضحية .

سألت صديقتها الشابة ذات يوم :

- ولكن ماذا بك ؟ إنك لاتضحكين أبداً ، ولا تغيب عن وجهك امارات الفكر ، وعيناك تائهتان دائماً في احلامك ...

- ليس بي شيء ، هذه طبيعي .

قالت ماريا ذلك مبتسمة ، وقد بدا عليها انها تبتسم ، من قبيل التلطف . ثم أشارت كذلك إلى فقد امها قائلة ان ذلك أن أحد أسباب كآبتها . فأخذت دونا فرناندا منذ ذلك الحين تصطحبها حيثما تذهب ، وتدعوها إلى العشاء ، وتخصها بمكان في شرفتها حين تقضي إلى المسرح ، الخ .. فبفضل ذلك ، وبفضل طبعها المرح أيضاً ، استطاعت أن تطرد من ذهن الفتاة الأفكار السوء التي استولت عليها . وسرعان ما جعلتها العادة والمودة صديقتين حميمتين . لكن ماريا بنديكتا ظلت تكتم سرها في صدرها .

قالت دونا فرناندا ذات يوم لنفسها : «مهما يكن هذا السر ، فاعتقد أن خير شيء هو أن أزوجه من كارلوس ماريا . وفي وسع سونورا أن تنتظر.»

فقالت لها بعد يومين في بيتها الصغير بماذا كفالوس :

- يجب أن تتزوجي .

كانت ماريا بنديكتا البارحة بصحبة صديقتها في المسرح ، فرافقتها بعد المسرح الى منزلها وقضت ليلتها عندها .

- لا تنتفضي ، يجب أن تتزوجي وستزوجين . إنني أمم أن اقول لك هذا منذ يومين ، لكن هذه الأمور إذا قيلت في الصالون أو في الشارع لا يكون لها ما ينبغي ان يكون من قوة الوقع . ولا كذلك في البيت . فاذا كنت تحسبن انك قادرة على ان ترافقيني في جولة صغيرة على الرابية ، رتبنا كل شيء . هل توافقين ؟

- ولكن الجو حار ...

- هذا أقرب الى الشعر يا عزيزتي ! ألا إنك لمن مدينة ريو حقاً ! .. أفي عروقكم دم أم ماء ، يا هؤلاء ؟ لنبق اذن على هذا المقعد ، اجلسي وسأجلس الى جانبك . انني مستعدة لكل شيء . ستتزوجين أو تموتين ، ولا وسط . لا تحبيني . لست سعيدة (قالت ذلك وهي تغير لهجتها) إنني ادرك انك لا تحبين الحياة ، رغم كل ما افعل . تعالي الى هنا . حدثيني بصراحة . هل تحملين عاطفة لشخص معين ؟ إذا كنت تحملين عاطفة لشخص معين ، فاذكري لي اسمه ، وأنا أبعث في طلبه حالاً .
- لا شيء من هذا .

- عظيم ! ذلك يسهل الامور تماماً . لسنا في حاجة الى أن نضع على قلبك لافتة كتب عليها : « للايجار » . عندي مستأجر ممتاز .

فالتقت ماريا بنديكتا اليها التفاتة تامة ، وقد فغرت فاها وحملت عينها . لا يدري المرء هل سبب لها هذا العرض خوفاً أو أملاً . واذا لم تستطيع دونا فرناندا أن تدرك الرغبة الحقيقية التي تعتمل في نفس الفتاة ، تناولت يدها وطلبت اليها أن تكشفها بكل شيء . فلا شك أبدأ في أنها تحب أحداً ، ذلك أمر واضح ، يرى في عينها ، وعليها أن تعترف به . وراحت دونا فرناندا تلمع وتتضرع ، وقالت إنها ستأمرها بالاعتراف إذا لزم ذلك . ولكن يد ماريا بنديكتا كانت تبرد ثم تبرد شيئاً بعد شيء ، وبدا على عينيها انها مسمرتان

الى الارض . وظلت السيدتان كلتاهما صامتتين خلال لحظات .

كررت دونا فرناندا تقول :

– هيا تكلمي !

– ليس عندي ما أقوله .

فأظهرت دونا فرناندا بإشارات عريضة انها تصدق قولها ، وكانت في كل مرة تزداد إقتراباً منها ، الى أن حضنتها آخر الأمر وقالت لها بصوت خافت جداً إن عليها أن تنظر إليها نظرتها الى ام ، وراحت تقبلها من وجبها وأذنيها وورقتها ، ووضعت رأسها على كتفها وهي تدغدغها باليد الاخرى . اريد ان اعرف كل شيء ، كل شيء . إذا كان حبيب قلبها في القمر ، فلتجيئن لها به من القمر ... لتبعثن في طلبه حيث يكون ، إلا ان يكون في المقبرة . ولكن إذا كان في المقبرة ، فلتجدن لها عريساً آخر يفوق الاول وينسيها اياه في مدى بضعة أيام . وكانت ماريا بنديكتا تصغي إلى هذا الكلام مضطربة أشد الاضطراب ، خافقة القلب أشد الخفوق . لأنها لا تعرف كيف تتخلص من هذا الموقف ، فهي مستعدة لأن تقضي بسرهما . ولكنها ما تزال تلزم الصمت كأن عليها أن تدافع عن حياتها وخفورها .

إنها لا تنكر ولا تعترف . ولكن لما كانت ترتعد من شدة الانفعال ولا

تبتسم في الوقت نفسه البتة . كان من السهل على المرء أن يحزر جزءاً من الحقيقة .

– أنت إذن لاتعدينني صديقة لك ، أنت لاتتقين بي ! يجب عليك أن تعامليني

كما تعامل البنت أمها .

وظلت ماريا بنديكتا تقاوم بعض المقاومة ، ولكنها استنفدت طاقتها كلها

فأصبحت تشعر أن عليها أن تبوح بشيء ما . وأصغت إليها دونا فرناندا منفعلة

أشد الانفعال . كان شعاع من الشمس قد قبّل حوافي المقعد ، ثم لم يلبث أن

امتد إلى أقدامها ، ثم إلى أطراف نديها ، حتى بلغ ركبتيها . ولكنها لم

تشعرا به . لقد شغلها الحب عن كل شيء . وافتننت دونا فرناندا افتتاناً غريباً

بقصة ماريا بنديكتا . إن هذا الحب الذي يحرق الفتاة حرقاً ، لا يعرفه أحد ،

ولا يشارك فيه المحبوب ، ولا بتصوره ، وهو بتغير الآن شيئاً شيئاً ليستحيل إلى عبادة محضة . كانت ماريا في أول الأمر إذا رأت الرجل الذي نجه تعاني حالتين نفسيتين مختلفتين كل الإختلاف : إن ماتحه لأول وهلة لانستطيع أن تحدده تحديداً واضحاً ، فهي مفتونة ذاهلة اللب معاً ، يخفق قلبها خفقاناً قوياً ، وتشعر أنها توشك أن يغمى عليها . ثم تأخذ تتأمله ، وتلك هي المرحلة الثانية ، ولا يبقى لها إلا هذا : أن تتأمله . ولقد بكت كثيراً ، وقضت ليالي لانهاية لها تفكر فيه وحده . لقد دفعت ثمن مطامحها الجنونية غالباً ! ولكن لاشيء يمكن أن ينتزع من ذهنها أنه خير الرجال جميعاً ، وأنه يشبه أن يكون لها يستحق منها العبادة ولو لم يعبا بها .

فلما صمتت ماريا بنديكتا صمتاً تاماً قالت لها دونا فرناندا :

- حسناً . لنتنقل الآن إلى الأمر الجوهري ، وهو أن لانظلي تتألين في غير طائل . يا عزيزتي ، إن حيك إنساناً غير مكثوث بك ضرب من الشعر ، لأكثر فدعي عنك الشعر ! إنك لم تظفري في هذه القضية بغير الحسرة . لأنه سيتزوج امرأة أخرى ، ثم تمضي السنون ، ويمضي هواك معها ، وتستيقظين ذات يوم فإذا أنت بلا حب ولا زوج ، ثم من هو ذلك الانسان الذي قلبه من حجر ؟

قالت مارنا بنديكتا وهي تنهض :

- لن أقول من هو .

فقالت دونا فرناندا وهي تمسك بقبضتها وتجلسها على ركبتيها :

- طيب . لاتقولي . المسألة الوحيدة هي أن تتزوجي : وما دام زواجك

به مستحيلاً ، فلتتزوجي غيره .

- لا ... لا ... لن أتزوج .

- لن تتزوجي أحداً غيره ؟

- حتى هو لن أتزوجه ... لأدري ... أنني أحبه كما يجب الله .

كذلك قالت ماريا بنديكتا بعد بضع لحظات .

فأجابت دونا فرناندا :

— أيتها العذراء ! ألا إن هذا لكفر ... بل هو يا صغيرة كفران . فمن
جهة أولى يجب أن لا يجب المرء أحداً كما يجب الله ، ومن جهة ثانية فإن أي
زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجل الأحمال ...

١١٩

« أي زوج ، ولو كان سيئاً ، خير من أجل الأحمال ،

هذه الحكمة ليست رومانسية كثيراً . واحتجت ماريا بنديكتا - أليس
الحلم خيراً من البكاء ؟ إن للحلم نهاية ، أما الزوج السيء فقد يعمر طويلاً .
قالت ماريا بنديكتا نختم كلامها :

— أنت تقولين هذا لأن الله أعطاك ملاكاً ... هاهو هذا يصل .
— لا تقلقي . سيكون لك ملاكك أيضاً . بل إنني لأعرف ملاكاً رائعاً
أخبره لك . أنت تعلمين أن الملائكة ليست بعيدة جداً عني .
ومن بعيد رأها تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، فأقبل عليها . وكانت بيده
جريدة مدعومة . وبدون أن يجي الضيفة اتجه بالكلام إلى امرأته ، فقال لها
وهو يركز أسنانه :

— هل تريدن أن تعلمي ماذا صنعوا لي يا نانا ؟ إن خطابي الذي ألقيته
بتاريخ ه قد نشر اليوم . فانظري في هذه الجملة . لقد قلت في خطابي :
في حالة الريب عليك بالامتناع ، فبذلك ينصح الحكماء . فقلبوا الجملة هكذا :
في حالة الدين عليك بالامتناع ... حقاً إن هذا لا يطاق . لاحظي أن الموضوع
الذي كان يدور عليه الكلام هو موضوع اعتمادات لوزارة البحرية ، وقد قيل
أثناء المناقشة . إن التفقات كانت باهظة . فمن الجائز إذن أن يبدو ذلك غلاظة
وسفاهة مني فكأنني أدعو إلى الإختلاس ناصحاً بالامتناع عن الدفع . هذا محال
على كل حال !

- ولكن ألم تقرأ تجارب الطبع ؟
- قرأتها ، غير أن كاتب الشيء اعجز الناس عن قراءته قراءة صحيحة .
« في حالة الدين عليك بالامتناع » .
كذلك تابع يقرأ وهو يحدق إلى الجريدة . ثم أضاف يقول بنبرة
أعلى :

- ولكن هذا لا يمكن ان ...
كان الرجل منصقماً . إنه انسان ينعم بمواهب جمّة ، ويمتاز بكثير من الجهد
والحماسة في العمل . غير أن أكبر المشاريع واعوص المشكلات ، واخطر المعارك
واعمتق الثورات ، والشمس والقمر والنجوم والحيوانات وجميع اجيال البشر ،
كل ذلك لا يساوي الآن في خطورة الشأن عنده ما يساويه لبدال كلمة الرب
بكلمة الدين . وكانت ماريا بنديكتا تنظر إليه ولا تفهم . كانت تظن أنها
تعاني اشد الم في العالم . وهاهي ذي ترى الماء لايقبل عن الماء ، بل يزيد .
الحزن الكاري الذي تشعر به فتاة الا يساوي اكثر من خطيئة مطبعية ؟ ولم
ينتبه تيوفيلد إلى وجودها إلا في تلك اللحظة ، فمد إليها يده . كانت الفتاة في
مثل الثلج برودة . ما من احد يستطيع ان يصطنع برودة اليدين . إذن فهي تتألم
حقاً . وبعد بضع لحظات رمى الجريدة على الارض في عنف ، ومضى .
قالت له امرأته وهي تنهض :

- ولكن في إمكانك ، يا تيوفيلو ، ان تنشر تصحيحاً في الغد .
فلم يزد تيوفيلو على ان رفع كتفيه يائساً دون ان يلتفت . وركضت امرأته
وراءه . وهبت صديققتها وتبعتها . فلم يبق هنالك الا المقعد ، خلا الآت من
وجودهم وراح يستقبل وحده اشعة الشمس غير مكترث بالعواطف ولا بالحطب .
وقادت دونا فرناندا زوجها الى حجرة صغيرة ، واستطاعت هنالك ان تغريب
بالقبلات عن الضربة التي رماه بها الحظ فلما حان موعد الغداء بدأ بيتسم ، ولو
ابتسامة شاحبة بعض الشحوب . ومن اجل ان تصرفه زوجته عن افكاره ،
بسطت له مشروعها الخاص بزواج ماريا بنديكتا قائلة انه من الضروري ان

تتزوج نائباً من النواب ، إذا كان في المجلس نائباً أعزب ، بغض النظر عن آرائه ، يستوي أن يكون من حزب الحكومة أو من المعارضة أو من الجهتين كليهما ، أو أن لا يكون من أي حزب البتة لما المهم أن يكون زوجاً وكفى . واستطاعت أن تسوق حول هذا الموضوع ملاحظات حية فكحة أمضت الوقت وأنست ذكرى الخطأ المطبعي . يالها من مخلوقة طيبة تقية ! . وأدرك تيوفيلو نية امرأته ، فاسترد صفاء مزاجه شيئاً بعد شيء ، ووافقها على أن تزوج ماريا بنديكتا أمر مناسب .

قالت دونا فرناندا وهي تنظر إلى صديقتها :

– شر مافي الأمر أنها تحب شخصاً ولا تريد أن تبوح باسمه .

فقاطعها زوجها وهو يمسح فمه :

– لاداعي لي أن تبوح باسمه ، فواضح جداً أن الشخص الذي تحبه إنما

هو ابن عمك !

١٢٠

في يوم الأحد التالي ذهبت دونا فرناندا إلى كنيسة سانيو آنطونيو دوس بدبرس . فلما انتهت الصلاة رأت ابن عمها يخرج من بين جمهور المصلين – الذين كانوا يلاطفون بعضهم بعضاً أو ينحنون أمام المذبح – رآته هو نفسه منتصباً كحرف الألف ، مرتدياً ثياب تقشف . ومد إليها يده وهو يبتسم ، فبادرته بالسؤال مبهوتة :

– هل كنت في الصلاة أنت أيضاً ؟

– نعم .

– هل تصلي دائماً ؟

– دائماً ، لا ... ولكنني أصلي غالباً ...

– بصراحة ... لم اكن أتوقع مثل هذا التقى منك ! والرجال عامة

ستخفون بالدين . إن تيوفيلو لا يضع قدميه في الكنيسة ابداً ، اللهم إلا من

أجل تعويد الاولاد . أنت إذن تقوم بواجباتك الدينية ؟
- لا أستطيع أن أجيب إجابة قاطعة . غير أنني احتقر تلك العادة الرخيصة
التي تجري مجرى الزي ، أعني تسفيه الدين . ولكن دعينا من هذا الموضوع ،
فما جئت الى هنا للاعتراف بل للصلاة . سأصحبك إلى بيتك ، فان دعوتني إلى
الغداء قبلت ، إلا أن ترغبي في تناول طعام الغداء بمنزلي . هل تعلمين انني
اقطن في هذا الشارع ؟
قالت دونا فرناندا :

- لو امكنتني لذهبت من تلقاء نفسي أزف إليك نبأ يصعب شرحه بكلماتين .
فأجابها كارلوس ماريبا على باب الكنيسة وهو يقدم لها ذراعه :
- فلنمش إذن على مهل .

وأردف يسألها بعد بضع خطوات :

- اهو نبأ هام ؟

- هام ورائع !

- سوف ترين ان الله بواسع رحمته سيأخذ عزيزنا تيوفايو تاركاً في هذه
الحياة الدنيا اجل ارملة . دعيك من هذا العناد يا ابنة العم ... هاتي ذراعك .
والآن ، ماهو النبأ ؟ اواهن على ان فتاة بيلوتاس قد وصلت !
- لن احدثك في الأمر إلا اذا حلفت انك ستصغي إلي جاداً .
- سأصغي إليك جاداً ..

فاعترفت له دونا فرناندا بأنها أصبحت تتردد في أمر زواجه من بنت منطقتها .
ذلك أنها لاتريد أن يتعذب ضميرها بعد أن اكتشفت أن هناك فتاة تحترق
هياماً به . فابتسم كارلوس ماريبا ، ونهياً للزجاج ، لكن النبأ شغل باله مع
ذلك . هياماً ؟ « هياماً ، تولهماً ! » كذلك قالت دونا فرناندا ، لكنها أضافت
أن هذا التعبير ربما كان لا يصدق صدقاً كاملاً على العواطف التي أصبحت تشعر
بها الفتاة الآن . ذلك ان هذه العواطف قد صارت إلى نوع من العبادة الهادئة
الصامتة . لقد بكت من أجله ليالي وليالي ، مادام في نفسها القليل من الأمل

وردت دونا فرناندا على مسامح ابن عمها كل ماأفضت به اليها ماريابنديكتا .
ولم يبق الا أن تذكر له اسم الفتاة . وأراد كارلوس ماريا أن يعرف الاسم .
لكنها رفضت أن تبوح به ، قائلة أنها لا تستطيع أن تكشف عنه ، فعلام
تمتعه بمعرفة اسم الفتاة التي تحبه في حين أن قلبه لا يخفق بمثل ماخفق به قلبها ؟
ان الأفضل أن يظل جاهلاً باسم هذه الفتاة . ثم أن الفتاة قد كفت الآن عن
البكاء ، وتبددت مطاعمها ، وتبددت أوهامها ، وفقدت كل أمل في أن يجيها ،
واستحالت بمضي الزمن الى عابدة ولكنها عابدة لانظير لها فهي
لا تطمع حتى في أن يسمعها معبودها ولا في أن يلقي عليها نظرة عطف .
- ابنة العم ، أنت

- أنا ماذا ؟

وقال كارلوس ماريا أخيراً أن المحامية أهل للقضية التي ترفع فيها ، فإذا
صح أن الفتاة تعبد هذه العبادة كلها ، فمن العدل ومن طبيعة الامور أن تتم
بها ابنة عمه هذا الاهتمام الحار كله . ولكن لماذا الامتناع عن ذكر اسمها ؟
- لن اذكر لك اسمها الآن وربما ذكرته لك في يوم من الأيام
ولكنك أصبحت تعرف لماذا يصعب علي أن أزوجك من فتاة مدينتي بعد أن
علمت أن هناك فتاة تحبك هذا الحب الموهله كله . على أن هذه الفتاة الموهلة قد
لا تتألم المأ مبرحاً إذا أنت تزوجت . نعم ، أنا أعلم أن هذا لا يعقل . ولكنني
أعرفها : انني لعلى يقين من أنها تستطيع أن تبارك غريمها متى عرفت أنك سعيداً !
قال كارلوس ماريا بعد بضع خطوات وهو يحدق الى الارض :

- ليس هذا من الرومانسية فحسب ، بل هو من الصوفية أيضاً . وليست
الصوفية من هذا العصر ! أعندك حقاً براهين على أن عواطفها هي هذه ؟
- عندي هذا هو بيتك ، أليس كذلك ؟

قالت دونا فرناندا هذا وهي تقف .

- نعم

- عمارة جميلة ... ويبدو أنها متينة .

- متينة جداً .

- نافذة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع ،... سبع نوافذ . هل يحتل الصالون
الراجة كلها ؟ هذا خير مايرجى لإقامة حفلة راقصة .
وأضافت تقول وهي تتابع سيرها :

- لو كان لي بيت أوسع لأمت حفلة راقصة قبل أن اسافر الى ريو جراندي^(١) .
انني أحب الحفلات حباً شديداً . والحق أن طفلي لايرهقني بالعمل . بالمناسبة ،
أحب ادخال لوبو في المدرسة ، فأين أجد مدرسة جيدة ؟
وكان كارلوس ماريا يفكر في العابدة المجهولة . ان ذهنه بعيد ، بعيد جداً ،
عن التعليم والمدارس ... ماأبدع أن يحس المرء بأنه إله معبود ، على الطريقة
الانجيلية ، سرأ ، في حجرة مقفلة مرتين ، لا على مرأى من جميع الناس كما
في كنائس اليهود . « وأبوك الذي يرى كل شيء ، حتى أخفى ماعتدك ،
سيكافئك » ! نعم ... لسوف يكافئها اذا عرف اسمها . أتراها متزوجة ؟
لا ... مستحيل ... لو كانت متزوجة لما أفضت بسرها الى أحد . أتراها أرملة
أم عزبة ؟ . الأرجح أنها عزبة ... كل شيء يشير الى ذلك . أين تراها تحبس
نفسها لتعبده ، لتفكر فيه ، لتبكي من أجله ، لتباركه ؟ أصبح الآن لايرغب
تلك الرغبة كلها في أن يعرف اسمها ، ولكنه يريد على كل حال أن يعرف
المكان الذي تنزوي فيه .

كررت دونا فرناندا تسأله :

- ترى أين أجد مدرسة جيدة ؟

- مدرسة ؟ لأدري . انني أفكر في المجهولة . لعلك تقدرين أن شخصاً يعبدني
هذه العابدة الصامتة ، من غير امل ، يستحق أن افكر فيه . اهي طويلة أم
قصيرة ؟

- هي ماريا بنديكتا .

(١) هي ريو جراندي دوسول ، إحدى ولايات البرازيل ، في أقصى الجنوب .

وقف كارلوس ماريا مبهوتاً .

– ماريا بنديكتا ؟ مستحيل ... لقد تحدثت اليها كثيراً فما لاحظت شيئاً خاصاً . وكنت اجد دائماً انها فاترة . لاشك ان ثمة خطأ . هل ذكرت لك اسمي ؟

– لم تذكره ، رغم توسلي . لقد اعترفت بالعبادة ، لكنها لم تشأ ان تسمي المعبود . ويا لها من عبادة ! لك ان تعتر بأنك محبوب اكثر من اي انسان . لمن هذا البيت ؟

– من عادتك يا ابنة العم ان تضخمي الامور . قد لا يكون هذا الحب هوى قوياً كالذي تصفين . محبوب اكثر من اي انسان ؟ ثم كيف عرفت انني انا المحبوب ؟

– تيوفيلو اول من اكتشف ذلك . وحين اعلنه امامها احمرت احمراراً شديداً حتى صارت بلون سقائق النعمان ؛ ولقد زعمت لي بعدئذ ان هذا غير صحيح ولكنها لم تعد الى البيت منذ ذلك اليوم .

تلك هي نقطة البداية في قصة حبها . شعر كارلوس ماريا بكثير من الاعتزاز لهذا الحب الطامت ، واستحال تحامله على الفتاة الى عطف . وازداد اختلافه اليها . واصبح اطرباب الفتاة ومخاوفها وفرحها وتواضعها ومواقفها التي تشبه ان تكون مواقف ضراعة ، اصبحت جميع هذه الأعمال والعواطف التي هي بمثابة عبادة للرجل ، تملأه ارتياحاً . وتعلمون كيف نهاية الرواية ! لقد رأيتوهما معا في عيد ميلاد صوفيا ... صوفيا التي كان يسمعها قبل ذلك كلمات عذبة كل العذوبة ! ولكن هذا شأن الرجال : هم اشبه بالماء الذي يجري والنسيم الذي يهب .

١٢١

قال روبيان لنفسه : « هذا احسن ! فلتزوج » .
وبين المساء الذي علم فيه بالنبا واليوم الذي تم فيه الزواج ، رأى صوفيا

تنظر الى كارلوس ماريا عدة مرات نظرات مريبة بعض الشيء ، ولكن كارلوس ماريا ان اجاب على هذه النظرات فمن قبيل التأدب ، فاستخلص روبيان من ذلك ان الأمر لا يبدو ان يكون مصادفة . ثم انه مايزال يذكر الدمعة التي سكبها صوفيا لحظة شرحت له قصة الرسالة كاملة في مساء عيد ميلادها .

بالتلك الدمعة التي لم تكن مؤملة ! ايها الدمعة التي كنت كافية لاقتناع واحد من الرجال ، لعلك تظلين سرأ لا يفهم بالنسبة الى رجال آخرين . كذلك هو العالم ! ليس امرأ هاماً ان لا تكون هاتان العينان معتادتين البكاء ، ولا ان تبدو تلك السهرة حاضة على كل شيء الا على الحزن .. حسب روبيان انه رأى هطول الدمعة .. على أن ثقة روبيان لم تنشأ عن هطول الدمعة فحسب ، وانما نشأت كذلك عن موقف صوفيا منه منذ ذلك الحين : انها لم تكن في يوم من الأيام محتفية به هذا الاحتفاء كله ولا لطيفة في معاملته هذا اللطف كله .

لكأنها نادمة على اساءتها اليه ، فهي تحب أن تتدارك ما فرط منها ، سواء أكان مرد ذلك الى أنها شعرت نحوه بعاطفة متأخرة ، أم الى مغامرتها هي . هناك آثام تبقى في حيز القوة ، ولا يقترفها المرء أبداً .. هناك (اوبرات) تظل غافية في رؤوس بعض الموسيقيين تنتظر أولى موازين الالهام ..

١٢٢

ردد روبيان يقول : « يسعدني أن يتزوج ! »

واحتفل بالزواج بعد أقل من ثلاثة أسابيع . وفي صبيحة اليوم المضروب فتح كارلوس ماريا عينه بشيء من الدهشة : أهو الذي يتزوج ؟ نعم ، ولا يجوز الشك في ذلك . ونظر الى نفسه في المرآة .. انه هو ! وتذكر الايام الاخيرة المنصرمة ، وتذكر كيف جرت الاحداث مسرعة ، وتذكر العاطفة الصادقة التي يحملها لحظيته والسعادة الكاملة التي سببها لها .

وهذه الفكرة الاخيرة ، خاصة ، ولدت في نفسه رضى قوياً كبيراً . ولم تتركه هذه الحواطر خلال النزعة المعتادة التي قام بها على صهوة جواده . لقد

قرر أن يمضي من جهة انجنيفليو . ومع أنه ألف أن تتابعه جمهرة من نظرات الاعجاب في نزته ، فقد لاحظ ان وجوه الناس في ذلك اليوم كانت تعبر عن معنى خاص ، هو المعنى الذي يناسب النبأ العظيم ، بأزواجه . وحتى شجيرات احدى المزارع لم تنس حين مرّ بها أن تقضي اليه بامر كثيرة ، مع أنها كانت قبل وصوله ساكنة كل السكون ، امور قد تردها عقول خفيفة الى النسيم الذي هب ، أما الحكماء فيدركون فوراً أنها لغة الأعراس تتكلمها الشجيرات . والعصافير كانت تثب من جهة الى اخرى وهي تغرد انشودة غزل . وهذان زوجان من الفراش - وأنتم تعلمون أن اليابانيين قد عدّوا الفراش رمزاً للوفاء بعد أن لاحظوا أن الفراش لا يكاد ينتقل من زهرة الى اخرى الا أزواجاً - أقول هذان زوجان من الفراش أصفران مرحان ، يتبعان الحصان مدة طويلة ، ويتواثبان هنا وهناك فوق السياج الذي يحف بالطريق . وهناك الهواء الندي ، والسما الزرقاء ، والوجوه الفرحة ، وجوه الرجال الذين يلقاهم كارلوس ماريا في الطريق جائين على ظهور حميرهم أو مائلين على نوافذ عرباتهم ليتأملوه ! إن من الصعب عليه أن يعتقد ان جميع هذه الحركات والاوضاع من الناس والحيوانات والاشجار يمكن أن يكون معنى آخر غير معنى التحية تزجها اليه الطبيعة في عرسه .

واختفت الفراشات أخيراً في احد الادغال الكثيفة من السياج . وظهرت مزرعة اخرى على حافة الطريق ، مزرعة بلا أشجار ، ترى في آخرها من خلال بابها الكبير بيتاً قديماً مهجوراً كأن نوافذه الخس التي تطل على شرفته تحددك اليك بعينين محمقتين . كم من عرس وكم من حفلة تمت وراء هذه النوافذ في أيام روائها ، في جدتها الأخاذة والأمل الذي تنشر عقبه !

ولكن لا تظنوا أن الأمسى الذي يفوح من هذا المشهد قد بث في قلب فارسنا الجميل شيئاً من الحزن . بالعكس ... لقد كان يملك تلك الموهبة الخاصة الغذة التي تمكنه من أن يعيد الى الانقراض شباها وأن يحيا الحياة الأولى للأشياء .

حتى لقد أمتعته رؤية البيت العتيق الحروب الذي يختلف ذلك الاختلاف كله عن الفراشات النشيطة التي كان يراها منذ برهة . ووقف حصانه ، وتصور النساء اللواتي لابد أنهن دخلن من هذا الباب الواسع : أزمنة أخرى ، ووجوه أخرى وعادات أخرى .. لعل طيوف أولئك الأشخاص السعداء الذين كانوا يعيشون في الماضي قد خرجت الآن من لحودها وجاءت هي الأخرى تحيه وتعبير له بأفواه خفية لا ترى عما تحمل له من إعجاب شديد . لقد سمع هو أصواتها على كل حال ، وابتسم من ذلك ارتياحاً . غير أن صوتاً حاداً انضم عندئذ الى هذا اللحن العذب ، صوت بغاء كانت سجينه في قفص معلق بجدار البيت . « بغاء ، بغاء ، بغاء الملك ، بغاء البرتغال ... من هناك ؟ كوكو ، حبيبي الجميل كوكو .. غرررر .. غرررر .. » واختفت الأطياف واستأنفت الحصان سيره . إن كارلوس ماريا يكره البيغاوات كرهاً شديداً كما يكره القروء ، وكان من عادته أن يقول عنها : « تقليدان كاذبان للانسان » . ساءل نفسه وهو يتابع طريقه : « هل تنقطع السعادة التي سألها لها مثل هذا الانقطاع ؟ »

واجتازت الشارع عندئذ عصافير تغرد بلغتها ، فكان ذلك كافياً لرد الأمور الى نصابها ! . إن هذه اللغة التي لا تشتمل على كلام لغة مفهومة . إنها تعبر عن كثير من الجمال وكثير من الطهارة ، ورأى كارلوس ماريا أنها ترمز اليه : إذا امتلأت نفس امرأته اشتمزازاً من الضجة التي تحدثها بيغاوات العالم ، فلسوف يخرجها من هذا الاشتمزاز بتغريد الطائر الذي يحمله في داخله ! ألا إنها لأفكار من ذهب يعبر عنها صوت من ذهب ! .. آ .. لسوف يسعدها أكبر السعادة ! وها هو ذا يتصورها منذ الآن راكعة واضعة ذراعها على ركبتيه ، دافئة رأسها بين يديه ، محدقة اليه ، وقد زاعت عيناها امتناناً وعبادة وجباً . لسوف تكون أمامه ضارعة كل الضارعة ، فانية كل الفناء ! ..

١٢٣

وتخيلوا أن هذه الصورة الأخيرة قد طافت بخيال خطيبته في اللحظة التي راودت فيها خياله . كانت واقفة على نافذة غرفتها تحدق الى الأمواج التي تتلاحق في بعيد ثم تتكسر على رمال الشاطئ ، فاذا هي ترى نفسها راكعة عند قدمي زوجها في مذلة - كركوعها عند منضدة التناول - من أجل أن تتلقى قربان السعادة . قالت لنفسها : « آه . . . لسوف يسعدني أكبر السعادة ! » . الأفكار والأقوال مختلفة بعض الاختلاف ، لكن الوقت هو نفسه والوضع هو نفسه ..

١٢٤

تزوجا وسافرا الى أوربا بعد ثلاثة أشهر . ولم تبك دونا فرناندا حين ودعتها ، بل كانت مشرقة الوجه ، كأنها عائدان لا مسافران . لقد كانت فرحها بسعادتها أقوى من حزنها لفراقها ! .
قالت لما رايابنديكتا ، عند المركب ، مرة أخيرة :
- أنت مسرورة ؟
- جداً .

كانت دونا فرناندا تفيض فرحاً ، فرحاً صافياً بريئاً يومض في عينيها ، بينما كان يصدح في قلبها لحن من تلك الألحان الايطالية التي كانت تعجبها كثيراً لعله لحن أغنية لوسيا التي تقول :

(١) O'bell'alma innamorata

او لعله ذلك المقطع من « حلاق اشيلية » :

(٢) Ecco ridente in cielo

Spunta la bella aurora.

١٢٥

لم تذهب صوفيا الى الميناء . كانت متوعكة فأرسلت زوجها ينوب عنها . لا تظنوا

(١) ابتها النفس الجميلة الودود .

(٢) هذا هو الفجر الجميل الباسم ... يظهر في السماء .

أن ذلك عن حسرة أو حزن . لقد عرفت أثناء الزواج كيف تبرهن على كثير من الكتمان ، وعنت بجهاز العروس وودعتها وهي تعمرها بقبلات تمازجها الدموع أما أن تذهب لى المركب فقد رأت أن ذلك كثير ! لذلك زعمت أنها مريضة ، ثم لزمت غرفتها حتى لا يشك أحد في صدق زعمها ، وتناولت رواية حديثة أهداها اليها روبيان . أن أشياء أخرى كثيرة في هذه الحجرة تذكرها بروبيان : لعب من جميع الأنواع ، ناهيك عن الحلي الخبأة . حتى أن عبارة خاصة همس لها بها ليلة زواج ابنة خالتها قد انضمت الآن الى موكب هذه الأشياء الكثيرة التي تذكرها بصاحبنا .. لقد قال لها بصوت خافت في ذلك المساء :

- أنت ملكتهم منذ الآن . ولكن انتظري ، فلأجعلنك امبراطورة أيضاً . لم تستطع صوفيا أن تدرك معنى هذه العبارة المستقلقة . افترضت في أول الأمر أنه يريد أن يبهرها بالعظمة تسهلاً لاتخاذها خلية . لكنها لم تلبث أن نبذت هذا التأويل ، لأنه يفترض في روبيان كثيراً من رقاعة المعجب بنفسه . صحيح أن روبيان ليس الآن ذلك الرجل الحجول الأخرق الذي عرفناه في الماضي ، ولكنه مع ذلك ليس معجباً بنفسه هذا الاعجاب كله ، حتى تظن فيه هذا الزهو ! فما معنى تلك العبارة اذن ؟ أتراه أراد ان يقول لها بلغة مجازية ان حبه لها سيزداد ؟ قالت صوفيا لنفسها : كل شيء جائز . وصحيح ان صوفيا لا يعوزها المحبون ، حتى لقد سمعت تصريحاً بالحلب من كارلوس ماريا ، ولعلها سمعت مثل هذا التصريح من غيره فلم يهز ذلك إلا غرورها . لكن ذلك كله كان عابراً . ولم يبق على حبه غير روبيان . ولئن كان روبيان يحنني من حين الى حين عندما يعاني أزمة شكوك ، فان شكوكه كانت تذهب دائماً كما جاءت .

حين شرعت صوفيا تستأنف قراءة الرواية في الصفحة التي كانت قد وقفت عندها وقعت عينها على هذه العبارة : « انه ليستحق أن يُحِب » . فطوت الكتاب ، وأغمضت عينيها ، واسترسلت في تأمل طويل . فلما دخل عليها

العبد بعد هنية يحمل إليها كأساً من المرق ظن سيده نائمة ، ففقل راجعاً على رؤوس الأصابع .

١٢٦

في أثناء ذلك الوقت كان روبيان وياليا ينزلان من الباخرة ويركبان القارب الذي سيقلها إلى رصيف فاروكس . لهنها مطرقان صامتان . وكان باليا أول من فتح فمه بالكلام ، قال : « انقضى زمن طويل وأنا أريد أن أفاتحك في أمر هام ياروبيان . » .

١٢٧

انتفض روبيان . كانت تلك أول مرة يصعد فيها إلى باخرة . وكان رأسه لا يزال ممتلئاً بصخب المرحاً : منظر الناس الذين يدخلون ويخرجون - ناس من جميع الأنواع : برازيليون ، أجانب فرنسيون وإنجليز وألمان وأرجنتينيون ... برج بابل - وخليط القبعات والحقائب والحبال والمقاعد والنظارات ذات الحائل والرجال الذين يصعدون أو ينزلون في داخل الباخرة على طول السلم ، والنساء اللواتي يبكين أو يضحكن ويلقن على ماحولهن نظرات استطلاع ، والأزهار أو النار التي جاء بها كثير منهن ... هذا كله كان جديداً على روبيان . ومن بعيد كان يرى الحاجز الذي ستجتازه الباخرة ، ووراء الحاجز كان يرى البحر الحضم ، والسماء الهايطة إلى الأفق ، والوحدة ... وارتد روبيان على غير علم منه إلى الأحلام العتيقة التي كان يجلفها العالم القديم ، خالقاً في ذهنه صورة (أتلاتنيد) خيالية ...

كان روبيان لا يعرف شيئاً من مبادئ الجغرافيا ... لذلك كَوّن لنفسه فكرة غامضة عن البلاد الأخرى ، مسبقاً عليها هالة من سحر . وإذا كان لا يكلفه شيئاً أن يرحل على هذا النحو ، فقد أبحر بالخيال زمنياً على ظهر المركب الكبير ، دون دوار ، ولا أمواج ولا رياح ، ولا سحب ...

أجاب روبيان بعد بضع ثوان قائلاً :

— لي أنا ؟

فقال باليا مؤكداً :

— نعم لك أنت . كان ينبغي أن أفاتحك في هذا الأمر منذ زمن طويل ، غير أن حكايات الزواج ولجنة الآلاجواس وما إلى ذلك قد شغلتنى فلم تتح لي فرصة التحدث إليك ... أما الآن ، قبل الغداء ... هل تقبل أن تتعدى معي ؟

— نعم ولكن ماهو الأمر ؟

— أمر هام ...

قال ذلك وهو يتناول سيجارة ، وينقضاها ، ويخرج تبغها بين أصابعه ثم يلفه مرة أخرى بورقة ويشعل عود ثقاب . لكن الهواء يطفىء الشعلة ، فيطلب إلى روبيان أن يتفضل بأن يمسه له قبعة من أجل أن يستطيع إشعال عود آخر . فيطبعه روبيان وقد نفذ صبره . لعل شريكه قد أطال انتظاره عامداً من أجل أمر يجعله يتصور أسوأ الاحتمالات ، حتى إذا عرف الحقيقة روج ذلك عن نفسه . سحب كرستيان من سيجارته شفاقتين ثم قال :

— أنوي أن أشرع في تصفية عملنا ، لأنني رُجيت أن أعين موظفاً بأحد

المصارف ، هي وظيفة مدير في الواقع ، وأعتقد أنني سأقبل .

فتنفس روبيان وقال :

— طبعاً . ولكن هل يجب أن تتم هذه التصفية فوراً ؟

— لا ... ولكن يجب أن تتم في آخر السنة القادمة .

— وهل ذلك أمر لا بد منه حقاً ؟

— هو بالنسبة إلى أمر لا بد منه . ولو كانت حكاية المصرف هذه غير

مضمونة لما جازفت طبعاً فتركت الفريسة من أجل الظل ... ولكنها مضمونة تماماً .

— إذن ففي نهاية السنة القادمة سنحل الصلات التي تجمعنا ...

– بل قبل ذلك ، في نهاية هذه السنة .

لم يفهم روبيان . غير أن شريكه أوضح له أن من المفيد أن تحمل الشركة منذ الآن ، ليستطيع أن يصفى المخزن بعد ذلك وحده ذلك أن المصرف قد يتقدم انشاؤه قليلا وقد يتأخر ، ولا داعي إلى أن يجعل صديقه رهناً بهذه الاحتمالات . ومن جهة أخرى ألم يؤكد الدكتور كاماشو أن روبيان سيحتل مقعده في المجلس النيابي قريباً وأن سقوط الوزارة أمر محقق ؟
وختم كلامه بقوله :

– وكيف كان الأمر ، فمن الأفضل حل الشركة في الوقت المناسب . وأنت على كل حال لا تعيش من التجارة ، ولئن اشتركت في هذا المشروع برأس المال اللازم ، لقد كان في وسعك أن تستثمره أيضاً في مشروع آخر ، أو ان تحتفظ به لا أكثر ولا أقل .

قال روبيان :

– أنا موافق .

وأردف يقول بعد بضع لحظات :

– ولكن قل لي : هل وراء هذا العرض سبب محباً . أهذه قطعة ؟ أم هي نهاية صداقتنا ؟ كن صريحاً ، وقل لي كل شيء ..
فأجاب بالياً :

– ما هذا الكلام العجيب ؟ قطعة ؟ . نهاية صداقتنا ؟ أنت مجنون ؟ لا شك أن دوار البحر هو الذي جعلك في هذه الحالة ! أتظن أنني وقد عملت في سيدك ما عملت ، وجعلتك صديقاً أصدقائي ، وعاملتك معاملة القريب قريبه بل معاملة الأخ أخاه ، أتظن أنني أقاطعك فجأة من غير سبب ؟ وحتى ماريا بنديكتا كان ينبغي أن تتزوج منك لا من كارلوس ماريا ، لولا أنك رفضت .. أنت تعلم ذلك . ان في وسع المرء أن يقطع إحدى الصلات دون أن يقطع سائر الصلات ، وإلا كان سخيفاً حقاً . هل جميع

الاصدقاء الذين في العالم شركاء في الاعمال ؟ فما القول إذن فيمن ليس لهم أعمال ؟

اقتنع روبيان بالحجة ورآها رائعة ، فاحتضن صديقه . وصافحه صديقه وهو في أوج الرضى : لسوف يتحرر من شريك قد يوقعه تبذيره المتزايد في حرج ذات يوم . المشروع سليم دقيق ، ومن السهل أن يعطي روبيان حصته ، عدا الديون الشخصية التي اقترضها منه قبل ذلك ، إن باليا ما يزال مديناً لصاحبه ببعض الديون التي اعترف بها لزوجته في ذلك المساء بسانتا تيريزا ، ذلك المساء الذي وضعنا حوادثه في الفصل الخمسين . إنه لم يسدد من تلك الديون الا قليلا . ولكن يجب أن نذكر أن روبيان هو الذي كان يتمنع حين يُثار هذا الموضوع . وذات يوم أراد باليا أن يجبره على قبول بعض المال سداداً ، فذكر له المثل القديم : « من ردّ ديونه اغتنى » ، فما كان من روبيان إلا أن أجابه مازحاً :
- امتنع عن الدفع تردد غنى .

فقال باليا وهو يضحك ويرد المال إلى جيبه :
- حلوة جداً !.

١٢٩

لا مصرف ، ولا وظيفة مدير ، ولا تصفية .. ذلك كله مختلق ! ولكن كيف يستطيع باليا أن يسوغ حل الشركة إذا قال الحقيقة وحدها ؟ لذلك اخترع تلك القصة ، وبما سهّل عليه اختراعها أنه يجب المصارف حقاً ، وأنه يحترق شوقاً إلى إدارة مصرف من المصارف . والواقع أن حياة هذا الرجل كانت ناجحة كل النجاح ، فمشروعه مزدهر جداً ، ومن الأسباب التي دعت إلى الانفصال عن شريكه أنه يريد أن لا يقاسمه الأرباح المقبلة . وكان باليا عدا ذلك يملك أسهماً من جميع الأنواع ، كما يملك سندات ذهبية من قرض إيتابواهي ، وقد تولى بالتعاون مع شركة من الشركات الكبرى ، تنفيذ تعهدين لتموين الجيش جنى منها أرباحاً طائلة . حتى لقد اتصل بأحد المهندسين المعماريين من أجل أن يبني لنفسه قصرأ خاصاً . وكان يحلم حلماً غامضاً بأن ينال لقب بارون ...

– من كان يخطر بباله أن أسرة باليا هذه ستعاملنا هذه المعاملة؟ نحن الآن في نظرهم أقل من لا شيء. لا تحاول أن تدافع عنهم .

– لست أدافع بل أشرح . لا بد أن هناك التباساً .

– تحتفل بعيد ميلادها ، وتزوج ابنة خالتها ، ثم لا توجه أي دعوة إلى الماجور ، الماجور العظيم ، الماجور الذي لا يضارع ، الماجور العزيز!... هذه هي الأسماء التي كانت تنعتني بها . كنت لا أضارع ، وكنت عظيماً ، وكنت صديقهم القديم ، وكنت أشياء أخرى لم أعد أتذكرها .. أما الآن فلا شيء... لا دعوة ، حتى ولا رسالة شفوية مع صبي من العبيد : « سيدتي تحتفل بعيد ميلادها أو بزواج ابنة خالتها ، وتبلغكم أن بيتها بيتكم . وتزوجكم أن ترتدوا الملابس الرسمية » . لو دعتنا لما ذهبنا . فالحفلات الرسمية ليست من أجلنا ولكننا نكون قد خطرنا ببالها ... رسالة شفوية على الأقل ، صبي من العبيد ترسله إلى الماجور الذي لا يضارع ...

– بابا !

هكذا قالت تونيكا ، فشجع ذلك روبيان على أن يدافع عن أسرة باليا دفاعاً طويلاً . حدث هذا كله في منزل الماجور الذي أصبح لا يقطن في شارع « ثاني كانون الأول » ، بل في طابق أرضي متواضع بشارع باربونوس . كان روبيان ماراً هناك ، وكان الماجور واقفاً إلى النافذة فناده . ولم تستطع تونيكا أن تخرج من الصالون لحظة لتلقي نظرة على نفسها أمام المرأة ، وغاية ما استطاعت أن تفعله !مرار يدها على شعرها وترتيب الوشاح الذي يطوق عنقها وإنزال تنورتها قليلاً لتخفي حذاءها العتيقين .

قال روبيان ملحاً :

– أقول لا بد أن التباساً قد حدث ... إن كل شيء قد انقلب رأساً على عقب بسبب لجنة الآلاجواس هذه .

فقاطعه الماجور سيكويرا قائلاً :

- وهذا مثال أحسنت إذ ذكرته . لماذا لم يطلبوا الى ابنتي أن تشترك في لجنة الآلاجواس هذه ؟ لا ... لا ... لانني منذ زمن طويل أدرك ما يحدث . في الماضي كانت لاتقام حفلة الا وتدعى اليها . كنا روح كل شيء . ثم أخذت الأمور تبدل منذ زمن . أصبحوا يستقبلوننا بفتور ، وأصبح الزوج لاجيبي إذا هو استطاع التهرب مني . لقد تبدلت الأمور منذ زمن طويل . كانوا في الماضي لايفعلون شيئاً دوننا ... لماذا تتحدث عن الالتباس ؟ هل تعلم أنني قبل حفلة عيد ميلاد دونا صوفيا بيوم واحد ذهبت أزوره في المخزن لاشباهي في أنهم قد لايدعوننا الى الحفلة ؟ فماذا فعل ؟ لم يفتح فه بكلمة واحدة ، وتعهد الكتمان . قلت له آخر الأمر : « كنا أمس في البيت نتناقش أنا وتونيكاً في موعد عيد ميلاد دونا صوفيا ، فكانت هي تقول انه قد مضى ، وكنت أنا اؤكد أنه اليوم أو غداً . فلم يجب ، وتظاهر بالانهك في حساباته ، ونادى المحاسب يسأله شرح بعض الامور . فأدركت الحيلة ، وكررت كلامي ، فكررت لعبته وانصرفت . أباليا ... هذا الشقي العائر ... يفعل هذا ؟ أصبحوا الآن يتعابرون بي ويخجلون من صحبتي . في الماضي كانت الاغنية غير هذه : « ماجور ... عليك أنت أن تقترح شرب النخب » وكنت أقترح شرب النخب ، لأن لي في هذه الأمور براعة خاصة ! وكنا نلعب كذلك بالورق . أما الآن فقد أخذه جنون العظمة ... إنه لايعاشر إلا عليه القوم ! آ... باطل الأباطيل ! تصور أنني منذ مدة صادفت زوجته مع سيدة أخرى في مركبة فخمة ! تصور : صوفيا في مركبة فخمة ... فتظاهرت بأنها لاتراني ، ولكنها جربت على أن تعرف هل أراها أنا ، وهل امتلأت إعجاباً بها . باطل . كل شيء باطل على الارض ! من لم يذق القشدة في حياته يمرغ وجهه بها حين يأكلها أول مرة ! ...

- معذرة ... إن أعمال الجمعية تتطلب بعض المظاهر !

- نعم ومن أجل هذا لم تدخل ابنتي في اللجنة ... حتى لا توسخ المركبات الفخمة ! ...

- ثم إن المركبة الفخمة قد تكون للسيدة الأخرى التي معها .
فمشى الماجور بضع خطوات ، واضعاً يديه وراء ظهره ، ثم وقف أمام روبيان وقال :

- للسيدة الأخرى ... أو للأب مانديس . بالمناسبة ، كيف حاله ؟ رضي البال طبعاً ...
قاطعته تونيكاً قائلة :

- ولكن يا بابا قد لا يكون ثمة شيء البتة . لأنها ماتزال لطيفة معي كل اللطف .
وحين مرضت في الشهر الماضي أرسلت عبداً تسأل عن صحي مرتين ...
فصاح أبوها :

- أرسلت عبداً ... أرسلت عبداً . ما أعظمه من تفضل ! .. « يا عبد ...
إذهب الى بيت ذلك العسكري المتقاعد ، واسأله هل تحسنت صحة إبنته .
لن أذهب الى هناك ، لأنني بسبيل صقل أظافري ! » نعم ... إنه لتفضل عظيم ! ... أنت يا ابنتي لا تصقلين أظافرك ... أنت تعملين ! أنت فقيرة يا ابنتي العزيزة ، فقيرة ولكنك شريفة !

قال الماجور ذلك وأخذ يبكي ، ولكنه لم يلبث أن كفكف دموعه فجأة ، وتأثرت ابنته تأثراً شديداً ، وانتهت إلى الشعور بالمذلة هي أيضاً . والحقيقة أن الحجره نفسها كانت تحدث عن فقر هذه الأسرة أكثر من أي شيء آخر : قليل من المقاعد ، ومنضدة مدورة عتيقة ، وأريكة بالية ، وعلى الجدارين صورتان منقوشتان محاطتان بأطار أسود ، أحدهما تمثل الماجور عام ١٨٥٧ والثانية مشتراه من شارع السنيور دوس باسوس وتمثل فيرونيز بالبندقية . لكن المرء يشعر بعمل تونيكاً في كل موضع من الحجره : الأثاث يلتمع نظافة ، وعلى المنضدة غطاء مطرز من صنعها ، وعلى الأريكة مخدة . ومن الخطأ أن يقال إن تونيكاً لا تصقل أظافرها . فإثن لم يكن عندها مسحوق ولا جلد شاموا ،

لقد كانت تستعيز عن ذلك كل صباح بحك أظافرها على قطعة صغيرة من القماش .

١٣١

أظهر لها روبيان مودة وكف عن الدفاع عن أسرة باليا حتى لا يجزن الماجور كثيراً . واستأذن بالانصراف بعد ذلك بقليل واعدأ أن يجيء إليهم « ذات يوم » ليتعشى معهم ، دون أن يدعى الى هذا . فقال له الماجور :

– عشاء فقراء . لتك تنبتنا بجميعك قبل حين إذا استطعت .

– لا أريد وليمة . سأجيء في أول يوم يختر بيالي أن أجيء فيه .

قال ذلك واستأذن بالانصراف . وشيعته حتى السلم ، لكنها لم تمض الى أبعد من ذلك بسبب حذاءها العتيقن ، ثم وقفت الى النافذة لتراه وهو يخرج .

١٣٢

حتى إذا انعطف روبيان عند ناصية شارع مانجيراس ، رجعت تونيكامضت نحو أبيها الذي كان قد تمدد على الأريكة يعيد قراءة كتابه القديم « سان كلير الجزر أو المنفيون في جزيرة البارا » . إنها أول رواية قرأها ، ويزيد عمر النسخة التي عنده منها على عشرين عاماً ، وهي كل مكتبة الأب وابنته . فتح سيكويرا الجزء الأول وأخذ ينظر في بداية الفصل الثاني . كان يحفظ هذه البداية على ظهر القلب ، ولكنه يجد لها الآن بسبب كروبه الحديثة مذاقاً خاصاً . « صاح سان كلير يقول : أتروا أقداحكم ، ولنفرغها في أجوافنا دفعة واحدة . هذا هو النخب الذي اقترحه : نخب المضطهدين من خيار الناس وشجعانهم ، نخب القصاص الذي سيلحق بمضطهديهم . فرفعوا أقداحهم جميعاً في إثر سان كلير ... » .

– في رأيي يا أبت أن تشتري غداً علب طعام محفوظ من سمك وبسلي وغير ذلك ، حتى إذا جاء للعشاء يوماً لم يكن علينا إلا أن نضعها فوق النار لتسخن ، فنستطيع بذلك أن نقدم له عشاء أجود .

- ولكن ليس معي إلا ثمن فستانك .
- فستاني ! سنشتره في الشهر التالي أو الشهر الذي بعده . سأنتظر .
- وإذا لم نجد فستاناً بمثل هذا الثمن في ذلك الوقت ؟
- سنجد حتماً . سأنتظر يا أبت !

١٣٣

انتهز هذه الفرصة لأقول لكم - وذلك ما لم أستطعه حتى الآن لأن الفصول قد تدافعت تدافعاً أثناء الكتابة - إن دائرة علاقات روبيان كانت قد اتسعت اتساعاً كبيراً في أثناء ذلك . لقد وصله كاماشو بعدد كبير من رجال السياسة ، ووصلته لجنة الآلاجواس بعدد من السيدات ، ووصلته المصارف والشركات بشخصيات من رجال الأعمال والمال ، ووصلته المسارح بروادها ، ووصله شارع أوفيدور بجمهرة من الناس ، حتى صار اسمه وشخصه معروفين . فمتى رأى الناس حليةً وشاربين طويلين ، وردنجوتاً محكماً وصدراً عريضاً وعصاً من قرن الكر كدن ، متى رأوا هذا كله على مشية واثقة مسيطرة ، قالوا على الفور إنه روبيان - ثري ميناس .

حتى لقد أصبحوا يحيطونه بأسطورة . فهم يقولون إنه تلميذ فيلسوف كبير أورثه ثروة طائلة تقدر بألفين ، بثلاثة آلاف ، بخمسة آلاف من القونتات . وكان بعضهم يعجب من أن الرجل لا يتكلم في الفلسفة ، ولكن الأسطورة كانت تعلق هذا الصمت بأنه من المنهج الفلسفي الذي يلتزمه الأستاذ ، وقوام هذا المنهج أن لا يعلم هذه الفلسفة إلا لأصحاب النيات الطيبة . ولكن أين تلاميذه ؟ إنهم يذهبون إلى بيته كل يوم ، وقد يذهبون مرتين في اليوم : صباحاً ومساءً . فهذا هو تعريف اسم الآكلين والشاربين في بيته الذي أصبح الناس يطلقونه عليهم . أما أنهم تلاميذ فلا ، وأما أنهم من أصحاب النيات الطيبة ، فنعم ... إن لهم من النيات الطيبة ما يفيض عنهم ويزيد ... كانوا يصرخون من الجوع وهم في انتظار « امفتريون » مضيفهم ، ثم يصغون إلى خطبه صامتين وقد علت اليأسمة

شفاهم . حتى لقد قام نوع من التنافس بين القدماء والجدد ، وهو تنافس كان القدماء يقوونه بظهورهم أمام الجدد في مظهر فيه الكثير من التيه والتفاخر . أنهم أقرب الى رب البيت مودة ، يأمررون الخدم ويطلبون السيجار وينتقلون الى الحجرات الخلفية ويصفرون في غير تخرج ، وهلمّ جرأ ... إلا أن العادة قد أدت بهم أخيراً الى أن يحتل بعضهم بعضاً ، وكانوا يجمعين على تمجيد فضائل رب البيت . ولم يلبث الجدد أن أصبحوا هم أيضاً مدينين له بما ، سواء أكان الدين نقداً أم كان كفالة أو ضماناً يسدها روبيان خلسة ... حتى لا يشعروا بفضاضة .

وكانوا يجمعين على تدليل كونكاس بوربا . فهم يصفقون بأصابعهم ليشب ، حتى أن بعضهم يقبله من رأسه . واستطاع بارع منهم أن يقعه على ركبته وهم جلوس إلى المائدة ليطعمه كسرات من الخبز .

قال روبيان محتجاً في أول مرة :

- لا ... هذا لا ...

فأجاب الضيف سائلاً :

- أي خير في هذا ؟ ليس ثمة غرباء ...

ففكر روبيان لحظة ثم قال :

- صحيح إن في داخل هذا الكلب إنساناً عظيماً .

فأكمل الضيف بقول وهو يجيل نظره في الجدد ليظهر لهم مدى ما بينه وبين

روبيان من علاقات وثيقة :

- الفيلسوف ، كونكاس بوربا الآخر .

لكنه لم يستطع أن يحتكر لنفسه هذه الميزة ، لأن جميع « القدماء »

رددوا عندئذ يقولون :

- صحيح ، الفيلسوف .

وراح روبيان يشرح للجدد هذه الاشارة الى الفيلسوف ويوضح لهم السبب

الذي من أجله يطلقون هذا الاسم على الكلب . ووصف لهم كونكاس بوربا

(المرحوم) بأنه رجل من أعظم رجال زمانه ، وأنه يفوق جميع معاصريه .

فيلسوف عظيم ، قلب عظيم ، صديق عظيم ...

وصاح روبيان يقول بعد لحظة من صمت وهو يضرب المائدة بأصابعه :

- لو كان حياً لجعلته وزيراً .

فهتف أحد الضيوف يقول من غير اقتناع ، بل من باب القيام بالواجب :

- آ... طبعاً .

ولم يكن أحد من هؤلاء الناس يعرف شيئاً عن التضحيات التي كان يرتضيها روبيان في سبيلهم . لقد كان يرفض حضور حفلات العشاء ويرفض الاشتراك في النزوات ، ويقطع الأحاديث الممتعة ، في سبيل أن يعود إلى البيت مسرعاً ليتعشى معهم . غير أنه استطاع ذات يوم أن يوفق بين الأمور ، فقال إن على الخدم أن يقدموا العشاء لأصدقائه إذا لم يعد هو إلى البيت في الساعة السادسة تماماً . وقد أثار هذا احتجاجات كثيرة . قالوا : لا... مستحيل ... إنهم مستعدون للانتظار حتى السابعة أو الثانية إذا اقتضى الأمر ، فلا لذة في عشاء لا يشارك هو فيه ...

فقال روبيان :

- ولكن قد لا أعود أبداً .

وكذلك كان . ولم يفت الضيوف أن يضبطوا ساعاتهم على ساعة بيت بوتافوجو . فكانوا متى أزفت الساعة السادسة يجلسون جميعاً إلى المائدة . وقد حدث في اليومين الأولين شيء من التردد طبعاً . ولكن الأوامر التي صدرت إلى الخدم كانت صريحة صارمة . وكان روبيان يصل في بعض الأحيان بعد السادسة بقليل ، فتقدم عندئذ قهقهات ونكات ولذعات ... فهذا يقول إنه أراد أن ينتظر ؛ ولكن الآخرين .. فإذا بالآخرين يهبون إلى تكذيته ، ويقولون إن صاحبهم هذا هو الذي حملهم على البدء بالعشاء ، وأنه كان قد بلغ من فرط الجوع أنه أجهز على المائدة فلم يبق إلا على الصحن . وكان روبيان يضحك معهم جميعاً ...

أن أكتب فصلاً لا شيء إلا لأقول إن ضيوف روبيان كانوا في أول الأمر اثناء غيابه يدخنون من سيجاره بعد العشاء ، فذلك شيء قد يبدو تافهاً حتى لأكثرهم تعلقاً بالامور التافهة . لكن أصحاب الشأن سيقولون لكم إن هذا الأمر التفصيلي هام ولو بدا في الظاهر خليقاً بان يُهمل .

ففي ذات مساء خطر ببال واحد من أقدم رواد البيت أن يمضي الى حجرة مكتب روبيان . وكان قد مضى الى هذه الحجرة مرات كثيرة قبل ذلك . ففيها كانت علب السيجار - لا أربع علب أو خمس ، بل عشرون أو ثلاثون علبة ، من أصناف شتى وحجوم مختلفة . وكان عدد كبير من هذه العلب مفتوحاً . وأشعل الخادم (الاسباني) النور . وتبع سائر الضيوف الضيف الاول . واختار كل منهم سيجاره . والذين كانوا لا يعرفون الحجرة قبل ذلك ، أعجبوا بالأثاث الذي فيها ، وهو أثاث جميل أحسن ترتيبه . وكان هنالك منضدة من خشب الأبنوس فازت باعجابهم جميعاً : قطعة متينة قاسية . رائحة النسب . غير أن هناك شيئاً جديداً كان ينتظرهم جميعاً : تمثالان من المرمر وضعا في أعلى المنضدة أحدهما لنابوليون الاول والآخر لنابوليون الثالث .

- متى وضع هذان التمثالان هنا ؟
فقال الخادم :

- ظهر هذا اليوم .

إنها تمثالان عظيمان . فالى جانب نظرة النسر التي هي نظرة العم ، نظرة ابن الأخ الحاملة التائهة في الغموض ، وذكر الخادم أن سيده بعد أن تلقى التمثالين ووضعها في هذا المكان ظل مدة طويلة يتأملها معجباً ، وبلغ من استغراق سيده في تأملها أنه نظر هو أيضاً اليها ، لكنه لم يشاركه في إعجابها بها . وقال الخادم وهو يقوم بمرحلة مسرحية :

- لا يعجبني هذان الشخصان (١)

(١) بالاسبانية في الاصل (المترجم)

١٣٥

كان روبان يرى الآداب كثيراً . كان الناشر الذي ينشر كتاباً مصدراً باهداء إليه يضمن أن يبيع منه مائتي أو ثلاثمائة نسخة على الأقل . وغرق في ركاب من صكوك الشرف التي تهديها إليه الجمعيات الأدبية والموسيقية والدينية وغيرها . وكان عضواً في جماعة كاثوليكية وعضواً في جماعة بروتستانية في آن واحد ، لأنه لم يتذكر انتسابه إلى أولاهما حين عرض عليه أن ينتمي إلى الأخرى . وكان ما يعمل هو على كل حال أن يدفع الاشتراكات الشهرية إلى الجمعيتين كليهما . وقد اشترك أيضاً في جرائد لا يقرأها . وعلى هذه الصورة علم ذات يوم من الجاني حين دفع له اشتراكه في الجريدة عن ستة أشهر أن الجريدة حكومية ، فما كان منه إلا أن شتم الرجل ..

١٣٦

غير أن الرجل لم يعبأ بالشمية ، وأخذ قيمة الاشتراك في آخر الأمر . وإذا كان يملك موهبة الملاحظة التي يملكها جباة المال في العادة ، دمدم يقول وهو في الشارع :

— هذا رجل يحتقر الجريدة ويدفع اشتراكها مع ذلك ، فكم من رجل يعبدها عبادة ولا يدفع شيئاً البتة .

١٣٧

ولكن — يا للحظ وبالعدالة الطبيعية ! — لئن كانت تذييرات صاحبنا داء لا علاج له ، فهناك الآن ما يعوض منها . لقد انتهى العهد الذي كان فيه روبان يقضي وقته كرجل كسلان خلا ذهنه من أي فكرة ! ولئن أعذرتة الأفكار ، إن رأسه ليقبض الآن بالأخيلة . كان قبل ذلك يعيش بالآخرين أكثر من يعيش بنفسه ، فلا يتأتى له تحقيق توازنه الداخلي ، في ساعات من الفراغ تبدو له طويلة لاتنتهي ... أما الآن فان كل شيء قد أخذ يتبدل ، وأصبح

للخيال في نفسه أكبر نصيب ، صار يستطيع الآن ان يقضي صبيحة برمتها جالساً في مخزن برناردو من دون أن يبدو له الوقت طويلاً ، ومن غير أن يرى أن شارع أوفيدور الضيق يسد أمامه الأفق . إن رؤى لذيدة - كتلك التي تتصل برؤى عرسه (الفصل ٨١) - رؤى تنازعه فيها العظمة والمتعة ، تهدد الآن روحه من جديد . وكان يراه الناس في مثل اللحظات يثب من كرسيه على حين فجأة مرات كثيرة ويمضي إلى الباب لينعم النظر إلى أحد المارة . أهو يعرفه ؟ أم أحد يشبه ، عرضاً ، الشخص الذي كان يراه بخياله ؟ تلك أسئلة أكثر من أن يجيب عنها فصل واحد . وحسي أن أقول الآن إنه هُرع ذات مرة إلى الباب من دون أن يكون ثمة مارث به . وقد أدرك هو نفسه أنه واهم ، وعاد إلى الداخل فاشتري لعبة من البرونز لابنة كاماشو التي يحتفل اليوم بعيد ميلادها والتي ستزوج قريباً ، ثم انصرف .

١٣٨

وصوفيا ؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه القارئة التي نفذ صبرها ، كما كان أورجون يسأل : وطرطوف ؟ ولكن الجواب أيتها العزيزة هو نفسه : إنها هي أيضاً تأكل وتنام كما تشاء ، وهذا لا يمنعها طبعاً من ان تحب متى أرادت أن تحب . وإذا كانت هذه الملاحظة الأخيرة هي السبب الخفي الذي دفعك إلى طرح هذا السؤال ، فاسمحي لي أن أقول لك انك لاتحسنين الكتمان ، وأنا امرؤ لا أتفاهم شخصياً إلا مع المتحفظين من الناس ..

أعود فأقول إنها تأكل وتنام كما تشاء . وقد قامت بأعمال لجنة الآلاجواس خير قيام ، وأثنت عليها الصحافة ثناءً عاطراً ، حتى أن جريدة « الحفير » قد خلعت عليها لقب « ملاك المواساة » . ولكن يجب أن لايقع في ظنك أن هذا اللقب قد ملأها فرحاً ، رغم ما فيه من مديح . إذ قدرت انه حين ينسب إليها وحدها الفضل فيما تحقق من عمل ، فقد يؤدي ذلك إلى إيذاء صديقاتها الجديديات فتفقد في يوم واحد ما عملت له خلال أشهر طويلة ، وهذا هو السبب في ان الجريدة نفسها نشرت في عددها التالي مقالاً جديداً ينعت جميع سيدات

اللجنة بأنهن « نجوم من أرفع طراز » ، ويصف ويمجد إسهام كل منهن في العمل المشترك .

ولم تحتفظ أسرة باليا بعد انتهاء أعمال اللجنة بجميع العلاقات التي عقدتها ، غير أن علاقات كثيرة منها قد توطدت ورسخت ، ولم يكن من الصعب على صوفيا طبعاً أن تجعلها ثابتة بما تملك من موهبة . وكان زوجها هو الذي يرتكب الخطأ في هذا ، إذ يسرف في الظهور بمظهر الورش الطافع حركةً ، فيدل على أنه يرى هؤلاء الناس يغمرونه بلطف وكرم وعطف يوشك أن لا يستحقه . ولم يفت صوفيا أن ترجي إليه النقد والنصح ضاحكة من أجل أن تصلح الأمر ، فهي تقول له مثلاً : « كنت اليوم لاتطاق ؛ لكأنك واحد من الخدم . » أو تقول له : « كرستيانو ، حاول أن تراقب نفسك عندما نستقبل الزائرين . تجنب أن تخرج عينك من رأسك ، وأن تثب من جهة إلى جهة كطفل أعطي الحلوى . » وكان باليا ينكر ويتعلل ويحاول أن يسوغ سلوكه ، لكنه كان يعترف دائماً في آخر الأمر بأنها على حق ، وبأن عليه أن لا يشعر الآخرين بكونه أدنى منهم . يجب أن يكون كيساً ولطيفاً ، ولكن لا أكثر من ذلك ... - تماماً . ولكن يجب أن تتحاشى الإفراط والتفريط كليهما . يجب أن لاتصبح فظاً شرساً ...

فكان باليا يمثل الدورين كليهما في آن واحد ، فهو في أول الأمر فظ ، فاتر ، يوشك أن يكون متعجرفاً . لكنه ما يلبث أن يسترد حماسه المعتادة شيئاً بعد شيء ، سواء أكان ذلك عن تفكير أم لا ، وما يلبث في الوقت نفسه أن يسترد مبالغته وانطلاقات صوته على حسب الاحوال . غير أن صوفيا كانت تصلح الموقف لحسن الحظ ، بما تملك من قدرة على الملاحظة والمحاكاة . إن الضرورة والمواهب الطبيعية سرعان ما اكتسبتها الآن - التي لم يمن بها عليها محمد كريم وثرء عظيم - وكان من حظها أنها ، وهي في ذلك العمر المتوسط الذي يجعل صاحبه محبوباً من الفتيات اللواتي هن في العشرين ومن النساء اللواتي هن في الأربعين . كانت محبة إلى هؤلاء السيدات يعبدنها عبادة ، وكان عدد كبير

منهن يفرقها بالمديح . وعلى هذا النحو استطاعت صاحبتنا أن تخلق حول نفسها جواً جديداً ، شيئاً بعد شيء . فقطعت علاقات الأسرة يجيع الاصدقاء القدامى ، رغم أن قطع بعض هذه العلاقات ولا سيما الحميمة منها لم يكن بالأمر السهل . لكن صوفيا كانت تتمتع إلى أقصى حد بتلك الموهبة التي تمكن صاحبها من أن يتقبل في غير حرارة ، وأن يصغي في غير اهتمام ، وأن يودع في غير أسف . فإذا بأولئك المساكين المتواضعين ، أولئك الأصدقاء الذين ليس لهم شأن يذكر ، أولئك الأشخاص الذين لا يحسنون اصطناع الآداب الراقية والملابس الانيقة والتسلية الرفيعة ، أولئك الذين لا تدل عاداتهم إلا على التأخر والبساطة ، كل هؤلاء أخذوا يحثفون واحداً بعد واحد .. كانت تتصرف مع الرجال ذلك التصرف الذي وصفه الماجور ، حين صادفته وهي راكبة على عربتها... (يجب أن نذكر هنا أن العربية كانت عربتها حقاً) . والفرق الوحيد أنها أصبحت تتمتع حتى عن القاء نظرة خاطفة على الناس لتتأكد من أنهم رأوها . لقد انقضى العهد الذي كانت لاتزال تسمح فيه لنفسها بذلك . إنما الآن تشيح بوجهها في قسوة ، وبذلك تستبعد بجرعة حاسمة كل تردد ، وتجبر أصدقاءها القدامى على أن لا يحثيوا .

١٣٩

أراد روبيان أن يتوسط للماجور ، ولكن صوفيا صدته وظهر على وجهها من الضجر ما جعل صاحبنا يؤثر أن يسألها ألا يزال الاتفاق قائماً على أن يذهبوا صباح الغد في نزهة إلى توجوكا . فقالت صوفيا :

— حدثت كرستيانو في أمر هذه النزهة ، فذكر انه على موعدٍ من مواعيد العمل في الغد ، وأن الأفضل إرجاء القيام بالنزهة إلى يوم الاحد القادم .

وأردف روبيان يقول بعد هنيهة :

— فلنذهب نحن الاثنين . إن في وسعنا أن نرحل في ساعة مبكرة ، فنقوم بالنزهة ، ونتغدى هناك ، ثم نعود في الساعة الثالثة أو الرابعة .

فنظرت اليه صوفيا وفي عينها من الرغبة في الموافقة على اقتراحه ماجعل
روبيان يقول من غير أن ينتظر جوابها :
- اتفقنا اذن . سندهب .

- لا

- كيف لا ؟

وكرر سؤاله مرة أخرى ، لان صوفيا لم تعقب على رفضها بأي شرح .
وكان السبب الذي يدفعها الى الرفض واضحاً مع ذلك ؛ واضطرت بسبب الحاحه
أن تشرح له أن زوجها قد يقتدي بها فيرجيء مواعده من أجل أن يرافقها ،
وهي لاتحب أن تزعجه في أعماله . ألا يمكنها أن ينتظرا ثمانية أيام ؟

وكانت نظرات صوفيا ترافق هذا الشرح في اقتناع وتوافق يعادلان توافق أصوات
البوق مع الصلاة الربانية . نعم لقد كانت تحب أن تذهب في نزهة مع روبيان
في صباح الغد : وهامي ذي تتصور نفسها فوق صهوة جوادها تجري به خبيأً
تارة ، وعوداً تارة اخرى ، وتقف على الطريق من حين الى حين ، منتصبة
القامة على ظهر حصانها ، متقدة الوجه حماسة ولذة ، لاتشعر بشيء من كآبة
ولا تفرق في أحلام باطلة ... حتى إذا بلغت القمة نزلت عن حصانها ووقفت
وحيدة بين السماء العالية والمدينة البعيدة ... ثم مالت على الحصان وأمرت يدها
على لبتة ، وأصغت الى روبيان يمدح جرأتها وحقها ... بل فكأنني بها تشمر
منذ الآن بقبلة تلامس نقرتها .

١٤٠

وما دمنا بصدد الكلام على الخيل فمن المناسب أن نذكر ان خيال صوفيا قد أصبح
الآن اشبه شيء بحصان جامح وثاب قادر على أن يقطع التلال والغابات في
غير ارتباك ... ان هذا التشبيه لا يصلح لأي ظرف غير هذا الظرف . ولكنه
هنا خير تشبيه . ألا يذكر الحصان بالجروح والقوة والعدو ، ألا يذكر في الوقت
نفسه بالهدوء الذي يتميز به حين يعدو الى اسطبله على الطريق المستقيم ؟

قال روبان وقد لاحظ بريق عيني صوفيا :
- اتفقنا . نذهب غداً .

ولكن الحصان كان قد عاد من جولته المجنونة متعباً ، فهو الآن في اسطبله وسنان . كانت صوفيا قد تبدلت ، فالدوار الذي عصف برأسها منذ دقائق ، والجولة الجائعة التي تخيلتها ، واللذة التي تمت بها نفسها صاعدة معه في طريق توجوكا ، كل ذلك قد اختفى الآن ... وإذ قال لها روبان انه سيستأذن زوجها في قيامها بهذه النزهة ، أجابته بلهجة وانية :

- أنت مجنون ؟ فلندع هذا الى يوم الاحد القادم .

ثم ثبتت نظرها على قطعة التطريز التي كانت تشغل بها وتطلق عليها اسم « التسلية » ... بينما راح روبان يطوف بصره على ركن صغير بأنس من حديقة تمتد أمام حجرة المكتب التي كانا فيها . وكما استمرت صوفيا ، وهي جالسة عند طرف النافذة ، تعمل وتحرك أصابعها في مرونة فكذلك راح روبان يخلق حفلة امبراطورية في الوردتين المتبدلتين اللتين كانتا في ركن الحديقة ، حتى نسي الحجرة والمرأة في آخر الامر ، ونسي معها نفسه . لا أعرف على وجه اليقين كم مضى من الوقت وهما صامتان هذا الصمت كله غريبان أحدهما عن الآخر هذه الغرابة كلها . ولم يعودا الى الواقع الا عندما جاءتها احدى الخادومات بالقهوة . فلما فرغ روبان من شرب قهوته مسد حليته وأخرج ساعته واستأذن بالانصراف . وكانت صوفيا تنتظر انصرافه بصبر نافذ ، فسرها كثيراً ان ييم بالانصراف ، لكنها أخفت سرورها وراء اصطناع التعجب الكاذب قائلة :

- الآن ؟

فأجابها :

- نعم ! إن شخصا ينتظرنى قبل الساعة الرابعة . إذن الغيت النزهة ؟

طيب ... سألفي طلب الحيل . ولكن هل أكيد أننا سنقوم بالنزهة يوم الاحد القادم ؟

— أكيد ، أكيد ، لا . ولكن أظن أننا سنقوم بها يوم الاحد القادم
إذا لزم روبيان امره في الوقت المناسب . أنت تعلم أن زوجي رجل المواع
والحوائل .

وشيعته صوفيا إلى الباب ، ومدت اليها يدها في غير اكتراث ، وأجابت
مبتسمة عن كلمة عابرة لاقيمة لها ، ثم عادت إلى الحجر الصغيرة التي كانت فيها ،
وجلست عند طرف النافذة نفسها . ولكنها لم تستأنف شغلها فوراً ،
ولما وضعت ساقا على ساق دون أن تنسى بحكم العادة أن تشد تنورتها إلى أسفل ،
والقت نظرة على الحديقة التي أتاحت وردتها لصاحبنا أن يتخيل مشهداً
امبراطوريا ، فلم تر صوفيا فيها أكثر من زهرتين خرساوين . ومع ذلك فقد
حدقت اليها بضع لحظات ، ثم عادت إلى « تسليتها » ، فاشتغلت قليلا ، ثم لم
تلبث أن توقفت عن العمل واضعة يديها فوق ركبتيها ، وعادت إلى الشغل بعد
قليل ثم تركته مرة أخرى ، وهبت واقفة ، فرمت كعب الحيطان والمكوك
في سلة صغيرة من الخيزران كانت تضع فيها أدوات « شغلها » . ان السلة هدية
من روبيان .

— رجل مضجر ! ممل .

كذلك قالت صوفيا ، ثم مضت تستند إلى النافذة التي تطل على طرف
الحديقة الذي كانت فيه الوردتان المتبدلتان بسبيلها إلى الذبول . إن الورد حين
يكون نضراً لا يحفل كثيراً أو لا يحفل البتة بما في نفوس الناس من أنواع
الغضب . لكنه حين يذبل يتقنن في إيلام قلب الانسان . وأغلب ظني
أن مرد هذه العادة إلى قصر عمره . لقد كتب أحدهم يقول : « البستاني خالد
في نظر الورد » وهل من وسيلة إلى الاستخفاف بهذا الموجود الخالد غير الاستهزاء
بنفسه ؟ « أمضي أنا وتبقى أنت . أما أنا فلم أزد على انني تفتحت وعطرت
وأرضيت النساء والفتيات وكنت رسالة حب وزينت عرس الرجال أو فנית
فوق غصني . ما مستني يد ولا رأيتني عين إلا في اعجاب وحنان . وأما أنت ،
أيها الخالد ، فشأنك شأن آخر . أنت تغضب ، وتتألم ، وتبكي ، وتخزن .

إن خلودك لا يساوي دقيقة واحدة من دقائقى .
لذلك ، حين وصلت صوفيا الى النافذة المطلة على الحديقة ، أخذت
الوردتان تضحكان وهما تنشران أوراقهما . قالت إحداهما : أحسنت .. أحسنت ..
أحسنت ... ثم أضافت :

– من حقك أن تغضبي أيتها المخلوقة الجميلة ، ولكن يجب أن لا تغضبي
منه بل من نفسك . ما قيمته هو ؟ إنه رجل مسكين لا فتنة له ولا سحر .
قد يكون صديقاً طيباً ، وقد يكون كريماً ، لكنه منقّر ، أليس كذلك ؟
وانت ، أنت التي يغازلك كثيرون غيره ، أي شيطان يحضك على أن تصيخي
بسمك الى هذا التافه ؟ غضبي طرفك مذلةً أيتها المخلوقة الرائعة ، فأنت أنت
سبب ما تشكين من داء . تخلفين أنك ستنسرين هذا الرجل ، ثم لا تفعلين شيئاً
من ذلك البتة . وهل أنت في حاجة الى نسيانه ؟ أليس يكفيك أن تنظري
إليه ، وأن تسمعي كلامه ، حتى تحتقره ؟ إنه لا يقول شيئاً أيتها المخلوقة
الغريبة ، وأنت ..

فقاطعتها الوردة الثانية تقول بصوت هاديء ساخر :

– في هذا شيء من المبالغة . إنه يقول شيئاً ما ، بل إنه يكرر ما يقول
منذ زمن طويل ، لا ينسى أبداً ، ولا يتبدل قط . إنه ثابت ، وما يزال
الأمل يملأ قلبه رغم حزنه . إن حياته الغرامية كلها شبيهة بنزهة تيجوكا التي
سمعنا حديثها منذ قليل « ترجأ الى الأحد القادم ! » . قليلاً من الرحمة على
الأقل ! شيئاً من الشفقة يا صوفيا ، يا ذات القلب الطيب ! وإذا كان عليك أن
تحيي أحداً غير زوجك ، فأحبيه ، أحبيه هو ، هو الذي يحبك ، ويكتم حبه
هذا الكتمان كله . تشجعي ، واندمي على هذا الموقف الذي وقفته منذ برهة .
ما اساءته ؟ هل ذنبه أنك جميلة ؟ وإذا كان ثمة ذنب ، فليس ذنب السلة ،
على كل حال . ليس ذنب السلة ، أنه هو الذي أذنب ولا ذنب
كعب الحيطان ، ولا ذنب المكوك الذي أرسلت الخادم لشراؤه . أنت شريرة
يا صوفيا ، أنت ظالمة ...

١٤٢

وكانت صوفيا تصغي وتصغي ... وسألت نباتات أخرى ، ولكن هذه النباتات الاخرى لم تجبها بغير ما قالته لها الوردتان ... هناك مصادفات عجيبة من هذا النوع ... إن من يعرف أسرار الحياة يعرف أن جداراً ومقعداً وسجادة ومظلة يمكن أن تزخر بالأفكار والعواطف حين تزخر نحن بهذه الأفكار والعواطف ، وأن تبادل الآراء بين البشر والاشياء ظاهرة من أطف ظواهر الحياة على هذه الأرض .

يقول تعبير برتغالي « تحدث فلان مع أزواره » . وقد يبدو هذا التعبير مجازاً من المجازات لا أكثر ، ولكنه في الواقع مليء بالمعنى ، مليء بمعنى عياني واقعي . إن الأضرار تستجيب لنا على نحو ما نستجيب لها ، في وقت واحد ، ويتألف منها مجلس كمجلس الشيوخ ، مجلس مناسب قليل التكاليف ، يقترح دائماً بالاجماع على إقرار ما نعرض عليه من اقتراحات .

١٤٣

تمت رحلة تيجوكا . ولم يقع فيها إلا حادث سقوط ، لحظة نزلوا عن خيولهم . لم يسقط روبيان ، ولا باليا ، ولكن زوجة باليا - لا أدري ماذا راود ذهنها من أفكار - اخذت تضرب حصانها بالسوط حانقة ، فخاف الحصان فرماها إلى الارض . وقد سقطت في خفة ورشاقة . لقد كانت رشيقة رائعة وهي في ثوبها الامازوني ، وكانت خليقة بان تغري الشيطان نفسه ... لو رآها عطيل على هذه الحال لما فاته أن يهتف قائلاً : « أيتها المقاتلة الجميلة » . أما روبيان فقد اكتفى بان دمدم يقول لها في أول الرحلة : « أنت ملاك ! » .

١٤٤

- أشعر بألم في ركبتي .
كذلك قالت صوفيا حين عادت إلى البيت ، وكانت من جهة أخرى تعرج طوال الوقت . قال لها زوجها :
- أرني !

فلما وصلت الى غرفتها ، وضعت قدمها على مقعد صغير ، وأطلعت زوجها على الركبة الموجعة . كانت الركبة قد تورمت قليلاً - قليلاً جداً - وكانت صوفيا تأخذ بالتأوه إذا مُسَّت ركبتها ، ومن أجل أن لا يسبب لها بالياً مزيداً من الألم اكتفى بأن لامس بشفتيه موضع الوجع .
سألته صوفيا :

- ألم أكن في وضع غير لائق حين سقطت ؟
- لا ... ثم إن ثوبك طويل جداً ... لم نكد نرى إلا طرف القدم .
صدقيني . لم يحدث شيء ذو بال ..
- أتخلف ؟

- ما أكثر تشكك يا صوفيا ! أحلف لك بأقدس شيء ، أحلف لك بضياء الشمس ، بسيدنا يسوع المسيح . هل اقتنعت الآن ؟
وكانت صوفيا تستر ركبتها .
- أرني مرة أخرى . أظن أن الصدمة بسيطة . ضعي على ركبتك قليلاً من المرهم . أرسلني من يسأل الصيدلي عن أحسن مرهم .
قالت وهي تحاول أن تحفض ثوبها :
- طيب .. طيب .. دعني أذهب لاخلع ثيابي .

ولكن بالياً أخذ يطوف بصره في باقى ساق صوفيا ، حتى الموضع الذي يجتفي تحت الحذاء . والحق أن هذه الساق التي كان جوربها الحريري يزيد في ظهور جمالها ، كانت آية من آيات الطبيعة ... وراح بالياً ، على سبيل المزاح ، يسأل امرأته هل تشعر بألم هنا أو بألم هناك أو هنالك أيضاً ، مشيراً الى الموضع بيده التي كانت تهبط شيئاً بعد شيء . إنها لو كشفت عن أي جزء من هذه الآيات حين سقطت ، لبهرت الأشجار والسماء جميعاً . كذلك قال بالياً ، بينما كانت صوفيا تحفض تنورتها وتسحب قدمها عن المقعد . فأجابته قائلة :

- جائز . ولكن الأشجار والسماء لم تكن وحدها ، بل كانت هنالك عينا روبيان أيضاً .

- صحيح ... روبيان ! إنه لم يردد على مسامعك سخافات كنتك التي
قالها في سانتا تيريزا ، اليس كذلك ؟

- أبدأ . ولكن هل تحلف حقاً يا كرستيانو ؟

- أنت تريد أن أشهد على أيما شيء أقده دائماً ! لقد حلفت لك
بالله فما اكتفيت . أحلف إذن بك . هل اقتنعت الآن ؟

ماذا لك كله إلا حماقات مجين ... وخرج أخيراً من غرفة امرأته ، واتجه
إلى غرفته . إن هذا الحفر الرجل المرتاب يملؤه ارتياحاً : لقد برهنت له بذلك
على أنها له وحده ، على أنها كلها له وحده . ولما كانت ملكه ، كان لا بد له
من أن يتصرف تصرف مالك كبير لا يكثر أي اكتراث بنظرة عارضة
سريعة يلقيها أحد الناس على جزء مستسر من مملكته . حتى لقد أسف على أن
الحادث لم يكشف إلا عن طرف القدم ... ليس هذا إلا مخفراً أمامياً على
حدود المملكة .

ولكن الطلائع الأولى من هذه المملكة ، الطلائع التي تصل إلى الموضع
الذي أصيب عند القدم ، ربما كانت احسن دلالة على كنوز المملكة . وبينما
كان بالياً يغتسل بالصابون ويحك وجهه وعنقه ورأسه ، فوق إناء كبير من
الفضة ، وينظف أسنانه بالفرشاة ، ويتنشق ويتعطر ، كان يحلو له ان يتصور
الدهشة والرغبة اللتين كان يمكن أن يشعر بها هذا الرجل الوحيد الذي شهد
الحادث ، لو أن الحادث قد كشف عن مزيد من ...

١٤٥

وفي هذه الفترة بالذات أغرق روبيان أصحابه جميعاً في حيرة ودهشة . فبعد
نزهة تيجوكا بيومين (وكنا ايامئذ في شهر كانون الثاني من عام ١٨٧٠) طلب
إلى مزين في شارع أوفيدور أن يرسل إليه في الساعة التاسعة من صباح الغد
من مجلتي له لحيته . فجاءه في الموعد المضروب رجل فرنسي يقال له لوسيان
كان في الماضي ضابطاً . فما أن وصل لوسيان حتى أدخله الخادم إلى مكتب

سيده ، عملاً بالأوامر التي أصدرها إليه .

- غررررر ...

كذلك صوت كونكاس بوربا الذي كان قابلاً على ركبتي روبيان . وحيماً لوسيان رب البيت ، لكن هذا لم يفتبه له البتة ، لا ولا سمع غرغرة كونكاس بوربا . كان مستقراً على كرسي طويل - وهل يناسب الاحلام شيء أحسن من الاستقرار على كرسي طويل ؟ وكان قد طار بعيداً بعيداً . أما عدد الفراخ التي قطعها في طيرانه ، فذلك ما لا يستطيع أن يقوله باز ولا نسر ... والامر المحقق على كل حال هو أنه كان ماضياً إلى القمر وأنه أصبح لا يرى على هذه الارض الا الافراح الابدية التي اغرقته من المهد - حيث كان يحرسه موكب جنيات - إلى أن صار على شاطئ بوتافوجو حيث حملته هذه الجنيات على بساط من ورد وباسمين ، فلا أثر للمصاب أو الاخفاق أو الفقر في هذه الحياة البعيدة المنسوجة من ذهب ولذة ... كان ماضياً إلى القمر حقاً .

وألقى الحلاق نظرة على المكتب . فلفت نظره منضدة الكتابة التي كانت عليها تمثالا نابوليون ولويس نابوليون . وفيما يتصل بلويس نابوليون كانت هنالك على الحائط أيضاً لوحة تمثل معركة سولفيرينو ، وصورة لامبراطورة اوجينا . وكان روبيان ينتعل خفين من الدمقس لها حواف مذهب ، وعلى رأسه قبعة يزينا شريط من حرير أسود . وكانت ترتسم على فمه ابتسامة سماوية كاللازورد .

١٤٦

- سيدي !

- غررررر

كذلك غرغر الكلب مرة أخرى وقد وقف الآن على ركبتي سيده . فتاب روبيان إلى الواقع ، ووجد نفسه أمام الحلاق أنفياً لأنف ، كان يعرف وجه الحلاق ، وقد لحه منذ وقت قصير في دكان المزين . فنهض عن مقعده ، بينما كان الكلب ينبع كأنما هو يريد أن يجيه من الدخيل .

٢٦٧

قال له روبيان :

- اهدأ . اسكت .

فخفف الكلب أذنيه وراح يندس وراء سلة الورق . وكان لوسيان يفض في اثناء ذلك أدواته .

قال بالفرنسية :

- ستفقد لحية جميلة . اعرف اناساً فعلوا ذلك ، ولكنهم فعلوه إرضاء للسيدات . لقد كنت نجبي عدد كبير من الرجال المحترمين ...

فقاطعه روبيان بقوله :

- تماماً .

ولم يكن قد فهم من كلام الحلاق شيئاً . ذلك أنه رغم الملامه ببعض مباديء اللغة الفرنسية ، كان لا يحسن فهمها قراءة فكيف يحسن فهمها حديثاً ! ولكنه - وهذا وحده لا يخلو من عجب - لم يجبط في جوابه خبط عشواء ، وإنما وصلت إليه كلمات الحلاق مديحاً أو ثناء .. وأعجب من ذلك أنه حين أجاب عنها بالبرتغالية كان يتخيل أنه يجيب بالفرنسية .

وعاد يقول :

- تماماً . أريد أن أرد إلى وجهي هيئته القديمة .

وإذ أشار بأصبعه إلى تمثال نابوليون الثالث ، أجابه الحلاق بقوله :

- آ .. الامبراطور ! تمثال جميل حقاً . نعم نعم ، أتر في رائع جداً .

هل اشتريته من هنا ياسيدي ، أم استقدمته من باريز ؟ كلا التمثالين رائع . هذا هو الأول ، الكبير . لقد كان عبقرياً . وكان بلاخيانة ! آه من الحونة ياسيدي ، إن الحونة لأسوأ من قنابل أورسيني نفسها ..

- أورسيني ! ياله من شقي !

- لقد دفع الثمن غالياً .

- الثمن ، دفعه . ولكن لا القنابل ولا أورسيني تصمد لنجم رجل عظيم .

حين تضع القوة الخفية المسيطرة على مصير الشعب تاج الامبراطورية على رأس رجل عظيم ، فما من خيانة تصد . . أورسيني ! ياله من غبي !
ولم يلبث الحلاق أن أخذ يقص لحية روبيان ، فلا يدع له الا الشاربين
والا كثة الشعر الصغيرة التي تميز ذقن نابوليون الثالث . وكان كلما أمعن في
قص اللحية ، كال لها المديح وأساد بجهاها ، قائلاً إن قصّها تضحية كبيرة يقوم
بها روبيان ..

فقطعه روبيان بقوله :

- أيها الحلاق ، ما أنت إلا ثرثار ! لقد قلت لك ماذا أريد . رُدّ إلي
وجهي القديم ! وأنظر إلى التمثال يرشدك إلى ما يجب أن تفعله .
- طيب ياسيدي . سأتابع تعليقاتك ، وسترى ما سيكون من شبه .

وبعد فترة فرغ من اعمال المقص في لحية روبيان ، وأخذ يحلق خديه
وجزءاً من ذقنه . ودامت المهمة زمناً طويلاً : فهو يتسهل في الحلق ويقارن
بين وجه صاحبه ووجه التمثال ، فيلقي نظرة تارة على وجه الرجل وأخرى
على وجه التمثال ، حتى ليتقهقر في بعض الاحيان خطوتين الى وراء ليحسن
الرؤية ، ينظر إلى هذا ثم ينظر إلى ذلك ، ويسأل الرجل أن يلتفت إلى هذه
الجهة أو تلك ، ويمضي ليرى في التمثال ما يناسب منها إحدى جهتي
وجه روبيان .

سأل روبيان :

- هل يسير الأمر على ما يرام ؟

فطلب منه الحلاق بإشارة من يده أن يسكت ، وتابع عمله . وعاد يقلم
كثة الشعر التي على الذقن ، من دون أن يمسّ الشاربين ، ثم أخذ يمعن في
قصها مرة أخرى ، وقد ظهرت في وجهه علائم الرصانة والصداقة ؛ وعلائم
الكلال . فما من زغبة في وجه روبيان أو ذقنه ، مها تكن دقيقة لاترى ،

الأحيان من النظر إلى السقف بينما يقوم الحلاق بآخر مراحل عمله ، فيطلب إليه أن يمهله بضع دقائق ... وفيما هو يستريح ، كان يجسّ وجهه ، فيشعر بتغير ملمسه قال :

– الشاربان ليسا طويلين طولاً كافياً ...

– مايزال عليّ أن اسوي رأسيها ، لقد جثت باللكواة الصغيرة التي تجعد الشعر من أجل أن أعقفها فوق الشفة ؛ وسنعتني بعد ذلك برأسيها . آه .. إني لأوتر أن أقوم بعشرة أعمال ليس فيها تقليد ، على ان أقوم بعمل واحد من أعمال النسخ . وانقضت عشر دقائق أخرى قبل أن يفرغ الحلاق من الشاربين والكنة تماماً . وانتهى العمل أخيراً بفوثب روبيان من مقعده ، وهرع إلى المرآة في الحجرة المجاورة . حقاً إنه الأخ ، أو قل انها شخص واحد ، أي أنه هو نفسه !
– تماماً !

كذلك قال وهو يعود من جديد إلى حجرة عمله ، حيث كان الحلاق يداعب كونكاس بوربا بعد أن لمّ أدواته .
واتجه روبيان إلى منضدة الكتابة ، ففتح أحد الأدراج ، وأخرج منه ورقة نقدية يبلغ عشرين الف رايش ، ومدّها إلى الحلاق .
قال الحلاق :

– ليس معي نقود لأرد الباقي ...

فأجاب روبيان وهو يحرك يده في عظمة :

– ليس عليك أن ترد شيئاً . اقتطع منها ماتدفعه لسيدك ، واحتفظ بالباقي لك أنت .

١٤٧

حين بقي روبيان وحده ، قعد على كرسي ، وأخذ يستعرض صوراً من أكثر الصور عظمة وفخامة . إنه الآن في بيارتس أو في كومبيين ، يصعب تحديد ذلك ... لعله في كومبيين ... استلم أزمة الدولة ، واستقبل الوزراء والسفراء ،

ورقص ، وتعشى ، وعمل أشياء أخرى كثيرة كان قد قرأها في الصحف وبقيت في ذاكرته . حتى نباح كونكاس بوربا لم يستطع أن يوقظه . لقد كان بعيداً كثير البعد ، عالياً شديد العلو ! لاشك ان كومبيين تقع في منتصف الطريق الى القمر : لاشك أنه كان ماضياً الى القمر !

١٤٨

وحين هبط من القمر سمع نباح الكلب ، وشعر في الوقت نفسه ببرودة في خديه . فهرع إلى المرأة ، ورأى أن تخليص وجهه من اللحية ليس بالأمر الذي لا يناسبه ، وإن يكن الفرق كبيراً بين وجهه الخلق ووجه الملتحي . وقد خلص جلساؤه الطفيليون الى هذه النتيجة نفسها . قالوا له :

— حقاً لقد أحسنت صنعاً ! وكان يجب أن تفعل هذا منذ زمن طويل ..
لسنا نقصد أن اللحية الطويلة تجرد وجهك النبيل من أي شيء . ولكن وجهك مع احتفاظه بنبهه ، قد أصبح الآن عصرياً .
— أصبح عصرياً ، نعم .

وذهل الناس في الخارج هذا الدهول نفسه . وأكدوا له صادقين أن هذا المظهر الجديد يناسبه أكثر من المظهر القديم . غير أن شخصاً واحداً هو الدكتور كاماشو ، ألقى في سمعه أنه ليس من المستحسن عامة أن يغير ملامح وجهه (وإن كان يرى أن الشاربين وكثة الذقن تناسب صديقه جداً) : ذلك أن الوجه مرآة النفس ، فعلى الوجه أن يصور ما تمتاز به النفس من صلابة وثبات . وختم كلامه بقوله :

— لا أقول بما أقوله إشادة بنفسي .. ولكنك لن ترى في وجهي أي تبدل في يوم من الايام . فذلك عندي ضرورة أخلاقية . إن حياتي التي أضحي بها في سبيل المباديء — ذلك انني لم أحاول يوماً أن أصلح بين المباديء بل بين الأشخاص — أقول إن حياتي هذه هي صورة أمينة لوجهي ، والعكس صحيح .

فكان روبيان يصغي الى كلام صديقه في كثير من الجد ، ويهز راسه مؤيداً : نعم ، هذا صحيح ، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك . وشعر عندئذ أنه امبراطور الفرنسيين وقد أصبح مجهولاً . حتى نزل إلى الشارع عاد الى حقيقته . إن دانتي الذي رأى كثيراً من الامور العجيبة يؤكد أنه شهد في الجحيم معاقبة نفس فلورنسية التفت حولها أفعى طولها ستة أقدام وهصرتها حتى اصبح الرائي لا يعرف أهو أمام شخص واحد أم أمام شخصين . أما روبيان فقد كان اثنين . إن شخصه وامبراطور الفرنسيين لا يختلطان فيه ، بل يتعاقبان . حتى أن كلاً منها ينسى الآخر . إنه حين يكون روبيان فحسب ، يكون ذلك الرجل العادي الذي نعرفه . حتى إذا ارتفع الى مقام امبراطور أصبح امبراطوراً فحسب . وكل واحد من الشخصين مكثف بنفسه كل الاكتفاء ، ولكنه مضاد للآخر .

١٤٩

سألته صوفيا حين جاء الى بيتها في آخر الاسبوع :

– ما هذا التبدل ؟

فأجابها بقوله :

– جئت أسأل عن ركبتيك ، هل تحسنت ؟

– تحسنت . شكراً .

الوقت هو الثانية بعد الظهر . وكانت صوفيا تنتهي من استعدادها للخروج حين قالت لها الخادم إن روبيان هناك ، ولكن وجهه قد بلغ من التبدل أن من يراه يحسبه شخصاً آخر . فنزلت صوفيا لتراه وقد امتلأت فضولاً ، فوجدته واقفاً في الصالون ينظر في بطاقات الزيارة .

كررت تقول :

– ولكن ما هذا التبدل ؟

فأجابها ، وقد هجر كل شعور امبراطوري ، بأنه قدّر أن الشاربين والكثة

الصغيرة أنسب له ، وختم كلامه قائلاً :

– أم ترين انني ازددت دمامة ؟

– بل ازددت جمالاً .

وقالت صوفيا بينها وبين نفسها لئنا قد تكون السبب في هذا التبديل .

وجلست على الأريكة ، وأخذت تلبس قفازها .

سألها روبيان :

– أنت خارجة ؟

– نعم ، ولكن العربية لم تصل بعد .

وأفلت أحد القفازين من يديها . فقال روبيان يريد أن يلتقطه ، ومالت

هي أيضاً ، فأمسكا بالقفاز معاً ، وإذا أرادا كلاهما أن يلتقطاه اصطدم وجهاهما

ولس أنف روبيان أنف صوفيا . إلا أن شفاهما لم تتلامس ، وظلت اذن

حررة طليقة تستطيع أن تضحك ، وهذا ما فعلاه .

– هل أوجعتك ؟

– لا ... هل أوجعتك أنا ؟

وأخذها يضحكان من جديد . ولبست صوفيا قفازها . وحدق روبيان إلى

قدم من قدمي صوفيا كان يتحرك في مكر ، إلى أن جاء الخادم يعلن أن

العربية قد وصلت . فنهضا ، وضحكا مرة أخرى .

١٥٠

وحين خرجت صوفيا ، فتح السائق باب المركبة الفخمة ، في كثير من

التأدب خافضاً قبعته إلى تحت . وقدم لها روبيان ذراعه ليساعدها على الصعود ،

فقبلت أن تتناولها وركبت .

– والآن ، إلى ...

ولم تستطع أن تكمل جملتها ، فقد دخل روبيان في إثرها وجلس إلى

جانبا . وأغلق السائق باب العربية ، وتسلق إلى مقعده ، وتحركت المركبة .

١٥١

تم ذلك كله بسرعة كبيرة أرتج معها على صوفيا خلال بضع لحظات .

ولكنها لم تلبث أن ثابت إلى نفسها فقالت :

– ما هذا ؟ أقف العربية يا سيد روبيان .

– أقف العربية ؟ أما قلت لي إنك خارجة وإنك كنت تنتظرين العربية ؟

– ما كنت أريد أن أخرج معك . ألا ترى أن ... أقف العربية ...

وأرادت أن تأمر السائق بالوقوف وقد بلغ بها الارتباك كل مبلغ . لكن خوفها من حدوث فضيحة هو الذي صدها عن ذلك في آخر لحظة . إن المركبة تدخل الآن في شارع بلادابرنيزا . وطلبت صوفيا من روبيان مرة أخرى أن يدرك أنه ليس من اللائق أن يكونا معاً على هذه الصورة أمام الله وأمام الناس جميعاً ... فاحترم روبيان وسواسها واقترح إسدال الستائر .. وقال شارحاً :

– لا خير في أن يرانا الناس معاً . ولكن أحداً لن يرانا إذا نحن أسدلتنا

الستائر . هل يرضيك هذا ؟

ودون أن ينتظر الجواب ، أسدل ستائر كل جهة من جهات العربية ، فصارا بذلك وحيدين ، يستطيعان أن يريا المارة من الداخل ، ولا يستطيع احد أن يراهما من الخارج . إنها الآن وحيدان ، وحيدان تماماً ، كما كانا يوم صب عليها روبيان ، في بيتها ، جام غضبه ، في مثل هذه الساعة . ولكن المرأة الشابة كانت في بيتها طليقة الحركات على الأقل ، أما الآن ، في هذه العربية المغلقة ، فهي تنساءل عما عسى يحدث ...

وفي أثناء ذلك كان روبيان يستقر في مكانه مرتاحاً ولا ينبس بكلمة .

١٥٢

لط حوفياً في زاوية العربية . وكان يمكن أن يفسر ذلك بغرابة الموقف أو حتى بالخوف وحده ، ولكن الواقع إن هذا الرجل لم يوقظ في نفسها يوماً كل ما يوقظه الآن من كره أو استئزاز أو قتل إذا شئت من شعور – ماذا أقول حتى لا أجرح أحداً – من شعور أقل إيذاء يمكن أن يقال عليه انه مجرد تناف بين بشرتهما .

أين الاحلام التي كانت تصوغها قبل أيام قليلة ؟ أنكم تذكرون رحلتها الى تيجوكا ، وخلوتها هنالك ، وتذكرون كيف عدت معه على صهوة جوادها في الجبل ، وكيف نزلت عن حصانها ، وكيف سمعت منه كلمات الحب ، بل وكيف شعرت بقبلة طبعها على ثغرها . أين النظرات الناعسة ، واليدان المتلاطفتان والساقان المرتعشتان ، والكلمات الرقيقة ، والاذنان المتأهبتان للصفح سلفاً ؟ لقد نسيت صوفيا كل شيء ، واختفى من نفسها كل شيء ، في هذه اللحظة التي أصبحت فيها في العربة وحيدتين حقاً مهددين بفضيحة .

واستمرت الخيل تتقدم وهي تضرب الارض بجوافرها في ايقاع ، وتقود العربة على طول شارع بيللا دابرونسيزا . ماعساها تفعل حين تصل الى الكاتبيتي ؟ أتذهب الى مركز المدينة معه ؟ وخطر لها عندئذ أن تذهب الى احدي صديقاتها: تتركه في العربة ، وتقول للسائق أن يتابع طريقه ، ثم تقص على زوجها كل شيء . وفي وسط القلق الشديد أخذت تنبتق في ذهنها على حين فجأة ذكريات لاقيمة لها ، أو ذكريات لامت الى الموقف الراهن بصلة من الصلات : نبأ عن سرقة مجوهرات قرأته في الصحف هذا الصباح ، الاعصار الذي هب البارحة ، شكل قبعة من القبعات ، ومالا أدري أيضاً ... لكنها انتهت أخيراً الى أن استولى على ذهنها خاطر واحد هو هذا التساؤل ؟ ما الذي سيقوله لها روبيان ؟ ولاحظت انه لا يزال ينظر امامه صامتاً ، وقد اسند ذقنه الى قبضة عصاه . الحق إن هذا الوضع الهادئ الرصين الذي يكاد يعبر عن قلة الاكتراث مناسب له . ولكن لماذا صعد الى العربة ؟ وأرادت صوفيا أن تقطع الصمت ، حتى لقد تحركت يديها مرتين في اضطراب . إنها تكاد تغتاض من هدوء روبيان ، الذي لا يمكن تفسير فعلته هذه إلا بغرامه القديم القوي . وأخذت تتصور بعد ذلك انه الآن نادم على ما فعل ، فلم تلبث أن قالت له ذلك ، فما كان منه إلا أن اجابها وهو يلتفت اليها :

— لا أرى أن هناك ما يمكن أن أندم عليه . فحين قلت لي إنه لا يمكن

أن يرانا الناس معاً على هذه الحال أسدلت الستائر . انني لم أوافقك على رأيك
ولكنني أطعت أوامرك .
فقاطعته صوفياً قائلة :

- وصلنا إلى الكاتيقي . هل تريد أن أتزلك عند بيتك ؟ اننا لانستطيع
ان نخفي معاً إلى مركز المدينة .
- نستطيع ان نضرب في الارض على غير هدى .
- كيف ؟

- نعم ، على غير هدى ، تتابع الحيل تقدمها ، ونستطيع أن نتحدث في
هدوء من دون أن نسمعنا أحد ، ومن دون أن يجزر أحد أن ..
- لا تكلمني هكذا ، نأشدتك الله . دعني . أخرج من هذه العربة ..
والا نزلت أنا في هذا المكان نفسه ، وتركتك تتدبر الامر وحدك . ثم ما
الذي تريد أن تقوله لي ؟ تكفي دقائق معدودة .. أنظر .. لقد انعطفنا نحو
مركز المدينة .. قل للسائق أن يذهب إلى بوتافوجو ، فتنزل عند باب
بيتك ..

- لقد خرجت من بيتي منذ برهة قصيرة ، وأريد أن أذهب إلى مركز
المدينة . أي خير في أن توصليني إلى هناك ؟ أما إذا كنت تخشين أن يرانا
الناس ، فسأنزل في أي مكان ، سأنزل عند شاطيء سانتا لوزيا مثلاً ، من
جهة البحر ..

- الافضل أن تنزل هنا حالاً .
- ولكن لماذا لا يمكننا أن نخفي حتى مركز المدينة ؟
- لا ، لا ، مستحيل . أناشدك بأقدس ما عندك .. دعنا من الفضائح .
ما الذي يجب أن أفعله حتى تستجيب لهذا الرجاء البسيط ؟ هل تريد أن أركع
لك خارعة في هذه اللحظة ؟
قالت ذلك وأخذت تثني ركبتيها فعلاً رغم ضيق المكان ، لكن روبيات
أسرع ينهضها ، قائلاً لها في لطف :

- لا .. ليس من الضروري أن تركعي .

- شكراً . أناشذك الله ، أناشذك بأملك التي في السماء ..

- لاشك أنها في السماء . لقد كانت امرأة قديسة . الأمهات جميعاً طيبات .

ولكن الذين عرفوا أمي لا يستطيعون إلا أن يصفوها بالقداسة . أمثالها قلة

قليلة : كانت ممتازة في كل شيء . يالها من ربة بيت ، مثلاً ؟ كان يستوي

عندها أن يكون الضيوف خمسة أو خمسين . لأنها تُعنى بكل شيء في اللحظة

المناسبة . ثم لقد اشتهرت بهذا ! وكان الخدم ينادونها : « سيدتنا الأم » ،

لأنها كانت في الحق أمّاً لجميع الناس . نعم ، لاشك أنها في السماء .

قاطعته صوفياً قائلة :

- طيب ، طيب . أناشذك إذن بأملك إلا فعلت . أنت موافق ؟

- أفعال ماذا ؟

- تنزل .

- ثم أذهب إلى مركز المدينة سيراً على الأقدام ؟ لا ، مستحيل . حقاً

إنك لغريبة الأطوار . ألم أقل لك إنه لا يرانا أحد . ثم إن خيلك رائعة .

هل تلاحظين مشيتها الجميلة ، الرصينة .. تيك .. تاك .. تيك .. تاك .

وكلت صوفياً من التوصل إليه ، فصمتت ، وكتفت ذراعيها ، وبالغت

في الابتعاد إلى زاوية العربة ، ما وسعها ذلك .

قالت لنفسها : « الآن عرفت ماذا أصنع . سأوقف العربة على باب مخزن

كرستيانو . فأقول له كيف دخل هذا الرجل إلى العربة وكيف توصلت إليه

أن ينزل ، وما الذي أجابني به . ذلك خير من إنزاله سرّاً في أي شارع » .

وظل روبيان هادئاً هدوءه ذاك . وكانت من حين إلى حين يدير خاتم

إصبعه ، وهو خاتم رائع ذو فص كبير من الماس . إنه لا ينظر إلى صوفياً ،

ولا يقول لها شيئاً ، ولا يسألها عن شيء . وإنما الآن أشبه بزوجين يشعران

بسأم عميق . وأصبحت صوفياً حائرة في فهم السبب الذي دفعه إلى ركوب

العربة . لا يمكن أن يكون السبب رغبته في الانتقال إلى حيث كان يريد

أن يذهب ؟ لا ولا يمكن أن يكون حب الظهور : لقد اسدل الستار منذ أعلنت له استيائها من أن ترى وحيدة معه . ثم إنه لا يلاطفها بكلمة واحدة ، ولا يلمح إلى ما يكتنّها لها من حب بعيداً كان تلميحه أو خجلاً ، ولا يتوسل إليها ولا يتضرع .. إنه حقاً شخص لا يمكن فهمه ، شخص شاذ غريب !

١٥٣

قال روبيان فجأة :

- صوفيا ..

ثم أردف بعد برهة قصيرة :

- الأيام يا صوفيا تمضي ، ولكن ما من رجل ينسى المرأة التي أحبها حقاً ، وإلا فإنه لا يستحق أن يسمى رجلاً . إن حبنا لن يُنسى : لن أنساه أنا طبعاً ، وبقيني أنك لن تنسيه أنت . لقد منجنتني يا صوفيا كل شيء ، وعرضت حياتك نفسها للهلاك في سبيل ذلك . صحيح يا جميلتي أنني كنت سأثأرك لو قتلوك ، وإذا كانت النار يفرح الموتى ، فلا شك أنك كنت ستشعرين بأعظم لذة . ولكن نجمي قد حمانا لحسن الحظ ، فاستطعنا أن نتحاب دون أن تقوم عقبات ودون أن تراق دماء ..

وكانت المرأة الشابة تصغي إليه مشدوهة . وتابع كلامه يقول :

- لا تقلقي ، فلن نفترق . لا ، لا ، لست أفأتحك في أمر الفراق . لا تقولي ان فراقنا سيجهز عليك . انني أعلم أنك ستدرفين كل ما في عينيك من دموع اذا افترقنا . وان أبكي أنا - لأنني لم احيء الى هذا العالم من اجل ان ابكي - ولكن هذا لا ينبغي ان لوعتي ستكون كبيرة . بل ان الأحزان التي يجسها المرء في قلبه اشد ايلاماً من غيرها . فالدموع تحسن الى صاحبها لأنها تخفف عنه . وان أقول لك هذا الكلام باعزيزتي ، لأن علينا ان نلتزم الحذر الذي قد ينسيناه ما يضطرم في نفسنا من هوى لا يشبع . لقد تعرضنا لمخاطر كثيرة يا صوفيا . واذ أن كلاً منا قد خلق للآخر ، فقد يوهننا ذلك أننا زوجان ، وبهذا تتعرض

للمخاطر . اسمعي يا عزيزتي ، اسمعي يا قلب قلبي ... ان الحياة جميلة ! ان الحياة عظيمة ! ان الحياة رائعة ! ولكن مامن كلمة يمكن أن تفصح عن كل ما أشعر به حين أكون معك ؟ هل تذكرين موعدنا الأول ؟

قال روبيان هذه الكلمات الأخيرة وهمّ أن يتناول يدها لكن صوفيا تراجعته في الوقت المناسب . لقد اشتدت حيرتها ، وأصبحت لاتفهم من الامر شيئاً ، وأخذت تشعر بخوف . وصوت روبيان ماينفك يزداد دويّه قوة ، حتى صار يمكن أن يسمع الحوذي شيئاً من كلامه ... وفي هذه اللحظة انما راودتها هذه الشبهة : قلت في نفسها : ربما كان روبيان يقصد أن يسمع الحوذي كلامه ، ليكون التخريف وسيلة للتضييق عليها ، او ليشهر بها الناس . وقتت أن تهجم عليه ، وقتت أن تستغيث ، وأن تخرج من هذا الموقف بفضيحة . لكن روبيان استأنف يقول بعد برهة قصيرة من صمت :

— أما أنا فاذا ذكر موعدنا الاول ذاك ، كأنه كان بالأمس . لقد وصلت على عربة . ليست هي هذه العربة . كانت عربة مستأجرة . ونزلت منها وجلة كل الوجل ، وقد حجبت وجهك بنقاب . كنت ترتعشين ارتعاش ورقة في مهب الريح ... لكنك لم تلبني أن لجأت الى ذراعي تعصمين بها . كانت على الشمس أن تقف في ذلك اليوم ، كما وقفت ليشوع ... ومع ذلك بدت لي تلك الساعات ، يا ملاكي ، طويلة طويلة ، لا أدري لماذا ! كان يجب أن تبدو لنا قصيرة ، أليس كذلك ؟ لعل مرد هذا الى أن حيناً كان لا ينضب ، وما يزال لا ينضب ، وسيظل لا ينضب ... أما الشمس فسرعان ما اختفت : لقد غابت في الجهة الثانية من الجبال حين خرجت حبيبي صوفيا الى الشارع وجلة ، وركبت عربة أخرى . أكانت عربة أخرى أم كانت العربة الاولى نفسها ؟ أحسب أنها كانت العربة الأولى نفسها . لا تستطيعين أن تتصورتي الحالة التي تركتني عليها . كنت كالجنون . قبلت كل ما أصبته بلس . قبلت حتى عتبة الباب . أظن أنني حدثتك عن هذا كله قبل الآن . عتبة الباب ! وأوشكت ، وأوشكت أن أزحف زحفاً لأقبل درجات السلم ...

لكنتني لم أفعل ، بل رجعت الى البيت ، وأوصدت الباب بالمفتاح حتى احتفظ بعطرك كله ، كان عطر بنفسج ، إذا صدقت ذاكرتي ...

لا .. يستحيل أن يكون قصد روبيان أن يوهم الحوذي بصدق هذه المغامرة الكاذبة . إن روبيان يتحدث بصوت بلغ من الخفوت والعمق أن صوفيا تكاد لا تسمعه . ولئن عجزت عن سماعه واضحاً ، لقد كانت عن فهم معناه أعجز . ما هذه القصة التي لم تحدث يوماً ؟ ولو سمعها سامع مع ذلك لاعتقد أنها صادقة من أول كلمة إلى آخر كلمة ... فقد كان روبيان يرويها بلهجة تبلغ مبلغاً من الصدق ، وال عاطفة ، والاحتمال ، حتى في أدق التفاصيل ... وتابع روبيان يكشف عن مكنونات قلبه ، ويدمدم لها بذكريات لم توجد يوماً إلا أحلامه ! وهتفت صوفيا آخر الأمر تقول :

- ولكن ما معنى هذا المزاج ؟

فلم يجيبها صاحبنا ، لأن رؤيا جديدة قد خطرت عندئذ أمام بصره ، حتى أنه لم يسمع السؤال . وتابع حديثه . أخذ يتحدث عن حفلة موسيقية للفنان جوتشالك . كان العازف العظيم يعزف لحناً عاطفياً ، وكانا يصفيان إليه معاً حين علّق شيطان الموسيقى نظر كلٍ منها بنظر صاحبه ، فإذا بكل ما عدا ذلك يختفي من الوجود عندهما . حتى إذا وقفت الموسيقى ، وانطلق التصفيق ، ارتدا إلى الواقع . أسفاً ! لقد ارتدا إلى الواقع فإذا باليا ينظر إليهما نظرة نمر مفترس ! لقد ظن روبيان في تلك الليلة أن زوجها سيقتلها .

- سيدي روبيان !..

- لا ، لا تناديني فابوليون . قولي لويس . أنا « لويسك » ، أليس كذلك أيتها المخلوقة الجميلة ؟ أنا « لويسك » ، « لويسك » أنت . قولي : يا لويسي ، يا لويسي العزيز . ليتك تعرفين اللذة التي أشعر بها حين أسمعك تنطقين بهذه الكلمة « لويسي » . وأنت ، أنت صوفيائي ، صوفيائي الحلوة العذبة ، صوفيا قلبي الغاتنة . ولكن ما لنا نضيع هذه اللحظات الثمينة سدى ؟ هلا قلنا أشياء عاطفية ،

ولكن بصوت خافت ، خافت جداً ، حتى لا يسمعنا هؤلاء الأوغاد القابعون على المقعد أمامنا ؟ لماذا وجد الحوذيون على هذه الأرض ؟ لو كانت العربة تسير من تلقاء نفسها ، لاستطعنا أن نتحدث كما نشاء ، وأن نخفي على هذه الصورة إلى آخر العالم .

وكنا قد أخذنا يقطعان شارع باسيو بوبليكو . إن صوفيا لم تنتبه لذلك ، فقد كانت نحدق إلى روبيان . إن هذا الهديان لا يمكن أن يكون صادراً عن رجل راغب في تعذيبها ، لا ولا يمكن أن يصدر عن رجل يحب للزواج . إنه هديان . نعم إنه هديان . إن فيه لنبرة صدق .. كشخص يرى أو رأى ما يرويه .

قالت المرأة الشابة بينها وبين نفسها : « يجب أن أنزله » . ثم تسلمت بالشجاعة وسألته :

– أين نحن ؟ أظن أنه آن لنا أن نفترق . أنظر من هذه الجهة . أين نحن ؟ أحسب أنه الدير . نحن إذن في ساحة آجودا . قل للحوذي أن يقف ، أو انزل في ساحة كاربوكا إذا كنت تؤثر ذلك . إن زوجي ..

– سأعينه سفيراً . أو أعينه عضواً في مجلس الشيوخ . كما يريد . والافضل أن يكون عضواً في مجلس الشيوخ فبذلك تبقين كلاكما هنا . إذا جعلته سفيراً فلن أوافق على أن تصحيه .. وهناك أسنة السوء .. إنك تعرفين المعارضة التي عليّ أن أواجهها ، وتعلمين أنواع الغيبة والنميمة التي يمكن أن يلوكها الناس .. آه من هؤلاء الاشرار ! هل قلت : دير آجودا ؟ مالك وللدير ؟ أتريدن أن تتوهبي ؟

– بل قلت إننا مررنا أمام دير آجودا . فهل اتركك في ساحة كاربوكا . أم نذهب إلى مخزن زوجي ؟

مرة أخرى بدا لصوفيا أن هذا الحل الثاني أفضل ، فهو لا يفسح للحوذي مجال الريب والاشتباه ، وهو يصلح لإقامة البرهان لباليا على براءتها ، حين تروي له كل شيء ، منذ دخل روبيان إلى العربة بفتة حتى مشهد الهديان الأخير . ولكن ما سر هذا الهديان ؟ وتصورت أنها ربما كانت هي السبب في

هذا الهذيان ، فجعلها هذا التصور تبتسم شفقة ورافة .

قال روبيان :

— لماذا ؟ سأنزل هنا . ذلك أبعد عن الشبهة . علام نوقظ في نفسه الشكوك ، فنحمله على أن يسيء معاملتك بعد ذلك ؟ صحيح أن في وسعي أن أعاقبه إن هو فعل ، ولكن ذلك لن يجرني أبداً من عذاب الضمير الذي سأشعر به نتيجة ما سببت لك من أذى . لا ، لا ، ياملاكي المقدس ! ولكن ثقي أنني قادر على أن أزيل الهواء نفسه من الفضاء إذا هو اجتراً على لسك لأنه يكون عندئذ هواء سيئاً . إنك يا صوفيا لا تعرفين بعد كل ما أملك من قدرة . اعترفي بذلك .

وإذ لم تعترف صوفيا بشيء ، أخذ روبيان يشيد بجهاها ، ثم قدم لها الخاتم الماسي الذي كان في أصبعه . ولكن صوفيا ، رغم حبها للمجوهرات ورغم ما كان يضطرم في نفسها من شوق إلى امتلاك خاتم ذي فص وحيد من الماس ، رفضت هذا العرض في وجل .

قال روبيان :

— إنني أفهم ترددك . ولكن رفضك هذا لن يضيّع عليك شيئاً . ذلك أنك ستتقين خانماً آخر أجمل من هذا أيضاً ، وستتلقينه من يد زوجك .. لسوف أجعلك دوقة . هل سمعت ؟ سوف أخلع عليه هذا اللقب . ولكنني سأفعل هذا من أجلك أنت . دوق .. دوق ماذا ؟ سأحاول أن أجد له لقباً جميلاً . بل أدع لك أنت أن تختاري اللقب الذي تشائيه ، لأنني إنما أفعل ذلك من أجلك أنت ، لا من أجله هو ، ياوردتي . وليس عليك أن تختاري فوراً ، فكري في الأمر حين تعودين إلى المنزل . وإياك والحُجل الزائف . ما عليك إلا أن تبلغيني اللقب الذي تؤثرين حتى أبعث بالمرسوم حالاً . وفي وسعك أيضاً أن تفعلي شيئاً آخر : تختارين اللقب وتدكرينه لي أثناء لقائنا القادم في المكان المعهود . أريد أن أكون أول من يناديك دوقة : أيتها الدوقة العزيزة . ثم يصل المرسوم بعد ذلك . يا دوقة قلبي !

قالت كالتأهة :

- نعم نعم . ولكن فلنقل للسائق أن يذهب بنا إلى كرسيناو .

- لا بل أنزل هنا . قف ! قف !

وأزاح روبيان الستائر ، وجاء السائق يفتح له الباب . ومن أجل أن تجذب صوفيا ذهن السائق أي ارتياب ، طلبت من روبيان مرة أخرى أن يرافقها حتى مخزن زوجها ، وقالت له إن زوجها يريد أن يحدثه في أمر مستعجل . فنظر إليها روبيان بشيء من الدهشة ، ثم ألقى نظرة على السائق وعلى الشارع ، ورفض أخيراً أن يستجيب لطلب صوفيا قائلاً إنه سيذهب إليه في وقت آخر .

١٥٤

ما إن افترقا حتى قامت في نفسها عواطف متناقضة كل التناقض . أما روبيان فانه حين أصبح في الشارع التفت ذات اليدين وذات الشمال ، وعاوده الاحساس بالواقع ، وتبدد هذيانه شيئاً فشيئاً . إنه يسير ويقف أمام احد الحوانيت ، ويمتاز الشارع ، ويعترض شخصاً من معارفه يسأله عن الانباء وعن رأيه في الموقف الراهن ، ويجاول على غير شعور أن يطرد من ذهنه ذاته الأخرى التي كانت له منذ قليل .

وأما صوفيا فقد حدث لها نقيض ذلك . انها بعد أن انقضت لحظات أولى شعرت خلالها بالخوف والذهول ، غرقت في احلام عميقة . وليتكم تعلمون كم ابطت تحيلات روبيان في نفسها من حين : حين الى ماذا ؟ لعله « حين الى الجنة » كما كان يقول الأب برنارديس متحدثاً عن توفان المسيحي الطيب . وهي في مثل هذا لا تعوزها الأسماء !

ذلك تفصيل سائق ، أليس كذلك ؟ وراحت صوفيا تستعرض بخيالها العربية العتيقة التي ركبها على عجل وخرجت منها مرتعشة لتصعد خلسة على سلم ينتظرها في أعلاه رجل تتم لها بأجل ما في العالم من كلمات الحب ، ثم ردّد هذه الكلمات على مسامعها منذ قليل وهو الى جانبها في هذه العربية نفسها . ولكنه لم يكن

روبيان ، لا يمكن أن يكون روبيان . فمن كان اذن ؟ قلت لكم إنها في هذا الأمر لا تعوزها الأسماء .

١٥٥

لم يلبث نبأ جنون روبيان أن ذاع في الناس . وكان بعضهم يلقاه وهو في غير حالات هذيانه ، فيريد أن يتحقق من صدق الشائعة التي تتناقلها الألسن ، فيدير الحديث على شؤون فرنسا والامبراطور ، فإذا بصاحبنا روبيان يتردى في هوة الجنون من جديد ، فينفض عنه محدثوه وقد اقتنعوا بصدق الشائعة .

١٥٦

وانقضت بضعة أشهر وشبت الحرب الفرنسية البروسية ، فكانت نوبات روبيان تتفاقم شيئاً بعد شيء ، وتتكاثر يوماً بعد يوم . فاذا وصل بريد أوروبا في وقت مبكر ، رأينا روبيان يخرج من بوتافوجو قبل الإفطار ويهرع ينتظر الجرائد . كان يشتري جريدة « مراسلات البرتغال » ، ويمضي يقرأها في كارسلبر . وأية كانت الأنباء ، فانه كان يؤولها على أنها انتصارات . كان يعدّ عدد الموتى والجرحى ، فيجد أنه هو المتفوق . سقوط نابوليون الثالث ، فهمه على أنه وقوع الملك غليوم في الأسر ؛ وثورة ٤ ايلول ، فهمها على أنها مائدة أولمها البوقابارتيون . وفي بيته كان ضيوفه المعهودون لا يجلسون على أن يبددوا ضلاله ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يشاركون في عبثه ، لأنهم يستحيون بعضهم من بعض ، فهم يتسمون ويغيرون الحديث . غير أن روبيان قد رفعهم جميعاً إلى مناصب عسكرية عالية ، فهذا مارشال توريس ، وهذا مارشال بيو ، وهذا مارشال ريبيرو ، وكان لا يفوتهم أن يستجيبوا لألقابهم هذه . إن روبيان لا يراهم إلا في ملابسهم العسكرية . وهو يصدر إليهم أمره باستكشاف مواقع العدو أو أن يقوموا بهجوم ، لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى الخروج من أجل أن يطعموا أوامره ، فلقد كان كل شيء يتم في دماغ المضيف . فاذا ترك روبيان ساحة

المعركة وعاد الى مكانه على المائدة ، رأى المائدة مختلفة كل الاختلاف . ورغم أن الأدوات الفضية وأطباق القيشاني والبلور لم يبق منها شيء فان المائدة تبدو له فضة فخامة ملكية . إنه يرفع الفراريج الفقيرة المزيلة الى مقام الديكة البرية الكبيرة . واللحوم المفرومة العادية والمتبلات البسيطة الكريمة لها في منخريه أريج الأطعمة اللذيذة الذكية . وكان ضيوفه الطفيليون يرون ما آلت إليه حال المائدة ، ولا يفوتهم أن يعلقوا فيما بينهم على هذا الإهمال أو أن يلفتوا إليه نظر الطباخ . ولكن ماذا يمكن أن يعمل المرء حين يكون داعيه لوكولوس ؟ هذا الى أن المنزل كله ، وقد أفسده الزمن والتهاون (لم يبق ثمة إلا سجاد مبعق وأثاث مكسّر وستائر رثة ...) كان لا يبدو لروبيان على حقيقته ، بل يكتسي في نظره مظهراً لا مثيل له من مظاهر الأبهة والترف ! وحتى لغة روبيان قد تغيرت فأصبحت أكثر تقعراً وتضعافاً . وكذلك أفكاره التي غدا بعضها خارقاً للمألوف كأفكار صديقه الراحل كونكاس بوربا : إن تلك النظريات التي لم يفهم منها شيئاً حين سمعها في بارباسينا أصبح الآن يرددها في جلاء بل وفي اقتناع ، مستعملاً في بعض الأحيان عبارات صاحبه الفيلسوف نفسها . كيف نعلل ترديده أموراً كانت غامضة في ذهنه ذلك الغموض كله ، كيف نعلل علمه بأمور كان يعجز عن فهمها ذلك العجز كله ، بينما كان يبدو أن تلك الألفاظ وتلك النظريات جميعاً قد ذرتهما الريح ؟ وكيف كانت هذه الذكريات كلها تختفي حين يعود روبيان الى وعيه .

١٥٧

إن الشفقة التي شعرت بها صوفيا نحو روبيان - بعد أن عللت مرضه بجهلها - كانت شعوراً مخففاً معتدلاً ، فلا هي بالعطف المحض ولا هي بالانانية الغاضبة ، بل هي مزيج من الأمرين معاً . حسبها أن تتحاشى تكرار وضع شبيه بالوضع الذي تم في العربية ، حتى تجري الأمور كلها على مايرام . إن صوفيا تصغي إليه بانتباه وتتحدث إليه باهتمام حين يكون في حالات صحوه ، لاسياً وان

مرضه الذي كان ييئ فيه كثيراً من الجراءة في ساعات الهذيان كانت يضاعف خجله في الحالة الطبيعية . وهي لا تتبسم كما يتبسم باليا حين يرتقي رويان العرش أو حين يقود جيشاً . كانت تعتقد أنها سبب مرضه ، وهي لذلك تغفر له كل شيء فإذا تصورت أنه أحبها حقاً إلى حد الجنون ، جعله هذا التصور في نظرها مقدساً .

١٥٨

— لماذا لا يعالج ؟ قد يشفى .

كذلك قالت دونا فرناندا ذات مساء ، وكانت قد عرفت رويان في منزل أسرة باليا قبل ذلك بسنة . فأجاب باليا بقوله :

— ما أظن الأمر خطيراً . صحيح أنه يعاني نوبات من الهذيان ، لكنها نوبات هادئة كما رأيت تراوده أفكار عظيمة ماتلبت أن تنقضي . لاحظني من جهة أخرى أن كلامه سوي تماماً على كل حال ، ربما ... مارأيك ياسيدي ؟
أجاب تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، قائلاً إن ذلك ممكن . وأردف يسأل :

— ماذا كان يعمل ، وماذا يعمل الآن ؟

— لاشيء ، لا الآن ولا من قبل ! كان غنياً ، ولكنه كان مبذراً متلافياً . وقد عرفناه عند وصوله من ميناس ، وكنا له أشبه بالمرشدين في ريو دي جانيرو التي لم يكن قد عاد إليها منذ سنين طويلة ، رجل شهيم . وهو يحيط نفسه دائماً بأكبر مظاهر الرخاء والترف ، هل تتذكر ؟ ولكن مامن ثروة إلا وتنضب حين يبذر رأس المال وذلك مافعله . وأظن أنه لم يبق له الآن كبير شيء ...

— ربما كنت تستطيع أن تنقذ له القليل الباقي ، بتعيين نفسك وصياً على أمواله أثناء معالجته . لست طبيباً ، ولكنني أحسب أن شفاء صديقك يجب أن لا يكون مستحيلاً .

- لا أقول لا . إن ذلك لحسارة حقاً ... إن له أيادي جميلة على جميع الناس ، وهو لا يفكر إلا في إسداء الخدمات لمن هم في حاجة إليها . هل تعرف انه أوشك أن يكون نسينا؟ نعم لقد أراد أن يتزوج ماريا بنديكتا .
قاطعت دونا فرناندا تقول :

- على ذكر ماريا بنديكتا ، أوشكت أن أنسى أنني أحمل رسالة منها ، يجب أن أطلع عليها زوجتك . لقد تلقيت الرسالة أمس . لا بد أنكم تعلمون أنها عائدان قريباً . هذه هي الرسالة .

ومدت الرسالة إلى صوفيا ، ففضتها هذه في غير حماسة ، وقرأتها في ضجر . لأنها ليست رسالة مبتذلة كتلك التي يرسلها الناس عامة أثناء السفر ، وإنما هي رسالة تقضي فيها ماريا بنديكتا بذات نفسها في ثقة : هي نجوى صميعة كاملة تصدر عن نفس سعيدة تعترف بالجليل ... إن ماريا تروي المراحل الأخيرة من رحلتها بقليل من الاضطراب لأن المسافرين هما اللذان يحتلان من الحديث منزلة الصدارة ، ولأن اجمل التحف الفنية التي ابتدعها الانسان أو التي ترى في الطبيعة لم تكن في رسالتها شيئاً بالقياس إلى الاعين التي تراها . رب حادث بسيط وقع في الفندق أو الشارع يحتل في الرسالة من المكان والاهتمام أكثر مما يحتل غيره ، لا شيء إلا لأنه فرصة تنتهزها ماريا بنديكتا لإبراز مزايا زوجها ! إن ماريا بنديكتا ماتزال تحب زوجها كما احبته في أول يوم ، ان لم يكن أكثر . وفي حاشية بذيل الرسالة تعلن ماريا بنديكتا في خجل ، انها ستصبح امأ ، وتوصي بكتان هذا الامر . وطوت صوفيا الرسالة . إن ما تشعر به الآن ليس الضجر بل هو الحسرة ، وذلك لسببين متناقضين . ولكن التناقض من طبيعة الإنسان ... حين تقارن صوفيا بين هذه الرسالة وبين الرسائل التي تلقتها هي من ماريا بنديكتا ، تلاحظ أن حديث ماريا بنديكتا إليها هو حديث شخص إلى شخص يعرفه معرفة ولا تربطه به أي صلة عائلية أو عاطفية . ومع ذلك فان صوفيا لا تمنى أبداً أن تحدثها ماريا بنديكتا عن هذه السعادة التي تصفها همساً من الطرف الآخر من الأوقيانوس ، هذه السعادة التي تفيض في ذكر التفاصيل ، وإطلاق النعوت ، وإرسال الصيحات ،

والتي تقيض خاصة في ترديد اسم كارلوس ماريا ، وفي الحديث عن عيني كارلوس ماريا ، وعن كلمات كارلوس ماريا ، وعن ابن كارلوس ماريا في آخر الأمر... إن هذا كله يبدو لها تحدياً ، ويكاد يدل على تواطؤ فرناندا في الأمر .

لكن صوفيا بارعة تعرف كيف تخفي مشاعرها حين يجب إخفاؤها ، لذلك كتبت حسرتها وردت رسالة ابنة خالتها إلى صاحبها . وأرادت أن تقول إن هذه الرسالة تدل على أن سعادة ماريا بنديكتا لا بد أن تكون كاملة كما لها في لحظة السفر ، ولكن الكلمات وقفت في حلقها ، فتولت دوناً فرناندا استخلاص النتيجة قائلة :

- واضح أنها سعيدة .

- أعتقد ذلك .

١٥٩

لو لم يكن اليوم التالي ممطراً ، فلربما كان مزاج صوفيا مختلفاً . إن الشمس لا توظف في النفس أفكاراً ممتعة دائماً ، ولكنها تتيح للمرء أن يخرج على كل حال ؛ وتغيير الجو يبذل العواطف في كثير من الأحيان . حين استيقظت صوفيا كان المطر ما يزال ينهمر مدارراً ، وقد التقت السماء بالبحر من فرط انخفاض الغيوم وشدة كثافة الضباب .

الضجر يطوف بكل مكان ، ويلف الفضاء كما يلف قلب صوفيا ، فلا شيء يمكن أن يسلي عينيها ولا أن يسرّي عن قلبها . لقد وضعت صوفيا قلبها في تابوت من خشب الأرز ، وسجنت هذا التابوت في تابوت آخر من رصاص هو هذا الجو الممطر ، وأرادت أن تعد نفسها ميتة . كانت تجهل أن الموتى يفكرون هم أيضاً ، وأن طائفة من المعاني الجديدة تأتي فتحل عندهم محل المعاني القديمة ، فيأخذون في نقد العالم الذي هجره ، كالمشاهدين الذين يخرجون من المسرح فيأخذون في نقد التمثيلية التي شهدوها والممثلين الذين رأوهم . وسرعان ما لاحظت

جميلتنا المتوفاة أن بعض المشاعر وبعض العواطف ما تزال تحيا فيها . إن هذه المشاعر والعواطف تخطر في ذهنها على غير نظام ، ولكن نقطة بدايتها واحدة : لمنها الرسالة التي قرأتها البارحة وذكري كارلوس ماريا التي أيقظتها الرسالة في نفس المرأة الشابة .

كانت صوفيا تظن صادقة أنها أبعدت من خيالها صورة ذلك الرجل البغيض إلى الأبد . وها هو ذا الآن يظهر أمامها مرة أخرى ، ويبتسم لها ، ويحدث إليها ، ويهمس في أذنها بتلك الكلمات الدعيّة الأنانية ، التي دعاها بها يوماً إلى رقصة الحياة الزوجية ثم تركها وحدها في وسط الصالون . وهذه أطراف أخرى تظهر لها أيضاً : ماريا بنديكتا مثلاً ... هذه التافهة التي نقلتها هي من الريف وخلعت عليها رواء المدينة ، فإذا هي تنسى الآن جميع ما أسبغت عليها من نعم ولا تفطن إلا إلى مطامعها الصغيرة . ودونا فرناندا أيضاً ... عراة هذا الحب ... دونا فرناندا التي تعمدت البارحة أن تحمل إليها رسالة ماريا بنديكتا مع الحاشية التي تسرّ إليها فيها بالنبأ ... ولم يخطر ببال صوفيا أن سرور صديقتها قد يكون هو السبب الذي أنساها أن الرسالة شخصية ، لا ولا خطر ببالها أن طبع دونا فرناندا يسمح بتصور هذا القصد . وهزتها أفكار أخرى وصور أخرى ، ثم عادت تهزها الأفكار الأولى والصور الأولى . وفي زحمة هذا الذهاب والإياب بين الأفكار والصور ، انبتق أمام بصرها مشهد من مشاهد البارحة : وهو نظرة الإعجاب التي رمقها بها زوج دونا فرناندا . ويجب أن نذكر أنها كانت بالأمس في أبهى حلة ، وأن ثوبها كان يبرز جمال صدرها ورهافة قدمها وحسن استدارة خصرها ... لقد كانت ترتدي ثوباً من حرير بلون القش .

فلما أثنت دونا فرناندا على ثوبها عقب وصولها قالت صوفيا وهي تضحك :

— إنه بلون القش ، وقد اخترت هذا اللون لأنه يذكرني بهذا السيد (١) !

(١) يقال للقش باللغة البرتغالية باليا . ومن هذا الجنس بين القش واسم باليا نفهم نكتة

صوفيا . (المترجم)

ويصعب على المرء أن يخفي سروره بالمديح ، لذلك ابتسم ابتسامة مزهوة وهو يحاول أن يقرأ في وجوه الآخرين ما أحدثه في نفوسهم هذا البوهان الصريح على حب زوجته له . وكان تيوفيليو قد اثني هو أيضاً على ثوب صوفيا ، ولكن كان من الصعب جداً أن ينظر أيضاً إلى الجسم الذي يلبسه .. وذلك ما يفسر لها تلك النظرة الطويلة التي رمقها بها عندئذ ، وهي والحق يقال نظرة خالية من الشهوة لم تتكرر إلا مرة واحدة ومع ذلك فإن هذه الذكريات ذكرى تلك الحركة المبرأة من الإغواء وذلك الاعجاب الممزج من الرغبة - هي مماثل الآن في خاطر صوفيا في هذه اللحظة التي كانت لاتفكر خلالها إلا في خبث صديقتها معها .

كارلوس ماريا ، تيوفيليو ... إن صوفيا لاتعوزها الاسماء في هذا الباب ، كما ذكرت لكم ذلك في الفصل ١٥٤ ؛ وانبعثت هذه الاسماء في ذهنها جميعاً ، لأن المطر مايزال ينهمر ، ولأن السماء والبحر مايزالان متحدين في ضباب واحد . انبعثت هذه الاسماء في ذهنها جميعاً ... وانبتق مع الأسماء أصحاب الاسماء .. بل أن أشخاصاً بلا أسماء قد انبتقوا في خاطرها أيضاً : أشخاصاً قابعين ، مجهولين ، لم يروها إلا مرة واحدة ، لكنها وقد عزفوا لها نشيد الاعجاب ، تصدقت عليهم بنظرة لطيفة . لماذا لم تحتفظ بواحد من هؤلاء المجهولين الكثر لتصغي اليه مدة اطول ، ولتجعله أغني ؟ صحيح أن صدقة صغيرة لم تعين احداً في يوم من الايام ، ولكن ليس هناك مكافآت أعظم قيمة ؟ ولماذا لم يحتفظ ايضاً بواحد من تلك الاسماء الجميلة ، بل المشهورة ، التي ترددهم الآن في خاطرها إن هذا السؤال الاخرس يدوي في عروقتها ، في أعصابها ، في دماغها ، لكن شعورها واحداً كان يرد عليه هو الشعور بالاضطراب والاستطلاع .

١٦٠

وفي أثناء ذلك انقطع هطول المطر لحظة ، واستطاع شعاع من الشمس أن يجترق الضباب ، لكنه كان أحد تلك الاشعة المحملة بالرطوبة ، الشبيهة بالنظرات

المخضلة بالدموع . وظنت صوفيا انها تستطيع أخيرا أن تخرج . إنها تتعجل أن تغير أفقها ، وان تسيرو لتنفذ عنها خمولها ، وهي تأمل ان تسطع الشمس فتطرد المطر وترين على السماء والارض من جديد . لكن الكوكب الساطع سرعان ما أدرك أن هذه المرأة تنوي أن تتخذه مصباحاً كصباح ديوجين ، فقال للشعاع الرطب : عد ، عد الى حضني أيها الشعاع العف الفاضل . لانقدها إلى حيث تسوقها شهوتها . فلتعشقي اذا رغبت في ذلك ، واترد على بطاقات غزل اذا هي تلقت بطاقات غزل ولم تحرقها . أما أنت يانور صدري ، ويا ابن أحشائي ، أنت أيها الشعاع يا أخا شعتي ، فلا تكن لها مصباحاً .. »

وأطاع الشعاع فالتحق بمرکز النار ، وقد دهش بعض الدهشة من مخاوف الشمس التي رأت مع ذلك كثيراً من الامور المألوفة والحارقة للعادة ، وعادت طبقة السحب كثيفة كما كانت ، بل لقد ازدادت جهامة وظلاماً ، واستأنف المطر هطوله غزيراً .

١٦١

أذعنت صوفيا لبقائها في البيت . إن الاضطراب الذي غزا قلبها شبيه بالاضطراب الذي يرين على الجو . إن جميع الصور وجميع الأسماء التي حاصرتها تصب الآن في أمر واحد هو الرغبة في الحب . ومن الانصاف مع ذلك أن نقول إنها كانت تحاول ، حين تخرج من هذه الحالات النفسية المهمة الغامضة ، أن تصرف ذهنها إلى أمور أخرى ، تخلصاً من تلك الرغبة . غير أن ما يحدث لها عندئذ شبيه بما يحدث لأولئك الذين يغالبون النعاس : فما يكادون يغمضون أعينهم حتى يفتحوها ، وما يكادون يفتحونها حتى يغمضوها . وكفت أخيراً عن تأمل المطر والضباب ، وقامت تقلب صفحات العدد الأخير من « مجلة العالمين » (١) نشداناً للراحة . إن سيدة أنيقة من السيدات التي عرفتها صوفيا أيام لجنة الآلاجواس ، هي التي سألتها ذات يوم في زحمة أعمال اللجنة هذا السؤال :

(١) هي مجلة « Revue les Deux - mondes » الفرنسية (المغرب) .

- هل تقرئين رواية فوييه في « مجلة العالمين » .

فأجابتها صوفيا :

- نعم ، وأراها شائقة جداً .

والواقع أن صوفيا لم تقرأ الرواية ، حتى لقد كانت لاتعرف هذه المجلة أصلاً لكنها أسرعت تطلب من زوجها في الغداة أن يشتري في المجلة ، فقرأت رواية أوكتاف فوييه ، ثم قرأت الروايات التي نشرت بعدها ، وأصبحت تتحدث عن جميع الروايات التي قرأتها أو التي هي بسبيل قراءتها . فبعد أن قلبت ذلك العدد الأخير الذي كان بين يديها ، وتصفححت قصة من القصص ، مضت إلى غرفتها واستلقت على سريرها . وإذا كانت قد أرقت في الليلة البارحة ، لم تلبث أن غرقت في نوم عميق خلا من الأحلام إلا في النهاية حيث وافها جنام : رأت نفسها فيه محاطة ببساط من ضباب كضباب ذلك النهار . لكنها في عرض البحر منبطحة على مقدمة قارب ، تكتب باصبعها على صفحة الماء هذا الاسم : كارلوس ماريا . والاحرف تطل منقوشة في الأمواج ، حتى أن زبد الأخاديد يب لها مزيداً من الوضوح ، لاشيء يبعث على الحوف كثيراً حتى الآن ، اللهم إلا ما في هذا الامر من سر . ولكن من المعروف أن الأشياء التي تشتمل على أسرار تبدو في الأحلام طبيعية . وفجأة ينقشع بساط الضباب ، فاذا بكارلوس ماريا يظهر لعيني صوفيا بشخصه : هاهو ذا يتقدم إليها ، ثم يضمها إلى صدره بذراعيه ، ويهمس لها بألف كلمة عاطفية ، كالكلمات التي قالها لها روبيان منذ بضعة أشهر . لكن هذه الكلمات لاتبعث فيها مابعثته كلمات روبيان من اشمزاز ، فهي تصغي إليها فرحة ، وتكاد من نشوتها أن تنقلب إلى الورا كأنها تتخاذل . وليست الآن في قارب ، وإنما هي في عربة ، وقد وضعت يدها في يد نسيبها . وفتنتها أمازيجه المرححة الرائعة . وهذا أيضاً ليس فيه مايقزع . وإنما حدث الأمر المفزع حين وقفت العربة ، فاذا بأشخاص ملثمين يجيطون بهم ، فيقتلون الحوذي ، وينزعون الأبواب ، ويطعنون كارلوس ماريا ، ويرمونه جثته إلى الأرض ، ثم يجيء واحد منهم كان يبدو أنه رئيس العصابة فيقعده في

مكان المتوفي ، ويحسر القناع عن وجهه ويطلب من صوفيا أن لاتصرخ مستنجدة ، ويقول لها إنه يجيها أكثر مما يجيها الآخر ألف مرة ، ثم يمكس بقبضتها ويطبع على شفيتها قبلة ، لكنها قبلة مبللة بالدم ، قبلة تقوح منها رائحة الدم ... فتطلق صوفيا صرخة مدعورة وتستيقظ . كان زوجها عندئذ إلى جانب سريرها . فسألها :

— مالك ؟

فزفرت صوفيا :

— آه ...

وسألته :

— صرخت ، أليس كذلك ؟

فلم يجيها باليا بشيء ، وكان مبهم النظرة يفكر في بعض الأعمال . وشعرت زوجته عندئذ بخوف : إذا كانت قد تكلمت حقاً ، فمن الجائز أن تكون قد تمت في كلام أو أسم هو الاسم الذي كانت تخطه على صفحة الماء . ولم تلبث أن رفعت ذراعيها فألقتهما على كتفي زوجها مشبكة أصابعها وراء نقرته ، ودمدمت تقول له في نصف فرح ونصف حزن :

— حامت بأنهم يقتلونك .

فتأثر باليا تأثراً شديداً . إن شعوره بأنه سبب لها ألماً ولو في المنام يماؤه شفقة عليها ، ولكنها شفقة مترعة باللذة إلى أبعد الحدود . ترى أي اسم يمكن أن نطلقه على هذه العاطفة الخفية الصادرة من أعماق نفسه ، هذه العاطفة التي تجعله يتمنى لو تحلم زوجته أحلاماً ثقيلة أخرى من هذا النوع ، فتراه يقتل أمامها مرة ثانية ، لتصرخ ذعراً من جديد وقد امتلأت نفسها ألماً وهلعاً ؟

١٦٢

وفي الغد كانت الشمس ساطعة دافئة ، والسياء صافية ، والجو طرياً . فركبت صوفيا عربتها وخرجت تنزهه وتقوم ببعض الزيارات . لأنها تستعجل

الخلاص من هذا الانحباس في المنزل ، فكان مجرد رؤية هذا النهار الجميل تأثير حسن في نفسها . لقد ارتدت ملابسها تدندن بعض الاغنيات . واستطاعت بشاشة السيدات اللواتي زارتهن في بيوتهن او التقت بهن في شارع اوفيدور ، وضجيج الطريق واصداء المجتمع ومرح الأصدقاء أن تطرد من ذهنها هموم البارحة الى غير رجعة .

١٦٣

هكذا نرى ان ما كان يبدو رغبة مسعورة لم يكن في حقيقة الامر الا نزوة عارضة . فما هي الا ساعات حتى كانت جميع الأفكار السيئة التي هزت صوفيا قد عادت الى الطفل ... فلو سألتني هل عانت المرأة الشابة شيئاً من عذاب الضمير لم أعرف حقاً كيف اجيبك . ذلك ان للتقريع درجات ايضاً ... والشعور لا ينتقل من الجدة الى العادة ومن الخوف الى قلة الاكثوات شيئاً بعد شيء ، في ميدان الاعمال فحسب بل في خطايا الخيال كذلك . ان خطايا الخيال تخضع لهذه القاعدة نفسها . فاذا انت تعودت التفكير في بعض الامور ، فسرعان ماتألفها ، فاذا أنت تراها بعد ذلك طبيعية فلا تحاول أن تطردها من ذهنك . ثم ان في وسع المرأة في الحالة التي نحن بصدها ان تجد في الطهارة الخارجية ملجأً أخلاقياً ، فحسبها بتعبير أصرح ، أنها صانت جسدها نقياً من كل دنس .

١٦٤

حادث واحد خلال ذلك النهار الصافي الساطع أزعج صوفيا ، وهو التقاؤها بروبيان . لقد دخلت إحدى المكتبات بشارع أوفيدور لشترتي رواية ، وفيما هي تنتظر أن يرد لها البائع باقي النقود رأت صديقنا يدخل المكتبة على حين فجأة . فأمرعت تشيح بوجهها ، وتتنظر الى كتبٍ منضدة على أحد الرفوف (كتب تشريح واحصاء) ، حتى اذا تناولت نقودها ، وضعتها في حقيبتها

ثم هرت تخرج كالسهم خافضة الرأس ، ومشت صاعدة في الشارع . ولم تسترد هدوءها إلا بعد أن خلفت شارع أوريفس وراءها .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، بينما كانت تهمّ أن تدخل منزل دونا فرناندا ، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمامه في فناء المنزل ، وإذا قدرت أنه صاعد إلى البيت وطنت نفسها على أن تصعد معه رغم محاذرتها ، لكن روبيان كان نازلاً فتصافحا في مودة وتمنى كل منهما على صاحبه أن يراه مرة أخرى في القريب !

قالت صوفيا لدونا فرناندا بعد أن ذكرت لها لقاءها به في فناء المنزل :

— هل يجيء إلى هنا كثيراً .

فأجابتها دونا فرناندا :

— هي المرة الرابعة أو الخامسة . لكنه لم يهذ إلا في الزيارة الثانية ، وكان في المرات الأخرى كما رأيته اليوم هادئاً بل بارعاً في الحديث . غير أن المرء يلاحظ فيه على الدوام شيئاً ينم عن حالة . ألم تلاحظي نظراته الجامدة بعض الجمود ؟ أما عدا هذا فحديثه طبيعي . صديقي يادونا صوفيا أن هذا الرجل يمكن أن يشفى . لماذا لا نحاولين أن نجعل زوجك يهتم بهذا الأمر ؟

— ينوي كرسثيانو أن يعرضه على طبيب لفحصه ومعالجته . لا تقلقي ، فسأتعجل تدبير الامر .

— تحسنين صنعاً . يبدو لي أنه يحمل لك وللسيد باليا كثيراً من عاطفة الصداقة .

تساءلت صوفيا بينها وبين نفسها : « أتراه قال عني أثناء هذيانه شيئاً غير لائق ؟ هل يجب أن اكشف لها عن الحقيقة ؟ » .

ولكنها قررت أن لا تكشف لها عن شيء ، لأن كل ما يمكن أن يقوله روبيان من أمور غير لائقة يمكن أن يسند إلى مرضه . ووعدت صاحبته بأن تحض زوجها على الاسراع في معالجة المريض ، حتى لقد فاتحته بالأمر في ذلك

اليوم نفسه بعد الظهر . قال باليا : « يا لها من مسخرة ! » وسأل زوجته :
ما فائدة دونا فرناندا من إثارة هذا الموضوع مرة أخرى . ولماذا لا تتولى
بنفسها معالجته ؟ إنه لمن ازعج المزعجات عندي أن اهتم بروبيان وأن أصعبه
إلى الطبيب وأن أجمع وأصون ما بقي له من مال - إذا كان قد بقي له منه
شيء - وأن أسمي وصياً على أرزاقه كما اقترح ذلك تيوفيلو . ذلك كله
لا يجلب الا الصداع !
ثم أردف يقول :

- إن على عاتقي من المشاغل والهموم ما يكفيني يا صوفيا . ثم ما الذي
يحدث بعد ذلك ؟ هل تأتي به الى بيتنا ؟ هذه فكرة لا استحسنها كثيراً .
فأين نضعه إذن ؟ في مستشفى .. نعم .. فاذا لم يقبلوه ؟ لن أرسله على كل
حال الى برايا فرمليا (١) .. والمسئوليات التي تترتب على هذا كله ؟ هل وعدت
حقاً بأن تقانجيني في الامر ؟

أجابت صوفيا وهي تبسم :

- وعدت .. بل اكدت أنك فاعل . وقد لا يكون الامر على هذه
الدرجة من التعقيد الذي تتصوره .

وألحت صوفيا مزيداً من الالحاح . لقد تأثرت بعطف دونا فرناندا تأثراً
كبيراً . ووجدت فيه نوعاً من الشهامة والنبيل ، فقالت لنفسها : إذا كانت
دونا فرناندا تظهر هذا الاهتمام كله بأمره ، دون ان تكون لها به صلة قوية ،
فهل اكون دونها أرحمة وكرماً .. ذلك أمر لا يلبق .

١٦٥

وتم كل شيء في هدوء . استأجر باليا منزلاً صغيراً في شارع « ابرنسيب »
قرب البحر ، واسكن فيه روبيان مع قليل من الاثاث ومع صديقه الكلب .
وقد قبل روبيان هذا التغيير من غير استياء ، حتى لقد تحمس له حين عاوده

(١) ملجأ للمجانين (المترجم)

الهديان . فتوهم انه في قصره بسان كلود . اما اصدقاء منزله بيوتافوجو فلم يرق لهم ذلك بل استقبلوا النبأ على انه قرار نفي . لقد كان كل شيء في المنزل جزءاً من حياتهم : الحديقة والباب والأشجار والدرج والمنظر نفسه ... كانوا قد حفظوا كل شيء عن ظهر القلب .. وليس عليهم الا أن يدخلوا فيعلقوا قبعاتهم وينتظروا في الصالون . حتى لقد أصبحوا آخر الأمر لا يحسون أنهم ضيوف ، وإنما هم أصحاب المنزل . وهناك الجيران ! لقد تعود كل واحد من اصدقاء روبيان أن يرى الأشخاص الذين يقطنون الحيّ ، وجوه الصباح وجوه الأصيل .. بل لقد كان بعضهم يحسهم كأنهم جيرانهم . ولكن صبراً ! سيذهبون الآن الى بابل ، كما نقل من قبلهم مبعودو صهيون ! ولعلمهم واجدون حيثما ينتقل الفرات صفصافات يعلقون عليها قيثاراتهم التي تعزف ألحان الحنين ، أو قل أنهم سيجدون مسامير يعلقون عليها قبعاتهم . والفرق الوحيد بينهم وبين الأنبياء أنهم سيعودون الى تناول قيثاراتهم بعد أسبوع من غير شك ، ليعزفوا عليها من جديد ، بتلك الرشاقة نفسها وتلك القوة نفسها . لسوف يدندنون أناشيدهم القديمة ، وستبدو هذه الأناشيد جديدة كجدهتها في اليوم الأول : لسوف تعود بابل فتصبح صهيون ، فقدوها ثم وجدوها !

قال لهم باليا قبل الانتقال من بوتافوجو بيوم :

— إن صديقنا في حاجة الى شيء من الراحة بعض الوقت . فلا شك أنكم لاحظتم ان صحته في الأيام الأخيرة قد ساءت قليلاً ، حتى أنه يفقد في بعض اللحظات ذاكرته ، فتختلط الأمور في ذهنه وتضطرب . سوف يعالج ، ومن أجل هذا يجب أن يرتاح . وقد وجدت له بيتاً صغيراً ، ولكن قد نضطر الى نقله الى مستشفى من المستشفيات .

فأصغروا الى كلامه مصعوقين ، إلا أن واحداً منهم ، هو بيو ، استرد صحو ذهنه قبل غيره ، فأجاب بقوله : كان ينبغي لنا أن نفعل هذا منذ زمن طويل ، غير أن ذلك كان يقتضي أن يكون لنا تأثير حاسم في روبيان .
وأضاف :

— كثيراً ما قلت له ، ولكن بعبارات مهذبة جداً بطبيعة الحال ، إن عليه أن يستشير طبيباً إذ يبدو لي أنه يشكو شيئاً في معدته . وكنت أقصد من ذلك أن لا ألفت انتباهه طبعاً . ولكنه كان يجب دائماً بأنه لا يشكو من شيء ، وأنه يهضم هضماً جيداً .. فكننت أقول له : « ولكن إقبالك على الطعام قد قلّ » ، حتى أنك في بعض الايام تكاد لاتأكل شيئاً . وقد أصابك من ذلك نحول ، ومال لونك الى شيء من الشحوب .. » لم أكن أستطيع أن أصارحه بالحقيقة طبعاً . حتى لقد ذهبت الى طبيب من أصدقائي استشيرته في الامر . غير أن عزيزنا الطبيب ورويان رفض أن يستقبله .

وكان الأربعة الآخرون يهزون رؤوسهم مؤيدين هذه القصة الملفقة . وهل ينتظر منهم حقاً أكثر من ذلك بعد هذه الضربة التي سقطت على رؤوسهم . وأخيراً سألوا عن عنوان المنزل الجديد من اجل أن يذهبوا اليه سائلين عن صحته . مسكين صديقنا ! وحين استطاعوا في نهاية الامر ان ينتزعوا أنفسهم من البيت انتزاعاً ، وأن يستأذن بعضهم بعضاً بالانصراف حدث ما لم يكن في حسابهم : لقد أصبح يصعب عليهم أن يفترقوا ! لا لأن شيئاً من الصداقة أو الاعتبار كان يربطهم بعضهم ببعض ، فان مصالحتهم قد جعلتهم يكرهون بعضهم بعضاً . غير أن ماتعودوه من رؤية بعضهم بعضاً كل يوم ومن تناول الغداء والعشاء معاً على مائدة واحدة ، قد أوجد بينهم رابطة من أقوى الروابط : انهم في أول الامر لم يحتفل بعضهم بعضاً إلا بحكم الضرورة . ثم أصبحوا بمضي الزمن يحتاجون بعضهم إلى بعض ! إن كلاً منهم سيفديه أنه لن يرى الوجوه والاشارات والذقون والشوارب والصلعات والحركات الغريبة التي ألف أن يراها . إن كل واحد منهم سيשמع بالحنين الى ما يميز به رفاقه من طرق في الحياة وأساليب في الطعام والكلام ... هذا أكثر من فراق ، هذا تفتت !

١٦٦

لاحظ رويان أنهم لم يرافقوه الى منزله الجديد ، فأرسل يستدعيهم . ولكن

لم يجيء منهم أحد ، فامتلاً صاحبنا حزناً لغيابهم ... في الاسبوع الاولى حتى
لقد شعر بأن أسرته تهجره . وحاول أن يتذكر هل تراه جرحهم بعمل من
أعماله أو قول من أقواله ، فلم يتذكر شيئاً .

١٦٧

— تحدثت الى الرجل ، وجدت حقاً أن عنده تصورات جنونية : ولكنني
أعتقد ، رغم كوني غير إخصائي في الامراض العقلية ، أن شفاؤه ممكن . وهل
تعرفين ماذا اكتشفت ؟ لقد اكتشفت أمراً شائعاً ...

قالت دونا فرناندا دون أن تجيب عن سؤال الدكتور فالون :

— تعتقد أن شفاؤه ممكن .

إن الدكتور فالون نائب ، نائب وطبيب معاً . وهو رجل أعزب ،
منقف ، لكنه فاتر ربيبي ، وإذا كان صديقاً للأسرة ، رجته دونا فرناندا أن
يفحص روبيان ، بعد سكنه في شارع البرنسيب بمدة قصيرة .

— نعم ، أعتقد أن شفاؤه ممكن ، شريطة أن يعالج علاجاً منتظماً قد
لا يكون لمرضه سوابق في أسرته . يجب أن يفحصه طبيب إخصائي . ولكن
ألا تريدان أن تعرفي الأمر الشائن الذي اكتشفته ؟

— ماذا اكتشفت ؟

قال وهو يبتسم :

— هنالك شخص تعرفينه قد يكون هو السبب في مرضه .

— من ؟

— دونا صوفيا .

— كيف ؟

— لقد كلمني عنها في حماسة ، وقال إنها أجمل امرأة في العالم ، وأنه منحها
لقب دوقه لأنه لم يستطع أن يجعلها امباطورة ، ولكن يجب أن لا يدفع الى
آخر الطريق ، إذ قد يفعل مافعله عمه : يطلق امرأته ليتزوج بدونا صوفيا

واستنتجت من ذلك أنه قد أحب صديقتك حباً قوياً ، وشجعتني على هذا الاعتقاد ما ألاحظه من انه يرفع الكفة حين يتحدث عنها : صوفيا جاءت ، صوفيا ذهبت . صوفيا قالت ... لا تؤاخذيني ، إنني أعتقد أن هذا الحب كان متبادلاً ...

- آه ... لا ...

- دونا فرناندا ، أعتقد أنها قد أحب كل منها الآخر . هل يدهشك هذا ؟ أنا لا أعرفها كثيراً . وأظن أنك أنت أيضاً لم تعرفها منذ مدة طويلة ولا صاحبها مصاحبة صحيحة . إنه من الجائز جداً أن يكونا قد تحابا ، وأن يكون هذا الهوى العنيف قد ... ولنفرض أنها طردته من بيتها ... صحيح أن به جنون العظمة ... ولكن هذا لا ينبغي ذلك ...

كانت دونا فرناندا لا تنظر إليه ، لانزعاجها من هذا الافتراض الذي يفترضه . إنها تريد أن تتحاشى الجدال في هذا الامر ، لاعتقادها بأنه موضوع لا يليق الحوض فيه . وظلت إلى ذلك ترى أن هذه الشبهة مستحيلة ولا يمكن أن تصدق وليس لها أساس تقوم عليه . لن تستطيع يوماً أن تصدق وجود هذا الحب الذي يشتمل على خيانة زوجية ، ولو أكد صدقه روبيان نفسه . اليس روبيان مجنوناً ؟ وهبه عقلاً غير مجنون ، فلن تصدقه .. لالن تصدق . إنها لا تستطيع أن تتصور أن صوفيا قد أحببت هذا الرجل ، لالسيه هو ، بل لسيها هي ، لأنها امرأة قديمة عفيفة . يستحيل . وأرادت أن تنبري للدفاع عن صوفيا . لكنها أحجبت مرة أخرى عن الحوض في هذا الموضوع ، رغم ما بينها وبين الدكتور مالون من صداقة صحيحة ، واكتفت بأن كررت السؤال الذي سبق أن طرحته :

- أنت تقدر اذن أن شفاهه بمكن ؟

- أعتقد أن شفاهه بمكن . لكن فحصي لا يكفي . أنت تعلمين أن الافضل

في مثل هذه الامور أن يؤخذ رأي طبيب إخصائي .

وبينما كان الدكتور فالون في الشارع بعد برهة من الزمن ، ابتسم ... ابتسم لاشمئزاز دونا فرناندا من تصديق ظنونه . وقال لنفسه : « من المحقق

مع ذلك أن شيئاً قد حدث . إن الرجل وسيم وإن لم يكن كآدونيس جمالاً ، وإن في عينه لبريقاً . هذا محقق . ، وتذكر بعض عبارات روبيان ، وتذكر حركاته ، وتذكر ما كان في صوته من زنين حنون ، فكانت شكوكه تزداد وضوحاً . « هذا أكيد ... » . وأصبح يرى أن من المستحيل أن لا يكونا قد أحب كل منهما الآخر . وبدا له أن رفض دونا فرناندا هذه الفكرة يدل حقاً على سذاجة كبيرة ! اللهم إلا أن يكون ذلك الرفض منها وسيلةً لتغيير مجرى الحديث ولتحاشي الخوض في هذا الموضوع . نعم ، هو كذلك ...

وفي تلك اللحظة تسمر النائب في مكانه فجأة على غير ارادة منه . لقد مرت بخاطره شبهة جديدة . لكنه لم يلبث أن هزّ رأسه بعد بضع لحظات على نحو قاطع ، كمن يكذب نفسه ويحكم على ظنه بأنه سخيف . واستأنف سيره . غير أن الشكوك عنيدة ، وهي حين تكون راسخة في قلب أحد الناس رسوخاً وطيداً ، لا تكترث بهزات الرأس ولا بإشارات النفي ! « من يدري ؟ لعل دونا فرناندا قد أغرمت هي أيضاً بعينه الجميلتين . ألا يمكن أن يكون اهتمامها به استمراراً لحبها ؟ الخ ... » .

وكلما أوغل الدكتور فالون في طرح هذه الأسئلة ، كان شيء ما في قرارة نفسه يجيب عنها بنعم . وقاوم ظنونه بعض المقاومة : إنه صديق الأسرة ، وهو يحترم دونا فرناندا ، ويعرف فضيلتها . ولكنه ظل يقدر أن من الجائز مع ذلك أن تكون قد نشأت في نفسها عاطفة مكنونة خفية ... من يدري ؟ لعل غرام صاحبها بالرجل هو الذي حرض هذه العاطفة في نفسها ! وهذا كثيراً ما يقع ! إن عدوى الجذام تفسد أظفر دم ، ورب جرثومة صغيرة تهدم أقوى جسم !

وهكذا كانت رغبته في المقاومة تتراجع شيئاً بعد شيء أمام شعوره بان الأمر جائز ، فراجع ، فمحقق . لقد سمع عن بعض أعمال البر والاحسان التي تقوم بها دونا فرناندا . ولكن الحالة التي نحن بصدها الآن حالة خاصة جداً .

إن هذا الاهتمام الشديد الذي تبديه دونا فرناندا برجل لا هو بالذي يختلف إلى المنزل كثيراً ولا هو بالصديق القديم ، ولا هو بالقرب ، ولا هو بالزميل لزوجها ؛ رجل لا تربطه بحياتها رابطة من علاقات ولا رابطة من أسرة ، حتى ولا رابطة من عادة أو ألفة . إن هذا الاهتمام الشديد الذي تبديه بهذا الرجل لا يمكن أن يكون مرده إلا إلى باعث خفي ، هو الحب من غير ريب . إن حب الاطلاع قد يجز امرأة شريفة إلى الخطيئة ، وقد يجرها من ثم إلى عذاب الضير . لعل دونا فرناندا قد عرفت كيف تتوقف حين وجب التوقف ، لكن بقي لها مع ذلك شيء من العطف على المريض . من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟

١٦٨

من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟ ذلك ما ردهه الدكتور فالون في صباح الغد . إن الليل لم يبدد شكوكه . من ذا الذي يعرف في هذه اللحظة ؟ نعم ، إن هذا لا يمكن أن يكون عطفاً مريضاً فحسب . وأخذ الدكتور فالون يؤول هاملت دون أن يعرف شكسيو :

« إن بين السماء والأرض ياهوراس أشياء كثيرة لا تستطيع أن يتخيلها نزوعك الباطل إلى حب البشر وخيرهم . » إن شيئاً من الحب قد مازج هذا كله . ولاحظوا أن الدكتور فالون لا ينتقد شيئاً ولا يأسف لشيء . ألم أقل لكم إنه ذو عقل ربيبي ؟ ولكنه لم يفض إلى أحد بشيء من شكوكه ، لأنه كان رجلاً منكمماً أيضاً .

١٦٩

لما عاد كارلوس ماريا وزوجته إلى ريو ، انقطع اهتمام دونا فرناندا بروبيان إلى حين . لقد استقبلتها في المرفأ ، وأقلتها إلى تيجوكا ، حيث كان أحد أصدقاء كارلوس ماريا قد استأجر بيتاً وأعدّه ، عملاً بما أوصاه به صديقه . ولم تذهب صوفيا إلى المرفأ ، وإنما اكتفت بإرسال مراكبتها تنتظرهما على رصيف

فارو كس . غير أن دونا فرناندا كانت قد أخذت عربتها ، فأقلت بها جميع المستقبلين ومنهم باليا . وبعد الظهر ذهبت صوفيا تزور القادمين . كانت دونا فرناندا لا تتمالك عن شدة الفرح . إن رسائل ماريا بنديكتا قد صورت ما يشعران به من سعادة ، غير أنها في أول الأمر لم تلاحظ في حركات الزوجين ولا في عينيها ما يؤيد ذلك . فكل ما يظهر عليها هو أنها راضيان . وقد أجشمت ماريا بنديكتا بالبكاء حين قبلت صديقتها ، وكذلك فعلت دونا فرناندا ، وتعانقت المرأتان كما تتعانق الأختان . وفي الغد سألت دونا فرناندا صديقتها هل هما سعيدان ، فلما أجابتها بنعم تناولت يديها وحدقت إليها طويلاً دون أن تجد ما تقوله ، ثم لم تستطع إلا أن تكرر سؤالها :

– أنتما إذن سعيدان ؟

فأجابت ماريا بنديكتا :

– نعم .

– لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من ارتياح لهذا الجواب :

لا لأن عذاب الضمير كان يمكن أن يقلقني كثيراً لو لم تحققي السعادة التي رجوت أن أوفرها لك ، لا هذا فحسب ، بل أيضاً لأن رؤية سعادة الآخرين تبعث في النفس كثيراً من السرور . هل يجبك كما أحبك في أول يوم ؟

– أعتقد أنه يجبني أكثر مما أحبني في أول يوم ، لأنني أنا أعبد عباداً .

لم تفهم دونا فرناندا معنى هذه الكلمات الأخيرة فهماً واضحاً . « أعتقد

أنه يجبني أكثر مما أحبني في أول يوم ، لأنني أنا أعبد عباداً . » الحق أن النتيجة لا يبدو أن لها صلة بمقدماتها . ولكن ينبغي هنا أن نشرح هاملت مرة أخرى فنقول : « إن بين السماء والأرض ياهوراس أموراً كثيرة لا يتصورها تفكيرك المنطقي الباطل » . وأخذت ماريا بنديكتا تحدث صديقتها عن رحلتها وتسرد لها مشاعرها وذكرياتها بأدق التفاصيل . وإذا انضم إليها زوجها أثناء ذلك ، أخذت تلجأ إليه في كثير من الأحيان لئلا يفسد ثغرات ذاكرتها ، فتسأله :

– كيف كان هذا يا كارلوس ماريا ؟

فكان كارلوس ماريا يروي ، ويشرح ، ويصحح ، ولكن من غير أي اهتمام ، بل وبشيء من الملل والضجر . وقد أدرك أن ماريا بنديكتا أشركت صديقتها في جميع أسرار سعادتها ، فكان لا يستطيع أن يخفي استياءه من ذلك . ما حاجتها إلى ذكر أنها كانت سعيدة معه ، مادام الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك ؟ وفيه تذيع بين الناس ملاطفاته وكلماته العاطفية الرقيقة وسائر النعم والآلاء التي أسبغها عليها في جلال كجلال إله رحيم ؟

إن عودتها إلى ريو دي جانيرو لم تكن إلا نزولاً عند رغبتها . لقد أرادت ماريا بنديكتا أن تعود إلى ريو دي جانيرو لتلد ، وقد رضى زوجها لارادتها على مضض ، ولكنه رضى .. لماذا على مضض ؟ ذلك ما يصعب شرحه كما يصعب فهمه . لقد كانت لكارلوس ماريا آراء شخصية غريبة في الأمومة ، آراء مدفونة في قرارة نفسه لم يفض بها يوماً إلى أحد . كان يرى أن الطبيعة لم تكن على شيء من الحشمة حين جعلت الحمل أمراً يعرفه جميع الناس وتراه جميع الأنظار ويحتل مكانة خطيرة حتى أنه ليسهوه الجسم ويذكر بأمور ليس فيها شيء من الاقتسام .. ومن أجل ذلك كان يرغب في العزلة والتخفي والغياب . كان في الأشهر الأولى يتمنى لو يعيش في منزل منعزل قائم على رابية عالية موحد الأبواب لا يطرقة زائر ، تنزل منه امرأته ذات يوم حاملة طفلها بين ذراعيها وفي عينيها سطوع فرح إلهي !

لكنه لم يقترح على زوجته شيئاً من ذلك ، إذ لو فعل لاضطر أن يناقش ، وهو امرؤ لا يجب المناقشة ، ويؤثر أن يرضخ على أن يناقش . وطبيعي أن ماريا بنديكتا كانت تهزها مشاعر تختلف عن هذه المشاعر كل الاختلاف . لقد كانت تعد نفسها مستودعاً إلهياً سرياً يعيش فيه إله هو ابن إله آخر . وكان حملها مصحوباً بأوجاع وانزعاجات تخفيها عن زوجها ما وسعها الاخفاء ، ولكن ذلك كان لا يزيد على أن يسبغ على الكائن الجديد الذي سيولد شيئاً أعظم . وما

دام احتمال الآلام شرطاً لحيء هذا الكائن الجديد الى العالم ، فلقد كانت ماريا
بنديكتا تحتلها في اذعان ، ولعلها كانت تستقبلها في فرح ... أنها تخضع للقوانين
« الطبيعة ، راضية ... وكانت تردد جواب مريم الناصرية صامته : « أنا خادمة
الرب . فلتكن مشبته . »

١٧٠

قالت ماريا بنديكتا لزوجها حين أصبحا منفردين :

- ما بك ؟

- أنا ؟ لا شيء . لماذا ؟

- كان يبدو عليك الضجر ؟

- لا ... لم أكن ضجراً .

- بل كنت ضجراً .

فابتسم كارلوس دون أن يجيب . إن ماريا بنديكتا تعرف حق المعرفة هذه
الابتسامة الصفراء الخاصة التي كانت ترسم على شفثيه في بعض الاحيان ، تلك
الابتسامة التي لانفهم كنهها ولا تعبر عن حنان ولا عن ملامة . فلم تلح ، بل
خرجت وهي تعض على شفثيا .

فلما صارت في غرفتها لم تستطع بعض الوقت أن تفكر في شيء آخر غير
تلك الابتسامة الغامضة الحرساء التي تدل دلالة واضحة على انزعاج لا بد أن
تكون هي سببه . وأخذت تستعرض كل الحديث الذي جرى ، وجميع الحركات
التي صدرت عنها ، فلم تعثر على شيء يمكن أن يكون سبب هذا الفتور وهذا
الموقف الغريب من كارلوس ماريا . أتراها أسرفت في الإفشاء بذات نفسها ؟ لأنها
في لحظات السرور تحب أن تفتح قلبها للأصدقاء والغرباء على السواء . وكارلوس
ماريا يشجب هذه العادة ، ويرى أن إظهار العادة الصبيبة على هذا النحو أمر
عامي مبتذل . وتذكرت ماريا بنديكتا أنها لما كانت في باريز ، وسط الجالية
البرازيلية ، شعرت غير مرة باستياء زوجها من إفاضتها في الكلام ، وحاولت

أيامئذ أن تمسك عن الحديث . ولكن أليس شأنها مع دونا فرناندا شأناً آخر؟ أليست دونا فرناندا أصل سعادتها كليهما ؟ لذلك استبعدت ماريا بنديكتا هذا الافتراض ، وبجئت عن افتراض آخر . فلما عجزت عن إيجاد فرض آخر عادت إلى الأول ، وانتهت على عادتها إلى الاقرار بأن زوجها على حق ؛ فهما تكن الصداقة التي بينها وبين دونا فرناندا حميمة ، ومهما يكن شكرانها لها قوياً ، فما كان ينبغي لها أن تطلعها على جميع تفاصيل حياتها ؛ لقد كان ذلك منها خفة وطيشاً ...

ووافتها غنيانات قطعت جبل تأملاتها . إن « الطبيعة » تذكرها في الوقت المناسب بأن هناك سرّاً كبيراً - سر بقاء النوع - هو أخطر شأناً وأشدّ بحاجة من جميع انزعاجات زوجها . وخضعت لهذه الضرورة . لكنها مضت إلى زوجها بعد بضعة دقائق ، فأحاطت عنقه بذراعها اليمنى . كان زوجها جالساً يقرأ مجلة انجليزية ، فتناول يدها المتدلية على صدره وأتم قراءة الصفحة التي كان يقرأها . سألته ماريا بنديكتا حين رآته يطوي المجلة :

- هل تسأحني ؟ لن أترثر بعد اليوم هذه الثثرة كلها .

فتناول كارلوس ماريا كلتا يديها ، وأشار برأسه إشارة تأييد وهو يتسم ، فكان شعاعاً من أشعة الشمس سرى فيها ، فأخذت تسطع جذلاً وغبطة ، حتى لكان ابنها كان وهو في رحمة يشاركها هذا الفرح ويبارك أباه !

١٧١

- عظيم ! على هذه الصورة لما كنت أحب أراك .

كذلك صاح صوت من جهة الشرفة .

فابتعدت ماريا بنديكتا عن زوجها بسرعة . إن واحداً من الأبواب الثلاثة التي تصل الصالون بالشرفة كان مفتوحاً ، ومن ذلك الباب لما وصل الصوت . إنه روبيان يفاجئها مبتسم الوجه . وهما يريانه أول مرة بعد عودتها . ولم ينهض كارلوس ماريا ، بل رمقه بنظرة رضية سائلة . لكن وجه روبيان ذا

الشاربين الطويلين الدقيقين ظل يتسم منقلا بصره بينها ، وهو يردد :
- عظيم ! على هذه الصورة لما كنت أحب أن أراكما !
ودخل روبيان ومدّ إليها يده فصافحاه في غير حرارة ، وراح بوجهه إلى
ماريا بنديكتا الكثير من عبارات المديح في حماسة : إنها فاتنة ولأن زوجها ممتاز .
ولاحظ أن اسمها واحد ، ماريا ، فقال إن ذلك يدل على أن اقترانها مكتوب
منذ الأزل . وختم خطابه بقوله إن الوزارة قد سقطت .

فلم يتالك كارلوس ماريا أن سألته :

- الوزارة سقطت ؟

فأجابه روبيان :

- لا حديث للمدينة غير هذا .

ثم أردف يقول وهو يجلس على أحد المقاعد مسنداً كلتا يديه إلى العصا التي
كانت إلى ذلك الحين تحت ذراعه :

- أحسب أنني سأستغني عن استئذانكما بالجلوس ، مادمتما لا تدعواني إليه .
نعم ، لقد قدمت الوزارة استقالتها . سأعين وزارة أخرى . وسأشرك فيها باليا ،
صديقنا باليا ، قريك باليا ، وأنت أيضاً يا عزيزي ستكون وزيراً إذا أحببت .
أريد أن يكون مجلس الوزراء ممتازاً ، أن لا يضم إلا أصدقاء ، على أن يكونوا
جميعاً نشيطين مستعدين للتضحية بحياتهم في سبيلي . سأستدعي مورفي ، وبيو ،
وكاماشو ، وروهر ، والماجور سيكويرا . هل تتذكرين الماجور يا سيدتي ؟
ستكون له وزارة الحربية فيما أظن . لا أعرف رجلاً أقدر منه في الشؤون
العسكرية .

كانت ماريا بنديكتا تذرع الصالون جيئة وذهاباً وقد استبد بها الضجر والملل ،
أملت أن يرسلها زوجها في طلب شيء من الأشياء . وأشار إليها زوجها بحركة من
رأسه أن تذهب ، وكانت لا تتمنى أكثر من ذلك ، فاعتذرت من الزائر وخرجت .
واستمر روبيان يكيل لها المديح بعد خروجها : إنها لملك حقاً . ثم لم يلبث
أن استدرك ضاحكاً : بل هناك ملاكان ، هناك ملاكان في هذا البيت ! بارك

الله فيها ! ومدت إليه كارلوس ماريا يده كمن يستأذنه بالانصراف .

- سيدي العزيز ...

- هل أستطيع أن أضحك الى الوزارة ؟

فلما لم يفز بجواب ، أوّل الصمت بأنه قبول ، ووعد صاحبه بأن يسند إليه وزارة مرموقة . « ستكون وزارة الدفاع للهاجور . ووزارة العدل لكاماشو . ألا تعرفها ؟ هما رجلان عظيمان ، وربما كان كاماشو أعظم من الهاجور أيضاً . » واتجه كارلوس ماريا نحو الباب ، فتبعه روبيان بسير في طريق الخروج من غير أن يشعر . لكنه لم يخرج بسرعة . وها هو ذا يتوقف على الشرفة قبل أن ينزل الدرج ، ويأخذ بالتحدث الى كارلوس ماريا في عدد من الشؤون الحربية . قال إنه قد ردت ألمانيا الى الألمان ، فتلك بادرة حسنة وسياسة حكيمة ، وإنه أعطى البندقية للايطاليين ، لأنه لم يعد في حاجة الى أرض جديدة . وهناك الأقاليم الرنيانية ، لكنه لا يتعجل الآن استرجاعها .

قال كارلوس ماريا ملحماً وهو يمد له يده :

- سيدي العزيز ...

وظفر أخيراً بمجمله على الاستئذان بالانصراف ، واغلق الباب . ولفظ روبيان بضع كلمات اخرى ثم هبط الدرج . وكانت ماريا بنديكتا تراقبها من قرارة البيت ، فلما نزل روبيان ، لحقت بزوجها ، وامسكت يده لتتوى روبيان وهو يجتاز الحديقة . كان يتكلم اثناء سيره ، وكان لا يسير قدماً ، بل يتوقف من حين الى حين ، ويجرك يديه بعض الاشارات ، ويتناول غصناً من الاغصان اليابسة ، وينظر فيرى حوله ألف شيء من الاشياء يفوق جمالها جمال ربة البيت وتفوق بتسيّزها زوجها ! وكان الزوجان ينظران الى بطلنا من وراء النافذة ، فلما ندت عنه حركة غليظة ، لم تستطيع ماريا بنديكتا أن تمنع نفسها من الضحك ، أما كارلوس ماريا فلم يفقد شيئاً من هدوئه المهود .

١٧٢

قالت ماريا بنديكتا :

- هل تعرف من سيصبح وزيراً ماذا صح ان الوزارة قد سقطت ؟

فنظر اليها كارلوس ماريا نظرة السائل ، فأجابته :

- نسيبك تيوفيلو . لقد ذكرت لي نازان انه يأمل هذا ، وانه لنما بقي

في ريودي جانيرو هذا العام لهذا الغرض . فأغلب الظن ان الكلام على سقوط

الوزارة دار منذ ذلك الحين ، او لعله تنبأ بسقوطها ... من الجائز جداً أن

يكون قد تنبأ بسقوط الوزارة ... لا أذكر الآن ما الذي قالته لي على وجه

الدقة ، ولكن يبدو على كل حال أنه سيشتك في الوزارة الجديدة .

- جائز .

- انظر ، هل رأيت ؟ روبيان يذهب من هناك . هو ذا يقف وينظر

الى الفضاء . لعله ينتظر عربة . لقد كانت له عربة في الماضي . لا ... هو ذا

يستأنف المشي ...

١٧٣

هتف كارلوس ماريا يقول :

- اذن سيصبح تيوفيلو وزيراً ؟

ثم لم يلبث ان اردف :

- احسب انه سيكون وزيراً ممتازاً . وانا ، هل تودين ان اصبح وزيراً ؟

- اذا اردت انت ذلك فكيف استطيع أن امنعك ؟

- هل معنى هذا انني لن اصبح وزيراً لو كان الأمر منوطاً بك وحدك ؟

تساءلت ماريا بينها وبين نفسها وهي تفحص وجه زوجها : « بماذا

اجيب ؟ »

لكنه صاح يقول وهو يضحك :

- اعترفي بأنك تعبديني ولو لم اكن إلا حاجب وزير .

قالت المرأة الشابة وهي تطوق عنقه بذراعيها :
- طبعاً .

فوضع كارلوس ماريبا يده على شعرها في رفق ، ودمدم يقول في كثير
من الجد :

- لقد أصبح برنادوت ملكاً وأصبح بونابارات امبراطوراً ، فهل تودين
لو تكوزين أم ملك السويد ؟

فلم تفهم ماريبا بنديكتا معنى هذا السؤال فهماً واضحاً ، ولا شرحه لها
زوجها ، ولو فعل لكان مضطراً أن يقول لها إنها ربما كانت تحمل في أحرامها
برنادوتاً جديداً . لكن هذا الافتراض يشتمل على رغبة ، وهذه الرغبة تساوي
اعتراضاً بأنه دون ذلك . وداعب كارلوس ماريبا شعر امرأته مرة أخرى بحركة
تكاد تقول : « لقد اخترت يا ماريبا أحسن نصيب ... » . وكانت ماريبا
بنديكتا فهمت معنى هذه الحركة ، فها هي ذي تهتف قائلة :

- نعم ، صحيح !

وابتسم زوجها وتناول المجلة الانجليزية من جديد . وكانت ماريبا بنديكتا
مسندة ظهرها إلى المقعد فراحت تقرأ أصابعها بشعره بخفة وصمت ، ما وسعها
ذلك ، حتى لا ترعجه . وعاد يقرأ ويقرأ ويقرأ ... فكفت المرأة الشابة عن
مداعبته شيئاً فشيئاً ، نازعة أصابعها واحدة بعد أخرى ، ثم تركت الصالون ،
بينما كان كارلوس ماريبا يتابع قراءة مقال بقلم سير تشارلز ليتل ، الحائز على
شهادة الماجستير في الفلسفة ، عن تمثال نرجس الشهير الموجود في متحف
نابولي .

١٧٤

حين هبط المساء ، وذهب روبيان الى منزل دونافرناندا ، قال له الخادم
إنه لا يستطيع الصعود ، فسيدته مريضة وسيده يلازمها ، وهما في أغلب
الظن ينتظران الطبيب . فلم يظهر صاحبنا أي عناد ، بل عاد أدراجه .

والواقع هو عكس ما زعمه الخادم . فان تيوفيلو هو الذي كان مريضاً ، وإن دونا فرناندا هي التي كانت تلازمه . لكن الخادم لا يستطيع إلا أن ينفذ الأمر الذي صدر اليه . وهناك خادم آخر أحسّ بأن السيد هو المريض لأنه رآه عند عودته إلى البيت منهوك القوى .

وكانت تصل إلى الخدم من غرفة سيديها ، التي تقع فوقهم تماماً ، أصوات تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، ويتخللها الصمت في كثير من الأحيان . وهذه خادمة صغيرة السن تصعد على رؤوس الأصابع إلى فوق ، وتعود قائلة إنها سمعت مولاها يئن . لاشك أن دونا فرناندا كانت في ذروة الضيق ! ولم يكن ثمة تحت آذان تنصت إلى أيسر صوت فحسب ، بل همسات ووشوشات... وراح الخدم يخمنون ... ولاحظوا أن سيديهم لا يطلبان شيئاً ، لا ماءً ولا دواء ، حتى ولا حساء ! وكانت المائدة قد أعدت ، وكان خادم الطعام قد ارتدى ثيابه ، وكان الطباخ يحترق زهداً وقلقاً في آن واحد ، فغداء اليوم من أطيب ما أعد في حياته من أطباق .

ما الذي جرى ؟ كان تيوفيلو لا يزال منهوك القوى كما كان عند وصوله . إنه جالس على إحدى الأرائك متعرياً من ملابسه زائغ البصر ، مبهم النظر . ودونا فرناندا جالسة إلى جانبه ، بمسكة بيده ، تتوسل إليه ان يهديه روعه ، مؤكدة له أن الأمر كله لا يستحق أن يجعله على هذه الحالة التي هو عليها . وهي تميل لترى وجه زوجها ، وتشده نحوها ، وتدعوه أن يضع رأسه على كتفها ... والنائب يقول لها متمتماً :

— دعيني ، دعيني ...

— الأمر لا يستحق هذا كله ياتيوفيلو ؟ أهذا كله من أجل وزارة ؟ لماذا ؟ ما فائدة وظيفة تدوم وقتاً قصيراً وتسبب المتاعب وتجلب الالاهانات وتوجب القيام بأعمال السخرة ؟ البست الحياة الهادئة خيراً من مثل هذه المركز الف مرة ؟ أما أن هناك ظلاماً قد وقع ، فنعم ، وإنني لأعتقد أنك تستحق أن تكون وزيراً ، ولكن أهذه خسارة كبيرة إلى هذا الحد ؟ هلمّ يا عزيزي ، هديء

روحك ... هيا بنا إلى الغداء !

وكان تيوفيلو يعرض على شفقيه وهو يشد أحد جانبي لحيته . إنه لم يسمع شيئاً مما قالته امرأته ؛ لم يسمع شيئاً من ناصحتها ولا من تعزيباتها . إنه لا يتذكر الآن إلا الأحاديث التي دارت البارحة وصبيحة هذا النهار . لا يتذكر إلا الترتيبات السياسية التي اقترحت ، وإلا الأسماء التي ذكرت - أسماء من رفضوا وأسماء من قبلوا . ما من ترتيب من هذه الترتيبات قد ضم اسمه ، رغم أنه كلم كثيراً من الأشخاص على المعنى الحقيقي للموقف الراهن . لقد أصغى إليه بعضهم في اهتمام ، وأصغى إليه بعضهم الآخر في ملل . وفي ذات مرة وقعت عليه عينا الشخص الذي يؤلف الوزارة كأنها تسأله ، لكن ذلك كان سريعاً ، وكان توهماً ! إن تيوفيلو يعيش الآن بجياله ذلك الاضطراب كله ، وتلك الجلبة كلها ، فيرى أولئك الذي كانوا يلاحظونه بطرف العين ، وأولئك الذين كانوا يتسمون ، وأولئك الذين كان وجههم كوجهه ... لقد أصبح في آخر الأمر لا يفتح فمه بكلمة واحدة . إن الآمال الأخيرة التي كانت مازال تسطع في عينيه قد ذابت كذوبان الثلج تحت أشعة الشمس . لقد سمع أسماء الوزراء واضطر أن يثني عليهم جميعاً ! ولكنه كان في حاجة إلى إرادة جبارة حتى يستطيع أن يقول بضع كلمات ! وكان يخشى أن يلاحظ انهيار قواه ، أو أن تلاحظ لوعته ، غير أن جميع الجهود التي بذلها من أجل أن يخفيها ، مازادتها الا ظهوراً . لقد كان لونه شاحباً ، وكانت أصابعه ترتجف ! ...

١٧٥

كررت دوناً فرناندا تقول :

- هلم إلى العشاء .

فصرب تيوفيلو ركبته براحة يده ونهض ، وأخذ ينطق بكلمات حانقة غير موصولة وهو يسير في طول الغرفة وعرضها ويضرب الأرض بقدمه ويجرك يديه بإشارات تهديد ووعيد . وأسقط في يد دوناً فرناندا أمام هذه الموجة الجديدة

من الحق ، فأصبحت أمنيته أن لا تطول . ولم تطل موجة الحق ، فان تيوفيلو لم يلبث أن تهالك على أحد المقاعد وهو يهز رأسه ، وهو مرة أخرى في انهيار عميق . فأخذت دونا فرناندا كرسيّاً وجلست إلى جانب زوجها .

- أنت على حق يا تيوفيلو ، ولكن يجب أن تكون رجلاً . إنك شاب ، وإنك قوي ، والمستقبل كله أمامك ، بل إن مستقبلاً عظيماً ينتظرك ! من يدري .. لعل دخولك في الوزارة اليوم أن يجلب لك ضرراً فيما بعد . لسوف تدخل في وزارة أخرى . عسى أن يكره المرء شيئاً وهو خير له .
تمم يقول وهو ينظر إليها :

- كل ذلك نفاق ، ومؤامرات . إني لأعرف هؤلاء الاوغاد جميعاً . لو قصصت عليك كل شيء ، كل شيء ... ولكن ما فائدة ذلك ؟ الأفضل أن أنسى ..

ثم أردف يقول بعد بضع لحظات :

- ليس حرمانني من كرسي حقير في الوزارة هو الذي يزعجني . ليس لكراسي الوزارة من قيمة البتة . إن اي انسان يستطيع بقليل من العمل ومن الموهبة أن يسخر بكراسي الوزارة ، وأن يبرهن على أنه فوق ذلك . ولكن الذي يؤلمني هو أن معظم هؤلاء الاشخاص لا تطاول أعناقهم ركبتي ! هذا أمر أعرفه حق المعرفة ، وهم أيضاً يعرفونه . يالللتمارين القذرين ! أين يمكن أن يجدوا من الاخلاص والامانة والحماسة في النضال مثل الذي يجدونه عندي ؟ من ذا الذي كافح في الصحافة منلما كافحت أيام الابعاد ؟ انهم يعتذرون قائلين إن مجالس الوزراء تأتي من سان كرسوفون مشكاة جاهزة (١) ... ليتني أكلم الامبراطور !

- تيوفيلو .

- لو قابلت الامبراطور لقلت له : « مولاي ، صاحب الجلالة ، انك

(١) قصر الامبراطور (المترجم)

نجهل كل شيء عن المؤامرات التي تم وراء الكواليس ، ومن سياسة التواطؤ وتبادل المنافع هذه التي يتبعونها . انك نود يا صاحب الجلالة أن يكون خيار الناس هم الذين يعملون في مجالسك ، ولكن التافهين يصلون وحدهم الى هذه المجالس ، فلا قيمة للجدارة والكفاءة البتة .

ذلك ما سأقوله له في يوم من الأيام ، بل ربما قلته له غداً .

وصمت تيوفيلو ، ثم نهض بعد برهة ومضى إلى غرفة مكتبه التي تجاور هذه الغرفة . وصحبه زوجته . كان الظلام قد خيم ، فأشعل تيوفيلو المصباح ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد أسدل الأسي على عينه غلالة . إن هناك أربعة رفوف تملؤها كتب وتقارير وميزانيات وكشوف عن « الخزانة » . وهناك أيضاً منضدة مرتبة كل الترتيب ، وثلاث خزائن عالية تضم مخطوطات وبيانات ومذكرات وحسابات وسجلات ، منظمة معنونة : اعتمادات استثنائية ، اعتمادات اضافية ، اعتمادات عسكرية ، اعتمادات بحرية ، قرض ١٨٦٨ ، السكك الحديدية ، الدين الداخلي ، فترة ٦١ - ٦٢ ، ٦٢ - ٦٣ ، ٦٣ - ٦٤ ، الخ . وتيوفيلو لما كان يعمل هناك صباح مساء ، هنالك كان يكتب ، ويجسب ، ويجمع عناصر خطبه وتقاريره ، لأنه كان عضواً في ثلاث لجان برلمانية ، يعمل في سبيل نفسه بوجه عام ، ويعمل أيضاً في سبيل زملائه الستة . وكان زملاؤه هؤلاء لا يزيدون على أن يسمعوا ويوقعوا ، بل ان واحداً منهم كان يوقع حتى دون أن يسمع ، وذلك حين تكون التقارير طويلة ، فهو يقول :

— لقد أصبحت يا عزيزي أستاذاً في المادة ، وهذا يكفي . هات القلم .

إن كل ما في البيت يشهد بالاجتهاد والعناية والعمل . العمل الدائب الدقيق الحصب . حتى انك لترى جرائد الاسبوع معلقة في الحائط ، لا تنزل عنه إلا لتصف وتجد بعد ذلك في مجلدات يضم كل منها أعداد ستة أشهر ، من أجل أن تكون وثائق يرجع إليها . وكانت خطب النائب مطبوعة مغلقة تحتل هي ايضاً رفاً بكامله . ولست ترى في مقابل ذلك لوحة ولا تمثالاً ولا زينةً . لا شيء

للتسلية والتمتع ، بل كل شيء جاف دقيق ينصل بشؤون الادارة وما اليها ...

سأل تيوفيو امرأته بعد أن ألقى على ما حوله نظرة حزينة :

- فما فائدة هذا كله اذن ؟ فيم نفعتي تلك الساعات الطويلة المتعبة التي قضيتها هنا والتي كانت في بعض الأحيان تمتد الليل كله حتى مطلع الفجر . لا يستطيع أحد أن يدعي أن هذا المكتب يدل على الفراغ والبطالة . إنه يدل على العمل ، أليس كذلك ؟ أنت شاهدة على أنني أعمل ! ولكن ما فائدة هذا العمل كله ؟

دمدمت زوجته تقول :

- سرّ عن نفسك بالعمل .

لكنه أجاب في حدة :

- يا لها من تسرية جميلة ! لا .. لا .. انتهى ... لا أريد بعد اليوم أن أعرف شيئاً من هذا كله . انظري ... إن جميع الناس في المجلس يستشيرونني ، حتى الوزراء . أؤكد لك أنه ما من أحد يجهد أني أعنى بشؤون الدولة أسد العناية . من أجل أي مكافأة ؟ من أجل أن آتي إلى هنا في شهر أيار لأصفق لهؤلاء السادة !

قالت له امرأته في رفق :

- لا تصفق لأحد . هل تريد أن تسرني ؟ هلمّ بنا نساfer في شهر آذار أو نيسان لقضاء سنة بأوروبا ! وفي شهر أيار ، من المكان الذي نكون فيه ، من فارصوفيا مثلاً ، تكتب إلى المجلس طالباً إجازة .

ثم أضافت وهي تبسم وتمسك وجه زوجها بيديها :

- بي رغبة قوية في زيارة فارصوفيا . وافقني . يجب أن تجييني حتى أستطيع أن أكتب إلى ريو جراندي في هذا اليوم نفسه ، لأن باخرة البريد تقلع غداً . اتفقنا . أنت موافق على أن نساfer إلى فارصوفيا أليس كذلك ؟

- دعيك من هذا المزاح يا نانا ، فما هذا أوان المزاح .

- لكنني أتكلم جادة لا مازحة . وقد أردت منذ مدة طويلة أن أقترح

عليك القيام برحلة عسى أن أغير أفكارك وأن أنسبك هذه القرايطس الجهنمية .
كفى يا تيوفيلو ! لقد أصبح انتزاعك من بين أوراقك لحظة للقيام بزيارة أو
نزهة شبه مستحيل . وأصبحت لا تتكلم ، وأصبح أولادنا لا يرون أباهم ، لأنه
لا يجوز الدخول عليك أثناء عملك . أنت في حاجة إلى شيء من الراحة . إنني
أطلب إليك سنةً من هدوء . أطلب هذا جادة لا مازحة . فلنسافر إلى أوروبا
في شهر آذار !

فتمت يقول :

— مستحيل .

— لماذا ؟

والواقع ان ذلك كان مستحيلاً . فلأن تطلب إليه اجتثاث احشائه اهون
عليه من السفر . ان السياسة تعلق عنده على كل شيء . صحيح ان في البلاد
الأخرى سياسة ايضاً . ولكن ما شأنه هو بذلك ؟ ان تيوفيلو لا يعرف شيئاً
بما يجري في الخارج ، ان معارفه تقتصر على مشكلة المال الذي تدين به البرازيل
للندن ، وان علاقاته تقتصر على عدد من رجال الاقتصاد . غير ان تيوفيلو لم
ينس ان يشكر لامرأته نيتها . وقال لها :

— أنت طيبة

إن شعوراً غامضاً بالامل قد رد الى صوت النائب ما فقدته خلال هذه الازمة
النفسية من رفق ولطف . ان منظر هذه الاوراق الكثيرة يحضه هو نفسه على
استرداد شجاعته . انه ينظر الى هذه الكومة من الدراسات كما ينظر المزارع الى
حقل فله وبذره . سوف تثبت البذور وشيكا ، سوف ينال العمل مكافأته :
سوف تثمر الشجر عاجلا او آجلا . ذلك ما قالته له زوجته بكلام ادق واوضح ،
ولكن صاحبنا لم يدرك هذا الامكان الا في هذه اللحظة . وتذكر نوبات الغضب
والاستياء واليأس التي عاناها منذ قليل ، وتذكر الشكاوى التي صدرت عنه ،
فاستحي من نفسه ... وأراد ان يضحك من ذلك كله ، لكن ضحكته لم تنطلق
صادقة . وفي اثناء العشاء واحتساء القهوة تحدث الى اولاده الذين سمح لهم في
هذا المساء بأن يناموا متأخرين ، وقال نونو الذي كان تلميذاً في الكلية ، وسمع

- بتغيير الوزارة ، قال لابه انه يريد أن يكون وزيراً فعبس تيوفيلو وقال له :
- يا بني اختر ماتشاء إلا أن تكون وزيراً .
 - يقولون جميعاً ان الوزارة جميلة بابابا . ويقولون ان الوزير يتجول في مركبة جميلة ووراءه جندي يحرسه .
 - سأعطيك عربة .
 - وانت بابابا ، هل كنت وزيراً في يوم من الايام .
 - فحاول تيوفيلو ان يبتسم ، ونظر الى امرأته . فانتهزت امرأته الفرصة لترسل اولادها الى النوم .
 - قال الاب وهو يقبل رأس نونو :
 - نعم نعم ، كنت وزيراً ، لكنني اصبحت لا اريد ان اكون وزيراً .
 - الوزارة مزعجة جدا ، متعبة كثيرا . اما انت فستكون كاهناً .
 - مامعنى كاهن ؟
 - اجابت الام :
 - معنى كاهن هو ان تذهب الى سريرك يانونو .

١٧٦

- في الغداة ، اثناء الغداء ، تلقى تيوفيلو رسالة . ان جندياً معاوناً هو الذي جاء بالرسالة .
- جندي معاون ؟
 - نعم ياسيدي ، وهو يقول انه يحمل الرسالة من رئيس مجلس الوزراء .
 - ففض تيوفيلو الرسالة بيد مرتعشة . ما عساها تكون ؟ لقد رأى في الجرائد قائمة الوزراء الجدد : فالوزارة كاملة ، ولم يكن اسم من الأسماء موضوع أخذ ورد . ما عساها تكون إذن ؟ وكانت دونا فرناندا أمام زوجها تحاول أن تحزر مضمون الرسالة من تعبير وجهه . فرأت وجه تيوفيلو بشرق ورأت شفثيه تنفرجان عن ابتسامه رضى ، أو عن ابتسامه أمل في أقل تقدير .

أمر تيوفيلو الخادم :

- قل له أن ينتظر .

ومضى إلى مكتبه ثم رجع بعد بضع دقائق مع الجواب . وعاد يجلس إلى المائدة صامتاً ، ريثما يوصل الخادم الرسالة إلى الجندي المعاون . وإذا كان في هذه المدة متنبهاً فقد سمع وقع حوافر الحصان يعدو في الشارع . وشعر النائب عندئذ بارتياح يغزو قلبه .

قال :

- لقرني .

فقرأت دون فرناندا رسالة رئيس مجلس الوزراء . إنه يرجو من تيوفيلو أن يجيء إليه في الساعة الثانية بعد الظهر لحديث .

- أهي الوزارة إذن ؟

فأسرع زوجها يقول لها :

- الوزارة كاملة ، والوزراء سُموا وانتهى الأمر .

وكان تيوفيلو لا يعني كلمة واحدة بما يقول ، لأنه تصور على عكس ذلك أن كرسيا من كراسي الوزارة قد سُغر في آخر لحظة ، فأصبح يجب ملؤه فوراً . قال :

- لا بد أنه اجتماع سياسي ، املهم إلا أن يكون رئيس مجلس الوزراء

يريد أن يكلمني في أمر الموازنة أو أن يعهد إليّ بأعداد تقرير من التقارير .

لم يقل هذا إلا تضليلاً لزوجته . لكنه لم يلبث أن أدرك أن التخمينات التي قالها لزوجته قد تكون صحيحة ، فاستبد به اليأس مرة أخرى . وبعد

ثلاث دقائق تدفقت في نفسه موجة جديدة من الأمل . موجة من الأمل؟ بل

أوقيانوس ...

١٧٧

انتظرت دونا فرناندا عودة زوجها والقلق يلتهمها التهاماً : كأنها هي التي ستنال منصب الوزارة ، وكان منصب الوزارة هذا سيملؤها فرحاً خالصاً من

كل تعب ، يربثاً من كل هم .. والحق أنه كان يكفيها أن يرضى زوجها حتى تسير جميع الأمور على مايرام . وعاد تيوفيلو في الساعة الخامسة والنصف ، وكانت يكفي أن يراه المرء حتى يدرك أنه راض . وهرعت إليه زوجته تسأله :

— ماذا ؟

— مسكينة أنت يانانان . ها نحن أولاء مشرفون على انتقال . لقد طلب إلي الماركيز ، في كثير من الاحاح ، أن أقبل منصب حاكم من الدرجة الاولى . فهو بعد أن عجز عن إشراكي في مجلس الوزراء على ما كان يتوقع ، يود بل يريد اشراكي في المسئولية السياسية والادارية التي تضطلع بها الحكومة ، فطلب مني تولي هذا المنصب . وهو من جهة أخرى يأمل أن أتولى وظائف رئيس الأغلبية في المجلس النيابي ، لأنه لا يستطيع بأي حال أن يستغني عما أتمتع به من سمعة وتأثير (هذه كلماته نفسها) فما رأيك ؟

أجاب دونا فرناندا :

— أن ننتقل .

— هل ترين أنني كنت أستطيع الرفض ؟

— لا .

— مستحيل ، أليس كذلك ؟ إن المرء لا يستطيع أن يرفض تقديم خدمة من هذا النوع لحكومة صديقة . والا كان الافضل أن يعتزل السياسة . وقد كان الماركيز لطيفاً في محادثتي غاية اللطف . كنت أعرف أنه رجل ممتاز ، ولكن لا تستطيعين أن تتصورى كم كان محبباً وكم كان مرحباً . وهو يريد أيضاً ان احضر اجتماعاً يضم عدداً من الوزراء والاصدقاء .. عدداً صغيراً جداً .. ستة فقط .. وأسراً إلي ببرنامج حكومته ..

— متى نسافر ؟

— لا أدري . يجب أن أراه مرة أخرى في مساء غد . لقد عينت الساعة

الثامنة موعداً للاجتماع .. ولكن ، ألا ترين أنني احسنت صنعاً بقبول المنصب ؟

- طبعاً .

- نعم ، إذ لو رفضت للاموني ، وكان من حقهم أن يلوموني . إن أول شيء يفقده الانسان حين يعمل في السياسة هو حريته . وفي وسعك أن تبقي هنا إذا شئت . ستبدأ دورة المجلس النيابي بعد خمسة اشهر او أربعة ، وهي تكاد لا تعطيني الوقت الكافي للامام بالوضع هنالك .

١٧٨

قبلت دونا فرناندا هذا العرض . فهو يسمح للاولاد بأن لا تنقطع دراستهم ، ولن يطول الفراق اكثر من أربعة أشهر على كل حال . وسافر تيوفيلو بعد بضعة أيام . ومضى في صبيحة سفره الى مكتبه يودعه . ألقى نظرة اخيرة على كتبه وتقاريره وميزانياته ومخطوطاته ، على كل ذلك الجزء من حياته الذي لم يكن له معنى ولا شأن إلا عنده . وربط بعض الاوراق والاضرابات حتى لا تضيع ، كما أوصى امرأته بألف توصية وتوصية في هذا الامر . لقد وقف ساكناً في وسط الغرفة يجيل طرفه برفوفها فيتترك فوق كل رف قطعة من قلبه . على هذه الصورة من الحزن العميق ودّع تيوفيلو هؤلاء الاصدقاء ، هذه المحفوظات الغالية . ان دونا فرناندا التي كانت الى جانبه لم تكن قد عاشت في هذا المكتب حقاً يوماً واحداً ، خلا هذه الدقائق العشر اثناء الوداع . أما تيوفيلو فقد انفق فيه شطراً من حياته .

- لا تقلق . سأعنى بجميع أشيائك ، وسأنقض عنها الغبار بنفسني كل يوم .

فقبلها تيوفيلو .. إن كل امرأة كان يمكن ان تخزنها هذه القبة حين تلاحظ أن زوجها يحب كتبه حباً شديداً حتى لكأنه يؤثرها عليها . لكن دونا فرناندا شعرت بسعادة ..

١٧٩

منذ يوم الازمة الوزارية ، لم يعد روبيان الى منزل دونا فرناندا . فهو لم يعلم إذن شيئاً لا عن المنصب الذي اسند الى تيوفيلو ولا عن سفره .

وكان يعيش بين كلبه وخادم واحد ، دون ان يعاني نوبات شديدة ، ولكن من دون أن يمر بفترات طويلة من الهدوء أيضاً . وكان الخادم يقوم بخدمته في غير نظام لكنه كان يقبل كل ما معيله به روبيان من أعطيات « بقاشيش » ، ويتلقى بالإضافة إلى ذلك لقب مركيز . وكان في سائر الوقت يتسلى ... فحين يبدو لسيدة أن يكلم الجدران ، يهرع يتجسس عليه ، فيشهد كل الحوار الذي يدور بينه وبينها - ذلك أن روبيان كان يجيب الجدران كما لو كانت تطرح عليها أسئلة . وفي المساء كان الخادم يمضي يثرثر مع أصدقائه من الجيران .

- كيف حال المجنون ؟

- خير حال . لقد طلب اليوم إلى كلبه أن يغني ، فنبح الكلب كثيراً ، فسُرَّ هو بذلك سروراً عظيماً ، كمن يشرب نبيذاً . مهرج كبير ! حين توافيه النوبة ، يصبح كرجل يحكم العالم حقاً ! حتى لقد قال لي أمس ، أثناء الغداء : « أيها المركيز ريموندو ، أريد منك أن ... » ، وبلغ كلامه من الاضطراب أنني لم أفهم شيئاً البتة . وفي نهاية الأمر أعطاني بضعة نقود !

- وأخذتها ؟

- ياله من سؤال !

وحين كان الهذيان يترك روبيان ، كان يعقب في بعض الأحيان كلامه العجيب حزن أخرس . وكانت حماه الباطنية تحاول عندئذ أن تمحو كل أثر من آثار حالته السابقة . كأنه رجل يبذل جهداً كبيراً مؤلماً ليخرج من الهوة التي تردى فيها ، يتسلق الجدران الوعرة ، مزقاً جلده ومحطماً أظافره ، من أجل أن يصل إلى أعلى فلا يسقط مرة ثانية في الهوة التي يوشك أن يضيع فيها إلى الأبد . وكان في هذه الحالة يمضي يزور بعض الأصدقاء : وكان بعض هؤلاء الأصدقاء جدداً وبعضهم قدامى مثل الملاجور وكاماشو .

إلا أن كاماشو قد أصبح منذ زمن أقل ثرثرة بما كان . وحتى السياسة أصبحت لا تقدم له مادة يصوغ منها خطبه التي عهدناها فيه . وأصبح إذا ظهر روبيان على بابه يتأفف ثم لا يلبث أن يكبح تأفقه . ولاحظ فيه روبيان

هذا التبدل ، فأخذ يخمن أسبابه : أترأه قد أساء إلى صديقه من دون أن ينتبه لذلك ، أم أنه قد أخذ يبعث في نفسه الضجر والسأم ؟ ومن أجل أن يغفر له صديقه تلك الاساءة - أو ذلك الضجر - كان يتكلم متبسماً متهلاً ، ولا يفتسي أن يصمت فترات طويلة ليسمع لصاحبه بأن يقول شيئاً . ولكن جهوده كلها كانت تذهب عبثاً . وعبثاً كان يعمد الى الكلام عن الماركيز بارانا الذي كانت صورته ماتزال معلقة بالحائط ، والى الاسادة بزاياه التي سمعها من كاماشو : الماركيز العظيم ... السياسي الحنك . فكانت صاحبه يؤيد كلامه بجرعات من رأسه ، ثم يستمر في الكتابة : فيقتح اضبارات ويستشير مؤلفين - لوبون ، كوليو داروشا - ويستشهد بنصوص ، ويشطب أسطراً ، ويرجو روبيان أن لا يؤاخذة ، لأن عليه أن يسلم مذكرة قانونية في اليوم نفسه . وكان يتوقف في بعض الأحيان ليضي الى المكتبة .

- تسمع

فيبتعد روبيان ليفسح له في المرور فيتناول كاماشو مجلداً يضم مجموعة من القوانين ويأخذ في تقليب صفحاته ، ويظل يقلبها على غير هدى ، في غير هدنة ولا توقف ، واثبأ من البداية الى النهاية ، ومنتهقراً الى خلف ، من دون أن يبحث عن شيء بعينه ، وانما همه الوحيد أن يحمل الزائر الثقيل على الهرب . ولكن الزائر الثقيل يبقى لذلك مدة أطول ، وينتهي الأمر بهما أن كلأا منها يأخذ يجتلس النظر الى صاحبه . ويعود كاماشو عندئذ الى مذكرته ، فيجلس جلسة مريحة ، ويميل الى اليسار ماوسعه الميل من أجل أن يقرأها (فمن اليسار كان يأتي النور) ، وبذلك يدبر الى روبيان ظهره .

قال له روبيان ذات يوم :

- هذه الحجرة مظلمة .

ولكنه لم يتلقى أي جواب ، فإلى هذا الحد كان المحامي يبدو منهمكاً في قراءة اضباراتة . قال روبيان لنفسه : « لعلي أزعجه حقاً » . وأخذ يراقب وجه كاماشو الرصين الموصد ، وأخذ يرصد طريقته في الإمساك بالقلم

- للاستمرار في كتابة مذكرته التي لا تنتهي .. وبعد عشرين دقيقة من صمت مطبق ،
 رآه يضع القلم ، وينهض صدره ، ويتمطى ويفرك عينيه . . فقال له في اهتمام :
 - تعبت ، أليس كذلك ؟
 فلم يزد كاماشو على أن اوماً برأسه أن نعم ، ثم استعد لاستئناف الكتابة .
 نهض حاجبنا منتهزاً هذه الهدنة القصيرة ليودعه .
 - سأعود حين تكون أقل انشغالاً .
 ومدّ يده إلى كاماشو ، فصافحه كاماشو بغير اكتراث ، وأسأف عمله .
 وهبط روبيان السلم ، وهو يشعر من برودة صاحبه الشهير بدهشة يمازجها الألم .
 ترى ماذا صنع له ؟

١٨٠

- ومن المصادفات أنه وقع بعد ذلك على الماجور سيكويرا . قال له :
 - كنت ذاهباً إليك . فهل أنت ذاهب أيضاً إلى بيتك ؟
 - نعم ، ولكننا لا نقطن الآن في المكان نفسه ، وإنا نسكن كاجديرا ،
 بشارع برنسيزا ..
 - سيان ، هلم بنا إلى هناك .
 وأحسن روبيان مرة أخرى بالدوار الرهيب يغزو عقله ، فشرع بمزيد من الحاجة
 إلى التثبيت بالواقع على أي من الصور . ومع ذلك كان من الاتزان والثقة في
 كلامه بحيث ظن الماجور أنه يملك عقله كاملاً ، فسأله :
 - هل تعرف ان عندي نبأ هاماً أزفه إليك ؟
 - قل ، أسرع .
 - لا ، لن أقول شيئاً قبل أن تصل !
 ووصلا إلى المنزل . إنه مؤلفة من طابقين . وفتحت لها تونيكال الباب .
 كانت ترتدي ثوباً جديداً ، وتحمل في أذنيها قرطين .
 قال الماجور وهو يمك ذقن ابنته بيده :

- أنعم النظر فيها .
فتراجعت تونيكاً وقد امتلأت خجلاً .
قال روبيان :

- أنعمت النظر ...
- إلا يدرك من يراها أنها على وشك الزواج .
- ها . تهافى كلها !

- نعم ، ستزوج . طبعاً لم تصل الى هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر !
لا أدري أين وجدت خطيباً يعبدها عبادة كسائر الخطيبين ... أنا شخصياً كنت
أعبد خطيبي عبادة تفوق الخيال . ستزوج . لقد اصطادت خطيباً . طبعاً لم
تصل الى هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر ! إنه رجل رصين ... أما
عمره فهو بين بين ! وهو يقضي جميع أمسياته هنا . وفي الصباح ، حين يمر أمام
البيت في طريقه الى مكتبه ، ينقر على النافذة فيما أظن ... إلا أن تكون
هي في انتظاره من قبل أن يمر . وأنا أتظاهر بأنني لا أرى شيئاً ...

وكانت تونيكاً توميء برأسها أن لا ... ولكن ابتسامتها كانت تقول نعم ...
مضطربة كل الاضطراب ! لقد أصبحت لا تتذكر أنها حملت بالزواج من روبيان ،
وأن روبيان كان أحد أحلامها الأخيرة ، بل كان حلمها الأخير ... ودخلوا الى
الصالون ، فمضت تونيكاً الى النافذة ثم عادت رافعة الرأس : إنها تمشي بلا هدف
واضح معين ، لكنها تمشي مشية تصالح والحياة .

كرر الماجور يقول :

- إنه رجل جيد ، شخص طيب ... تونيكاً ، هاتي صورة خطيبك ...
فجاءت تونيكاً بالصورة . إنها صورة شمسية لرجل متوسط العمر ، قصير الشعر ،
قليله ، ينظر الى الأمام نظرة مدهوشة ، نحيل الوجه ، دقيق العنق ، مزور
السترة في إحكام حتى أعلاها .

- ما رأيك ؟

- وسيم جداً .

وتناولت تونيكاً الصورة مرة أخرى ، وحدثت إليها بضع لحظات . لكنها لم تلبث أن حوّلت عنها بصرها وظلت جالسة في تعقل ، بينما طار خيالها على جناحين إلى لقاء رودريك . اسمه رودريك . إنه أقصر منها - وذلك ما لا يظهر في الصورة - وهو يعمل موظفاً في مكتب بوزارة الحربية . لقد ماتت زوجته تاركَةً له ابنين ، أحدهما جندي ، والثاني ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، مصاب بالسل مأبوس من شفائه .. ولكن ما قيمة هذا كله ؟ أليس رودريك هو « الخطيب » المنشود ؟ إن تونيكاً تركع كل مساء قبل النوم أمام صورة سيدتنا مريم العذراء ، سيدة الجبل ببلادنس ، تشكر لها نعمها وآلاءها وتسالها أن تسعدها . وهي تحلم منذ الآن في أن تنجب ولداً . وقد تسميه ألفارو !

١٨١

استمع روبيان الى خطاب طويل من الماجور . أغلب الظن أن الزواج سيتم بعد شهر ونصف . ان على الخطيب ان يفرغ أولاً من اعداد البيت ؛ ولما كان غير غني يعيش من راتبه وجده ، كان لابد له من اقتراض مبلغ من المال . صحيح انه احتفظ بيته القديم ، وانه لم يؤذ ميزانيته ، بشراء أثاث جديد غير أن هناك اشياء صغيرة لا يستغنى عنها على كل حال .. وخلاصة الامر انها سيرتبطان بروابط الزواج المقدسة بعد خمسة اسابيع او ستة .

وختم الماجور كلامه بقوله :

- وبذلك أتخلص انا ..

فقال روبيان محتجاً :

- ها .

لكن تونيكاً ضحكت . لقد تعودت أمازيح ابيها ، وكانت من الفرح بحيث لا يستطيع شيء ان يؤذي شعورها ، ولو أشار الماجور الى سنيها الاربعين ، لما تأذت من ذلك . هل جميع المخطربات في الخامسة عشرة من سنهن ؟ قال روبيان لتونيكاً :

– ستربن مدى حسرتة عليك فيما بعد !

فقال الماجور :

– كيف ؟ في وسعي ان اتزوج انا ايضاً !

ونض روبيان فجأة ، فمشى بضع خطوات . ولم يلاحظ الماجور تعبير وجهه ولا ادرك ان عقل ضيفه يهمّ ان يحتل ، وانه يشعر بذلك هو نفسه . ورجاه سيكويرا أن يجلس ، واخذ يحدّثه عن زواجه وعن معاركه الحربية . وحتى اذا وصل ، بعد الالف والدوران اللذين تتميز بهما احاديثه ، الى الكلام على معركة مونتي كازيروس ، كان نابوليون الثالث قد انتصب امامه . لقد لزم روبيان الصمت لحظة ، ثم هنا الماجور يبضع كلمات ، وذكر سولفيوينو وماجنتا ، ووعد سيكويرا بوسام ينعم به عليه . فنظر الاب وابنته كل منهما الى الآخر . ولم يلبث الماجور ان قال ان الجو ينذر بعاصفة . ولقد كانت السماء متلبدة حقاً ببعض الغيوم . أفليس من الخير ان ينصرف روبيان قبل ان يهطل المطر ؟ انه لم يصطحب مظلمته ، ومظلة الماجور عتيقة جداً ، وهي من جهة اخرى المظلة الوحيدة التي يملكها ..

قال روبيان في هدوء :

– ستأتي مركبتي لتقلني .

– لا .. لا .. لقد وقفت تنتظرك في كامبو . ألا ترين المركبة من

هنا يانونيكا ؟

فاومات تونيكاً إيماة مبهمة متوددة . إنها لا تريد ان تكذب ، ولكنها من جهة اخرى خائفة بعض الخوف ، تتسنى لو ينصرف روبيان . انه من المستحيل على المرء ان يرى كامبو دا أكلاماسون من هذا المنزل . على ان أباهما قد امسك بذراع روبيان واخذ يسير به نحو الباب .

– عد غداً أو بعد غد ، كما تشاء !

– ولكن لماذا لا استطيع ان انتظر هنا حتى تصل مركبتي . إن الامبراطورة

لا تريد ان تتعرض للمطر .

- الامبراطورة ذهبت .
- ما كان ينبغي لها ان تفعل . ما كان ينبغي لاجينا ان تذهب . أيها الجنرال .. لماذا يجب ان تبقى في رتبة ماجور ؟ أيها الجنرال ، لقد رأيت صورة صهرك . واريد ان اعطيك صورتي . خذها من قصر التويلري . ابن مركبتي ؟

- تنتظرك في كامبو

- استدعها الى هنا .

وكانت تونيكا واقفة عندئذ الى النافذة ، فاذا هي تلتفت لتعتدل :

- هذارودريك قد وصل .

وأخذت تنظر في الشارع وهي تميل وتبتسم ، بينما كان أبوها في داخل البيت يستمر في توجيه روبان نحو الباب في رفق وحزم معاً . وكان روبان يتوقف في بعض الاحيان ليقرع الماجور :

- أنا امبراطورك أيها الجنرال .

- أعرف ولكن تفضل يا صاحب الجلالة بمرافقتي ...

ووصلا الى الباب ، ففتحه سيكويرا في اللحظة التي ظهر فيها رودريك على عتبة المنزل . وتقدمت تونيكا لتستقبل خطيبها ، لكن أباه وروبان كان يسدان عليها الطريق . ورفع رودريك قبعته ، فظهرت شعراته القليلة البيضاء . مات على خديه بقعاً حمراء مبعثرة . لكن له ابتسامة عذبة متواضعة - متواضعة أكثر مما هي عذبة - وانه رغم العامية التي تظهر في حركاته كما تظهر في شخصه كله ، يبعث في النفس شعوراً بالارتياح . وليس في نظراته ذلك التعبير الزائف الذي يظهر في الصورة : وأغلب الظن أن مردد ذلك التعبير الزائف الى أنه أراد اتخاذ وضع خاص يظهر في الصورة بمظهر جميل ...

قال الماجور لروبان :

- هذا السيد هو صهري المقبل .

- ثم انجبه الى رودريك يسأله وهو يغمز بطرفه :
- ألم تر في كامبو مركبة مع حرس من الفرسان ؟
- أظن ياسيدي .
- فقال سيكويرا وهو يلتفت الى روبيان :
- هل صدقت ! لاتضيع الوقت . تنعطف بعد شارع سان لورنسو . ثم تسير قدماً الى كامبو . الى اللقاء . الى الغد .
- فنزل روبيان ثلاث درجات (وكانت خمساً) ، ووقف أمام القادم الجديد ، فحدق اليه بضع لحظات ، ثم قال له انه سعيد جداً بمعرفته وانه يتمنى أن يراه زوجاً سعيداً وأباً طيباً . ما اسمك ؟
- جوان جوزه رودريك .
- رودريك . سأبعث اليك بوسام صغير تزين به صدرك . هذه هديتي اليك لمناسبة زواجك . ذكرني بذلك ياسيكويرا .
- فأمسك سيكويرا ذراعه لينزله الدرجتين الأخيرتين ، وليضعه أخيراً في الشارع .
- قلت ان المركبة في كامبو ، اليس كذلك ؟
- نعم في كامبو .
- الى اللقاء .
- وفي الشارع نظر روبيان الى النوافذ واضعاً يده على قبعته ليحيي تونيكاً . لكن تونيكاً كانت في الصالون ، لأن رودريك قد دخله ، مشرقاً فاتناً كأول زهرة من أزهار الربيع .

١٨٢

سرعان مانسي روبيان الركبة وكنية الفرسان ، فنزل الى أدنى المدينة ، وبعد أن لف ودار كثيراً ، وجد نفسه في آخر الأمر يصعد شارع سانت جوزه . انه منذ مرّ أمام القصر الامبراطوري لم ينقطع عن القيام بحركات وإشارات متحدثاً الى شخص يتخيل أنه متأبط ذراعه : انها الامبراطورة نفسها .

ولكن أهى أوجينا أم هي صوفيا ؟ انها كلاهما أو أقل هي الثانية تحمل اسم الأولى ! وكان الناس يتوقفون في الشارع أو يهرعون من داخل المخازن الى الأبواب ليروه ، فبعضهم يضحك ، وبعضهم يظل غير مكثوث ، وبعضهم الآخر يجول بصره عنه أحياناً لرؤية المنظر المحزن ، منظر الجنون ! وكانت يتبع روبيان ليف من الصبية العبيد ، يتبعه بعضهم عن كذب فلا تفوتهم كلمة بما يقول . وسرعان ما انضم الى جمعهم الصغير صبية آخرون . وأثارهم مارأوا من فضول عام ، فأخذو يرددون هذه الصيحة بصوت واحد :

– المجنون ... المجنون .

وكان من شأن هذا الصباح طبعاً أن يثير انتباه الناس مزيداً من الإثارة : فهذه نوافذ تفتح في جميع طوابق المنازل ، وهؤلاء مستطلعون من الجنسين ومن جميع الأعمار يظهرون . ان بينهم مصوراً ، وبائع سجاد ، واشخاصاً آخرين ، والرؤوس جميعها يتراكم بعضها فوق بعض ، لتوى ولتتابع بنظرها هذا الرجل الذي يكلم الجدران بإشارات تفيض عظمة وفخامة .

ويقول الصبية صائحين :

– المجنون ... المجنون ...

وهذا واحد منهم ، هو أصغرهم جميعاً ، يتشبث بسروال واحد آخر أطول منه كثيراً ، ليستطيع متابعة الموكب الذي اقبل الآن على شارع آمودا . وظل روبيان لا يسمع شيئاً . لقد أحس بصيحات الجمهور مرة ، لكنه اعتقد انها هتافات فحيا الجمهور تحية كبيرة من قبيل الشكر . وكانت الصيحات تزداد بغير انقطاع . وسمع بين الاصوات على حين فجأة صوت امرأة تصيح بابنها من على باب أحد مخازن الفرش قائلة :

– ديولندو ، عد الى البيت يا ديولندو !

لكن ديولندو ، وهو الطفل الذي كان يتشبث بسروال ولد آخر أطول ، لم يستجب لنداء امه ، ولعله لم يسمع النداء أصلاً ، من شدة الضجة ، ومن شدة حماسه هو في الصباح بصوته النحيل .

– المجنون ... المجنون ...

– ديولندو !

وحاول ديولندو أن يجتبيء وراء الآخريين تحاشياً لنظرة أمه . لكن أمه ركضت نحو جمهرة الأطفال فانتزعت منها . حقاً إنه أصغر من أن يشترك في زحمة من هذا النوع !

– ماما ... دعيني أنظر !

– تنظر ، ماذا تنظر ، هيا سر .

وأدخلته إلى البيت وظلت على الباب تنظر إلى ماجيري في الشارع . وكان روبيان قد توقف ، فاستطاعت أن تراه من قرب ، وأن تسمع كلامه ، وأن تلاحظ اشاراته ، وأن ترقب طريقته في نفع أوداجه ، وفي نحية الناس من حوله .

قالت لاحدى جاراتها وهي تبسم :

– حقاً إن للمجانين أطواراً مضحكة في بعض الأحيان !

وظل الصبية يصرخون ويضحكون . واستأنف روبيان بعدئذ سيره يتبعه حرسه . وعند باب المخزن طلب ديولندو من أمه ، وقد رأى القافلة تتبعد ، ان تسمح له بالماضي مع القافلة ، او أن ترافقه إذا شاءت . فلما رأى أن لا أمل في ذلك ، استجمع قواه كلها ليصبح مرة أخيرة بصوت حاد :

– المجنون .

١٨٣

أخذت الجارة تضحك وضحكت الأم . واعترفت بان ابنها شيطان صغير ، وبأنه لا سبيل الى وقفه في مكان . يستحيل أن أغفل عنه لحظة واحدة . ما يكاد يسمع أيسر ضجة حتى يصير في الشارع . وذلك منذ كان صغيراً جداً . انه لم يكن قد اتم السنتين من عمره حين اوشك في هذا المكان نفسه أن تسحقه عربة . كان بينه وبين الموت شعرة . فلولا ان رجلاً كان يمر في الشارع ،

(رجلا حسن الهندام) فأمرع إلى انقاذه لمت في تلك الساعة نفسها . وفيما كانت الأم تقول لجارتها هذا الكلام كان زوجها يصل إلى الرصيف الثاني ثم يجتاز الشارع ، فيقطع الحديث بين المرأتين . كان متجهم الوجه ، فلم يكذب يسلم على الجارة ويدخل حتى لحقت به زوجته . ماذا جرى ؟ فروي لها حكاية الصيحات ، فقالت :

- وأيتهم ، لقد مروا من هنا .
- ألم تعرفي هذا الرجل ؟
- لا .

فكتف ذراعيه ، وظل صامتاً جامد النظر لحظة من الزمن . سأله زوجته من هذا الرجل ، فأجابها قائلاً :

- هو ذلك الذي أنقذ ديولندو من الموت .
- فارتعشت المرأة قائلة :

- أمتأكد أنك لم تخطيء ؟

- كل التأكد . لقد صادفته عدة مرات ، لكنه لم يكن على الحالة التي هو عليها الآن . مسكين . ماقولك في هؤلاء الصبية الذين يجرون وراءه ؟ ماذا ؟ أليس في هذا البلد شرطة ؟

ليس مرض روبيان هو ماغذب المرأة ، لا ولا الصيحات التي كانت تلاحقه ، وإنما عذبتها خاصة أن ابنها نفسه ، هو الابن الذي أنقذه الرجل يوماً من الموت ، قد شارك الآخرين في الصباح . لم يكن في وسع الولد أن يعرفه طبعاً ، ولا أن يعلم أنه مدين له بحياته . ولكن ذلك لا يمنعها من أن تشعر بقلق من هذه المصادفة المشؤومة ! ثم انتهت إلى اللقاء اللوم كله على نفسها ، لو راقبت طفلها أكثر من ذلك لما استطاع أن يخرج إلى الشارع وان ينضم إلى عصبة الصبية . وظلت قلقة ترتعش من حين إلى حين . وجذب الزوج ابنه إليه ، وطبع على رأسه قبليتين .

سأل زوجته .

- هل رأيت المشهد كله ؟

- نعم .

- وددت لو آخذه من ذراعه وأجبيء به إلى هنا ، لكنني استحييت ، فان هؤلاء الصبية السوء ما كانوا ليتورعوا عن اساءة معاملتي أنا أيضاً لو فعلت . وقد حولت وجهي عنه مخافة أن يعرفني . ! مسكين لاحظي انه كان كمن لا يسمع شيئاً ، وأنه كان يتابع سيره راضياً كل الرضى ! وأحسب أنه كان يضحك ... ألا ان فقدان العقل لأمر محزن !

وكانت المرأة لاتزال تفكر في اشتراك ابنها في هذه القصة كلها . لكنها لم تحدث زوجها عنها بكلمة واحدة ، ورجت جارتها أن لاتشير اليها . وفي الليل لم تستطع إنغماض جفنيها إلا في ساعة متأخرة : لقد استقر في ذهنها أن ابنها سيصبح بعد عدد كبير من السنين مجنوناً ، وأن عقابه سيكون هذا العقاب نفسه : تلاحقه عصبة من الصبية كهذه العصبة التي رافقت روبيان . وتصورت نفسها وهي في غمرة الاستياء تبصق في وجه السماء مجدفة !

١٨٤

بعد مشهد شارع آجودا بساعتين وصل روبيان إلى منزل دونا فرناندا . وكان الصبية الذين يلاحقونه قد تفرقوا شيئاً بعد شيء ، والفراغ الذي كان يخلفه تفرقهم لم يملأه صبية آخرون . ولم يبق منهم بعد قليل إلا ثلاثة ، وحدوا أصواتهم فقذفوه بآخر وداع حاد . وسار روبيان وحده . إن المارة يكادون لا يلاحظونه الآن ، لان إشاراته قلت كثيراً ، أو اختلفت كثيراً على كل حال . أصبح الآن لا يكلم الجدران ، أو قل لا يكلم الامبراطورة التي يصورها له خياله ، ولكنه ما يزال امبراطوراً . كان يسير ، ثم يتوقف على حين فجأة ، فيدمدم بكلام لا يفهم . وهو ما يزال غارقاً في أحلامه ، ملفعاً بذلك الضباب الذي يرى من خلاله كل شيء رؤبةً تختلف عن الواقع كل الاختلاف وتتفوق

عليه في جماها تفرقاً كبيراً . كل فانوس يستحيل في نظره الى حاجب ، وكل ركن من اركان الشارع يتخذ أمام عينيه صورة بساط رائع . إنه ذاهب الى قاعة العرش قدماً ، ليستقبل أحد السفراء ، لكن القصر واسع حقاً ، فلا بد له من اجتياز قاعات لا نهاية لها ، وأروقة ليس لها آخر . وهو يتقدم سائراً على سجادة بين صفين كبيرين قويين من حملة الحراب !

وكان معظم الناس الذين يتوقفون في الشارع أو ينحنون من النواخذ لرؤيته ينسون أفكارهم الحزينة أو المملة بضع لحظات ، ينسون مشاغلهم اليومية وأحقادهم وهمومهم - من دين أو مرض أو لوعة حب أو خيانة صديق . كانت كل مصيبة من مصائبهم الصغيرة تختفي على حين فجأة ، وهذا خير ما في الدنيا من ألوان العزاء ! غير أن لحظات النسيان هذه كانت سريعة كالبرق : فما إن يمض عنهم المجنون حتى يجدوا أنفسهم أمام الواقع مرة أخرى وجهاً لوجه ، وحتى تعود الشوارع شوارع ، لأن روبيان كان ينقل معه قصره المنيف ... وقد شعر اكثر من واحد منهم بعطف على هذا المجنون البائس ! وقارن بعضهم بين حظه وحظه فحمد الله على نصيبه : لئن كان يجد نصيبه مرأ ؛ إنه لسليم العقل ! كان الناس جميعاً يؤثرون خرائبهم الواقعية على القصر الذي يتصوره خيال بطلنا .

١٨٥

حجز روبيان في مستشفى للمجاذيب . لقد نسي باليا العهد الذي استطاعت صوفيا أن تنتزعه منه ، وصوفيا نفسها كانت لا تتذكر العهد الذي قطعه على نفسها لدونا فرناندا . ذلك أنها كليهما كانا لا يفكران إلا في بيتها الجديد (قصر خاص في بوتافوجو) الذي قطع بناؤه أشراطاً كبيرة ، ويريدان أن يدشناه في الشتاء ، حين يجتمع المجلسان - مجلس النواب ومجلس الشيوخ - وينزل الناس من مصيفهم في بتروبوليس . لكن الوعد نقذ أخيراً ، فدخل روبيان مستشفى من المستشفيات احتل فيه غرفة وصالة ، عملاً بتوصية الدكتور فالون وباليا .

ولم يظهر روبان أي نوع من أنواع المقاومة ، بل تبع صديقيه راضياً ودخل المنزل الجديد دخول من يعرفه كل المعرفة . وحين ودعه الدكتور فالون وبالبا ووعده بأن يجيئنا إليه قريباً ، دعاهما إلى استعراض عسكري في يوم السبت القادم .

سأله فالون :

- السبت ؟ طيب ...

وأردف روبان :

- السبت يوم مبارك . وتعال أنت أيضاً يادوق بالبا .

فقال بالبا وهو يخرج :

- سأجيء .

- اسمع . سأرسل إليك إحدى مركباتي ... مركبة متألثة جديدة ...

يجب أن تضع زوجتك جسمها الجميل في مكان لم يجرؤ أحد أن يجلس عليه من قبل . وسائدها تحمل ودمقس ، وعدتها فضة ، وعجلاتها من ذهب . أما الخيل فسليمة الحصان الذي كان عمي يمتطي صهوته يوم مارنيجو . إلى اللقاء يا دوق بالبا .

١٨٦

قال الدكتور فالون بينه وبين نفسه وهو يخرج : « أما أنا فالأمر عندي واضح . إن هذا الرجل كان عشيق زوجة هذا المحترم ، » .

١٨٧

لبت روبان في المستشفى . وعبثاً أراد كونكاس بوربا ، من أجل مرافقة سيده ، أن يدخل العربة التي تقله ، وأن يتبعها راكضاً . فان الخادم قبض عليه بعد غناء فتغلب عليه ، وأدخله المنزل . وهكذا تكرر الوضع الذي شهدته بارباسينا تكراراً تاماً دقيقاً . ولكن ألا تعرف ، يا سيدي العزيز ، أن الحياة لا تتألف علي وجه الاجمال إلا من أربعة أوضاع مختلفة أو خمسة ، وأن نزوات

الظروف هي التي تبدلها في أنظارنا وتكثرها ؟ وأياً كان الأمر ، فقد طلب روبان في كثير من الإلحاح أن يُرسل إليه الكلب . وأخذت دونا فرناندا تتهماً لتلبية رغبة المريض بعد أن نالت موافقة مدير المستشفى على ذلك . فقررت أن تكتب إلى صوفيا ، لكنها عازمت أمرها أخيراً وذهبت إلى فلاننجو بنفسها .

١٨٨

قالت صوفيا :

- سأذهب لآتي به ، المكان قريب من هنا كل القرب .
- فلنذهب كلانا . ذلك خير . ثم انني قد خطر ببالي شيء . هل الاستمرار في استئجار البيت مفيد حقاً ، مع ان المعالجة قد تطول ؟ أليس الافضل أن يفسخ العقد ويبيع الأثاث ويبقى ما يبقى بعد ذلك ؟
وذهبتا سيراً على الاقدام إلى فلاننجو ، شارع البرنسيب ، فلم يستغرق وصولهما الى البيت غير ثلاث دقائق أو أربع . كان ويموندو في الشارع ، لكنه حين رأى ناساً على الباب ، جاء يفتح . كان كل شيء داخل البيت مهجوراً كل المهجر ، فلا يلاحظ فيه حتى مظهر الركون والسكون اللذين بفضلها كانت الاشياء تحتفظ بجزء من الحياة التي كانت تسري في المنزل . ذلك ان الاهمال قد سبق ههنا المهجر .. والفوضى التي في الاثاث تعبر عن جنون الشخص الذي كان يسكن البيت وعمّا كان يمتليء به رأسه من دخان الافكار الهوج .
- هل كان غنياً كثيراً .

كذلك سألت دونا فرناندا ، فأجابتها صوفيا بقولها :

- كان على جانب كاف من الغنى حين وصوله من منياس . لكنني أظن أنه بذّر كل ما يملك . حذار ! ارفعي ثوبك ! لكأن الارض لم تكن منذ قرن !

ولم تكن الارض وحدها وسخة ، فان الأثاث كان مغطى بطبقة كثيفة من الغبار . ولكن الخادم لم يشعر بأي حاجة إلى ان يشرح أسباب هذا

الاهمال واكتفى بالنظر والاصغاء وهو يصفر بصوت خافت لحناً واثماً من ألحان رقصة البولكا . ولم تبد له صوفيا اي ملاحظة بشأن نظافة البيت ، فقد كان كل منهما ان تهرب من هذا المكان « المقرز » - ذلك هو النعت الذي نعتت به البيت بينها وبين نفسها - ولم تكن تريد إلا أن تحصل على الكلب غرض هذه الزيارة . ومع ذلك كانت لا تحب أن تظهر بمظهر من يتم بهذا الكلب ، ولا بأي شيء آخر . إن ما يشيع في هذا البيت كله من مظاهر العامية يبعث الاشمزاز في قلبها وفي فكرها جميعاً ، ولم تساعدها ذكرى المجنون أبداً على تخفيف شعورها بطول الوقت . وكانت في قرارة نفسها تحكم على رفيقتها بانها اماً خيالية واما متصنعة ! « هذا كله غباء ! » . كذلك كانت تقول بينها وبين نفسها ، دون أن تتغلى مع ذلك عن ابتسامة التأييد التي كانت تستقبل بها ملاحظات دونا فرناندا .

قالت دونا فرناندا للخادم :

- افتح النوافذ ، الجو هنا يمتليء برائحة العفونة .

فزادت صوفيا وهي تتنشق مشمزة :

- آه ... نعم ... إنه جو لا يطاق .

ورغم هذا النداء لم تقرر دونا فرناندا أن تمضي . فأن هذا البيت البائس ، مع انه لا يوقظ في نفسها أي ذكرى شخصية ، كان يبعث فيها انفعالاً قوياً عميقاً . ولم يكن هذا الانفعال الشائع الذي يخالط نفوس الناس عامة عند رؤية الاطلال ، ان هذا المنظر الحزين لم يكن عندها ذريعة للتفلسف ، فلا هو علمها أن الدهر قلب وان العالم حزين ، وانما ذكرها الشقاء الذي ألم بأنسان ، بانسان لاتعرفه كثيراً من جهة اخرى ، ولم يبيء لها اسباب التحدث اليه إلا لماماً . وظلت على هذه الحال مدة طويلة تنظر فيما حولها دون ان تفكر في شيء ومن دون ان تستنتج شيئاً او تنبئ ببنت كلمة حزينة ، ومنطوية على نفسها انطواء كاملاً . وكانت صوفياً من جهتها لاتجرو ان تفتح فاهها ، مخافة أن تزعج الشخصية المحترمة التي ترافقها ! وقد رفعتا كلتاها ذبل الثوب حتى لا يتجرر

على الغبار . ومن قبيل الاحتياط الاضافي ، كانت صوفيا لاتنقطع عن تحريك مروحتها ايضاً ، تحريكاً عنيفاً متأففاً كأنها توشك في كل لحظة أن تختنق ، حتى لقد سعلت عدة مرات .

سألت دونا فرناندا الخادم :

– والكاب ؟

– سجين الغرفة ، هناك في آخر البيت .

– اثني به .

وظهر كونكاس بوربا هزيلا مهتماً ، ووقف على باب الصالون . إنه لم ينبج حين رأى السيدتين ، رغم أنه لم يعرفهما ، ولم يزد على أن رمقها بنظرة منطفئة . وهمّ ان يدور ليعود الى داخل البيت ، لولا ان صفقت دونا فرناندا بأصابعها ، فوقف وهو يحرك ذيله .

سألت دونا فرناندا :

– ما اسمه ؟

فأجابها الخادم بصوت بطيء وهو يضحك :

– كونكاس بوربا . اسم شخص . تقدم يا كونكاس بوربا . السيدة

تناديك !

فكررت دونا فرناندا :

– تعال يا كونكاس بوربا . كونكاس بوربا !

فاستجاب كونكاس بوربا للنداء ، ولكن من غير ان يثب ، ومن غير أن يظهر اي علامة من علامات الفرح . ومالت دونا فرناندا عليه ، فحدثته عن سيده ، وسألته هل هو في شوق اليه ، وهل يريد ان يزوره . وكانت ، وهي مائلة على الكلب هذا الميل ، تسأل الخادم عن عنايته بالكلب .

– نعم ياسيدي . انه يأكل الآن . اما عند ذهاب سيده ، فقد كان

لايأكل ولا يشرب . حتى لقد ظننت انه اصيب بداء الكلب .

- والآن يأكل ؟

- يأكل ، ولكن قليلا .

- هل يبحث عن سيده ؟

أجاب ريموندو وهو يَحْتَنق ضحكاً :

- يبدو باحثاً عنه . وقد سجنته في الغرفة لأمنعه من الهرب . إنه الآن لا يبكي ، أما في أول الأمر فقد كان يبكي كثيراً حتى يوقظني في الليل ، وكان لا بد لي من أن أصرخ وأضرب الباب بعضاً حتى يسكت أخيراً .

كانت دونا فرناندا تحك رأس الكلب في رفق . تلك أول علامة عطف ينعم بها بعد أيام كثيرة من العزلة والهجران . وحين انقطعت دونا فرناندا عن دغدغته ونهضت ، كان كل منها ينظر إلى صاحبه في شدة وعمق ، حتى وكأنه لم يبق بينهما سرّ ... كان حب الآخرين ، وهو جوهر هذه السيدة النبيلة ، دونا فرناندا ، يمجو من نفسها أمام هذه التعاسة الغامضة المبتدلة ، كل نوع من أنواع الاحترام الإنساني ... وكان هذا الحب الشامل يغير الحيوانات ، ويفتنه ، ويسيرّه عند قدمي دونا فرناندا ... وكانت دونا فرناندا تشعر من جهتها ، وهي ترى الكلب ، بذلك الحزن الذي سيطر عليها حين علمت بجنون سيده ، كأنها هي لا تفرق كثيراً بينها . وماذا أحست أن وجودها يحسن إلى الحيوان ، رفضت أن تحرمه من هذا الغراء .

قالت صوفيا :

- سيسري إليك القمل .

فلم تسمعها دونا فرناندا ، بل ظلت تنظر إلى عيني الكلب الحزينتين الوديعتين ، إلى أن خفض الكلب رأسه واخذ يسير في الغرفة كلها باحثاً مفتشاً . لا شك أنه كان يتشمم رائحة سيده . وكان الباب المطاى على الشارع مفتوحاً . فلولا أن ريموندو أسرع يقبض عليه لهرب . وعندئذ تقدمت دونا فرناندا الخادم بعض المال وهي ترجوه أن يغسل الحيوان وان يأخذه إلى المستشفى .

وأوصته بالعناية به أشد العناية ، فيحمله بين ذراعيه أو يربطه بجبل على كل حال .
وتدخلت صوفيا في هذه اللحظة ، فأمرته بأن يجيء إليها أولاً .

١٨٩

وانصرفنا . ونظرت صوفيا يميناً ويسرة قبل أن تسير في الشارع ، لترى هل هناك احد . ومن حسن الحظ أن الشارع كان خالياً . وما إن تركت صوفيا هذه الاوساخ كلها أخيراً حتى استردت فجأة استعمال الكلام ، كما استردت في الوقت نفسه ذلك الفن المرهف الاخاذ ، فن فتنة الآخرين . فوضعت ذراعها تحت ذراع دونا فرناندا في رقة ولطف ، واخذت تحدثها عن روبيان وعن الشقاء الرهيب الذي أصابه ، لكنها حدثتها كذلك عن قصرها الخاص ببوتافوجو .. لماذا لا تذهبان معاً الى هناك لتريا سير الاعمال في بناء القصر ؟ لن يكون عليهما الا ان تسرعا في شرب الشاي ، ثم تذهبان الى هناك فوراً .

١٩٠

وفي نحو ذلك الوقت رزقت ماريا بنديكتا بنتاً ، وقد جاء هذا الحادث يعزي دونا فرناندا عما سببها لها موضوع روبيان من هم ، فهرعت الى تيجوكا وغمرت الأم بالقبل ، ومدت يدها اخيراً الى كارلوس ماريا .

صاح الاب الشاب وهو ينحني قائلاً :

— طافحة فيأضة على عهدي بك دائماً !

— وأنت فظ غليظ على عهدي بك دائماً .

ورفضت دونا فرناندا أن تترك ماريا بنديكتا ، رغم محارلات المقاومة التي التي قام بها ابن عمها ، ولازمته طوال مدة النقاهة ، وكانت من نبل النفس وحسن المودة ولطافة المرح أنها كانت لها بركة حقاً ! ان سعادة بهض الناس تنسيها شقاء بعضهم الآخر .. ولكن ما إن استردت الام الشابة عافيتها تماماً ، حتى شغلت دونا فرناندا بالمرريض من جديد .

« آمل أن أئيب إليه عقله في بحر ستة أشهر أو ثمانية . لقد تحسن كثيراً . »

ونقلت دونا فرناندا الى صوفيا هذا الجواب الذي قاله مدير مستشفى الامراض العقلية ، وعرضت عليها في الوقت نفسه أن تزور المريض إذا كانت لا ترى في ذلك ضيراً . فأجابتها صوفيا ببطاقة صغيرة كتبت عليها : « أي ضير يمكن ان يكون في ذلك ؟ إنني أنا التي لا أملك من الشجاعة ما يمكنني من احتمال زيارته . لقد كان على صلة بنا تبلى من القوة أنني لا ادري هل أطبق رؤية هذا الانسان البائس وهل أطبق التحدث اليه . وقد اطلعت كرسيتيانو على رسالتك فقال لي إنه شرع في تصفية أموال السيد روبيان ، وقد بقي له ثلاثة قوتات ومائتا كروزيرو ،

قالت دونا فرناندا لنفسها : « ستة أشهر أو ثمانية ... مدة تنقضي بسرعة ،

وتتابعت الاشهر ، وتتابع معها موكب كبير من الاحداث : سقوط الوزارة ، تشكيل وزارة جديدة في شهر آذار ، عودة زوج دونا فرناندا ، مناقشة القانون الخاص بأولاد العبيد ، موت خطيب تونيكاً قبل الموعد المقرر لزواجها بثلاثة أيام .. لقد ذرفت تونيكاً آخر ما في ماقيها دموع ، حباً بالمرحوم من جهة وجزناً على نفسها من جهة أخرى ، وقد أورثها هذا البكاء احمراراً في العينين اذا رآه الرائي ظن أنها مصابة بمرض في البصر .

وتبوفيلو الذي أولته الحكومة الجديدة من الثقة مثل ما أولته الحكومة السابقة ، قام بدور نشيط جداً في مناقشات الدورة البرلمانية . وصرح كاماشو في جريدته أن قانون أولاد العبيد يجعل الناس يفترون للحكومة عجزها وجرائمها .

وفي شهر تشرين الاول دشنت صوفيا (صالوناتنا) في بوتافوجو بحفلة راقصة كانت فاتحة الموسم . وكانت في هذه الحفلة فتاة باهرة ، تعرض ذراعها وكتفها بغير غرور مصطنع ، وتحمل جواهر جميلة بينها عقد روبيان ، وهو من أوائل الهدايا التي قدمها اليها (يجب أن نذكر هنا أن هذا النوع من الحلي لا يتغير زيه كثيراً) . وأعجب الناس جميعاً بما في سنيها الثلاثين من غضارة ونضارة وخفة ورشاقة . وتحدث بعض الناس (في حسرة) عن فضائلها الزوجية ، وعن الحب العميق الذي تكنه لزوجها .

١٩٣

في غداة الحفلة الراقصة استيقظت دونا فرناندا من نومها متأخرة . ومضت إلى مكتب زوجها فوجدته قد قرأ خمس جرائد أو ستة . من أول سطر إلى آخر سطر ، وكتب ست رسائل ، وأخذ الآن يرتب بعض الكتب في مكتبته .

قال لها :

- تلقيت هذه الرسالة منذ برهة .

فقرأت دونا فرناندا الرسالة . لأنها من مدير المستشفى يعلن فيها أن روبيان قد اختفى منذ ثلاثة أيام ، وأنه لم يمكن العثور عليه رغم الجهود التي بذلها رجال الشرطة وبذلها هو نفسه . وختم المدير رسالته بقوله : « وما يزيد دهشتي من هذا الهرب أن تحسن صحته كان كبيراً ، وأني كنت آمل أن أشفيه شفاء تاماً في غضون شهرين » .

ذعرت دونا فرناندا . وحملت زوجها على أن يعدها بان يكتب إلى رئيس الشرطة وإلى وزارة العدل راجياً أن تقوم السلطات المختصة بأقصى ما تملك من جهد في البحث عنه . ولم يكن تيوفيلو يعنيه أمر معالجة روبيان في قليل ولا كثير ، ولم يكن يعنيه أن يعثر عليه أو أن لا يعثر عليه ، ولكنه أراد أن

يسر امرأته التي يعرف شهامتها ، وربما كان ايضاً لا يتمتع من مراسلة أناس
يحتلون مثل هذه المناصب الرفيعة .

١٩٤

ولكن كيف عسام يعثرون على روبيان وكلبه وقد سافر الاثنان الى
بارباسينا ؟ لقد كتب روبيان الى باليا ، قبل ثمانية أيام ، راجياً منه أن يأتي
اليه . وذهب كرستيانو الى المستشفى ، فلاحظ ان شريكه القديم قد استرد
سلامة تفكيره ، فليس في حديثه أثر من جنون ... قال له روبيان :

— لقد مرت بي أزمة عقلية . أما الآن فقد انتهى الأمر ، انتهى تماماً .
فأرجوك أن ترحلني من هذا المكان . واحسب أن المدير لن يعارض في ذلك .
ولما كنت أحب ان أترك هدية صغيرة للأشخاص الذين خدموني وخدموا
كونكاس بوربا ايضاً ، فاني ارجوك ان تسلفني ثلاثمائة كروزيرو ؟
ففتح باليا محفظته بدون تردد ، ونقده المبلغ . وقال :

— سأحاول إخراجك من المستشفى . واحسب أنه يكون عليك ان تمكث
بضعة أيام أخرى (كان ذلك قبل الحفلة الراقصة بيوم) . ولكن لا تقلق :
ستخرج في بحر أسبوع .

وقبل ان ينصرف حدث مدير المستشفى في الأمر ، فقال له المدير ان حالة
المريض حسنة ، ولكن أضاف أن أسبوعاً واحداً قليل ، وان شفاؤه الكامل ،
الكامل ، يقتضي نحو شهرين . فاعترف باليا بانه رآه صحيح العقل ، ولكنه
لا يدعي أنه يعرف من الامر مثل الذي يعرفه محدثه ، وان المدير هو الذي
يحدد موعد خروج روبيان ، وانه لا ينبغي تعجل الامور على كل حال ، ولو
وجب الانتظار سبعة أشهر أو ثمانية .

١٩٥

ما إن وصل روبيان الى بارباسينا ، واخذ يصعد الشارع الذي يسمى الآن

شارع تيرادنتس حتى وقف مناديا :

- للغالب البطاطا !

كان قد نسي العبارة والقصة كانتها منذ زمن طويل . لكن المقاطع خرجت الآن من بين شفثيه من تلقاء نفسها حتى لكأنها ظلت في الهواء كاملة سليمة تنتظر من يستطيع ان يسبح عليها معنى . لقد اهتدى بطلنا الى العبارة ، ونطق بها في تعاضم شبيهة بذلك التعاضم الذي شهدناه عليه في اليوم المعهود ، يوم أن اتخذها رمزاً للحياة والحقيقة . والحق أنه أصبح لا يتذكر القصة بكاملها تذكراً واضحاً ، ومع ذلك فهو يهب للعبارة معنى غامضاً من معاني الصراع والنصر .

وصعد روبيان مع كلبه حتى آخر الشارع ، ومضى يقف أمام الكنيسة . لم يفتح له الباب أحد ، ولا رأى ظلاً لحادم من خدام الكنيسة . وكان كونكاس بوربا الذي لم يأكل شيئاً منذ ساعات طويلة ، خافض الرأس ، ملتصقاً بجذائ سيده ، ينتظر ... والتفت روبيان وأخذ يتأمل المنظر الممتد أمامه من أعلى الشارع . إنها هي ، هي نفسها ، بارباسينا ، مدينته القديمة التي رأى فيها النور . ومن أعماق أعماق حافظته أخذت الذكريات في تلك اللحظة تنبجس شيئاً فشيئاً : هنا الكنيسة ، وهناك السجن ، وهناك الصيدلية التي كان يشتري منها الأدوية لكونكاس بوربا الآخر ، إنها مدينته بنفسها ! لقد كان يعرف ذلك عند وصوله ، لكنه كلما طوّف بصره فيها ازدحمت ذكرياته في خاطره وتكاثرت... ولم ير أحداً البتة . وأحس لحظة أن أحداً يتجسس عليه وراء نافذة على اليسار ، أما ما عدا هذا فخلأ ...

قال روبيان لنفسه : « لعلهم لا يعرفون أنني وصلت » .

وومض برق على حين فجأة ، وسرعان ما تلبدت السماء بالغيوم . ثم ومض برق آخر ، أقرب من الأول ، وأعقب البرق رعد ! وأخذ المطر ينهمر ، وما انفك يغزر حتى انطلقت الصاعقة . لقد ترك روبيان الكنيسة منذ هطلت

أولى قطرات المطر ، وهو الآن يهبط الشارع الذي صعده ، وما يزال كلبه معه ، أميناً جائعاً . لقد طاش صواب الاثنين من قوة العاصفة ، فها هاتمان على وجهها بلا أمل في مأوى أو طعام . ان المطر يضربها بسياطه في غير رحمة . وهما عاجزان حتى عن الركض ، أما روبيان فلأنه يخشى أن ينزلق وأن يسقط ، وأما الكلب فلأنه لا يريد أن يضل عن سيده . وفي منتصف المنحدر تذكر روبيان الصيدلية فجأة فدار إلى وراء ، رغم الريح التي أصبحت الآن تسفع وجهه . لكنه ما إن قطع عشرين متراً حتى كانت هذه الفكرة قد غادرت رأسه : وداعاً للصيدلية ! وداعاً للمأوى ! أصبح روبيان لا يتذكر السبب الذي حمله على أن يقفل راجعاً ، وعاد يهبط الشارع من جديد مع كلبه ، سائراً على كعبيه . والكلب مع ذلك لا يفهم شيئاً ولا يهرب من رفيقه . وبلغ الاثنان حدّاً واحداً من التبلبل والاضطراب في مواجهة هذه العاصفة الحاقدة التي لا تنتهي .

١٩٧

وظلا هاتمان على هذا النحو زمناً طويلاً . كانت معدة روبيان تعول من الجوع ، ولكن من حسن الحظ أن الهذيان كان يعوض عن هذه الحاجة القوية بفضل الموائد المصفوفة في قصر التويلاري . غير أن كونكارس بوربا لا يستطيع أن يلجأ إلى حيلة من هذا النوع . . وظلا يصعدان ثم يهبطان ، ويهبطان ثم يصعدان ! ومن حين إلى حين كان روبيان يقعد على الارض ، فيتسلق الكلب على ركبتيه عسى أن ينسى الجوع بالنوم ، ولكنه ما يلبث أن ينزل لأنه يجد سروال سيده غارقاً في الماء من فرط البلل . وإذا عاود التسلق رغم ذلك ، فلأن هواء تلك الليلة - التي شارفت على الانتهاء - كان هواء متجلداً حقاً . وأمر روبيان يده على الحيوان وهو يتحتم له بعض الكلمات الغامضة .

وحين ظفر كونكارس بوربا بانغماض عينه أخيراً رغم كل شيء ، لم يلبث أن استيقظ ، لأن روبيان قام بذرع جنب الرابية جيئة وذهاباً من جديد . إن

الرياح تجلد المشردين في غير رحمة ، وتجعلها يرتعشان ويرتعدان . وأصبح روبيان يشي بطيئاً ، لأن التعب لا يسمح له الآن بأن يخطو خطوات كبيرة كما كان يفعل في أول الأمر ، حين أخذ المطر بالهطول . حتى لقد ازداد توقفه عن السير من حين إلى حين . أما الكلب الذي كاد يميتته الجوع والتعب ، فلم يكن يفهم معنى هذه الرحلة الغريبة ولا الدافع إليها . ونسي المكان الذي هو فيه ، وأصبح لا يسمع شيئاً البتة ، اللهم إلا ذلك الصوت الأعم ، صوت مولاه . إنه لا يرى النجوم التي تتلألأ الآن في سماء صافية انجابت عنها الغيوم . ولكن روبيان كان يراها . فحين رجع إلى النقطة التي بدأ منها ، أعني باب الكنيسة ، وقعد على الأرض ، رأى النجوم تسطع في قبة السماء . وكانت تبلغ من الجمال أنه حسبها ثريات في القاعة الكبرى . وأمر باطفاء الثريات . لكنه لم يستطع أن يتحقق من أن أوامره نفذت ، لأنه نام فوراً والكلب إلى جانبه . حتى إذا استيقظا في الصباح كانا يبلغان من التصاق كل منهما برفيقه أنه أصبح من الصعب على المرء أن يميز أحدهما عن الآخر .

١٩٨

- للغالب البطاطا .

كذلك صاح روبيان وهو يلقي نظرة على الشارع الذي طردت الشمس الساطعة كل أثر من آثار العاصفة فيه .

١٩٩

إن السيدة أنجليكا هي التي آوت روبيان وكنبه . لقد لمحتها حين مر امام بيتها . ففرقها روبيان وقبل المأوى والطعام اللذين قدمتها إليها .
- ولكن ما هذا كله يا صديقي ؟ كيف وصلت على هذه الحال ؟ ثيابك غارقة في الماء من البلل . انتظر ... سأعطيك سروال ابن أخي .
كان روبيان محمواً . فلم يأكل إلا قليلا ولم يشعر للطعام بلذة . وسأله

السيدة عندئذ ان يقص عليها حياته في العاصمة ، فأجابها بأن ذلك يقتضي وقتاً طويلاً ، وان الاجيال القادمة هي التي ستختم هذه القصة . واذاف يقول بحركة متعاطفة : « إن احفاد اخيك هم الذين سيروني في اوج مجدي » . وأخذ مع ذلك يروي لها خلاصة عن حياته . لكن الوقائع والافكار التي عرضها لها بلغت من الجنون ان السيدة انجليكا أصبحت بعد عشر دقائق لاتفهم منها شيئاً البتة . حتى أنها بعد خمس دقائق أخرى أخذت تحاف . فلما انقضت عشرون دقيقة ، استأذنت منه ، ودُهِبَت إلى إحدى الجارات تقول لها إن روبيان يبدو فهداً عقلاً . وعادت اليه تصحبها الجارة وأخوها . لكن هذا الاخ لم يمكث مدة طويلة ، بل خرج ينشر النبا بين الناس . فأخذ الناس يتوافدون مثنى مثنى ، بل ورباع رباع ، فما هي إلا ساعة حتى كان الشارع يغص بجمهور كبير جاء ليشاهد بطلنا . فكان روبيان يصبح في المستظلمين قائلاً :

— للغالب البطاطا . أنا هنا الامبراطور ! للغالب البطاطا !

وراح الناس في الشارع يرددون هذه الجملة الغامضة الناقصة ، ويقلبونها على وجوهها المختلفة ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يفهم ماتعنيه . ودخل إلى البيت بعض أعداء روبيان القدامى ، دخلوا بغير كلفة ، ليمتعوا أبصارهم برؤيته على هذه الحال . قالوا للسيدة أنجليكا إن البقاء معه في بيت واحد أمر خطر وإن من الواجب أن يرسل إلى السجن ، ريثما تأخذه السلطات إلى مكان آخر . وقال شخص أرحم منهم : بل لعل الافضل أن يستدعى الطبيب . فأجابه آخر :

— وماذا يفعل الطبيب ؟ الرجل مجنون .

— لعله هذيان الحمى لا أكثر ! ألا ترى ان يديه تحترقان احترافاً !
وشجع انجليكا حضور هذا العدد الكبير من الناس ، فجمست نبض المريض ، فوجدته محموماً . فاستدعت الطبيب ، وهو ذلك الطبيب نفسه الذي عالج المرحوم كونكاس بوربا . وقد عرفه روبيان ، وأجابه بأن الامر بسيط ، لقد أمر بجبس ملك بروسيا ، ولكنه لا يعرف بعد هل يأمر باطلاق الرصاص عليه

أو لا . ومن المحقق على كل حال أنه سيطالب بقرامة مالية ضخمة . سوف يطالب بخمسة مليارات من الفرنكات . وختم كلامه بقوله وهو يضحك :
- للغالب البطاطا .

٢٠٠

ومات روبيان بعد بضعة أيام .. لكنه مات وهو في أوج المجد ! إنه قبيل أن يشرف على النزح - ولم يدم نزعه الا قليلا - قد وضع على رأسه تاجاً . ولم يكن هذا التاج قبة عتيقة ولا أي شيء آخر يمكن أن يوهم بأنه تاج . لا ياسيدي . ان يدي روبيان قد تناولتا فراغاً ، ورفعتنا في الهواء فراغاً ، ووضعنا على جبينه فراغاً ... وكان هو الشخص الوحيد الذي رأى الشارة الامبراطورية ، المصنوعة من ذهب ثقيل ، والمرصعة بفصوص من ماس وأحجار كريمة أخرى . لكن الجهد الذي بذله عندئذ من أجل أن ينهض جذعه لم يطل كثيراً ، فما هي الا لحظة حتى سقط من جديد ، غير أن وجهه يسطع مجدداً .

ودمدم يقول :

- احفظوا تاجي . للغالب ...

ولاح في وجهه الجد .. لأن الموت جد ... وما هي الا دقيقتان من نزح ، وما هي الا انتفاضة رهيبه ، حتى كان روبيان قد وقّع صك تنازله عن العرش .

٢٠١

أريد أن أتحدث أيضاً عن نهاية كونكاس بوربا الذي مرض هو ايضاً ، وظل يئن حتى تقطعت أنفاسه ، ثم فرّ يبحث عن مولاه يائساً ، وعثروا عليه بعد ثلاثة أيام عند الصباح ميتاً في أحد الشوارع . ولكنني أقدر أيها القارئ أنك ، حين تراني أفرد لموت الكاب فصلاً خاصاً ، ستسألني هل يشير عنوان الكتاب الى

اسم الكلب أم إلى اسم سميه الراحل ، ولماذا يشير الى واحدٍ من الاميين دون
الآخر ؟ ذلك سؤال يثير أسئلة أخرى كثيرة ... والحديث في ذلك كله أمر
يطول . هلمّ أيها القارئ الكريم ... توصل بالشجاعة ، واذرف دموعك على
المتنين كاتيهما ، إذا شعرت بأنك قادر على ذرف الدموع ، أما إذا كنت لانهب
إلا ان تضحك ، فاضحك ! ألا تدري أن البكاء والضحك سيان ! إن صليب
الجنوب الذي لم تشأ صوفيا أن تتأمله كما سألها ذلك روبيان ، هو الآن من البعد
الشاسع بحيث لا يميز بين بكاء البشر وضحكهم !



